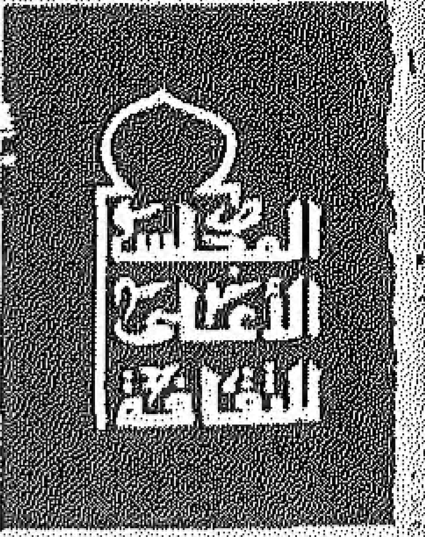
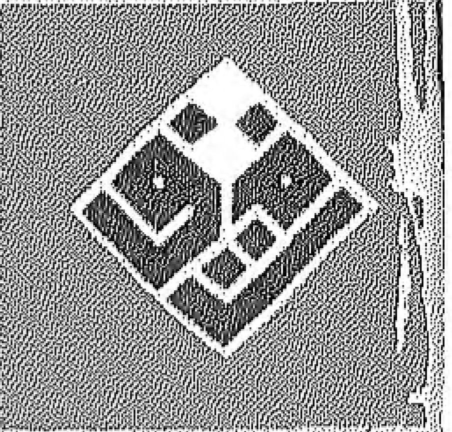
سينثيا نلسون

امرأة مختلفة:
درّيّة شفيق

ترجمة: نهاد أحمد سالم





نور





115

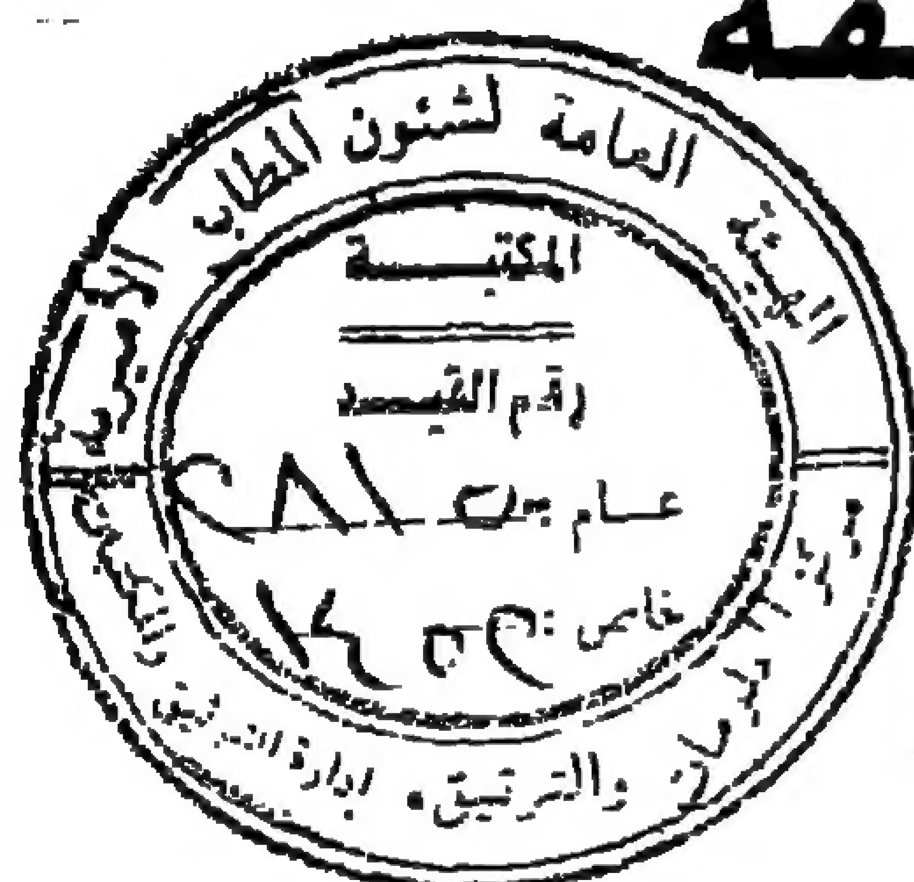
اهـــــداء2004
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
القاهرة

المشروع القومى للترجمة

درية شفيق

مصرية طالبت بالمساواة بين الجنسين

امرأة مختلفة



بقلم

سينثيا نلسون

ترجمة

نهاد أحمد سالم

المجلس الأعلى للثقافة

بالتعاون مع "نور"
جمعية المرأة العربية

١٩٩٩

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

DORIA SHAFIK

Egyptian Feminist

(A WOMAN APART)

By

CYNTHIA NELSON



إلى عزيزة وجيهان
فى ذكرى والدتهما

صلاة شكـــــر

ألهج بالحمد
لله
لأننى ولدت . .
فى أرض الأسرار
لأننى نشأت
فى ظلال النخيل
لأننى عشت
فى أحضان الرمال
حارسة الأسرار
لأننى شاهدت
سطوع قرص الشمس
ولأننى -طفلة-
شربت
من مياه النيل
ذلك النهر المقدس

درية شفيق
عبرات إيزيس

تقدمـــة

"النهاية هى بدايتى"

ما نسميه البداية كثيرا ما يكون النهاية
ووضع نهاية هو بدء بداية
النهاية حيث نبدأ . و ...
كل عبارة وكل جملة هى نهاية وبداية
وكل قصيدة مرثية .
وكل فعل
خطوة نحو المقصلة
نحو المحرقة
غوص فى حلق البحر
أو نحو شاهد مطموس : وهنا نبدأ.
نموت مع الذين يموتون:
انظر:
إنهم يرحلون ونحن نرحل معهم[١]

هذه قصة امرأة مصرية أرادت لحياتها أن تكون "تحفة فنيـــة". هـــى قصة كفاح امرأة، وحدها، فى وجه قوى الرجعية فى مجتمعها - ثقافية كانت أو دينية أو سياسية - تلك التى كانت تعارض مساواة المرأة مساواة كاملـــة. هى قصة لقاء بين الوعى النسائى الوليد لامرأة، وعى شكلته القيم الإســلامية والإنسانية، وبين صحوة الهوية القومية لمجتمعها، تلك الصحوة المنبثقة عــن الواقع التاريخى لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. كانت درية شفيق ترغب فى "خوض تجربة الحياة كاملة"، أن تكون بطلة جماهيرية فى مجتمع ينظــر إلى المرأة نظرة تحصرها أساسا فى دور السند والمعين والمرشد الأخلاقـــى الأمين للأسرة. أما هى، فكانت تستمد قوتها وأهميتها وكرامتها وعزتها مـــن إنجازاتها بحثا عن الحرية.

وكتابة سيرة درية شفيق تحد وراءه مزيج من الأســباب الشــخصية والمهنية، من أهمها هى ذاتها، فهى مركبة، متناقضة، ومثــار جــدل. فلقــد نشأت فى أسرة مسلمة، متواضعة وتقليدية من الطبقة الوسطى فى مدينتيـــن من مدن الأقاليم فى الدلتا هما طنطا والمنصورة. نشأت فى فترة كانت مصر

تموج فيها كالمرجل فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، ثم تفجرت فى ثـورة ١٩١٩. وبدأت فرص التعليم تتفتح أمام المرأة فى العشرينيات والثلاثينيـات، وأصبح التعليم بالنسبة للفتيات اللاتى يتمتعن بالذكاء والطموح والجمال، مـن أمثال درية شفيق، فكاكا من أسر التقاليد، وخلاصا من ضغوط الزواج المبكر من رجل تختاره الأسرة. أصبح التعليم فرصة لاكتشاف بدائل للحياة التقليدية الرتيبـة. وانطلقت درية فى هذه التجربة حتى نهايتها، وحصلت على درجـة دكتوراه الدولة من جامعـة السوربون عام ١٩٤٠ بمرتبة الشرف. صحيـح أنها لم تكن أول مصرية تحصل على هذه الشـهادة، ولكنـها كـانت مـن أصغرهن سنا، إذ لم تتعد التاسعة والعشرين. أتاح التعليـم لطموحها فرصة، وإن كان هدفها الحقيقى أن تدخل ساحة الحياة العامة والسياسـية. وجاءتـها الفرصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. فاقتحمت درية شفيق الساحة علـى الصعيدين الوطنى والدولى.

وكان اقتحامها لساحة الحياة العامة فى مصر وميضا وانفجارا، وقفت فيه متحدية لكل ما اعتبرته عقبات اجتماعية وثقافية وقانونيـة تحـول دون المساواة الكاملة للمرأة فى مجتمعها، فأسهمت بذلك إسهاما مباشرا فى فتـح باب حوار نسائى حول حقوق المرأة فى الإسلام، وهو أكثر ممـا اسـتطاع تحقيقه مصلحو الجيل السابق على جيلها. فجاءت نموذجا مختلفا تماما كقـائدة من قيادات الحركة النسائية فى مصر. أما عن الخلفية لجهودها هذه فكـانت مجتمعا يموج بالتغيرات الاجتماعية والسياسية، بينما تسـعى دريـة شـفيق لتشكيل وعى جديد لدى نساء مصر وذلك من خلال كتاباتها وإنشائها لمنظمة نسائية ثم لحزب سياسى، وأخيرا من خلال المواجهة المباشرة.

ولقد أعربت درية شفيق عن رؤيتها النسـائية كتابـة، فلـم تكتـف بإصدار مجلتين مرموقتين للمرأة والإشراف على تحريرهمـا، بـل كتبـت وأسهمت فى كتابة العديد من الكتب بالفرنسية وبالعربية، كتب فى التـاريخ وفى التنمية وعن نهضة الحقوق الاجتماعية والسياسية للمرأة المصرية.(٢)

وأنشأت منظمة نسائية وحزبا سياسيا تحدت بـهما قـلاع سـيطرة الرجال، فعلت ذلك قبل الثورة وبعدها فشكلت وعيـا سياسـيا مـن خـلال استراتيجية مواجهة: اقتحمت البرلمان المصرى فى محاولة لخوض المعركـة الانتخابية من الباب الخلفى، ونظمت الاعتصامات احتجاجا على الاحتـلال البريطانى لمصر، وأخيرا نظمت إضرابا عن الطعام دام ثمانية أيام للمطالبـة بحقوق المرأة. وعقدت لقاءات لا مع رئيس حكومتها فحسب ، ولكـن مـع

رؤساء الهند وسيلان ولبنان والعراق وإيران، تحدثت فيها صراحة عن "حقوق المرأة"، حتى أنها نددت علنا بالرئيس الباكستانى عندما اتخذ زوجة على زوجته.

ألقت درية شفيق المحاضرات فى أوروبا وفى الولايات المتحدة وفى الشرقين الأقصى والأوسط عن كفاح المرأة من أجل المساواة السياسية ومن أجل الحرية. فإذا بها تفقد حريتها الشخصية وحرياتها المدنية عام ١٩٥٧، عقب احتجاجها فى حركة مسرحية على تآكل الديمقراطية فى مصر فى ظل نظام جمال عبد الناصر الشعبى.

وعلى الرغم من إسكاتها بل واستبعادها تماما من الحياة العامة ابتداء من عام ١٩٥٧ وحتى وفاتها عام ١٩٧٥، إلا أن صورة درية شفيق ما زالت باقية. فبين الحين والحين تذكر الصحافة المصرية المعاصرة اتحاد بنت النيل، أو تنشر لها صورة فيها حنين إلى مصر كما كانت منذ نصف قرن مضى. وما زال اسمها يثير ردود فعل حادة فى بعض الأوساط. فأذكر ندوة دولية عقدت بالقاهرة عام ١٩٨٥، أسهمت أنا فيها بدراسة أعقبها نقاش حامى الوطيس بين العديد من المشاركين حول درية شفيق ودورها فى تاريخ الحركة النسائية فى مصر. وارتفع صوت انجى أفلاطون، الفنانة المعروفة والناقدة اليسارية، معلنا أن "درية شفيق خانت الثورة ولا تستحق أن تكتب لها سيرة".

لماذا هذه السيرة إذن؟

فى عام ١٩٨٣[٣] قدمت لى ابنتا درية شفيق، جيهان وعزيزة، هدية من أشعار كتبتها فتعرفت عليها من خلالها. وجاء ذلك بعد حضورى إلى مصر بعشرين سنة، وبعد مضى ستة وعشرين سنة على تحديد إقامة درية شفيق فى منزلها وما أعقب ذلك من عزلة فرضتها على نفسها. جاء ذلك بعد وفاتها بثمانى سنوات. فلما قرأت أشعارها، اكتشفت ، رغم اختلاف اللغة والتجربة التاريخية، صوتا يتلمس أمورا حياتية وفلسفية بدت لى مألوفة من قراءاتى لسير نساء أخريات ينتمين إلى ثقافات أخرى وأزمنة أخرى، نساء جرؤن على الاختلاف. ودرية شفيق، وإن كانت قد استعانت بصور واستعارات وليدة مصرها الحبيبة، إلا أن محاور كتاباتها ركزت على الوحدة والاغتراب والعزيمة والنضال وحرية الفرد والبحث عن المطلق. ومنذ اللحظة التى قرأت فيها شعرها ثم مذكراتها، وأنا اكتشف فى كلماتها هذا

التفاعل بين الوحدة والاغتراب والإبداع، تفاعلا تخلل حياتها وعملها، تفاعلا أدى إلى نزاع دائم بينها وبين أسرتها ومجتمعها وحياتها. وإن كانت تعبيرا عن تجربة فريدة لامرأة عاشت فى إطار ثقافة وزمن محددين، إلا أن استعاراتها عبرت حدود مصر لتذكرنا بغيرها من النساء اللواتى تحدين كل ما كان يقيد استقلالهن وحريتهن من قوى، سلاحهن "شجاعة لتحقيق مجرد الوجود". فلما انطوت درية شفيق على نفسها، أنصتت إلى عالم الذكرى والوعى هذا واعتمدت عليه، استوحت من إيقاعها الداخلى إلهاما، ووجدت فيه شيطان الشعر، ملهمها ورفيقها الحبيب الذى لم تفارق أحضانه المواسية إلا لتنطلق نحو المنتهى.

أيها الشعر !
يا من تحول وحدتى جمالا
وتمد لى يدك
أنا التى تتقاذفها الأمواج.
أنا اليائسة من يابسة
أتشبث بها.
أنا التائهة فى عاصفة
تحجب عنى
من أى سماوات مشرقات
أتيت
يا رمز الحب
يا رمز الجمال
فلجأت إلى حنايا
حنانك
ولم أعد ركاما.(٤)

تأثرت تأثرا عميقا بمثل هذه الأبيات ، وأردت أن أعرف المزيد عن التى كتبتها. وفى عام ١٩٨٤ قضيت فترة أحاضر فى جامعة كاليفورنيا فى مدينة سانتا كروز. وهناك التقيت بأكرم خاطر، شاب لبنانى يقوم بدراسات عليا، ويهتم بتاريخ الحركات النسائية فى الشرق الأوسط. وعملنا معا لمدة شهور فاكتشفنا ندرة الاهتمام الأكاديمى بالحركة النسائية فى مصر بعد الحرب العالمية الثانية، ولم نجد لدرية شفيق ذكرا رغم نشاطها فى الحياة العامة إبان تلك الفترة. وزادت قناعتى بأهمية قيامى بدراسة جادة لسيرة

درية شفيق، لا بسبب اهتماماتى الشخصية فحسب ، وإنما لندرة المادة العلمية عن حياتها ونشاطها.

فلما عدت إلى مصر فى ربيع عام ١٩٨٥، أثرت الفكرة فى حديث مع ابنتيها، وأعربت عن رغبتى فى دراسة سيرتها الذاتية فاستجابتا بحماس وتشجيع لم يخذلانى أبدا. وثقتهما فى جعلتهما تشاركانى مذكراتها وأوراقها غير المنشورة، فعشت معهما ذكريات مؤلمة وأقمنا فيما بيننا جسورا للتفاهم.

وما يشدنى إلى درية شفيق ليس مجرد حساسيتها الشاعرية المتأملة والتى أمدتها بالقوة والإلهام فى لحظات أزماتها الشخصية وخاصة فى السنوات الثمانى عشرة الأخيرة التى قضتها فى عزلة تامة، بل جرأتها وإقدامها على مصارعة المؤسسات القوية التابعة للنظام الأبوى والتى استحثت شعورها بالاستقلال والحرية.

جرأت درية شفيق على محاربة الطواحين فانتهى الأمر بمأساة، وإن طبق فكرها آفاقا امتدت عبر حدود مصر بمسافات شاسعة.

وسر جاذبية حياتها يكمن فى تشابك وتوتر بل وتناقض متطلبات حياتها – ثقافات الغرب والشرق، اللغة العربية والفرنسية، تأملات الشاعرة وحيوية المناضلة من أجل حقوق بنات جنسها – متطلبات الحياة الأسرية ومسئوليات الحياة العامة. ولكن هل جعل كل ذلك من درية شفيق أكثر من مجرد حاشية فى تاريخ مصر المعاصر؟

"يصعب فهم سيرة الفرد وحده أو تاريخ المجتمع وحده، فلا بد من فهمهما معا" كما يقول ملز(٥). لذا فسيرة درية شفيق محاولة للتعبير عن مولد وعى نسائى، ولكنها أيضا محاولة للكشف عن بعض جوانب المجتمع المصرى فى لحظة محددة من تطوره.

هى قصة امرأة ذات ضمير وهى أيضا قصة أدبية. ماذا نستطيع أن نعرف من حياتها عن الحركات النسائية وطبيعتها أثناء نضال مصر للتحرر من بقايا السيطرة الاستعمارية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية؟ هل لدرية شفيق دور كزعيمة نسائية فى مجتمعها المصرى المسلم؟ وما نظرة المجتمع لذلك الدور؟ ما رأيها فى علاقة الإسلام بالحداثة وبحقوق المرأة؟

وكيف عبرت عن هذه الآراء وهى نتاج ثقافتين، عربية وفرنسية؟ هل تعكس حياتها تنازع هويتين فى مجتمع يعيش ثورة وطنية؟

لقد كانت درية شفيق امرأة مسلمة تنادى بالتحديث ، أن تفرد للمرأة المصرية مساحة فى الحياة العامة والسياسية من منطلق يختلف عمن أتت به من سبقنها من زعيمات. طالبت بالمساواة السياسية الكاملة بين الرجل والمرأة، متحدية بذلك التقاليد والمؤسسات الإسلامية ونظرتها لدور المرأة. ليس هذا فحسب، بل وجعلت من نفسها مثالا لتغير من مفاهيم المرأة عن نفسها وعن موقفها من النظام السياسى الأشمل. وهى قضية ما زالت حساسة فى العالم العربى والإسلامى.

ويكفينا ذكر تكفير المحاكم لأستاذ بجامعة القاهرة والحكم بتطليق زوجته منه، مما جعلهما يلجآن لدولة من دول الشمال انتظارا للبت فيما قدماه من طعن فى الحكم. ثم هناك حالة تسليما نسرين فى بنجلاديش، إذ كفرتها جماعة متطرفة وخصصت مكافأة كبيرة لمن يقتلها.[٦]

فمصر الأربعينات والخمسينات كانت أكثر تسامحا من مصر التسعينات، إذ استطاعت درية شفيق، رغم المعارضة، أن تتحدى المؤسسات الدينية صراحة، معلنة عن اقتناعها بأن الإسلام الصحيح لا يضع العراقيل أمام حقوق المرأة وحريتها. أما السلطات الدينية فإنها لم تأمر باغتيالها، حتى وإن رأت أن يد الاستعمار الغربى الخفية تحاول من خلالها هدم كيان الأسرة المسلمة.

ودرية فى نضالها على المستوى الشخصى وفى نضالها من أجل حقوق المرأة وحقوق الإنسان، حاولت أن تربط بين لسان إبداعها ولسانها السياسى. فأثارت خيال البعض وازدراء البعض الآخر. وعانت من غضب وإدانة الكثيرين لها. وظلت محط الأنظار لمدة عشر سنوات، تملأ صورتها وأخبارها صفحات الصحف المحلية والدولية التى كانت تصفها "بالزعيمة المعطرة" و "المناضلة من أجل حقوق المرأة" و "الزعيمة الجميلة" و"المتطرفة" و "الخطر الذى يتهدد أمة الإسلام" و "قطعة المارون جلاسيه" والمرأة ذات الحواجب التى تشبه رقم ٨٨" و "الخائنة للثورة" وأحيانا "الرجل الوحيد فى مصر"!

ولكنها كانت تحمل رسالة مختلفة بالنسبة لجيل الشباب المثقف عقب الحرب العالمية الثانية، ذلك الجيل الذى كان يسعى إلى الخروج من نطاق

الأسرة إلى الحياة العامة والذى كان يعتقد أن الحركة النسائية فى مصر تحتضر. وبما أن هذه السيرة تستند أساسا إلى مذكرات درية شفيق، "هذه المعانى شديدة الشخصية التى يرى المرء تجربته من خلالها"(٧)، يأتى سؤال وجيه: لماذا لا نكتفى بنشر المذكرات؟ والإجابة بسيطة: هى غير صالحة للنشر فى صورتها الحالية: فدرية شفيق كتبت مذكراتها أكثر من مرة، فأيها نختار؟ وعلى أى أساس؟ إنها كانت شاعرة وليست بكاتبة مذكرات. أسلوبها تأثيرى، يكاد أن يكون تنقيطى، اسكتشات وليس بألبوم صور فوتوغرافية. لمسة فرشاة دون تفاصيل. مذكرات تثير البلبلة لمن يبحث عن تحليل معمق للأوضاع الاجتماعية والسياسية.

ومذكراتها كتبت فى ثلاث مراحل مختلفة من حياتها، وهى غير كاملة (أجزاء فقدت وأجزاء أخرى غير متاحة). وكل رواية من مذكرات درية شفيق كأنها خريطة مختلفة لنفس العالم الواحد من الرموز، تلقى الضوء على خيط محورى من خيوط فكرها ونشاطها فى إطار تاريخى واجتماعى أوسع. وهذه المذكرات تسمح لكاتب السيرة أن يتتبع الخطوط العريضة لحياتها، أن يلم بالأساطير التى انبثقت حولها والرموز التى اختارتها لتبنى وتفسر تلك الحياة، أن يكتشف ما اعتبرته هى هاما فى مواقف محددة من حياتها وفى مراحل خاصة من ماضيها.

ولقد كتبت درية شفيق الرواية الأولى لمذكراتها بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦، بعد جولتها للمحاضرة فى الولايات المتحدة الأمريكية استجابة لطلب محدد من إليزابيث لورنس، المسئولة لما كان يسمى بدار نشر هاربرز. وهى سيدة انبهرت بمقال عن درية فى مجلة "هوليداى" فكتبت إليها قائلة "ما رأيك فى كتابة سيرتك الشخصية مما يتيح لك فرصة التعبير عن كل ما تؤمنين به وتسعين إليه فى حياتك العامة؟"(٨)

واستهوت الفكرة درية، فبدأت فى الكتابة بالفرنسية. وطلب الناشرون ترجمة إلى الإنجليزية، فقدمت درية بضعة فصول من سيرتها فى مايو ١٩٥٦. وجاءها الرد التالى من الناشر: "وجهة النظر لا تبدو لى ملائمة للقارئ الأمريكى الذى يجهلك تماما. أصارحك القول بأنها وجهة نظر شخصية بحتة. لعلك كامرأة لها أفكارها ونشاطها يصعب عليك رؤية الناس والعالم المحيطين بك بشكل يجعلهم مادة شيقة للقارئ الأجنبى. لعله من الأفضل أن توضحى الظروف فى مصر التى جعلتك تتمردين وتعملين على الإصلاح."(٩)

ولما اندلعت حرب القناة في أكتوبر ٢٩ سنة ١٩٥٦، انقطعت المراسلات بين الناشرين ودرية شفيق. ورغم ضياع أجزاء كبيرة من هذه الفصول إلا أننا نلمح من خلالها العالم الذى شكل درية والذى تمردت عليه. ولكن الأهم هو الاستعارات التى تستخدمها وصفا لمشروع كتابة قصة حياتها.

"عند استطلاع الماضى، لا يتذكر الإنسان الأحداث وفقا لخط هندسى بحت، لأن الأحداث تتشابك فى ليل الزمان. وفجأة وعلي غير انتظار، يشع الضوء في ذاكرتى دوائر. أن أكتب قصة حياتى معناه أن أغزو كياني. وهى ليست مغامرة من أجل الحصول على غنائم مادية بل هى مسألة أبعاد مختلفة ، يرى المرء من خلالها خطوطا جديدة تتلاقى فيها زوايا اللحم والدم فى ثنايا القلب الانسانى بأهوائه وأحقاده وبآماله ويأسه. وأنا أرى الآن حياتى كسلسلة مستمرة من المعارك".

أما الرواية الثانية لمذكراتها فقد بدأتها فى وقت ما بعد تحديد إقامتها. ولم تكن درية تؤرخ أوراقها الشخصية، ولكنه من شبه المؤكد أنها انتهت منها فى حوالى عام ١٩٦٠، إذ إنها تعلق قائلة بالتحديد: "ثلاث سنوات مرت وأنا أتحمل مسئولية عملى من أجل استرداد حريتى وحرية مواطنى." وعدد صفحات هذا المخطوط الذى كتب بالفرنسية نحو ٥٥٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة، وهى أكثر مذكراتها اكتمالا، تضيف الكثير إلى وصفها السابق لعالمها الذى نشأت فيه، وتستكمل الصورة بالنسبة لوالديها وأسرتها، وسنواتها فى فرنسا فى الثلاثينيات، وزواجها وحياتها العامة حتى موتها سياسيا عام ١٩٥٧. ونجد فى كل صفحات تلك المذكرات محورا متكررا هو كفاحها من أجل التوصل إلى دور له مغزاه فى مجتمع لم يقبلها بشروطها هى. وكانت تكتب بعد احتجاجها المسرحى على جمال عبد الناصر وفى البيت الذى حددت إقامتها فيه، وتكتب باللغة الفرنسية، وسيلتها المفضلة للتعبير الأدبى – فتؤكد، "هذا العمل الذى يحمل "الحرية" عنوانا، ليس بوصف للأحداث، وإنما هو تعبير عن مسار حياتى – حياة هى فى جوهرها جهد لكسر القيود التى فرضت على مصر والمصريين عبر قرون من الاستعباد. هى محاولة لاكتشاف الأسباب المباشرة والأصول البعيدة لقيود العبودية التى أرزح فيها منذ طفولتى."

إلى من هذه المذكرات التى كانت تكتبها امرأة حبيسة بيتها، ممنوعة من الاتصال بالناشرين، وممنوعة من السفر؟ وبما أنها كانت تكتب بالفرنسية، فلم يكن فى استطاعة أحد قراءتها اللهم إلا نخبة من المصريين. والظروف التى أعقبت تحديد إقامتها كانت لا تسمح بنشرها خارج مصر. ربما كانت تكتبها لبناتها وأحفاد المستقبل. أنا شخصيا أرى أنها كتبتها حفاظا على نفسها من وطأة الوحدة التى عاشتها لمدة ثمانى عشرة سنة.

وفى المراحل الأخيرة من حياة المنفى الداخلى هذه، كتبت درية شفيق الرواية الثالثة والأخيرة لحياتها، نحو ٤٢٠٠ صفحة خطية باللغة الإنجليزية وضعت لها ببساطة عنوان 'مذكرات' :

"لماذا أكتب هذه المذكرات؟ لأرى خبايا نفسى بوضوح. فاستطلاع الماضى يبرز الحاضر ويمكننى من رؤية المستقبل بوضوح أكبر. وعندما أتحدث عن المستقبل، لا أتحدث عن نفسى فحسب وانما عن الإنسانية جمعاء، لأنى لم أفصل مصيرى عن مصير البشرية جمعاء. وفى كفاحى من أجل الحرية طيلة حياتى، كنت أعى تماما أن حريتى جزء من حرية البشرية. وكتابة هذا الكتاب ستساعدنى على فهم المعنى الجوهرى للأحداث المحيطة بى. فتمتزج قصتى الشخصية بتاريخ هذا القرن. والهدف النهائى هو أن نصل إلى فهم أعماق طبيعة الإنسان من خلال تأمل قيمى أنا الداخلية."

وهذه المذكرات الأخيرة هى فى الواقع 'تيار شعور'، غير مكتملة، مليئة بالتكرار وكثيرا ما يصعب فهمها. ولكنها تنبض بألم عميق، وبوحدة تعكس محاولة درية شفيق لمقاومة يأسها، أكثر مما تعكس محاولة "لوضع الأمور فى نصابها" كما فعلت فى مذكراتها بالفرنسية عام ١٩٦٠. وهى فى جوهرها، إعادة صياغة للنص الفرنسى، إلا أنها استكملت فى بدايات عام ١٩٧٥، قبل انتحارها بشهور قليلة. وكانت الكتابة دائما سلاحها ضد الوحدة، ولكنها أيضا كانت كفاحا قضى فى النهاية على ذلك المورد نفسه.

وكل ما ورد فى هذه السيرة من اقتباسات جاء من مذكراتها، إلا ما ورد بشأنه حاشية تفيد غير ذلك، وكل ما جاء من ترجمة فأنا المسئولة عنه.

وإلى حد ما، كانت نهاية درية شفيق بدايتى. ولكن استمرارى فى رحلتها اعتمد على مساعدة الكثيرين لى على الطريق. وضيق المكان يحول

دون ذكرهم جميعا. ولكنى أدين بواجب العرفان والشكر للطلبة والأصدقاء والزملاء الذين ساعدونى فى عملى هذا وفى البحث والترجمة والاتصال بالشخصيات التى عرفت درية شفيق أو عملت معها أو أيدت رأيها إبان الندوات والمحاضرات وفى الجلسات. وأشكر بصفة خاصة ليلى زكى ولمياء راعى وريم سعد وهانية شلقامى ونيفين إبراهيم ولورنس مفتاح على صبرهم ومساعداتهم الدؤوبة فى فهم تفاصيل التراجم العربية والفرنسية وعلى توجيه خطاى فى دروب تاريخ وثقافة مجتمعهن المصرى.

كما أعرب عن امتنانى لأكرم خاطر وهو أول من أثار اهتمامى وساعدنى على فهم الحركة النسائية العربية والحركة الوطنية، ولهدى فهمى التى أتاحت لى المحفل العام الأول لاشرك جمهور دولى ومصرى فى مشروعى. كما أشكر زملائى فى قسم الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية وخاصة مارك كيندى ونك هوبكنز وسعد الدين إبراهيم، فاهتمامهم واستفساراتهم حفزت فكرى. وأعرب عن تقديرى لطارق وجاكلين إسماعيل وفرجينيا أوليسن وإلين هاجوبيان وسوزى كين لدعمهم المعنوى لى خلال عملية الصياغة. ولقد سمحت الأجازة المدفوعة الأجر التى حصلت عليها من الجامعة الأمريكية فى القاهرة ومن معهد بانتنج فى كلية رادكليف بدعم خطواتى فى المراحل الأولى من الرحلة.

وأنا مدينة بالعرفان بصفة خاصة للآتى ذكرهم على صبرهم وأناتهم: راجية رجب ومنيرة قاسم وإبراهيم عبده وزينب لبيب وعايدة نصر الله ومصطفى أمين وإنجى أفلاطون ولطفى الخولى وبيير سيجر، فهم لم يكتفوا بالإجابة على أسئلتى ، ولكنهم أدلوا بملاحظات عميقة ساعدتنى. أما سنية شعراوى لانفرانكى فأنا مدينة لها بصفة خاصة إذ شاركتنى ذكرياتها عن درية شفيق كما أمدتنى بصور لبعض خطابات درية المرسلة لجدتها هدى شعرواى. وأوجه شكرى الخاص لإليزابيت رودنبك ، إذ عاونتنى بمراجعتها الحساسة على وضع اللمسات الأخيرة لهذا الكتاب.

أما السيد بدوى فقد ساعدنى على فهم تفاصيل اللغة العربية، فإن كانت هناك أخطاء فى التفسير فمسئوليتها تقع على عاتقى وحدى.

أخيرا أشكر من الصميم عايدة إبراهيم فهمى فلولا صداقتها وثقتها ما احتفظت بالقدرة ولا حافظت على الزخم الذى سمح لى باستكمال هذا العمل الذى استغرق عشر سنوات.

التسلسل الزمنى للأحداث

١٨٨٢ ثورة عرابى، وهى نتاج تآكل سلطة الخديوى وفرض الرقابة المالية الأوروبية على البلاد. كما أنها تعكس ضعف الدولة العثمانية وأفول إمبراطوريتها.

١٨٩٩ – ١٩٠١ نشر كتاب دوق هاركور 'مصر والمصريون' (١٨٩٣)، مما دفع قاسم أمين إلى تأليف كتابيه مثار الجدل، 'تحرير المرأة' و 'المرأة الجديدة'، ويعكسان النقاش الدائر والمتوسع حول كيفية مواءمة الإسلام مع الحداثة.

١٩٠٨ مولد درية شفيق فى طنطا، فى ١٤ ديسمبر، ثالثة أطفال أحمد شفيق ورتيبة ناصف، وثانية بناتهم. وفى ذلك الوقت، كانت ثلاث مجموعات سياسية رئيسية قد ظهرت على مسرح الأحداث، وقدر لها أن تسيطر على الحياة السياسية فى مصر حتى بداية الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من اختلافها الأيديولوجى، إلا أنها جميعا تأمل فى إقامة دولة مستقلة فى مصر، وتفكر فى إصلاحات اجتماعية وفى التأثير على الرأى العام من خلال الصحافة. هذه المجموعات هى: الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل (١٨٧٤–١٩٠٨)، الذى يطالب من خلال صفحات جريدة اللواء بالجلاء الفورى لكل القوات البريطانية، ولو بالقوة. وحزب الأمة بزعامة لطفى السيد (١٨٧٢–١٩٦٣) الذى تبنى فكرة الأمة المصرية ويعتبر أن المهمة الرئيسية هى إعادة تشكيل القوانين والمؤسسات حسب متطلبات العصر الحديث. ولطفى السيد كرئيس تحرير 'للجريدة' يسهم فى تطوير الأفكار العلمانية الليبرالية، فى وقت كانت فيه المشاعر الإسلامية مازالت تحرك الجموع. أما الاتجاه السياسى الثالث فكان 'السلفيه' وهى حركة إصلاح إسلامية أسسها محمد عبده (١٨٤٩–١٩٠٥)، وحركها رشيد رضا (١٨٦٣–١٩٣٥)، وهى أساساً تقف فى وجه العلمانية فى العقود الأولى للقرن العشرين.

١٩١١ تعيين اللورد كتشنر مندوبا ساميا فى مصر، هو الذى أسس جمعية تشريعية عام ١٩١٣.

١٩١٤ اندلاع الحرب العالمية الأولى فى ٣ أغسطس. وتقرير بريطانيا إعلان الحماية على مصر غير من الوضع القانونى للبلاد، إذ فصلها عن السلطة العثمانية وحدد شروط الحكم الذاتى لها فى المستقبل. وبدأت قيادة جديدة من المصريين فى الظهور، مكونة من البرجوازية (ملاك الأرض والتجار)، تطالب باستقلال وطنى غير مشروط. وزعيم هذه الحركة الجديدة هو سعد زغلول (١٨٥٧-١٩٢٧). وسعد زغلول ابن عمدة قرية صغيرة قريبة من طنطا، وهو ينتمى إلى نخبة من الزراعيين الذين بدءوا يحوزون الأراضى وتتزايد سلطاتهم على أطلال النظام القديم. وكان يتردد على صالون الأميرة نازلى، ثم تزوج ابنة رئيس الوزراء، صفية مصطفى فهمى باشا. ورغم انتمائها للأرستقراطية القديمة، إلا أنها ارتبطت تماما بالكفاح الوطنى الذى خاضه زوجها، وعاشت بعد وفاته معززة تحمل اسم 'أم المصريين'.

١٩١٥ عودة درية إلى طنطا لتلتحق بمدرسة نوتردام دى ابوتر وتعيش مع جدتها خديجة.

١٩١٧ الثورة الروسية.

١٩١٨ إعلان الهدنة ونهاية الحرب العالمية الأولى. مولد جمال عبد الناصر وأنور السادات.

١٩١٩ زواج فؤاد من نازلى عبد الرحيم صبرى (١٨٩٤-١٩٧١)، فتاة مصرية من العامة، تجرى فى عروقها دماء 'أجنبية'، فهى حفيدة الكولونيل الفرنسى 'سيف' الذى عرف باسم سليمان باشا الفرنساوى، الذى عينه محمد على فى حوالى عام ١٩١٧، ليقوم بتحديث الجيش المصرى. وأنجبت لفؤاد ابنا (١٩٢٠) هو فاروق،

وأربع بنات: فوزية (١٩٢١) وفايزة (١٩٢٣) وفايقة (١٩٢٦) وفتحية (١٩٣٠) (وكان فؤاد متزوجا قبل ذلك من قريبته الأميرة شويكار ولكنه طلقها عام ١٨٩٨ بحجة أنها لم تنجب له ولداً). وتصدر سعد زغلول تشكيل وفد مصرى لحضور مؤتمر باريس للسلام والمطالبة بالاستقلال الوطنى. ورفض السماح له بحضور المؤتمر، فتزعم ثورة ١٩١٩ الوطنية للمطالبة بالاستقلال التام وبالدستور. ثم نفى إلى مالطة ومعه إسماعيل صدقى (١٨٧٢-١٩٥٠).

١٩٢٠ موت أم درية وهى تلد. وفسخ خطبة درية على قريب لخالها.

١٩٢٢ بريطانيا تقرر من جانبها رفع الحماية عن مصر فى ٢٨ نوفمبر، وتعلن السلطان فؤاد (١٨٦٨-١٩٣٦) ملكا على مصر باسم الملك فؤاد الأول. وللإعلان شروط عرفت باسم الشروط الأربعة، ومؤداها ضمان استمرار السيطرة البريطانية على السودان وعلى كل ما يتعلق بالدفاع عن مصر، مع ضمان الحماية الخاصة للرعايا الأجانب.
تلحق درية بأبيها فى الإسكندرية، وتلتحق بمدرسة سان فانسان دى بول، وتبدأ فى إعداد شهادة الـ 'بريفيه'.

١٩٢٣ صياغة أول دستور مصرى وإجراء الانتخابات. الدستور ينص على تشكيل برلمان من مجلسين: مجلس الشيوخ ويعين الملك خمس أعضائه، ومجلس النواب ويتم انتخابه بالتصويت وهو قصر على الرجال فقط. تعود هدى شعراوى من اجتماع للجمعية الدولية للمرأة فى روما، وتخلع حجابها. تلتحق درية شفيق بمدرسة الليسيه وتستعد لامتحان البكالوريا.

١٩٢٤ انتخاب أول برلمان مصرى. يتصدر رئيس الوزراء سعد باشا زغلول الهجوم على البريطانيين. مقتل السردار، سير هنرى لى ستاك، على يد مجموعة وطنية متطرفة، ويعتبر ذلك إيذانا بأزمة مستمرة فى السياسة الداخلية.

نجاح درية فى الحصول على البكالوريا ومنحها وساماً فضيا لحصولها على المركز الثانى بين كل المتقدمين للامتحان فى مصر.

١٩٢٥ هدى شعراوى تؤسس الاتحاد النسائى المصرى ومجلة 'ليجيبسيين' (المصرية)، وتتولى سيزا نبراوى رئاسة التحرير.

١٩٢٧ يتولى مصطفى باشا النحاس (١٨٧٦-١٩٦٥) رئاسة الوفد. ومنذ تلك اللحظة، تتولى السلطة فى مصر مجموعات ثلاث بالتناوب: السراى والبريطانيون والوفد، مع وجود بعض أحزاب أقلية تستغل الصراع بين الوفد والسراى لمصلحتها. يتفجر الخلاف فى قيادة الوفد حول أفضل استراتيجية لمواجهة الإنجليز، ويؤدى إلى تشكيل حزب الأحرار الدستوريين على يد محمد محمود عام ١٩٢٢، وحزب الأمة على يد إسماعيل صدقى فى ١٩٣٠.

١٩٢٨ تأسيس حسن البنا لجماعة الإخوان المسلمين.
درية تكتب إلى هدى شعراوى، وتقابلها فى القاهرة ثم تحصل على منحة دراسية من وزارة التربية والتعليم.
هدى شعراوى تدعوها لإلقاء كلمة على مسرح حديقة الأزبكية يوم ٤ مايو. وفى أغسطس ترحل درية إلى فرنسا لتلتحق بجامعة السوربون.

١٩٣٣ أحمد حسين يؤسس 'مصر الفتاة'. وتحصل درية على الليسانس، ثم تعود إلى الإسكندرية لتعيش مع أبيها.

١٩٣٥ تشترك درية فى مسابقة ملكة جمال مصر بالإسكندرية وتكاد تفوز فيها، مما يحيطها بالدعاية. زواج درية من الصحفى أحمد الصاوى لمدة أسابيع.

١٩٣٦ طلاق درية من الصاوى، وعودتها للسوربون بعد أن أقسمت ألا تتزوج مرة أخرى.

موت الملك فؤاد، وفاروق (١٩٢٠-١٩٦٥) يعتلى العرش.
توقيع المعاهدة مع بريطانيا فى أغسطس.
اختيار ليون بلوم لرئاسة الوزارة فى فرنسا.
تصاعد الفاشية فى أوروبا. القوات الإيطالية تحتل أديس أبابا.
الحرب الأهلية فى أسبانيا.

١٩٣٦-١٩٣٩ الثورة الفلسطينية - مقتل ٥٠٠٠ فلسطيني.
درية تلتقى بنور الدين رجائى ويتزوجان فى باريس سنة ١٩٣٧ ثم يقضيان شهر العسل فى إنجلترا.

١٩٣٩ تعقد هدى شعراوى المؤتمر النسائى العربى الأول بشأن قضية فلسطين.
ألمانيا تجتاح بولندا فى ١ سبتمبر.
يحصل نور الدين على الدكتوراه فى القانون، بينما تستعد درية لمناقشة رسالتيها. يعودان إلى القاهرة.

١٩٤٠ درية تعود إلى باريس فى بداية الربيع لمناقشة الرسالتين.
تحصل على دكتوراه الدولة.
يرفضها الاتحاد النسائى المصرى، وتعمل كمفتشة للغة الفرنسية.

١٩٤٢ فى فبراير، تحيط الدبابات بقصر عابدين، ويأمر سير مايلز لامبسون الملك فاروق بتعيين النحاس باشا الموالى للبريطانيين، رئيسا للوزراء.
فى إبريل، يتفشى وباء الملاريا فى أسوان.
فى ٤ نوفمبر: يتوقف تقدم القوات الألمانية بعد معركة العلمين.
فى ٦ مارس: تلد درية ابنتها عزيزة.

١٩٤٤ مولد جيهان ابنة درية الثانية يوم ١٧ أغسطس. تتولى مدام مارى رايلى مهمة رعاية الطفلتين.

١٩٤٥ تعلن مصر الحرب على المحور، ولكن الحـــرب تضـــع أوزارها فى مايو. إنشاء الأمم المتحدة.
مقتل أحمد ماهر، رئيس الوزراء.
إنشاء جامعة الدول العربية.
الأميرة شويكار تطلب من درية أن ترأس تحرير 'لافـــام نوفيل' (المرأة الجديدة).
تؤسس درية 'بنت النيل' وتصدر العدد الأول فى ديسمبر.

١٩٤٦ إضرابات شاملة للطلبة. استقالة إسماعيل صدقى.
درية تصدر مجلة 'الكتكوت' للأطفال. وتلتقى ببيير سيجر الشاعر وناشر أدب المقاومة.

١٩٤٧ انتشار وباء الكوليرا فى محافظة الشرقية.
فى ٢٩ نوفمبر: قرار تقسيم فلسطين.
موت الأميرة شويكار، ودرية تتولى 'المرأة الجديدة'.
وفاة هدى شعراوى. دعوة درية للاشتراك فى تأبينها.

١٩٤٨ ١٥ مايو: هجوم فاشل للقوات المصرية على إســـرائيل.
تحول الفلسطينيين إلى لاجئين.
درية تؤسس اتحاد بنت النيل و"تبدأ حملتها".

١٩٤٩ وقف إطلاق النار فى مارس.
يتخذ الكفاح من أجل التحرر الوطنى أشكالاً عدة.
فاروق يطلق الملكة فريدة التى كان يحبها الشعب.

١٩٥١ فى فبراير: تقود درية مسيرة إلى البرلمان، وتقتحم أبوابه مطالبة بحق الانتخاب. يتم القبض عليها ويُطلـــب منـــها المثول أمام المحكمة فى إبريل، ولكن القضية تؤجل إلـــى أجل غير مسمى.
٨ أكتوبر: يلغى الوفد المعاهدة من طرف واحد.
المظاهرات المناهضة للاستعمار البريطانى تجتاح البـــلاد فيما بين شهرى نوفمبر ويناير.
مصدق، أول رئيس وزراء منتخب فـــى إيـــران، يـــزور القاهرة.

١٩٥٢ في يوم ٢٥ يناير: القوات البريطانية تقتل أربعين من رجال الشرطة المصريين في ثكناتهم بالإسماعيلية.
درية، ومعها فتيات اتحاد بنت النيل، تتظاهر أمام بنك باركليز.
٢٦ يناير: الجموع المصرية تحرق النوادي والمحلات التجارية الأجنبية بالقاهرة (السبت الأسود).
الملك يقيل النحاس باشا ويعيد علي ماهر.
في مارس، درية تسجل اسمها، مخالفة القانون، لترشح نفسها.
٢٣ يوليو: إنقلاب عسكري.
٢٦ يوليو: الملك يغادر الإسكندرية. الضباط الأحرار يلغون دستور ١٩٢٣، ويؤممون الصحافة ويلغون الأحزاب السياسية ويعينون لجنة من خمسين رجلا لصياغة الدستور الجديد.

١٩٥٣ تعيين محمد نجيب رئيسا، ومجلس قيادة الثورة يتولى رئاسة الحكومة.

١٩٥٤ ٢٤ فبراير: يستقيل محمد نجيب، ويتولى عبد الناصر رئاسة مجلس قيادة الثورة. اللجنة الدستورية ليس بها نساء. إعادة الأحكام العرفية، حل الأحزاب السياسية وتأجيل الانتخابات.
١٢ مارس: درية شفيق ومعها ثماني عضوات من اتحاد بنت النيل يضربن عن الطعام لمدة ثمانية أيام، في نقابة الصحفيين احتجاجا على استبعاد النساء من عضوية اللجنة الدستورية.
أكتوبر: تبدأ درية رحلة محاضراتها حول العالم
٢٧ أكتوبر: محاولة الإخوان المسلمين اغتيال عبد الناصر.

تعيين محكمة ثورية جديدة في نوفمبر؛ تحديد إقامة محمد نجيب في منزله.

١٩٥٥ عبد الناصر يحضر مؤتمر باندونج فى إبريل ويقابل تيتو ونهرو وشوان لاى. تشكيل مجموعة عدم الانحياز.

١٩٥٦ إعلان الدستور الجديد فى ١٦ يناير. منح المرأة حق التصويت شريطة إلمامها بالقراءة والكتابة. إلغاء كافة التنظيمات الخاصة والتطوعية.
الدولة تضع كافة التنظيمات النسائية تحت إشراف وزارة الشئون الاجتماعية.
إغلاق بنت النيل ومعها كل الجمعيات الخاصة الأخرى.
الصحافة تهاجم درية وتشن عليها حملة سخرية.
٢٦ يوليو: عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس.
٢٩ أكتوبر: اندلاع الحرب فى السويس. أيزنهاور يوقف العدوان الثلاثى.

١٩٥٧ ٦ فبراير: درية تبدأ الإضراب عن الطعام فى السفارة الهندية، مطالبة بإنهاء الديكتاتورية فى مصر وبانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى المصرية.
تحديد إقامة درية فى منزلها.
إغلاق كل المجلات التابعة لدرية وكذلك دار النشر.
اسم درية يستبعد رسميا من الصحافة.
تبدأ درية فترة عزلتها الطويلة فى مسكنها بالزمالك.

١٩٥٨ الاتحاد مع سوريا وإعلان الجمهورية العربية المتحدة.

١٩٦٠ درية ترسل خطابا لداج همرشولد احتجاجا على فشل الأمم المتحدة فى حماية حقوق الإنسان.

١٩٦٢ إحلال الاقتصاد المركزى المخطط محل الاقتصاد الحر. تمصير ثم تأميم "ممتلكات الأعداء" (الممتلكات البريطانية أساساً والفرنسية والمصارف اليهودية وشركات التأمين والمؤسسات الصناعية والأراضى).

١٩٦٥ وفاة مصطفى النحاس؛ الجموع تسير فى جنازته.

١٩٦٧ مصر وسوريا توقعان حلف دفاع مشترك فى فبراير.
إسرائيل تهجم على مصر وتدمر سلاح الطيران فى حرب الأيام الستة.

١٩٦٨ درية تطلب الطلاق.

١٩٦٩ عبد الناصر يعلن حرب الاستنزاف.
مولد نازلى، أول حفيدة لدرية من ابنتها جيهان وزوجها على.

١٩٧٠ أيلول الأسود والقضاء على الفلسطينيين فى الأردن. عبد الناصر يتدخل. موت عبد الناصر بأزمة قلبية فى ٢٨ سبتمبر. أنور السادات (١٩١٨-١٩٨١) يصبح نائبا لرئيس الجمهورية فى مصر.

١٩٧١ السادات ينجو من محاولة الانقلاب المعروفة باسم ثورة التصحيح، وذلك فى ١٧ مايو.
درية تزور ابنتها عزيزة فى شمال كارولينا وترى شريف، أول حفيد لها.

١٩٧٣ حرب أكتوبر وبدء المفاوضات مع إسرائيل لاسترجاع سيناء.
السادات يبدأ تحوله نحو الغرب وفى اتجاه تحرير الاقتصاد بإعلانه سياسة "الانفتاح".
مولد هدايت، حفيدة درية الثانية من جيهان وعلى.
بداية الاكتئاب عند درية؛ وهى تبدأ أيضا كتابة النص الثالث لمذكراتها.

١٩٧٥ تضع درية حداً لحياتها فى ٢٠ سبتمبر بأن تلقى بنفسها من شرفة مسكنها بالدور السادس.

الصحوة (١٩٠٨ - ١٩٢٨)

"أريد الإمساك بذلك الخيط غير الواضح الذى يربط وجودى الشخصى بتاريخى" وبتـــاريخ وحضارة بلادى. ومصر التى عرفــت فـــى سنينى الأولى، مصر تهبّ من ســـبات آلاف السنين، بدأت تعى بعذاباتها الطويلة - بــدأت تعرف أن لها حقوقا. ولقد فهمت وأنـــا بعــد طفلة أن إرادة المرأة قد تعلو على القانون."

درية شفيق
"مذكرات" (١٩٧٥)

(١)

بين قطبين ١٩٠٩ - ١٩٢٨

أرى نفسى أمام نافذة ضخمة تطل على النيل. تمسك بى مربيتى وتدندن بلحن كله شجن وحنين لوطنها سوريا. منظر النهر يسحرنى بجماله، يملؤنى بإحساس لا يوصف باللانهائى. شعاع من المطلق. وأطل باحثة عن نهاية النهر ولكنى أفاجأ بألم القيد ويد المربية تجرنى لتعيدنى إلى مقعدى. وفى نفس الوقت أرى أمى وجدتى تجلسان على أريكة عريضة أمام النافذة، تحتسيان أقداحا متعاقبة من القهوة. ترتشفانها ببطء وبلطف من الأقداح الصغيرة التى تشبه الأقماع، وكأن الزمن قد أصبح بلا حراك. وإذا كانت تلك الصور تتزامن فذلك لسبب واحد، هو أن أمى - مثلها مثل النيل - بهرتنى بجمالها وحضورها ونقلت إلى إحساسى الأول بالجمال. وراحت طفولتى تنساب بين هذين القطبين.

هكذا تستهل درية شفيق مذكراتها بنظرة حنين إلى هذا المشهد العاطفى من طفولتها، وتعرفنا بالوسط الاجتماعى والتاريخى الذى كانت تعيش فيه، وكذلك بالتجارب الأولى الأساسية التى ساعدت على تشكيلها "كباحثة دءوبة عن المطلق". وما تخيرته من استعارات يقودنا نحو فهم أعمق لشخصيتها، نكتشف من خلاله الخيوط الرئيسية والمحاور الأساسية التى اختارتها لتنتظم حياتها حولها.

ولدت درية شفيق فى ١٤ ديسمبر ١٩٠٨ فى طنطا عاصمة محافظة الغربية، فى بيت جدتها لأمها. وجاء ترتيبها الثالث بين إخوتها الستة والطفلة الثانية لرتيبة ناصف 'بك' وأحمد أفندى شفيق. والأبوان من طنطا وإن جاءا

من طبقتين مختلفتين كما هو واضح من اختلاف الألقاب. فكثيرا ما كانت الألقاب تمنح للذكور من العائلات ذات النفوذ استمرارا لنظام السلطة الذى ساد مصر منذ كانت جزءا من السلطنة العثمانية التركية. وفى مجتمع طبقى متشدد كانت هذه الألقاب مرغوبة كعلامات من علامات المكانة الاجتماعية. وكان أرفع تلك الألقاب، خارج دائرة أسرة الخديوى المالكة، لقب 'باشا' الذى اقتصر على الأثرياء من ملاك الأرض والنفوذ وعلى كبار الساسة، من سليلى الأتراك الشراكسة أو المصريين. أما لقب 'بك' وهو أدنى مرتبة، فكان يمنح لرجال من أعضاء الفئات الحضرية البارزة كالمحامين والأطباء وأثرياء التجار؛ كما كان يمنح لأسر الأعيان فى الأقاليم. ولقب 'أفندى' كان من حق صغار الموظفين فى الحكومة الخديوية، وهو أقل الألقاب مرتبة وإن كان أعلى قليلا عن مستوى السواد الأعظم من فقراء الفلاحين فى البلاد.

وكانت مصر فى بداية هذا القرن مجتمعا تضافرت فيه عوامل أدت إلى خلق ظروف أزمة مكثفة وطويلة الأمد. فهزيمة أحمد باشا عرابى عام ١٨٨٢ وما أعقبها من احتلال بريطانيا العظمى لمصر كانت إيذانا لنهاية عصر وبداية عصر آخر من تاريخ مصر الحديث. وعملية الإصلاح وإعادة بناء الإدارة المصرية والاقتصاد التى فرضتها السيطرة المالية الأوروبية على البلاد أدت إلى نشوء ظروف شبه إقطاعية ولدت حواجز اجتماعية واقتصادية كبيرة تفصل بين الطبقات الاجتماعية؛ كما أنها عجلت بتخمر الأفكار التى ولدت فى عهد محمد على مؤسس الأسرة المالكة فى مصر وهى أسرة انتهت بتنازل الملك فاروق عن العرش عام ١٩٥٢. أدت كل تلك الظروف والسيطرة الأجنبية إلى تغيرات اجتماعية اقتصادية عميقة فى مصر كلها خلال الربع الأول من القرن العشرين.

والزيجات بين أفراد من طبقات مختلفة لم تكن مستحبة أو جارية الحدوث، ولكنها كانت تتم أحيانا، خاصة بين نساء من طبقات عليا من أصل شركسى، أخنى عليهن الدهر، وبين رجال متوسطى الحال من المصريين. وفرضت مثل هذه الزيجة على رتيبة وأحمد بسبب ضغوط اقتصادية وثقافية مرتبطة بظروف ألمت بأسرة جدة درية لأمها.

وكانت الجدة هذه واسمها خديجة حفيدة واحد من كبار أعيان طنطا، حسين القصبى، فورثت بعضا من ثروة العائلة إلى جانب المركز الاجتماعى. فلما بلغت خديجة الثانية عشرة زوجتها أسرتها من رجل ثرى يكاد يكبرها بعدد سنين عمرها. ولما بلغت العشرين كانت قد ترملت ورزقت

بنات ثلاث. وحالت المحظورات الثقافية دون عيشها وحدها لأنها لم تـرزق بصبى، حتى وإن سمحت لها ظروفها المالية بسبب ما ورثته عـن زوجـها ووالديها بحياة مستقلة وبحبوحة من العيش. فالمرأة من جيل خديجة، خاصـة وإن نشأت فى أسرة مسلمة ومحافظة من أسر الأعيان، لم يكن يسـمح لـها بحياة مستقلة حفاظا على سمعة الأسرة فى مدينتها. وبالتالى فـرض علـى خديجة العيش مع أخيها الأكبر أبو العز القصبى الذى كان يلقب محليا بالـ 'باشا' لثرائه ومركزه فى الحكومة الإقليمية.

وأصبح الباشا وصيا على أخته وبناتها الثلاث 'اليتيمـات'. فتكونـت أسرة ممتدة شملتهن كما شملت زوجته الشركسية الثريـة وبناتـه الأربـع وولديه، وعاشوا جميعا فى قصره بطنطا. وبما أنه لم يكن مـن الـوارد أن تتزوج خديجـة مرة ثانية – "فلا تتزوج بعد وفاة زوجـها سـوى بنـات الشوارع" – خضعت كل ممتلكاتها لسيطرة أخيها وتصرف الباشا فى أموالها كما يشاء باعتباره الآمر الناهى، ولم تستطع خديجة أن تنبس ببنت شـفة أو أن تسائله "لأنها كانت مجرد امرأة لا قيمة لها! بل كان عليـها أن تقبـل أن يأتى زوجها بزوجة ثانية فى دارها، لأنها لم تلد له صبيا".

وفى نفس الوقت رأت زوجة أبو العز أن من حقـها لا أن تخطـط لزواج بناتها هى فحسب بل أن تخطط أيضا لزواج بنـات أخـت زوجـها. فزوجت بناتها من رجال لا يقلون مكانة اجتماعية عن أبيهم. أما "اليتيمـات" فأعدت لهن ترتيبات أخرى. فخطبت الكبرى حفيظة لضابط بـالجيش، هـو على شفيق الذى لم يكن فقيرا ولكنه لا يملـك لا الـثراء (أى الأرض) ولا الجاه. وكان ذلك انحدارا مهينا لمكانة خديجة التى غلى مهرها حتـى شـمل عددا من الجوارى. وكان على خديجة أن تطيع أخاها (رب الأسـرة) فـى صمت وبلا احتجاج، فلم يكن لها ولد يدافع عن مصالحها ومصالح بناتـها. ورأت زوجة الباشا أن تزوج الأختين معا ، فزوجت رتيبة التـى لـم تبلـغ الخامسة عشرة بعد للأخ الأصغر لعلى شفيق وهو أحمد شفيق الـذى كـان طالبا مفلسا بالجامعة ينهى دراساته فى المهندسـخانة. وتقـرر أن تعيـش الأختان مع زوجيهما فى بيت الأخ الأكبر حلا للمشكلة المالية، فيتولـى الأخ الأكبر المسئولية المالية عن أخيه حتى يحصل على شهادته.

وتم كتب الكتاب المزدوج فورا. فإذا بالقدر يتدخل ويمـوت ضـابط الجيش فى حادث بعد أسابيع قليلة ويصبح زواج رتيبة ناصف مـن أحمـد شفيق غير ذى معنى. وعلى الرغم من افتتان أحمد بعروسـه يـوم كتـب الكتاب، إلا أن كرامته دفعته إلى أن يعرض عدم إتمام الزيجة إن شاء الباشـا

ذلك. ولكن خديجة والباشا لم يوافقا على إلغاء العقد، فذلك معناه أمام المجتمع طلاقا يعود على الأسرة بالعار. وفيما بعد شرحت خديجة الموقف لحفيدتها درية قائلة: "لما وازن الباشا الخيارين، إما الزواج من رجل فقير من طبقة أدنى أو عار الطلاق على الأسرة، قرر أن يقبل أباك باعتباره أهون المصيبتين".

وأصبح هذا التفاوت الطبقي مصدر ألم للطفلة المرهفة التي كانت تشعر أن كل من حولها يعتبر أباها أقل مستوى من أمها سليلة الحسب. "كان يحيط بأمي إحساس صامت بالهوان، فكانت تشعر بأنها أقل من بنات خالها اللاتي تزوجن بالأثرياء من ملاك الأرض. أما أبي فكان يشعر بجرح عميق. فهو يحب أمي وهو أيضا قد بلغ مستوى ثقافي رفيع بفضل جهوده، ولكنه ظل يحس بأنه من طبقة أقل. هي مأساة كانت تعيشها أسرتي وإن لم تكن واعية تماما بها".

وزاد ذلك الفارق الطبقي من وعي درية بالصفات الخاصة التي كانت تعجب بها في كل من أبويها. فاكتسبت من أمها حب الجمال ومن أبيها حب القراءة وعميق الإيمان الديني. ورغم أن حبها لأمها كان يفوق كل شئ آخر إلا أنها ارتبطت بأبيها الذي وصفته قائلة: "هو رجل عميق الفكر والورع، بادي الخجل والتحفظ المصمت، وكان مثلي تماما يحب أمي حب العبادة. وكثيرا ما كنت أسمعهم يقولون إن أمي محظوظة لأن أبي، على قلة موارده، بالغ الطيبة يكن لزوجته كل الاحترام."

* * *

وجاءت نشأة درية في السنوات الثماني عشرة الأولى من عمرها في ثلاث بيئات اجتماعية وثقافية مختلفة في مصر: المنصورة وطنطا والإسكندرية، ظلت تتذكر كلا منها، لأنها تركت أثرا خاصا في حياتها. وارتبطت تلك المدن في ذهنها بعوالم ثقافية مختلفة تثير أحاسيس متناقضة. فظلت المنصورة الذكرى الحبيبة في حياتها، حيث أمدها وجود أمها إلى جانبها بشعور من الاستقرار وإحساس بالذات. أما طنطا فكانت تمثل بيت خديجة وشعور بالأسى والفرقة والغربة، إحساس بالفوضى وعدم التنظيم وعبء العادات والتقاليد. ولكن الإسكندرية فتحت أمام درية عالما من الأفكار وملتقى الشرق والغرب. فمنها أبحرت فيما بعد نحو باريس بحثا عن مسعاها في الحصول على درجة علمية من السوربون.

فهى قد أمضت السنوات السبع أو الثماني الأولى في المنصورة حيث عين أبوها مهندسا بالسكك الحديدية. وفيما بعد عادت إلى طنطا للدراسة. وكانت المنصورة تمثل بالنسبة لها بيت أمها وما يجسده من سعادة وحب وحنان وشعور بالنظام والتناغم، إلى جانب هدوء النيل. ففرع دمياط كان يمر عبر المنصورة وتحت نافذتها. وعرفت درية آلام الفراق لأول مرة عندما تركت رتيبة زوجها وأطفالها عدة شهور من السنة تقيمها مع أمها وأخواتها غير المتزوجات في طنطا. "جدتي وأصغر بناتها، حكمت، التى بلغت السابعة عشرة ولم تتزوج بعد فقلقوا أن تظل عانسا، كانتا تعيشان معنا فى المنصورة نصف العام. أما الشهور الستة الأخرى من العام، فكانت أمي تعيشها معهن بالمنصورة وتتركنا فى رعاية بديعة المربية السورية ومن معها من خدم. فترات الفراق الأليمة هذه كانت تملأنى بقلق مخيف. وعندما كانت تتركنى أمى، تختفى الشمس من حولى وتطول الأيام فألجأ إلى متابعة المراكب تنساب على صفحة النيل تحت نافذتى محاولة نسيان ألمى وآملة فى أن يمر الوقت سريعا."

كبرت درية فى منزل محوره النساء، فلقد عاشت مع أمها وجدتها وخالتها حكمت وابنة خالتها اليتيمة زهرة، فخالتها حفيظة التى فقدت زوجها بعد زواج أسابيع قليلة، سرعان ما لحقت به وهى تلد ابنتها هذه. ثم جيش من الخدم، منهم زينب خادمة أمها والشخصية المحورية فى حياة درية الطفلة التى كان تربطها بها صلة وثيقة: "أحببت زينب إذ كانت حلوة الكلام وراوية موهوبة سحرت طفولتنا بقصصها المبهرة عن الجان." فزينب هى التى قصت علي درية قصة زواج أمها وهى التى أتت إلى البيت بالساحرة "لتقوم بأشياء وطقوس غريبة لأمي وصديقاتها." أما الآمرة الناهية فى جيش الخدم والأطفال هذا، فكانت بديعة، المربية السورية التى كانت تتكلم الفرنسية. وكانت بديعة مسئولة أيضا عن رعاية الأخت الكبرى ثريا "التى كنت أعشقها لمرحها" وعن الأخ الأكبر جمال "الذى كان سريع الغضب وعنيف ردود الفعل بسبب مرض ألم به فى طفولته الأولى وترك له ساقا ضعيفة. وكانوا يسمونه الطفل الأعرج بسبب حدته وعدم استجابته للحنان". وما بدا واضحا لدرية هو أنها كانت الأثيرة لوالدتها بينما كانت ثريا المفضلة لدى جدتها. "كانت أختى تنادينى 'لارين' [الملكة] لاهتمام أمي الخاص بى، وكنت أعتبر أمي شبه آلهة وأحلق فى سماء السعادة كلما أولتنى اهتمامها". أما باقى الإخوة، علي ومحمد وليلى فكانوا يصغرونها بكثير إذ ولدوا جميعا بعد سفرها للعيش فى طنطا، باستثناء علي.

هذه الطفلة التى تكبر فى المنصورة عشية الحرب العالميــة الأولــى بدأت تلاحظ أن الأنثى تعامل معاملة غير متكافئة بل وظالمة أحيانا. فلمـــاذا يعاقبونها مثلا إذا سارت بمحاذاة النهر ولكن من ناحية مدرسة البنين؟ ولماذا لا يسمحون لها بدخول المسجد مثل أخيها؟ ولماذا ضربت الخادمـــة زينـــب ونفيت إلى طنطا؟ لماذا تزوج زوج صديقة أمها على زوجته؟ لماذا قـــامت العرافة بطقوس حتى ترزق النساء بذكور؟ هل من السيئ أن يكون الإنســـان فتاة؟

وشعرت درية بالقلق لحمل أمها فى على، فقد سمعت الخدم يقولـــون إنها حامل فأثار ذلك فضولها. فسألت بديعة: "لماذا تلبس أمى هذه الفســـاتين الفضفاضة وتبدو ثقيلة وبطيئة الحركة؟ وكيف سيولد الطفل؟" وأجابتها بديعة: "ستجدينه يوما تحت الشجرة بالقرب من نافذتك."

ومرت الأيام ولم يظهر الطفل. "كنت واثقة أنه ما إن يظـــهر حتـــى تقطفه بديعة من الأغصان وتحمله إلى غرفة أمى فورا وجاءت جدتـــى مـــع عبديها[1] آدم، وهى امرأة سوداء ضخمة ومنقبة، لا تغادر البيت أبدا ولا تكلم أحدا، ولالا فيروز وهو أغا مخنث، يخضب شفتيه الغليظتين ويلبس طربوشا أحمر وله صوت طفل. لماذا تحمل امرأة اسم رجل؟ ولماذا يتكلـــم رجـــل بصوت طفل؟ ونهرتنى بديعة لكثرة أسئلتى. وبعد أيام قليلة كـــانت جدتـــى و"الحكيمة" فى غرفة أمى وسمعتها تصرخ. وبعد لحظات جـــاءنى صـــوت زينب مهللا : "إنه صبى" وجريت نحو النافذة ولكنى لم أفهم شيئا فكـــل مـــا حول الشجرة هادئ. وبعد أسابيع غادرت أمى غرفتها واســـتردت رشـــاقتها فتساءلت عن الصلة بين مجئ الطفل ونحافة أمى، واستفسرت من بديعة فـــإذا بها تصفعنى وتحرم على تكرار السؤال، فماذا فعلت لأستحق ذلك العقاب؟"

ومنعها رد فعل بديعة لسؤالها البرئ من التوجه إلى أبيـــها "بـــآلاف الأسئلة التى كانت تشغلنى. أردت أن أعرف منه شكل وجه الله؟ هل يشـــبه الصخرة المستديرة البيضاء القريبة من الجسر أم الأشجار القريبة من النافذة؟ ولكنى أحجمت عن طرح أسئلة أخرى تجنبا لمزيد من الصفعات" حتى عندما شاركت فى الاحتفال بسبوع أخيها الوليد.

وهذا الاحتفال مألوف فى أنحاء مصر كلها خاصة فى الأسر التقليدية فى المناطق الريفية. وهو يتم فى اليوم السابع لمولد الطفل ويكـــون الطفـــل، الذكر عادة، محط الأنظار والاحتفالات وهو اليوم الذى يسمى فيه. وســـمى

على باسم عمه، ضابط الجيش الذى مات فى حادث أليم. وطقوس السبوع تنطوى على الكثير من الرموز الثقافية وتؤكد على قيمة الذكر. "جاء على محمولا من غرفة أمي على يدى لالا فيروز فى موكب، مرورا بصفين من الشموع فى أيدى الأطفال (الذكور فى صف والإناث فى الصف الآخر) حتى أوصلوه للقس اليهودى الذى سيقوم بختانه. وارتفعت زغاريد الخدم ، وعبقت الجو رائحة البخور، وصدحت الأغانى. كل ذلك احتفالا بمولد صبى." وتساءلت درية عن يوم مولدها هى "يوم لا شك ملئ بالوجوم. هل البنون أفضل من البنات فعلا؟ ظل هذا السؤال يعذبنى طويلا، ولكن آثار الصفعة عقدت لسانى."

وفضلا عن متابعتها للطقوس المختلفة فى محيط أسرتها، كانت درية تستمع إلى صديقات أمها يروين قصص حياتهن، زوجات الأعيان "يجئن إلى بيتنا تجذبهن أمى التى كانت كالشمس المشرقة فى الكون. وعصر كل اثنين تأتى سيدات المنصورة فينفى أبى فى مكتبه وينقلب البيت رأسا على عقب". وتجلس درية فى هذه المقابلات مستمعة إلى حياة النسوة، مندهشة من عبء وأهمية تعدد الزوجات والطلاق والعار والشرف كمؤسسات متغلغلة فى نسيج المجتمع وراسخة تثقل حياة أولئك النسوة.

جو من الكآبة والتوتر معا كان يسود غرفة جلوس بيتنا بالمنصورة يوم الاثنين ذلك. وكأن صديقا عزيزا مات: أمى وجدتى وخالتى حكمت وسيدات المنصورة وزينب ودلالة (*) مطأطئة الرأس وكأنها ارتكبت جرما. أما الكآبة فسببها أخبار تفيد أن المدعى العام للمدينة وزوج صديقة أمى اتخذ زوجة ثانية ، لأن زوجته الأولى لم تأت له بصبى. وأما البائعة فقد دفعوا لها مبلغا كبيرا لتأتى بساحرة وعدت بأن تضمن مولد الصبى من السيدة فى هذه المرة. وبدلا من الصبى ولدت السيدة المذكورة توأما من الإناث فأصبحت أما لتسع بنات. وصرخت قائلة: "أريد الطلاق!"، محتجة على مجئ زوجة جديدة إلى الدار. وساد غرفة الجلوس صمت ثلجى. ونظرت مشدوهة إلى رد فعل امرأة اعتبروها حتى الآن شبه بلهاء لا حول لها ولا قوة. كما دهشت للمعارضة القوية لها من جانب سائر النساء. وقلدت جدتى حملة المعارضة لارتباطها الذى لا ينفصم بالماضى: "أنا لا أفهم هذا

(*) بائعة تتجول ببضاعتها فى المنازل لتريها للسيدات.

التمسك من جانب المرأة اليوم بأن تكون الزوجة الوحيدة لزوجها. إنكن تصنعن من الحبة قبة. فالزوجة الثانية تخفف من عبء الأولى. أتذكر بأننى سعدت لما تزوج زوجى بأخرى ووجدت فى غريمتى صديقة بعد أن مللت عشرة الخدم والأغاوات والعبيد. وجدت من أجاذبها أطراف الحديث. وحتى لما تزوج الثالثة تكاتفنا ضده إذ أصبح العدو المشترك. لا تنطقى كلمة الطلاق هذه أبدا ! فمعناه العار لك ولبناتك اللائى لن يتقدم أحد لزواجهن إذا ما تصرفت بهذا الشكل." ووقعت كلمات جدتى كالسوط على باقى النسوة فأيدنها وقالت أمى: "انسى هذه الفكرة تماما!" وأضافت جدتى: "حاربى لتحتفظى بحب زوجك و"إن فشلت مرة بل مرارا فهذا لا يعنى أنك ستفشلين دائما." وطلبوا من الدلالة أن تأتى بالساحرة مرة أخرى.

وشبت درية وسط تلك القصص الحزينة من قصص النساء، إلى جانب إحساسها بمركب النقص الذى كانت تعانى منه أمها إزاء بعض أقربائها من أفراد الأسرة الممتدة. فكلما جاءت عزيزة ابنة خالة أمها وصديقتها الثرية من القاهرة بأخبار آخر صيحة للملابس وآخر أحداث السياسة "انقلب البيت استعدادا. فلا بد 'لطنط زازا' زوجة المحامى الثرى فى القاهرة أن تشعر بأن أسرتنا تعيش فى رغد. "عقدة أمى التى لم تفارقها".

ورغم وعى درية بأن النساء يعانين من الظلم، إلا أنها فهمت أيضا أنه فى محيط أسرتها هى، أمها كانت تسيطر تماما على أبيها وعليها هى أيضا. فالأم والجدة قادرتان على الحصول على أى شئ عن طريق إشعار الأب بأن الفكرة فكرته أساسا. وكانت الكثيرات من نساء المنصورة يحسدن رتيبة على إخلاص زوجها لها وتفانيه.

الزوج الطيب أفضل من الزوج الثرى المتسلط. "ولكن أمى لم تستسلم أبدا لفكرة زواجها من موظف بسيط لا يملك سوى مرتبه. ومحاولاتها الدءوبة للاحتفاظ بالمظاهر أمام أقاربها الأثرياء كانت تثقل كاهل ميزانية الأسرة إلى حد الإفلاس. فلم يكن مرتب أبى المتواضع يكفى لتغطية استقبالات أمى، وأصبحت تلك المسألة المصدر الرئيسى للاحتكاك بين أبوى وملأتنى إحساسا بالقلق وعدم الاستقرار. وشعرت بخيبة أمل لأن أمى؛ كانت تهتم بصديقاتها واستقبالاتها وزيارات جدتى وأقارب القاهرة عندما يأتون بأطفالهم أكثر من اهتمامها براحتنا أو راحة أبى".

فأصبحت درية شاهدة حزينة على عدم المساواة الاجتماعية "التى هيمنت حتى فى محيط أسرتى"، كما أنها شعرت بوخز المذلة لكونها حبيسة طبقة اجتماعية أدنى من صورتها لنفسها، "كنت أميل دائما إلى تصنيف الأشياء والناس فى فئات وطبقات. وبما أننى كنت أدرك دائما أننى لا أنتمى إلى الطبقة التى تصورتها فى مخيلتى، ظللت أتعذب من جراء ذلك."

ولاحظت "أن بيتنا، مثل بيوت سائر متوسطى الحال فى المنصورة، يقع على ضفاف قناة فرعية تسمى بالنهر الصغير، بينما تقع بيوت الأثرياء من ملاك الأرض على ضفاف النهر العظيم." كما أدركت أن جنسية المربية من الدلالات الطبقية، فالعائلات الثرية تأتى بمربية إنجليزية كما كان الحال عند خالتها عزيزة. وشعرت بالمهانة عندما "نظرت إلى ابنتها نظرة متعالية وهى ترقب بديعة لأنها مجرد مربية سورية. وشعرت بالخزى لا لأننى أحب بديعة فحسب ولكن لأن هذا السلم الطبقى للمربيات صنفنى ضمن الفئة الأقل ثراءا بل والأكثر فقرا. فقريبتى هذه التحقت بمدرسة الليسيه الفرنسية الشهيرة بالقاهرة بينما أرسلت أنا إلى مدرسة الراهبات الإيطاليات الفقيرة فى المنصورة".

وكل لقاءات الطفولة هذه وما واكبها من شعور بعدم المساواة الاجتماعية وعدم المساواة بين الجنسين ولدت لدى درية شعورا عميقا بالغضب وزادت من حدة طبعها واستعدادها للتمرد. وبينما تتلاحق تساؤلاتها الداخلية عن أسباب ذلك الظلم الاجتماعى، انشغلت الفتاة أيضا بمحاولة فهم ماهية الله. إذ تعددت تفسيرات المحيطين بها للذات الإلهية. فهناك إله زينب التى كانت دائما تمزج اسمه بأسماء العديد من أسماء الجان والأرواح حماية لنفسها من عين الحسود وتأكيدا لصدق أقوالها. وهناك رب مربيتها المسيحية وكنيسة الراهبات" الذى أمكن لى أن أتخيله فى صورة بشرية بفضل الرسومات التى كنت أراها على الزجاج الملون." وهناك أيضا إله جدتها "وكانت تصلى خمس مرات فى اليوم لشخص غير مرئى تطالبه بانتظام بعد كل صلاة بأن يحفظ ابنتيها الباقيتين." أما أمها فنادرا ما كانت تذكر الله ،ولكن درية آمنت "أن جمال أمى دليل على وجوده." وأخيرا كان هناك إله أبيها التقى الورع "أقواهم جميعا هذا الرب الذى لا يغفر."

"كان ما قدمه لنا أبى من تفسير للذات الإلهية من التجريد، بحيث لم أفهم شيئا. فقد حظر علينا تماما أن نتمثل الله فى أية صورة مادية. وكنت أعصر مخى فى محاولة تصور خط يبلغ من الدقة ما يجرده تماما من أى

شكل مادى، فأصطدم دائما بشئ ما ملموس. وكثيرا ما كنت أعانى الأرق من التفكير فى الموضوع. وفى يوم ما بينما أتأمل النهر متحركا نحو الأفق عبر الضفة البعيدة ساورنى إحساس داخلى بأن الله هناك. وكثيرا ما كنت أصحو على صوت المؤذن فينتابنى شعور عميق بالتناغم المشوب بالاطمئنان؛ فأنسى الهموم.

وكنت لا أفهم كنه شعورى ، وإنما أظل غارقة فى سيمفونية يصعب وصفها. كل ما كنت أراه على الضفة الأخرى للنهر الصغير، مثل المئذنة، كان يبدو وأنه يسمو فى اتجاه السماء فى خشوع. وملأنى هذا الشعور الدينى الوليد بإحساس بالجمال."

ولم تشعر درية أثناء طفولتها بإحساسها بالتواؤم مع الناس قدر ما كانت تشعر به مع أمها والنهر. حتى عندما كانت تلعب "ألعابا عنيفة" مع غيرها من الأطفال، "كان ينتابنى شعور لا يطاق بالغربة. وأصابتنى صدمة عنيفة لشعورى بأننى كائن مختلف لست كالآخرين. تعذبت إذ أحسست أننى مبالغة فى التأمل بالنسبة لسنى. ولصغر سنى لم أفهم التناقض فى داخلى بين الحلم والعمل، تناقض عشته طويلا وخضت المعارك الكثيرة قبل أن أجد له حلا. وبينما كان الآخرون يلعبون ببساطة، كانت تأملاتى تكاد تشلنى عن الحركة وتحرمنى من البساطة التى حاولت أن أتمكن منها. كنت تعيسة".

وزاد إحساسها بالغربة من جراء غيبات أمها الطويلة والكثيرة. فتترك درية فى رعاية المربية والخدم فتلجأ إلى الانطواء "أستمع إلى أغانى الملاحين على صفحة النيل ؛ لأنها كانت تسحرنى وتبدد حزنى. كانت كاللحن الحزين وتتناغم تماما مع صوت المؤذن".

***

وجاءت أصعب لحظات الفراق عندما كانت درية فى السادسة أو السابعة من عمرها. إذ قرر أبواها إرسالها إلى طنطا لتعيش مع جدتها حتى تلتحق بمدرسة الإرسالية الفرنسية نوتردام دى ابوتر. وكانت المدارس الأجنبية، وخاصة مدارس البعثة الفرنسية، تلعب دورا بارزا فى تعليم طبقة معينة من النساء المصريات فى نهاية القرن الماضي وبدايات القرن العشرين. وعندما التحقت درية بالمدرسة الابتدائية، كان أكثر من نصف الفتيات فى أرجاء البلاد مسجلا فى مدارس أجنبية علمانية – قبطية أو

يونانية أو يهودية – وهى مدارس نادراً ما كانت الأسر المسلمة ترسل إليها ببناتها. وكان عدد مدارس الإرساليات الفرنسية يكاد يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المدارس البريطانية، وذلك رغم الحماية البريطانية على مصر. وافتتحت أول مدرسة إسلامية للبنات عام ١٨٧٣ (مدرسة السنية) تحت رعاية هونت، الزوجة الثالثة لإسماعيل باشا. ولم تُقبل أسر الطبقة العليا على تلك المدرسة، ففى البداية "كانوا يختارون الفتيات من بين الوصيفات المملوكات للأسر التى تربطها بالحاكم صلة القرابة ومن أسر العاملين فى القصر. أما الأسر الأرستقراطية الأجنبية فكانت تستعين بمدرسين خصوصيين أجانب، وهى عادة لم تكن منتشرة بين المصريين"(٢) وقبيل نهاية الحرب العالمية الأولى أصبح من المقبول اجتماعيا وثقافيا لدى الأسر المسلمة من الطبقة الوسطى إلحاق بناتها بمدارس أجنبية. ولكن الهدف من ذلك لم يكن إعداد الفتاة لحياة مستقلة، وإنما مدها بما يلزم لجعلها 'سيدة صالون' حتى تصبح مرغوبة لزيجة جيدة ترتبها الأسرة.

وجاء قرار إرسال درية إلى مدرسة نوتردام لنفس التطلعات الطبقية من جانب أمها (فالأم نفسها كانت فى ذات المدرسة)، وجاء كذلك لأنه لم تكن هناك فى ذلك الوقت مدارس حكومية للبنات بالأقاليم. ومما لا شك فيه أنه قرار كان من المقدر له أن يؤثر على سير حياة درية فيما بعد. فمن ناحية أسهمت تلك التجربةِ فى ارتباطها باللغة والثقافة الفرنسية، وغرّبتها عن جذورها اللغوية والثقافية العربية التى كانت تسود المجتمع المصرى. ومن ناحية أخرى زادت من شعورها بأن أمها تخلت عنها.

ولما سمعت أنها ستترك المنصورة، ساورتها المخاوف: "لم أتصور كيف يمكن أن أترك أمى، مصدر غبطتى ومصدر النور الذى إن غاب يحيل ما حولى ظلاما." ولكن أمها أقنعتها بأنه من مصلحتها الالتحاق بتلك المدرسة، فهى أفضل بكثير من مدرسة المنصورة. ودرية، فى الواقع، كانت تشعر بالكبت فى مدرسة الراهبات الإيطاليات "التى لم يجذبنى فيها شئ أبدا سوى الحديقة المترامية حيث لم نلعب إلا نادراً والبيانو الكبير فى غرفة الاستقبال والذى لم أفلح فى إنطاقه بالموسيقى رغم ما أخذته من دروس. فكنت أصغى للموسيقى القادمة من الكنيسة أكثر مما أصغى لدروسى وكان جزائى ضربات عديدة على أصابعي" وحاولت درية أن تعزى نفسها عن فراق أمها بأن تسعد لأنها ستلحق بأختها ثريا التى سبقتها إلى طنطا بسنتين. فعلى الرغم من تنافسهما على حب أمهما، إلا أن درية اشتاقت إلى مرح

أختها وتطلعت إلى "الاستقرار السعيد فى بيت جدتى وربما فى قلب جدتى أيضا."

وقطعت درية الأميال الخمسة والثلاثين التى تفصل طنطا والمنصورة فى القطار بصحبة أمها وبديعة. فلما وصلت إلى تلك المدينة البوتقة – العاصمة الباسلة للغربية وثالث أكبر مدينة صناعية وتجارية فى مصر[٣] – تحطم حلمها بأن "طنطا أجمل حتى من المنصورة" بسبب انطباعها الأول الذى كان نذيرا بالحياة المملة التى تنتظرها." بدت الشوارع قذرة والوجوه كالأشباح. كانت طنطا مدينة بلا لون وبلا ضوء وبلا نيل. مجرد قناة ضحلة من الطين. هل كان مرجع شعورى بهذا غياب أمى أم غياب النيل؟ أم إحساس داخلى بما ينتظرنى من تعاسة؟"

وكانت جدتها قد انتقلت لتعيش فى بيت خاص بها. فبعد زواج ابنتيها رتيبة وحكمت وموت كبرى بناتها وموت أخيها، لم تعد خديجة القصبى ملزمة بالعيش فى كنف رجل. وعلى الرغم من أن ظروفها المادية كانت سوف تكون أفضل لو أنها عاشت فى بيت عمها الثرى سيد القصبى (١٨٦٠ – ١٩٢٧) ابن حسين القصبى ذى النفوذ، إلا أنه سمح لها أن تعيش مستقلة فى بيت خاص بها على جزء من ممتلكات الأسرة، ورثته بعد وفاة أخيها. وبدا قرارها ذلك لدرية "احتقاراً للقيم المادية"، وهو موقف أعجبت به درية من جانب جدتها لأمها. ووضع خديجة الجديد علامة على بعض التساهل بالنسبة لوضع الأرامل. وربما كان من أسباب قرار خديجة الفارق بين مكانتها ومكانة عمها. فعلى الرغم من نفوذه السياسى ("إذ انتخب سيد القصبى نائبا عن طنطا لمجلس الشيوخ فى ٢٣ أكتوبر ١٩٢٤")، إلا أنه لم يكن يتمتع بمركز اجتماعى مرموق ("إذ كان أسمر البشرة ويرتدى الجلباب")[٤] وكان ذلك معناه عادة، حسب المفاهيم المصرية السائدة، بأنه أمىّ ومن طبقة دنيا. أما عن لون البشرة، فالسمار يشير إلى أنه من سلالة "الجوارى".

ولم تكن تربط خديجة بعمها حسين القصبى صلة رحم. فكثيرا ما كان الرجال من جيل حسين، من أسر أثرياء الأعيان فى الأقاليم، يتخذون أكثر من زوجة إلى جانب المحظيات. وكان من المعروف فى الأسرة أن السيد هذا نتاج علاقة بين أبيه وجارية سوداء، مما يضعه فى مركز اجتماعى أدنى من مركز خديجة. ولم يحل ذلك دون جمعه لثروة كبيرة من زراعة القطن والاتجار به أثناء الحرب. وتمكن من شراء النفوذ والمركز الاجتماعى

عن طريق السياسة، إذ اتسمت السنوات العاصفة التى تلت الحرب العالمية الأولى بالحركات الوطنية وبصعود سعد زغلول وحزب الوفد، فأصبح سيد القصبى شخصية مرموقة فى طنطا "فكان الناس يتهامسون بأن السيد أثرى من أموال جدتي، وأن حزب الوفد بدوره ملأ خزائنه من أموال السيد، مما يفسر اختيار الوفد له نائبا عن الغربية. وعندما أقارن ذلك الرجل صاحب النفوذ بأبى اللامع الذى لم يظهر اسمه فى جريدة أبدا، كنت أشعر بالغثيان إزاء النفوذ غير العادل للمال."

وكما أثارت طنطا نفورها من كل ما يتمثل فى شخصية السيد القصبى، حركت أيضا مشاعرها الدينية متمثلة فى شخصية السيد أحمد البدوى، المتصوف الإسلامى الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر، والذى ولد فى فاس عام ٥٩٦ هجرية، سليلاً لأسرة من مكة. وقد حصل على تعليم إسلامى مكثف في شبابه فاتجه إلى التصوف ، وأدى فريضة الحج ثم سافر إلى العراق ليلتقى بأقطاب الصوفية، واستقر به المقام أخيرا فى مدينة طنطا. وآمن الناس بقدراته الخارقة على الشفاء، فتوافدوا، ومازالوا يتوافدون، بالآلاف كل عام فى شهر أكتوبر للاحتفال بمولده. وأقيم له مسجد فى طنطا، يجيئه المسلمون من كل فج، من الهند والباكستان، قبل المولد بثلاثة أسابيع، فينصبون الخيام حول المدينة ويقيمون الشعائر ويتلون القرآن ويوزعون الذبائح على الفقراء ويتبادلون الأساطير الخارقة بمصاحبة الدفوف وإيقاع أهل الذكر وهم يرتلون القرآن ويمدحون الرسول.

واصطحبت زينب، خادمة الأم، درية إلى مولد السيد البدوى مرة. وتصف الفتاة فى مذكراتها ما انتابها من مشاعر عند زيارة قبره: "اصطفت على جانبى الطريق تلال الحمص فى هيئة أهرامات صفراء يضئ بريقها المدينة كالمصابيح. وعلى الأرصفة بائعو السمسمية والحلوى وعشرات الفتيان بجلاليبهم يرتلون الآيات ويطوفون بالضريح وعلى أكتافهم شيلان خضراء عريضة عليها كتابات دينية. وفى داخل المسجد أسوار فضية عريضة تحيط بقبر الشيخ تتدافع جموع المرضى للمسها آملة الشفاء. وتشير زينب إلى ركن من المسجد خاص بجدتى وعمها. فانتسابهم إلى السيد البدوى (ومن ثم للنبى نفسه) يتيح لهم أن يدفنوا بالمسجد. وجلست استمع إلى الإنشاد الدينى الذى حملنى بعيدا عن الجموع. ولم أكن قد سمعت تلك التواشيح من قبل، فبدت وكأنها تنبثق من أعماقى. فتذكرت كنيسة المنصورة التى كنت أرافق مربيتى إليها كل أحد حتى أكتشف أبى ذلك فمنعه. وامتزجت تراتيل

الكنيسة بالإنشاد من القرآن فشعرت برحمة الله التى لا حدود لها. وذكرنى إيمان زوار السيد بإيمان أبى العميق. وتأثرت كثيرا."

وباستثناء لحظات السكينة القليلة التى كانت تنبع من مشاعرها الدينية ومن زيارات أمها. لم تشعر درية أبدا بالراحة فى بيت جدتها حيث "كنت أعيش كالغرباء." كان يسود البيت "مناخ قبائلى يضع مصالح المجموعة فوق مصالح الفرد."، وشعرت بأنه لا حيلة لها. حتى أن هندسة الدار بدت كالمتاهة." فالطريق من المطبخ إلى غرفة المائدة كان يمر بغرف النوم والطريق من غرف النوم إلى الحمام كان يعبر غرفة المائدة. سيل لا ينقطع من البشر المنهمكين يتحرك صاعدا وهابطا السلالم الخفية العديدة، فلا يكاد المرء يصعد درجتين دون أن يصطدم بخادم أو بباب. شعرت وكأننى سفينة جانحة وشعرت بداخلى بداية تمرد أخرس إزاء إنكار وجودى! وبدأت عذاباتى."

ومن المصادر الأخرى للشعور بالبلبلة من تجاربها وهى طفلة، معنى الحب وكيف أن المرأة تتعرض للعقاب إن اعترفت بأنها "وقعت فى الحب". ففى عيد شم النسيم، فى عام من الأعوام، لما عادت درية إلى المنصورة مع جدتها لقضاء عطلة مدرسية طويلة مع أسرتها، رأت ما يمكن أن يحل من كوارث بامرأة تفصح عن حبها علنا. إذ كانت بديعة تغار من حيوية زينب ومرحها، فأخبرت سيدتها بأن زينب بعثت برسالة ومعها هدية من الحلوى إلى طاهى الجيران:
"وبدأت أمى بتجاهل الموضوع بابتسامة، ولكن جدتى أبدت امتعاضها وعصفت ببيتنا زوبعة. فأغلقت زينب على نفسها الحمام تلطم خديها وتشد شعرها مولولة: "آه لو سمع سيدى بالأمر!" فالجميع كان يعرف صرامة أبى في كل ما يتعلق بالشرف، فمن واجب الرجل أن يصون شرف الأسرة. وأقسم إخوة زينب أن يقتلوها. ولما عاد أبى وعرف ما حدث، ضرب زينب ضربا مبرحا بلا شفقة. "وكانت أول مرة أرى فيها أبى الدمث الخجول يضرب أحدا. وانتابتنى الحيرة. هل الحب خطيئة؟ كيف أفسر إذن حب أبى الكبير لأمى؟ لماذا يختلف ذلك عن حب زينب للطاهى الذى بدا هو أيضا وكأنه من وحى المطلق؟ وأرقتنى تلك الأسئلة، لماذا يعتبرون شيئا جميلا مثل الحب محظورا؟ ماذا أصبح أنا بدون حب أمى لى؟ وظلت أسئلتى بلا إجابة ، ولكنى تعلمت أن آخذ حذرى. فلا يجب أن أحادث ابن الجيران من الشرفة أبدا."

وزاد من قلق درية ما ألم بزينب بعد سقطتها. فقد تولت رتيبة وأمها ترتيب زيجة لزينب لا من الطاهى ولكن من خادم سابق لخديجة، عجوز وأعور يمتلك دكان نجارة فى طنطا ولم يتزوج بعد. وكانت الخطة تقتضى منحه ثلاثين جنيها مما اقتصدته زينب فى مقابل أن يتزوج من فتاة مستها "الفضيحة".

ولف الحزن زينب التى كانت منبع المرح والحيوية فى البيت ومصدر القصص والمحاكاة للترفيه عن السيدات والأطفال. وتبخرت أحلامها بالجمال والحب. وأصبح قدرها أن تعيش ما تبقى لها مع زوج يبلغ من العمر ثلاثة أضعاف عمرها، ويسئ معاملتها فى كل مناسبة. وكم سمعت زينب تشكو لأمها فتكرر عليها الأم نفس الكلمات: على المرأة الصبر والاستسلام! وبعد فترة لم أعد أرى زينب، فقد أسلموها لحزنها أو لقدرها، بلغة القدرية التى أحاطت بى وأنا أكبر.

وعلى الرغم من لطف أبيها ومعاملته الطيبة لأمها، إلا أن درية شبت فى جو تعانى فيه المرأة، ثرية كانت أم فقيرة، من زواجها وتعيش تحت رحمة الرجل عرضة لتسلطه، ذلك التسلط الذى أصبح طبيعة ثانية. وبدأ سيد القصبى دليلاً حيا على ذلك:

كانت زوجته الأولى جارية زنجية يجبرها بالضرب على الإجهاض فى كل مرة. فباعتباره الابن الأسود لجارية سوداء، وبسبب ما عاناه من مهانة وهو طفل، لم يرغب فى طفل أسود. فأعلن أنه "سوف يرزق بذكور بيض البشرة". ودعت زوجته الله أن يحرمه من الذرية. فاستجاب لها ولم ينجب من زوجات ثلاث بعدها. أما الرابعة، فكانت لبنانية اختارها ؛ لأن شقيقاتها ولدن لأزواجهن سبعة ذكور، ولكنها لم تلد رغم اللجوء للساحرات والقابلات، وقضت عمرها فى رغد رتيب محرومة من كل غذاء روحى حتى أصبح الرغد غير محتمل، مثله مثل البؤس تماما. وتساءلت أيهما أتعس: اللبنانية الثرية أم زينب الفقيرة؟ ولم تكن الإجابة سهلة.

ولم يقتصر ما شاهدته درية من قمع وظلم على مؤسسة الزواج. فقد خاب أملها فى مدرسة نوتردام لصرامة المعاملة "التى كانت عادة ما تسود فى المؤسسات الدينية." وتذكر أن راهبة صفعتها لأنها كانت تقرأ كتابا "ليس لسنها"، وبأنها اتهمت مرة ظلما بالاستيلاء على قلم فتاة أخرى، وتتذكر إحراج قريباتها الثريات لها فى نفس المدرسة لأنها ليست "من بنات ملاك الأرض." يبدو أنها كانت تستعيض عن تلك التجارب الكئيبة بالانتماء إلى "التراتيل الصاعدة من الكنيسة" والتى، وإن اختلفت، كانت تذكرها بنداء المؤذن.

صوت المؤذن يحرك ذكرى مجد قديم. أما تراتيل الكنيسة فكانت تملأنى بعظمة المجهول. فوراء تلك النوافذ ذات الزجاج المفعم بملايين الألوان (مازلت أراها!)، يقع عالم الأحلام. التحليق نحو اللانهائى والمطلق. ولم يكن يسمح لنا كطالبات مسلمات دخول الكنيسة(٥)، وبالتالى فلم أرها من الداخل الذى كان يخفى أحلامى العريضة. وأذكر تأثير الأضواء البراقة المنسكبة من الزجاج الملون فكانت وسيطا بين خيالى الجامح وبين ما تصورت أنه بالداخل، أى ما هو بعد الواقع. كل بهاء الحلم. كانت موسيقى الكنيسة تحمل الى رؤية جديدة ولغة جديدة.

وتشكل حسها بالجمال بفعل تأثير الديانتين العظمتين، إذ تغلغل كل ذلك فى وجدان طفولتها المبكرة.

أما عن شهر رمضان فكان رمزا لانتمائها كمسلمة: "كان رمضان هو موسم تتشبع فيه الأشياء والكلمات بروح الإيمان، حتى أن شاعرية القرآن نفسها ترقى بالحياة البشرية نفسها إلى مستوى المطلق." وارتبطت لحظات رمضان هذه فى ذاكرة درية بالمقرئة الضريرة التى كانت تقضى الشهر كله فى بيت جدتها.

كان لترتيلها مذاق الحياة نفسها. كثيرا ما كنت أجلس إلى جوارها على الأريكة (فلم تكن تجلس على الأرض كالخدم احتراما للقرآن). وما إن يرتفع صوتها بالكلمات المقدسة حتى يسود الصمت إلى أن تنتهى من ترتيلها. وكنت أطلب إليها أن تنشد سورة مريم وأنصت إليها بفيض من العواطف، أنعم بالسكون الذى يحل ببيت جدتى بدلا من الفوضى المعتادة.

كنت أشعر أننى ارتفعت إلى مستوى آخر يسوده النظام والتناغم والحب وسلام الروح. فكنت أحبس أنفاسى عند سماع الآيات التى تصف لوعة العذراء. فكان لعذاباتها من الجمال ما جعلنى أحب العذاب![٦] وفهمت بإحساسى الداخلى وأنا بعد طفلة أن بالعذاب والحب يبلغ الإنسان المنتهى.

ويأتى عيد الفطر دائما بالبهجة لأن أبويها كانا ينضمان للأسرة ويحتفلان معها فى ضيعة جدتها الواقعة فى ضواحى طنطا. وبمناسبة عيد من أعياد الأضحى، اكتشفت درية أن أمها تعانى من مرض خطير فى القلب، عمق من توجسها.

وكانت الأم حاملا فى طفلها السابع وهى بعد فى بداية الثلاثينيات من عمرها وعلى الرغم من أزمات قلبية متكررة وتحذيرات الأطباء بأن حملا جديدا سيودى بحياتها.

بدأ العيد بداية سيئة. ففى الفجر جمعوا كل الأطفال فى الشرفة ليشاهدوا ذبح خروف العيد. ووصلنا لحظة الذبح فوقعت مغشيا على. "حساسية مبالغ فيها. "رنت الكلمات فى أذنى وكأنهم يعلنون أننى أعانى من مرض عضال، ولكن وجود أمى سرعان ما خفف من آلامى. فوجودها معى، بل مجرد وجودها (حتى بعيدا عنى) كان بلسما. وبعد مرور الصدمة، والنهار يشرف على نهايته، حدث ما هو أسوأ إذ أتوا بالطبيب على عجل وارتسمت على وجه أبى علامات القلق ولكن إشراق أمى ومعرفتى بأنها لا ترقد فى فراشها أبدا طمأننى. وأقنعت نفسى بأنها وعكة عابرة وإن انتابنى شعور لا يوصف بالخوف. هل من الممكن أن تموت أمى"؟ كلا! فالله لن يسمح بذلك! ثم إن جدتى كانت تصلى الفروض الخمسة يوميا. وقررت أن أصلى أنا أيضا. وكانت

تلك الليلة من أكثر ليالى سوادا. وسمعت أمي تقول لأبى: "قبل أن أموت، أريد أن أؤمن مستقبل درية، كما فعلت بالنسبة لثريا." (أختى الكبيرة التى تمت خطبتها من قريب لوالدى يدرس الطب بالقاهرة). "فإذا ما زوجت الكبيرتين، ضمنت أن تتناوبا رعاية ليلى." نزلت على كلمات أمي كطعنة خنجر. ونهرها أبى بلطف مؤكدا لها أنها فى تمام الصحة. ولكن صوت الدموع فى كلماتها كشف لى الحقيقة المريعة."

وبعد أيام، قاموا بترتيب خطبة درية لواحد من أقارب سيد القصبى، "رجل رأيته مرة واحدة ومن بعيد يوم عرس خالتى حكمت. كان غنيا، وذلك فى نظر أمي خير ضمان لمستقبلى." وتقرر عقد القران عند عودته من ألمانيا حيث يدرس الطب، وتكون درية قد بلغت السادسة عشرة من عمرها. ترى ماذا كان شعورها؟ "وضع دبلة فى إصبعى فكانت إيذانا بانهيار كل أحلامى بمستقبل من الحرية! وكأنهم أوصدوا بابا على المجهول بكل كنوزه الخفية. حزنت وشعرت بأن الزواج مجرد مخرج فى ظروف عصيبة".

ولم يكن بمقدور درية، التى لم تبلغ الثالثة عشرة بعد، أن تغضب أمها، خاصة وأن حياتها فى خطر ، ولذا "لم تحتج على ما أعدوه لها من مستقبل" وتحملت مصيرها فى استسلام أليم. ثم عادت إلى المدرسة وظلت تتطلع إلى العطلة الصيفية فتجتمع الأسرة مرة أخرى فى ضيعة الجدة وتنعم درية بقرب أمها الحبيبة. ولكن ذلك التجمع العائلى السعيد تحول إلى كابوس:

"كم كنت سعيدة! لم أكد أصدق أننى سأكون مع أمي لمدة شهرين كاملين. فظللت لصيقة بها حتى لا أضيع لحظة واحدة. وكانت الأسرة تحيط بنا، وبدد إشراق جمالها ومرحها الذى لا يضاهى كل أفكارى السوداء عن مستقبلى. كانت أمي ساحرة، إذ بلغت ذروة جمالها فى سن الرابعة والثلاثين. وصحوت فجر يوم على صوت كئيب لنساء تولولن فهرعت إلى حجرة جدتى. وأوقفتنى خادمة

معلنة: "ماتت أمك!" فانشقت الأرض تحت قدمي. وبحثت عن دموعي سدى. وقفت مشدوهة، وكأنني معلقة في الفضاء!"

فكان فقدان الأم أفظع تجربة مرت بدرية في طفولتها. فكتبت متذكرة تلك اللحظات في مذكراتها بعد مرور خمس وثلاثين سنة تقول: "ظل ذلك اليوم في ذاكرتي صدمة عميقة لا برء منها، جرح من العمق بحيث ترك على حياتي كلها بصمة خراب. أشعر وكأني أعود إلى خلاء فسيح من الحزن ويقع القلم من يدي وكأنه لا يريد الكتابة. مذعورة أنا، فالعودة إلى تلك الفترة الحاسمة من طفولتي مؤلم" ووسط هذه الكلمات التي كتبتها بالفرنسية، خطت درية هذه الأبيات القصيرة: "كل تلك الجدران الشاهقة المظلمة التي تنهار على رأسي."

وأرسلت درية فورا مع باقي الأطفال والطاهية إلى طنطا، حيث يتم دفن أمها بمدافن الأسرة. وفي وسط الفوضى التي أعقبت الوفاة، اشترت الطاهية خطأ تذاكر سفر من الدرجة الثالثة، فتسببت في موقف زاد من اكتئاب درية ومن شعورها بأنها أصبحت الآن "يتيمة". وهالها صراخ وبكاء المعزيات وهي تدخل بيت جدتها، كما لاحظت وقار صمت الرجال الذين اجتمعوا في سرادق خارج البيت – رجال "احتفظوا بنوع من الصمود في مواجهة الموت" – مقارنة بعويل النساء داخل البيت "وكأن النار قد شبت بالدار". ولم يتقدم أحد ليحتضنها في تلك اللحظات الأليمة، أو ليخفف عنها. فلم يكد أحد يلحظ الطفلة الضائعة الوحيدة في الضجيج:

كل النسوة كن يلطمن الخدود علامة على الحزن ويتشحن بالسواد. من أين جئن – كل هذه الأعداد الغفيرة، داخل الغرف وعلى الدرج وفي كل مكان به موطئ قدم؟ تحولت الدار إلى بقعة هائلة من السواد، وكذلك قلبي! وكانت جدتي وسط هذا الجنون صورة للبؤس. مستسلمة لإرادة الله! وحاولت أن أصل إليها فمنعوني. وشعرت كمن يغرق في بحر من الطرح السوداء. وارتفع العويل فجأة والنعش يغادر الدار بصحبة الرجال.

وحاولت الوصول إلي النافذة لأرى أمي مرة أخيرة. ولكن كيف أقتحم هذا الجمع المجنون؟ دفعوني إلى الوراء. فكرت في الشرفة ولكني تعثرت على الدرج. شبح طفلة.

ونقل أحمد شفيق إلى القاهرة بعد موت زوجته فترك أولاده الثلاثة وصغرى بناته ليلى فى رعاية بديعة بالمنصورة، أما درية وشقيقتها الكبرى ثريا فظلتا فى بيت جدتهما بطنطا. ومرت السنتان التاليتان على درية وهى بائسة، تشعر بفقدان أمها وتشتت أسرتها. وهى لا تذكر أن الأسرة "تجمعت كلها" بعد ذلك أبدا، "إلا لفترات قصيرة"، ولم تعد أبدا إلى المنصورة طيلة حياتها. "فما من شئ فى الوجود يجعلنى أطأ أرض تلك المدينة ؛ حيث يمكن لآلاف التفاصيل أن تعيد ذكرى الماضى". ومن هذه اللحظة "انطوى أبوها على نفسه وعلى حزنه، وفيا لآخر يوم فى حياته لحبه المطلق لأمى". ومع ذلك رأت درية "أن هذه الوحدة المظلمة التى اختارها أبى لنفسه لم تكن سلبية أو خالية من المضمون. فبعد موت أمى كرس حياته لتربية أطفاله وبذل قصارى ما عنده مع كل واحد منهم وفرض على نفسه الحرمان موجها حبه غير المحدود لأمى نحو أطفاله. وبعد سنوات وأنا أقرأ لبلزاك، رأيت فى أبى صورة الشخصية العظيمة للأب جوريو".

ومع بعدها المتزايد عن أسرتها، شعرت درية بمزيد من الوحدة والضياع. وأصبحت تلك المدينة التى لم تحبها أبدا منذ البداية، مدينة لا تطاق بعد موت أمها. وأصبحت جدتها مثالا للحزن المأساوى – تبحث عن السلوى فى الإيمان، تؤدى صلواتها اليومية وتقضى يوم الجمعة عند قبر ابنتها، مصطحبة درية. ولكن بكاء درية المرير منعها من مصاحبة جدتها بعد ذلك. وتقول أختها الصغرى ليلى "تحطم قلب درية فكانت لا تكف عن البكاء وتغلق بابها على نفسها أياما لا تكلم فيها أحدا."(٧) وتصف درية نفسها فى سمونه الطفل الأعرج بسبب صحراء بلا دليل. شعرت وكأنى أتحول إلى ذلك الكائن الضخم المريض. تعيش على هامش ما يحيط بها ولا تهتم بما يهتم به الآخرون ... تراهم يكفون تدريجيا عن الاهتمام بها. ووجدت نفسى على حافة الهاوية ... فدفعنى ذلك إلى المقاومة. حتى أتمكن من أن أدير ظهرى لحزنى ... لا أقول أتمكن من النسيان. ولكنى كنت احتاج إلى الفعل، فأغرقت نفسى فى الإعداد للامتحان."

وأصبحت المدرسة مخرجا من اليأس. فبرعت فى دراستها حتى إنها نقلت إلى فصل أعلى أثناء السنة الدراسية فحصلت على شهادتها فى نفس السنة التى حصلت أختها عليها فيها. وأسعد ذلك أباها "الذى كان يزورنى كثيرا فى طنطا مسرورا بنجاحى فى الدراسة." ثم عاد خطيب ثريا من إنجلترا بعد أن أنهى دراسته. فتزوجت أختها وهى فى السادسة عشرة إذ لم تعد الدراسة تستهويها، وانتقلت للعيش بالإسكندرية إلى حيث نقل أبوها أيضا. وزواج الأخت جعل درية تدرك أن خطيبها هى لا محال عائد من ألمانيا، فطاردتها فكرة ذلك الزواج المفروض وأشعرتها "بعبء يتزايد مع كل يوم. ولكن كيف التخلص من الموقف؟".

فكرت درية فى مغادرة طنطا لتعيش مع أبيها فى الإسكندرية، ولكنها لم ترغب فى إيلام جدتها "التى كانت ترى فى صورة ابنتها" وكانت درية على يقين بأن "رغبتها الملحة فى السفر سوف تدفعها يوما إلى الرحيل". فانتظرت الوقت المناسب وكتبت لأبيها طالبة أن يأخذها معه إلى القاهرة لقضاء عطلة العيد. ووافق أبوها فرحا وانتهز الزيارة ليريها "الآثار العظيمة فى العاصمة". "واكتشفت النيل مجددا، ذلك الصديق القديم، حتى أننى لم أجرؤ النظر إليه فى وضح النهار. ورحبت بى الأهرامات من أرض أجدادى البعيدة! ودق قلبى عند أقدام أبى الهول وغصت فى نظرته وسمعته يقول "يا درية لا تيأسى".

وسواء شعر أبوها بتعاستها أو طلبت هى منه مباشرة، فالأمر غير واضح إلا أنه أخبر خديجة بعد تلك الزيارة بفترة وجيزة أنه يريد لدرية أن تعود معه إلى الإسكندرية لتعيش هناك. واعترضت الجدة بأن وجود درية يعوضها شيئا من غياب ابنتها. ولكن درية استجمعت شجاعتها واستحثت إحساسها بالتحرر وأخبرت جدتها بأن: "أريد العيش مع أبى وأطلب منك إخبار السيد القصبى بأننى متنازلة عن الزواج من قريبه." هكذا أعملت درية إرادتها وفسخت الخطبة ورحلت مع أبيها إلى الإسكندرية.

فكانت الإسكندرية فاتحة فصل جديد فى حياتها. كل ما فى المدينة مغاير تماما لطنطا. وعندما جاءتها درية عام ١٩٢٤ لم يكن بها الكثير من معالم المدينة اليونانية القديمة التى عرب اسمها إلى الإسكندرية[٨]. وصارت ملاذا عاطفيا لدرية وتجديدا بعد أحداث طنطا، ملاذا كانت روحها الحساسة والشاعرية تصبو إليه. فبينما كانت طنطا مظلمة ومغلقة على نفسها بتقاليدها، كانت الإسكندرية مضيئة ومفتوحة لكل ما هو جديد من أفكار. وبينما كانت

طنطا حبيسة الأرض المحيطة بها، كانت الإسكندرية تختال محاطة بالماء – المتوسط شمالا وبحيرة ميريوتس جنوبا. ولما رأت درية البحر لأول مرة، أعاد إليها ذكريات النيل المحببة فى المنصورة وكانت تقضى الساعات تتأمله "كان اتساع البحر يشعرنى وكأنه رسول قادم من عند المنتهى. واكتشفت الطبيعة بعمق جمالها، تهمس لقلبى وتشكل أحلاما بديعة بالعبور للجانب الآخر."

التحقت درية بمدرسة القديس فنسان دى بول التابعة للإرسالية الفرنسية وبدأت تعد لشهادة الـ "بريفى".(٩) والتقت فى المدرسة بفتاة يونانية سرعان ما خلعت عليها اسم "ذات الأنف الأفطس"، وأصبحت الصديقة الأولى والوحيدة من صديقات الطفولة. وجمعتهما الرغبة فى التفوق، ونجحت درية فى اختصار عام دراسى، فتقدمت للامتحان مع صديقتها وتوجهتا إلى القاهرة حيث لجنة الامتحان، وكانت الصديقة ترتعد خوفا فأرادت درية أن تطمئنها فبدلت هجاء اسمها بالفرنسية فى الاستمارات حتى تجلس إلى جانب الصديقة. ونجحت الفتاتان بامتياز، ولكن درية لم تشعر بالارتياح بعد: "مازال بداخلى فراغ لم يملأه شئ منذ موت أمى."

فكرت بالعمل كسكرتيرة وبحثت فى إمكانية دراسة الاختزال والآلة الكاتبة فى معهد من المعاهد الأجنبية بالإسكندرية. ولكن أباها وثريا رفضا: "لن يقبل رجل من أسرة كريمة الزواج منك. وسوف ينظر إليك الجميع باستعلاء." أما درية فكانت تريد أن تفعل شيئا بحياتها، تريد عملا: "وقررت أننى لو امتهنت عملا فلابد من أن أصل فيه إلى القمة." واستعدادا لهذه "المهنة المجهولة" قررت أن تتقدم لشهادة البكالوريا الفرنسية، وذلك يتطلب التسجيل بمدرسة الليسيه للبنين فى الإسكندرية للدراسة سنتين أو ثلاث سنوات. وبدت المدة طويلة أمام درية، "كنت فى عجلة للوصول إلى المستقبل الذى كنت أراه دائما يجرى أمامى." كذلك لم تقبل فكرة قضاء أكثر من عطلة صيف فى فراغ. فبدأت الاستعداد للامتحان من منزلها، آملة فى أن تنجز فى شهور قليلة ما يتطلب من الآخرين أكثر من عام. وأقنعت صديقتها اليونانية بالانضمام إليها فيما أسمته: "مغامرة حقيقية بكل مخاطرها ومشاعرها وبالالتزام فى العمل المطلوب لإنجاحها." وبعد أربعة شهور من الدراسة المكثفة نجحت الفتاتان فى الجزء الأول من الامتحانات، بل وجاء ترتيب درية ضمن الثلاثة الأوائل فى البلاد. وتحكى درية أن أحد الممتحنين القادمين من الخارج استمع إلى إجابتها على سؤال فى الامتحان الشفوى، سألها فى أى مدرسة استعدت للامتحان. فأجاب قس من الحضور: "فى

مدرسة الإرسالية الفرنسية." وأعرب الأستاذ الممتحن عن دهشته ، إذ كان يعرف أن المدرسة المذكورة ليس بها برنامج للفتيات. فأجاب القس: "ولكننا سنضع برنامجا لهن من الآن فصاعدا."

وظل إحساسها بالفراغ قائما رغم النجاح. فقررت الفتاتان التقدم للجزء الثانى والأخير من البكالوريا، مما يستدعى سنة أخرى من الدراسة المركزة، ومع اختيار شعبة الفلسفة، أصبحت الدراسة تتطلب أيضا مساعدة مدرس خاص. ولما سمعت درية أن خير من يتولى ذلك هو مدرس معين بمدرسة الليسيه، كتبت ترجوه أن يدرس لهما بالمنزل، فقبل وقبل أبوهما أن يدفع أجره عن تعليم البنتين. وتعلقت درية بالمدرس البلجيكى الوسيم بمشاعر حب طفولى ، وشعرت لأول مرة فى حياتها بما يسمى الحب "اقتحمت قلبى مشاعر غامضة منذ الدرس الأول. موسيقى عذبة للغاية ومشوبة بالقلق اجتاحت قلبى. وكأننى روح غرقى وجدت اليابسة! ولكنى كنت أعى تماما بمخاطر رحلة لن تؤدى إلى مرسى، فأستاذى يكبرنى بسنوات عديدة ومن ملة غير ملتى وثقافة غير ثقافتى، بل والأدهى أنه متزوج! وقررت، كما نقول بالعربية، أن أضع على قلبى حجرا ، وأن أتغلب على مشاعرى."

ثم نجحت درية بتفوق وجاءت الثانية على البلاد ولم تر أستاذها بعد ذلك أبدا. ومنحت وساما فضيا لتفوقها، إذ كانت أصغر الحاصلين على شهادة البكالوريا الفرنسية وهى فى السادسة عشرة.(١٠) واستمر شعورها بالفراغ والاكتئاب، وبالغربة حتى وسط أسرتها الممتدة: "وذات مساء حول مائدة العشاء فى بيت خالتى عزيزة، سمعتها عرضا تكلم صديقة لها تشير إلى بكلمة 'اليتيمة'، وتحث خالتى على البحث عن زوج لى. ووقع ذلك على وقع الكارثة. وانتابنى من جديد شعور بأننى شريدة ، كما حدث يوم وفاة أمى فأغرقنى الحزن ثانية."

وتزامنت هذه الأحداث مع استعدادات أخويها للسفر إلى أوروبا لاستكمال دراسة الهندسة – جمال إلى برلين وعلى إلى إنجلترا. أما المربية، فكانت قد تزوجت وتركت الأسرة، تاركة عبء رعاية الأب والأخ الأصغر محمد والبيت لدرية. ودرية حملت العبء ولكنها كانت تؤمن أنه لا بد فى الحياة من شئ أكثر من ذلك. كانت ترغب فى تحقيق حلمها بالدراسة فى الخارج وبالابتعاد عن كل ما يذكرها يوميا بوضعها الاجتماعى الأدنى مقارنة بأقاربها الأثرياء: "وكثيرا ما تساءلت لماذا لا تشعر أختاى بنفس هذه الغربة إزاء أقربائنا."

وأصبحت فكرة السفر إلى باريس وجامعة السوربون فكـــرة ملحــة جعلت درية تصمم: "الابتعاد عن الذكريات وألم عدم الانتمـــاء، أن أنــتزع نفسى من كل تلك الكوابيس." ولكن العقبات بدت كثيرة: "كيف أتخلى عن أبى وأخى الأصغر؟ كيف أقنع أسرة تقليدية كأسرتى، وخاصة جدتى، بقبول خطة تبدو لهم طريق التهلكة؟". وكانت العقبة الرئيسية مالية، إذ اســتنفذ إرســال الولدين إلى أوروبا كل ما لدى الأب من موارد محدودة. ومعنـــى ذلــك أن تنتظر درية سنوات حتى يعودان قبل أن ترحل. إما ذلك أو الحصول علـــى منحة. وكانت تؤمن "بأن الإنسان فى مصر لا يمكنه الحصول على شــئ أو مساعدة دون سند ممن لهم اتصالات." فكان عليها أن تســعى إلــى إيجــاد الاتصالات المطلوبة. "إذ إنه لم يكــن باســتطاعتى الاعتمــاد علــى أزواج خالاتى. فهم جميعا يئسوا من فهمى منذ زمن بعيد."

وأمسكت درية بزمام أمورها مرة أخرى، فوجهت رسالة إلى هـــدى هانم شعراوى (١٨٧٩ - ١٩٤٧)، وهى سيدة كانت تعمل جادة على إلغـــاء الحجاب والعزلة من حياة المرأة، وأن تفتح أبواب التعليــم العــالى والعمــل المهنى أمام النساء من جميع الطبقات فى مصر. وباعتبارها ابنـــة ســلطان باشا، واحد من أكبر ملاك الأراضى، وزوجة على شعراوى، مـــن أقطـــاب حزب الوفد الجديد، كان لها كل مزايا السلطة من وضع اجتماعى وثــراء - ولم تتردد فى الاستفادة من مكانتها فى كفاحها من أجــل النــهوض بوضــع المرأة. وبمساعدة سيزا نبراوى (١٨٨٨ - ١٩٨٤) ابنتها الروحية، أسســت هدى هانم أول منظمة نسائية فى العالم العربى، واســتعانت بــها للمطالبـــة بإصلاحات اجتماعية مثل تكافؤ الحقوق فى التعليم، والقضاء علـــى البغـــاء وإلغاء الحجاب ورفع الحد الأدنى لسن زواج الفتيات إلى ست عشـــرة ســـنة وللذكور إلى ثمانى عشرة سنوات. وقدمت الالتماسات للبرلمان تطالب بتعديل قانون الأحوال الشخصية، وبالذات إلغاء تعدد الزوجات واحترام حق المـــرأة فى الطلاق حسب ما ورد فى الشريعة الإسلامية، ورفع الحد الأعلـــى لســن الأطفال فى حضانة الأم المطلقة. وظلت مشروعات الإصلاح هذه فى أدراج البرلمان حتى عادت درية لإحياء الكفاح من أجل حقوق متساوية للمرأة بعــد مرور ربع قرن(١١).

وذاعت شهرة هدى شعراوى عام ١٩٢٣ قبل انتقال درية للعيش فى الإسكندرية بفترة وجيزة، بعد موقفها المسرحى العلنى فى إزاحة الحجاب عند عودتها بالباخرة من إيطاليا ، حيث رأست أول وفد مصرى للاتحاد النسائى الدولى. كان ذلك إيذانا منها للمصريين ببداية عهد جديد للمرأة. وفى نهاية العشرينيات، استرعت جهودها لصالح حقوق المرأة الانتباه لا فى أوساط النخبة المثقفة فى القاهرة فحسب، وإنما فى الأقاليم أيضا. وتذكر درية المناسبة العائلية التى ذكر فيها اسم هدى شعراوى للمرة الأولى أمامها وجعلها تعى الفرص البديلة التى بدأت تتفتح أمام النساء المصريات "كانت جدتى تترقب مجئ خالتى عزيزة من وراء الشيش وتقول: "أرى المربية ولكن أين زازا؟". فجدتى ظنت خالتى هى المربية لأنها جاءت سافرة. وعندما تبينت وجه ابنة أختها السافر كانت الصدمة! فلما هدأت المشاعر، فهمت أن سفور خالتى عزيزة لم يكن حدثا منعزلا، فرياح التغيير انطلقت فى القاهرة وإشارة الانطلاق للمرأة أطلقتها سيدة اسمها هدى شعراوى. وشعرت بالسعادة أن امرأة استطاعت أخيرا أن تفتح طريقا. ودخلت هدى شعراوى حياتى من بعيد ودون أن أدرى!"

وتأثرت هدى شعراوى برسالة درية فأبرقت للفتاة المتحمسة أن تأتى خلال الأسبوع لمقابلتها بقصرها فى القاهرة. ورضخ أحمد شفيق لابنته التى اعتادت تسيير أمورها بنفسها، ووافق على سفرها وحدها لمقابلة المدافعة الشهيرة عن حقوق المرأة:

> رحبت بى بلطف وبساطة غزت بهما قلبى. وجدت فيها دفء أم سوف تأخذ بيدى لتقودنى نحو مستقبلى. ورأت تأثرى وبذلت قصارى جهدها حتى أتغلب على ارتباكى وقالت: "يسعدنى أن أراك بهذا الذكاء، كما يسعدنى أن تمثل مصر فى الخارج فتاة من مستواك" فسألت: "أتظنين أن باستطاعتى السفر؟" فأجابت: "وما المانع؟ غدا سيتكلم شخص عنك فى وزارة التعليم."

فلما رأت على وجهى علامات التأثر والامتنان سألتنى: "لمـــا هــذه الرغبة العارمة فى الدراسة بالخارج؟"

وكدت أبكى، فغيرت موضـــوع الحديـث دون أن تنتظر إجابتى. كلمتنى عن أسباب توجههـــا نحو المطالبة بمساواة الحقـــوق للمرأة فوصفت تعاستها عندما زوجوهـــا وأدخلوها الحريم وهى عروس فى الثالثـة عشرة من عمرها وعن شـــعورها بأنــها كانت سجينة فى بيتها. وفهمت لأول مـرة بأن هذه السيدة، على الرغم مـــن ثرائــها وجمالها، قد تعذبت. كما فهمت بأنه لا بـد أن تكون هناك قيم أخرى غير ماديـــة. إذ كانت "الحرية" هى الهدف العميق لنشـاطها النسائى. وغادرت قصرها وأنـــا أشـــعر بالسكينة، وبأن المعاناة شرط لانجاز مـــا يستحق الإنجاز. كانت مثالا يدل علـــى أن إرادة المرأة أقوى من القانون. مثال قـــدر له أن يعيش فى ذاكرتى وقلبى أبدا.

فكان لقاء درية شفيق الأول بهدى شعراوى بداية علاقة ملهمة ولكنها مركبة ، قدر لها أن تتطور على مدى السنوات العشرين التالية، تربط حيـــاة درية بالحركة النسائية فى مصر وتساعد على تشكيل وعيها النسائى.

وسنة ١٩٢٨، سنة ذلك اللقاء الأول، كانت أيضـــا سـنة الذكـرى العشرين لوفاة قاسم أمين (١٨٦٣ – ١٩٠٨) وهو ابن الأرستقراطى الـتركى من سيدة مصرية من أسرة محترمة متوسطة، أرسل إلى فرنسا بمنحة عـــام ١٨٨٢ لدراسة القانون وهناك قابل وعمل مع المصرى المنفى الشيخ محمـــد عبده، المصلح الإسلامى المحبوب، كما التقى بالمحرك السياسى جمال الديـن الأفغانى. وأثرت هذه المقابلات على فكـــر قاســم أميـن حـــول ضـــرورة الإصلاحات في الإسلام. كان من رأى قاســـم أميـــن أن بإمكـــان المجتمـع النهوض بالمرأة من خلال تشجيع تعليمها، وهى فكرة كان قد نادى بها مـــن قبل محمد عبده. أما قضية تعديل قانون الأحوال الشخصية وحث المرأة على الإسهام فى الحياة السياسية للبلاد فلم ترد على الإطلاق. وفى بداية القـــرن،

فرض قاسم أمين تقييما عسيرا للإسلام بشأن "مسـألة المـرأة". وردا على هجوم عنيف على أخلاقيات المصريين جاء فى كتاب الدوق داركـور عن مصر والمصريين (١٨٩٣)، كتب قاسم أمين يفنده ويدافـع عـن العـادات الإسلامية وأبرز دفاعه هذا قضية تحرير المرأة، وأثار جدلا قدر له أن يشغل المجتمع المصرى عقودا طويلة. وأصبح قاسم أمين شخصية بارزة فى هـذا النضال حتى صنف "المدافع الأول عن مساواة المرأة" فى مصر بسبب كتابيه مثارا لجدال'تحرير المرأة' (١٨٩٩) و 'المرأة الجديدة' (١٩٠١).

ويرى بعض الدارسين المعاصرين أنه قد بولغ فى تقييم دور قاسم أمين، وأن نهاية القرن التاسع عشر زاخرة بكتابات النساء المصريات التى تعبر عن صحوة الوعى النسائى.[١٢] ومع ذلك فقد كان ما زال معروفا فـى ١٩٢٨ بأنه المدافع المخلص عن تحرير المرأة. وعند تنظيم الاحتفال بذكراه، أعلن عن مسابقة وطنية لاختيار أفضل نص تكتبه شابة مصرية لتكريمـه. وفازت درية شفيق فى المسابقة ودعتها هدى شعراوى لإلقاء كلمة فى مسرح حديقة الأزبكية فى الرابع من شهر مايو. وافتتحت هدى هانم الحفل بكلمـة تأبين لقاسم أمين تعرب عما يمثله بالنسبة لمصر وللمرأة المصرية. وجلسـت درية على المنصة إلى جوار مؤسسة أول اتحاد نسـائى مصـرى، تسـتمع مبهورة إلى تلك المرأة العظيمة التى أصبحت بمثابة الراعية لها. وأججـت كلمات هدى شعراوى طموح درية المستعر فى الفرار من سنوات الطفولـة المؤلمة: "أيها السادة، إذا كنا اليوم نكرم إنجازات قاسـم أميـن العظيمـة، وخاصة كفاحه من أجل تحرير المرأة المصرية، فذلك لأننا نؤمن بـأن مـا دفعه إلى خوض تلك المعارك ونداءه بضرورة تعليمها لم يكن سوى احـترام للعدل وحبا فى المساواة وفى الوطن ورغبة فى رفع شأن المصرييـن بيـن الأمم قاطبة .. وهى ذات الأهداف التى حددتها المـرأة المصريـة للحركـة النسائية فى بلادنا."[١٣]

ثم وقفت درية أمام جمهور مستمعيها وأعربت عن رؤيتها النسـائية على الملأ وللمرة الأولى، وكان فى خطابها صدى لما قالته هدى شـعراوى. وجاءت كلمات تلك الشابة التى لم تتعد التاسعة عشرة قوية ومعبرة:

السيدة هدى شعراوى:

جاءت واحدة من ربيباتك من بعيـد
لتساهم فى هذا الاحتفال المبهج الحزيـن

معا. فاسم قاسم أمين بك محفور في قلوبنا بحروف الامتنان الأبدي. ألم يكن لنا دليلا في الظلمات؟ أما أنا، فسأحاول أن أكون له تلميذة ومثالا يعلم المرأة كيف تدافع عن نفسها على الرغم من متطلبات الحياة المادية. كم من عذابات طواها الحرملك دهورا! فما هي التجارب التي يمكن أن يكتسبها الإنسان في ترحاله من غرفة إلى أخرى من نفس الدار؟ ولكن المرأة في سباتها العميق لم تتبين سجنها، فلقد مضت بها الحياة رتيبة ولم تظن لحظة أن بإمكانها أن تتحرر. وأتساءل، لم يصر بعض الرجال على إبقاء المرأة في عزلتها؟ هل يؤمنون أنه بالإمكان تطويع تقاليد عهد مضى لتيار الحياة المعاصرة؟ أم أنهم لا يفهمون القيمة المطلقة للحرية؟ ربما تعين علينا أن نحبسهم لعام أو عامين علهم يذوقون ما أذاقوه للمرأة.. ولعل أسلافنا كانوا أفضل منهم وأكثر إنسانية لأنهم كانوا يحرقون بناتهم أحياءا فيحرمونهن من الحرية والحياة معا. وأنتم يا معشر الرجال، إذا ما سمحتم للمرأة بالخروج تسدلون على وجهها خمارا أسودا حزينا حتى لا ترى الحياة إلا من وراء سحابة معتمة. وعندما تملون الزوجة الأولى تعتقدون أنكم أخطأتم الاختيار، تتخذون لأنفسكم زوجة ثانية ثم ثالثة.. فكفوا عن بحثكم العقيم هذا، فلن تختلف طبيعة أي منهن عن طبيعة الأخرى - الجهل والالتواء معا.

فليتساءل الرجل مرة واحدة: ما هي المرأة؟ هي كيان عاقل مثلكم تماما. وبعض الرجال، عارضوا فكرة تعليم

الفتيات تحسبا لما قد تسفر عنه مساواة المرأة بهم من معارك. فادعوا أن ذلك سوف يخلق نساء متحضرات ينافسن الرجال على مكانتهم. إنكم تخطئون أيها السادة. تعليم البنات لن يخلق سوى زوجات مستنيرات يرعين أسركم بحب وإخلاص. هل تكتفون بقلوب تعوزها المعرفة بأمور الدنيا؟ هل تعتقدون أن المرأة يمكنها أن تحب رجلها وهي لا تفهمه؟ وكيف تفهم إن لم تتعلم؟ أليست فتاة اليوم هي أم المستقبل؟ هل يمكن للأم الجاهلة أن تنقل لطفلها فكرة واضحة عن الخلود وعن الواجب وعن العدل؟ هل بإمكانها أن تشرح له حركة الكواكب في أفلاكها إذا كانت لا ترى فيها سوى درر براقة فى قبة سوداء؟ ومنذ أيام، أكدت لى امرأة شابة أن لكل مدينة قمرا خاصا بها. وفى هذه الحالة، إذا عن للرجال إقامة مدينة جديدة، يتعين على الله أن يخلق لها قمرا جديدا. هذه هى الاستنتاجات التى تقودنا إليها المرأة الجاهلة. ولئن فكرتم مليا لرأيتم أن حب المرأة المعطاء لطفلها وحبها الحقيقى لزوجها هو انعكاس للإيمان بالله. إنكم تحيطون بناتكم بالأسوار وتضاعفون البوابات والحراس، وتنسون تماما أن حيل النساء أقوى من أى سور مهما ارتفع. فدائما ثمة عجوز أو خادمة تصل بينهن وبين العالم الخارجى. إنكم تسمحون لهن برؤية العالم من نافذة الخيال فلا يتبين سوى السراب، ثم يسقطن فى الهاوية عند أول فرصة متاحة. لماذا لا ترتكنون إلى الدين، فتسلحون بناتكم بضمير حي ثم تطلقونهم فى العالم أحرارا![١٤]

فى اليوم التالى لظهورها على مسرح الأزبكية سمعت درية بأن منحتها التعليمية من الوزارة قد تمت الموافقة عليها. وتلاشت مشكلتها المالية، ولكن كيف تحل مشكلة أسرتها؟ كيف ترحل عن مصر وتترك أباها بلا أحد يرعاه؟ فساعدها الحظ إذ تم نقل زوج أختها للعمل فى مستشفى بالإسكندرية ، وأقنعت درية أختها ثريا التى استضافتها فى القاهرة بالعيش مع أسرتها فى بيت أبيها بالإسكندرية، فجاء ذلك القرار مرضيا للجميع.

ولم يبق لها سوى إقناع جدتها التى كانت تمثل عقبة تفوق عقبة أبيها. وفوجئت الجدة بأخبار عزم درية على السفر إلى فرنسا. "هذا جنون! أن تسافر هذه الفتاة الصغيرة للعيش فى المنفى بين الدروز!"[١٥] وكانت جدتى تعتبر كل من هو ليس بمسلم درزيا! "ومن هو الرجل الذى سوف يقبل الزواج منها بعد عودتها؟" وبدأت تلك الملاحظة الأخيرة باحتمال بقائها عانسا تؤرقها: "ربما كانت جدتى على حق. وتخيلت نفسى وحيدة فى نهاية أيامى. فليكن! سأرحل مهما كلفنى ذلك! ولكن كان لا بد لى من موافقتها، وإلا لما استطعت السفر. ورضخت جدتى أخيرا، بعد أن أمطرت خديها ويديها بالقبلات."

وما أن جاء شهر أغسطس حتى كانت درية على متن باخرة تقلها إلى فرنسا، تاركة وراءها أسرتها وبلدها ومنطلقة نحو المجهول. أما أحمد شفيق فكان سعيدا وفخورا، واصطحب ابنته إلى طنطا قبيل رحيلها، لزيارة قبر رتيبة. "ولأول مرة لم أذرف الدمع، إذ انتابنى شعور غريب بأننى امتداد لحياة أمى. إنها لم تمت، ولكنها تعيش بداخلى. ذلك الإحساس المبهم بأننى على أعتاب تحقيق حلم عظيم، حلم غير معلن، وإن راود أجيال من النساء المقهورات؛ سر دفين فى قلوبهن يتحول رويدا، كما تحول فى قلبى، إلى يوم الخلاص."

نقطة التحول (١٩٢٨ - ١٩٤٤)

شهود نحن على نقطة التحول الكبرى التـــى تمثل أزمات مرت بامرأة اليوم: عبور مــــن لحظة إلى أخرى من تاريخها واستبدال واقــع بواقع آخر جديد

درية شفيق
"مذكرات" ١٩٣٠ ص ٢٠٠

(٢)

الطموح والجرأة

يا أبا الهول،
أيها الغامض،
ما الذى تطلبه منى؟
إنك تهيمن على الجميع
وعرض منكبيك يمثـل عظمـة
المجد التليد
أشعر عند قدميك
أننى ضئيلة
رغم كل ما يستحق الفخر
كم تأملت فى مرآة ضميرى
فسمعت صوتك يقول:
"أنت وحدك تعرفين
أنت وحدك تستطيعين
أنت وحدك ترغبين
وأنت وحدك تجرؤين."
كلمات أربعة تضم الكمال كله.
هل بإمكانى أن أحل اللغز الأبدى
الذى طرحته أنت على البشر؟[١]

كانت درية فى التاسعة عشرة عندما أبحرت مع إحدى عشرة فتاة مصرية فى رعاية مشرفة بريطانية، مغادرة الإسكندرية إلى أوروبا. صحيح أنه لم يكن أول فوج من الفتيات المصريات اللائى أرسلن إلى أوروبا لاستكمال الدراسات العليا، ولكنها كانت مجموعة من المواهب والطموحات تجلت فيما بعد بإسهاماتها فى المجتمع المصرى.[٢] كن جميعا فى العشرينيات من العمر، معظمهن من خريجات مدرسة السنية، ومثلهن فى ذلك مثل درية، رحلن تحت رعاية وزارة التربية والتعليم وضمن برنامج البعثة الثقافية والتعليمية فى الخارج. لكن بدلاً من التوجه إلى إنجلترا "للدراسة موضوعات

مثل الجغرافيا والاقتصاد المنزلى والطب والأعمال، وكلها موضوعات عملية تفيد تعليم المرأة"، إذا درية تقر بأنها: "في طريقي إلى باريس لأدرس الفلسفة". ووصفت رفيقاتها قائلة في كلمات بادية المودة: "عيون ذكية وروح عالية". أعجبتها التجربة وشعرت: "أن ربيع الحياة يبتسم لى." فلقد جرؤت على كسر التقاليد "هربت من المشرفة البريطانية مع واحدة من رفيقاتى لنشارك فى الحفل الراقص على ظهر السفينة."

ولم تشك درية لحظة كما لم تأسف لرحيلها إلى فرنسا، بل يمكننى أن أتصورها وهى واقفة عند سياج السفينة ترنو ببصرها نحو مرسيليا، لا إلى الخلف نحو الإسكندرية، يغمرها العزم وتدفعها أفكار قاسم أمين وإحساسها بأن موافقة هدى شعراوى نفسها تلفها كالعباءة. ونستطيع أن نستشف حالة درية النفسية والفكرية من خطابها المؤثر الموجه إلى صاحبة الفضل عليها بتاريخ ١٨ أغسطس ١٩٢٨:

سيدتى العزيزة جدا

كم أسفت لعدم استطاعتى الكتابة إليك قبل رحيلى، إذ لم أكتشف اسم الباخرة التى ستقلنى إلا عندما رأيته: وعندئذ كان قد فات الأوان. سعيدة أنا برحلتى، أما البحر فقد كان هادئاً للغاية؛ ربما شعر بأنها سفرتى الأولى فلم يشأ أن يعكر صفوها. ولقد تضاعف حبى لمصر منذ غادرتها؛ لعلنى أحببتها دائما بهذا القدر، ولكنى لم أع بكل ذلك الحب إلى أن غمرنى. فالوطن أكثر من أم: فهو يكفلنا حتى إذا جحدنا. لذلك أريد لا أن أخدم بلادى ما استطعت فحسب، بل وأن أعزز من قدرتى لأبرهن لوطنى على ذلك الحب الذى يفيض بداخلى. لقد ساعدنى الله فى طموحى، واختارك لتحلى محل من رحلت، وأنا أعرب لك عن خالص امتنانى لكل ما فعلتِه من أجلى. ولقد تعلمت شيئا جديداً: من المفيد أن يغادر الإنسان بلاده قبل أن يعمل على خدمتها، حتى يعى بما

> يحمله فى قلبه من تفانٍ للوطن. لقد أطلت عليك ووقتك ثمين، ولكنى أحتاج إلى أن أجاذبك الحديث طويلا. وكنت سأفعل ولكنى أنتظر حتى أصل باريس. أقبل يديك بكل ما أحمله لك من حنان وعرفان.(٣)

ونشرت مجلة "ليجيبسيين" (المصرية) صورة لدرية شفيق فى الصفحة الأولى لعدد سبتمبر ١٩٢٨، فكان ذلك بمثابة الصدى لخطابها وإيذانا للجمهور المصرى بظهور جيل جديد من الشابات، بزعامة درية وغيرها، يحقق حلم قاسم أمين.

كما جاء النص المرفق تأكيدا علنيا للدور المتوقع لدرية، فى مقدمة الحركة النسائية التى كانت تمثلها المجلة:

> يسعدنا أن نُعلم قراءنا بأن اسم صديقتنا الشابة الآنسة درية شفيق ورد ضمن أسماء الطالبات اللائى أرسلن الشهر الماضى فى بعثة أوفدتها الحكومة المصرية، للتخصص فى الفروع المختلفة للتربية النسائية. ولا شك أن قراءنا سيذكرون ما أحرزته هذه الخطيبة المفوهة من نجاح فى أمسية الاحتفال بذكرى قاسم بك أمين. ويسعدنا، بمناسبة سفرها، أن ننشر صورة هذه المدافعة الشجاعة عن حقوق المرأة والتى تتطلع بلهفة إلى تحريرها حتى أنها تسعى إلى تكريس نفسها لتعليم الشباب المصرى بغية تحقيق ذلك الهدف. ونحن إذ نتمنى لها ما تستحقه من نجاح، نأمل أن نراها يوما فى صفوف المناضلين من أجل نصرة هذه الغاية النبيلة.

ولما وصلت الباخرة رصيف مرسيليا، خفت بريق الصورة الرومانسية التى تخيلتها درية عن فرنسا: "مرسيليا، تلك المدينة الراديكالية حيث أعلنت الكوميون". واكتشفت: "أن رفيقاتى استطعن تجنب الجمارك ببضعة سجائر، وأن راديكالية مرسيليا لم تكن فى النهاية راديكالية على الإطلاق!". وبهرها الريف الفرنسي: "رأيت الجبال للمرة الأولى وانبهرت بخضرتها الجميلة وشموخها الذى أحسسنى بالمنتهى. وشعرت مرة أخرى بذلك "الحس 'الجمالى' الحاد الذى غمرنى عندما رأيت البحر لأول مرة. كم كانت لهفتى للوصول إلى مدينة النور، حتى أن القطار بدا وكأنه يزحف زحفاً." ومع ذلك فإنها شعرت بشئ من خيبة الأمل فى ذلك اللقاء الأول بالمدينة: "شعرت بالإحباط أمام ظلام محطة ليون الكئيب. ففى لهفتى للقاء حياة الحرية هذه (ناسية أن قيودنا تلاحقنا)، لم أرغب فى رؤية شئ سوى النور." وكان سكرتير المكتب المصرى للبعثات فى باريس قد حضر لاستقبالها. "سجّان آخر! غمرنى إحساس حاد بالرغبة فى الانفصال تماماً عن الماضى. ولكنى كنت أعرف أن ذلك من المحال!".

وودعت درية رفيقاتها ، بينما سلمتها المشرفة للسكرتير الذى وصفته درية قائلة: "كان طيباً ومهذباً". وكان مدير مكتب البعثة التعليمية فى باريس، قد قرر أنه من الأفضل لدرية أن تعيش مع أسرة فرنسية تمتلك 'بنسيون'، إلى حين عودة سائر طالبات البعثة من العطلة الصيفية فى أكتوبر، فتنضم عندئذ إليهن. واصطحبها السكرتير فى سيارة أجرة إلى حى 'اوتوى' حيث البنسيون: "وظل يحكى لى قصصا ليخفف من توترى. وكان يضحك وحده بين الحين والحين فأشاركه الضحك تأدبا، ولكنى تمنيت أن أكون وحدى لأتذوق تلك اللحظة الهامة فى حياتى. لحظة لقائى الأول بباريس فى الفجر. كان الصمت يلف الشوارع والمطر الخفيف يتساقط وكأنه آلاف القبلات الخفيفة على خدى."

وتوقفت سيارة الأجرة أمام مبنى كبير فى حى 'اوتوى' الأنيق ، حيث استقبلت درية أرملة فى منتصف العمر، والتى أسست 'البنسيون' لتنفق على ولديها وعلى ابنتيها غير المتزوجتين. هذه هى الأسرة الجديدة لدرية والتى قدر لها أن تعيش معهم لمدة شهرين. وفى كل مساء، ينضم إلى الأسرة لفيف من أصدقائهم، من بينهم شاعر فرنسى شاب يدرس فى السوربون. وسرعان ما جمعته ودرية جاذبية متبادلة: "شعرت فى موقفه الشاعرى من الحياة بصدى لأحلامى، فسطع فى قلبى شعاع من الأمل فى أن نتصالح أنا والحياة

يوما. وكان اهتمام الشاعر بي واضحا فسعدت لذلك، ولكن سعادتى كان يشوبها الخوف الرهيب من أن يصل ذلك إلى أسماع المدير. ومع ذلك فما هى الصلة بين البنسيون ومدير المكتب؟ وحاولت أن أتغلب على مخاوفى."

وعلى الرغم من حنينها إلى الوطن، إلا أن درية انغمست فى الجو الباريسى المحيط بها منذ الأسابيع الأولى: "لم أنزعج للنشاط والضوضاء اليومى للأسرة والدار، إذ إنها كانت تختلف عن ما كان يسود بيت جدتى، بدت فوضاهم أكثر تحضراً، فهم، على الأقل، لا يحاولون الكلام جميعا فى آن واحد على المائدة. كان الجو السائد أكثر شاعرية، والأحاديث الودية حول المائدة مع سائر النزلاء ساعدتنى على معرفة أهل باريس."

وعند لقائها الأول بمدير المكتب المصرى للبعثات فى باريس، واجهت درية موقفاً جعلها تتحدى سلطته. إذ كان من شروط المنحة التى حصلت عليها من وزارة التعليم أن تدرس "فرع من فروع التربية النسوية". واختاروا لها التاريخ والجغرافيا، موضوعين ترى الوزارة أنهما أصلح لنساء سيصبحن مدرسات، وكانت درية تكرههما. فلما صارحت المدير "بكرهها للجغرافيا" علق قائلا: "وما هى الموضوعات التى لا تكرهينها؟" أجابت متحدية: "الفلسفة!". فرد الإدارى قائلا: "المسألة ليست ما تحبين وما تكرهين، فالقرار قرار الحكومة، ولا نستطيع أن نعدل من أوامر الوزير!" وفيما بعد كتبت درية تصف الموقف، فقالت: "فهمت من ابتسامته وأسلوبه الزئبقى أنه لن يفعل شيئا ليساعدنى." وقبل أن تغادر مكتبه، التفت إليها المدير ناصحاً: "أحذرك من الحديث مع الشبان! حافظى على سمعتك! راعى سلوكك وإلا أعدناك إلى مصر!" وتمتمت درية فى صمت وهى تهبط السلم قفزاً: "سأدرس الفلسفة على أى حال! فلم أقطع كل هذه المرحلة لأستسلم! سأدرس ما أريد وإلا فلا!."

رأت درية أنه من غير اللائق أن تطلب من هدى شعراوى خدمة أخرى بهذه السرعة، فلجأت إلى طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) الوطنى والمصلح المصرى الضرير الذى درس فى السوربون وعين عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة.[٤] وكان له الفضل فى التحاق أول طالبات بالجامعة عام ١٩٢٨، كما كانت زوجته الفرنسية عضوا فى الاتحاد النسائى المصرى الذى أسسته هدى شعراوى. وقررت درية أن ترسل برقية تناشده المساعدة. وبعد أيام قليلة، جاءت مدير المكتب برقية من وزارة التربية والتعليم فى القاهرة

تخبره بأن يغير برنامج دراسة درية حسب رغبتها. "انتصرت ، ولكني دفعت الثمن غاليا، إذ أصبح المدير عدواً!"

نجحت درية فى تحقيق حلم من أعز أحلامها، وسجلت اسمها فى غضون أسبوع واحد فى قسم الفلسفة.

"صعدت الدرج وكلى حماس، ومررت تحت برج الساعة بالسوربون فدخلت البهو الكبير بمدرجاته. وتصورت غموض كاتدرائيات العصور الوسطى ورأيت فكو السوربون مختلطاً بعظمة الفنون الدينية الماضية. دخلت السوربون وكأننى أدخل حرماً مقدساً. وصلت مكتب السكرتارية فلم يطلبوا منى سوى ٨٠ فرنك. لن أكلف حكومتى الكثير. وغادرت الجامعة فى غبطة. أخيرا جئت إلى السوربون والتحقت بقسم الفلسفة!".

وعلى الرغم من جرأة درية وثقتها فى مواجهة ما صادفها من عقبات تعترض طموحها الفكرى، إلا أنها كانت أكثر تحفظا وأقل استعداداً لتناسى القيم الإسلامية لطبقتها المتوسطة وما أضفته عليها من إحساس بما هو "مناسب أخلاقيا". وبدا ذلك واضحاً فى صداقتها بالطالب الفرنسى الشاب الذى قابلته فى البنسيون. وكثيراً ما كانت درية "تسرى عن نفسها" بالسير فى شوارع الحى اللاتينى مبهورة باكتشافها "لوطنها الجديد بكتبه العديدة، تلال من الكتب!" وكانت أحب الكتب إليها مؤلفات بلزاك وبودلير وروسو وهيجل وماركس وادجار آلن بو.

كما أحبت الموسيقى. وشجعتها دراستها للعزف على البيانو.وهى طفلة على محاولة تعلم العزف على الفيولونسيل وهى فى باريس، "ولكن أصابعى فشلت فى إنطاق تلك الآلة بنغمات سامية". ودأبت على شراء اسطوانات الموسيقى، تقضى الساعات فى سماع أحب مؤلفيها روبرت شومان. وعند عودتها إلى مسكنها عصر ذات يوم "بأحدث ما اشتريت

لشومان: تأملات"(٥) التقت بالشاعر فى غرفة الجلوس. وأعرب عن اهتمامه بما اختارته من موسيقى واستأذن فى مشاركتها السماع.

وأصغيا فى صمت إلى شجن الموسيقى. وقال: "إنك تخلقين جواً شاعريا يحيط بك! أنت فى غموض أبى الهول." وفى اليوم التالى وصلتنى منه القصيدة التالية:

يا مليكة
الزمن السحيق
عدت
إلينا
تجسّدين
مصر
والنيل
وعظمة
العصور
الغابرة

ولقاؤها هذا بالشاعر الشاب واكتشافها أنها تشاركه حب الجمال، شجع درية على كتابة الشعر: "دفعتنى رغبة حادة فى الكتابة، فكنا نتبادل القصائد، وأسعدنى اكتشافى بأننى أيضاً شاعرة".

وبفضل الشعر نمت بينهما صداقة حنونة أصبحت بدورها مدخل درية إلى عالم الفن فى باريس. ولكنها لم تشعر بالحرية الكاملة فى علاقتها بالفرنسى الشاب:

> انتابتنى لحظة تردد لما دعانى الشاعر لأول مرة إلى حضور معرض للفن التشكيلى، لحظة تذكرت فيها كلمات المدير. السمعة! كونى حكيمة! ورنت الكلمات فى رأسى كالمطرقة. ما هى السمعة؟ ما هى الحكمة؟ إذا طبقت نصح المدير فسأفقد كل ما تمنيته بكل جوارحى: أن أكون على صلة بكل ما هو أساسى من قيم إنسانية – الفن والحب. كانت رغبتى فى زيارة

المعرض مع الشاعر ملحـــة: أردت أن أتعلـم كيف أشاهد لوحة! أن ألمس بشكل مـــا عــالم الحلم الذى تحملنى إليه اللوحـــة. ولـم أتــردد طويلاً.

وبينما هى تتأمل لوحة لجورج روو، تذكرت "رحلة القطار الحزينـة إلى طنطا" عقب وفاة أمها. ولكن وجودها مع الشاعر أشعرها بأمل "أن تبـدأ جراح طفولتى فى الاندمال." وهذا كل ما نعرفه عن علاقة دريـة بالشـاعر الفرنسى – الذى لم نعرف اسمه أبداً – عندما كانت تعيش فى البنسيون.

وفى أكتوبر، عند عودة الطلبة من العطلة الصيفية، استدعى المديـر درية فى مكتبه ليعرفها بثلاث فتيات مصريات (أختين وصديقة لهما)، عليـها أن تشاركهن مسكناً تستأجره الحكومة المصرية لإيواء الطالبات. ولم تسـعد درية بتلك الأوامر: "لماذا، بالله، أسكن منطقة غابة بولونيـا بعيـداً عـن السوربون بدلاً من الحى اللاتينى الذى طالما حلمت بسكناه!" ولكنها أحجمـت عن مناقشة المسألة، خاصة وأنها كانت قد تحدت المدير من قبل فيما يتعلـق ببرنامج دراستها. وأقنعت نفسها بأن 'للضرورة أحكام'.

وزاد من حزنها لمغادرة البنسيون ونهاية اتصالها اليومى بشـاعرها إحساسها بأنها تختلف كثيراً عن رفيقاتها الجديدات. ولكـن الشـاعر طلـب موافقتها على أن يستمرا فى تبادل الشعر وزيارة المعــارض بيـن الحيـن والحين: "وقبلت وأنا عازمة على ذلك". ولم تشعر بالارتيــاح فـى مكانـها الجديد. وبافتقادها لحجرة خاصة بها لتذاكر فيها، ولرفقة تشاركها حب الفـن والشعر، ازداد حزنها وانطواؤها: "وجدت ضجيج بيت جدتى وحياة طنطـا القبائلية فى قلب مدينة باريس! شعرت وكأننى عدت للأغلال القديمة. كنـت فى سجن بلا قضبان. وانكببت على الاستذكار هرباً من حافة الاكتئاب."

وكانت دراستها فى ذلك الحين تشـمل الفلسـفة وعلـم الاجتمـاع والأمراض العقلية. "وهالتنى حالة نزلاء مستشفى سانت آن، حتى إنى كنـت أتوهم فى نفسى بعضا من أعراض مرضهم. فانتقلت إلـى دراسـة علـم الجمال". وكانت درية قد ارتبطت بالصداقة مع زملاء لها فى قسم الفلسـفة، ومن خلالهم تعرفت على بعض المهاجرين من روسيا البيضاء، معظمهم من جورجيا، وشعرت بأن بينها وبينهم تقاربا ثقافيا. ولكن جـو السـكن ظـل يشعرها بالإحباط: "بذلت قصارى جهدى لتفادى الاحتكـاك، ولكـن الغـيرة

ازدادت حدة، خاصة لما جاء أخي جمال لزيارتي ولم أتبين اهتمام إحدى الأختين به عاطفيا. وبعد فترة قصيرة، أصبحت أعيش فى شبه عزلة ، بينما يزداد توتر رفيقاتى حدة حتى بلغ حد الانفجار."

وكثيرا ما كانت درية تهرب من لحظات الحزن والاغتراب هذه إلى عالم خيالها، وتعبر عن يأسها ووحدتها فى استعارات تملأ شعرها ونثرها .. ولهذه الكتابات الأولى أهميتها، وإن لم تكن أفضل ما كتبت، إذ تفصح عن رؤيتها لنفسها وعن مشاعرها الحميمة، فنتبين منها حنينها الفياض للنيل: "وحدى عند الموجات العابرة، لا يصلنى صوت سوى الهدير الثقيل للنيل المهيب، صدى المنتهى قادم من الصحراء، هذا الصمت المبهم، حيث تلتقى الروح أخيرا بالخلود فى قبلة جليلة وحزينة، بين الكمال والإنسان بضعفه، بين البشر والإله، قبلة تترك على الرمال أثرها إلى الأبد فى قلب الصمت." ثم نرى محاولاتها لبناء ثقتها فى نفسها: "لا تيأسى، فأنت بعد صغيرة، والنفوس القوية هى التى يصقلها العذاب. ضعى الأمل بعيداً عن متناول اليد، فوق كل يأس."

وفى مقالة كتبتها درية فى سنتها الأولى فى باريس، نلمح مولد وعى بالنفس تجلى فى حوار تخيلته بين أبى الهول وابنة النيل:

– "أفيقى من سباتك يا ابنتى. لماذا تنامين؟ من أين أتيت وبماذا تحلمين وأنت تحدقين فى هذه الأمواج العابرة؟

– يا أبا الهول، ليتنى كنت مثلك، أنظر إلى الكون من عليائى ولا أرى سوى اللانهائى الذى يلف كل شئ فى شكل جموع من البشر. من النيل ولدت، وهدى هانم شعراوى احتضنتنى. ذلك النيل الذى يفيض بالحياة، يتلألأ بين ضفتيه التى شكلتهما الطبيعة، قد ألقى على شطآنه بحطام إنسان؛ حطام فى انتظار يد تنتشله وتنفح فيه وعياً بما يكمن فى داخله من جذوة حياة. يا أيها النيل منك جاء أجدادى وروحك تنبض فى عروقي. ليتنى أركب أمواجك فتحملنى فى رفق؛ أتبع مجراك حتى أصل البحر حيث

أصبح جزءاً من المنتهى. ولكنك لم تفعل، بــل رميت بى على ضفافك راسماً لى طريقاً آخــر. الطريق وعر والعراقيـل كثـيرة والضربـات موجعة.

– يا أيها الكائن الضعيف، عابر الصحراء، إنك لا تعرفين طريقك لأنك لا تعرفين نفسك. إنــك تنزفين ويزيد من ألم جرحك أنــك لا تعرفيــن لجرحك موضعاً. فهو جرح فــى كيــانك كلــه سيظل يدمى حتى تتبينى من أنت.

– يا أبا الهول، أنت وحدك تعــرف. أخــبرنى بسر طبيعة الإنســان. وجنبنــى آلام الطريــق الطويل!

– أيها الإنسان المسكين، من أنت أمام المـاضى السحيق؟

وجرؤت على الرد فقلت: "أنــا الكــائن الــذى يسعى إلى المعرفة ليلمسها بيديه."

وفى الليل البهيم الذى بدأ بـــأصوات النــواح، سمعت ابنة النيل صوتاً آتيا من الصحراء:

– "قومى يا ابنتى وامضى إلى الأمام وســوف تفهمين. فلن يجيبك أبو الهول فى لحظات تقاس بها حياة وردة. إنك ما زلت بعيدة، ولكنــك إن يئست تموتين!"

وقامت ابنة النيل ومضت فــى خطــى وئيــدة وعيناها على رأس أبى الهول الغامض. وجــاء صوت من بعيد يقول:

- "تشجعى يا ابنتى وسوف أجيب!"[٦]

وبدت الموضوعات الطباقية لدى درية محفورة فى استعارات هذا المقال. الرباط الخفى بينها وبين النيل، القبلة الحزينة بين الكمال وضعف الإنسان، الحلم بالمنتهى، صدمة الخروج إلى العالم بعقباته الأليمة وضرباته الموجعة، ثم صقل الأرواح القوية بفضل العذابات، ويأس ذلك الكائن الساعى إلى تلمس المعرفة الحقة بيديه. الأمل! المعرفة! الجرأة! والإقدام. كلمات أربعة نسجتها درية بأسلوب شاعرى فى ورقتها، فجاءت مبشرة بموقفها من الحياة فيما بعد، موقف سيصبح لها نبراسا.

وفى بحث آخر تتساءل: "هل من حق المرأة أن تتفلسف؟" وفى محاولة للرد على سؤالها تفصح عما تؤمن به: "إرهاصات انفجار الصدام الذى سوف يشهده العصر الحديث: حساسية المرأة وفكر الرجل : وجهان متناقضان لكائن واحد." وفى دفاعها عن حق المرأة فى التفلسف، لم تكتف درية بمساندة حقها فى دراسة موضوع دون الآخر، بل تعرض علينا أفكارها بشأن الأزمة التى تواجه المرأة فى العصر الحديث: "إذا صح القول أن كل واقع هو حقيقة اللحظة الراهنة، فنحن إذن نشاهد الآن نقطة التحول الكبرى التى تشكل الأزمة التى تعيشها المرأة اليوم: عبور من لحظة إلى أخرى من تاريخها، استبدال واقع بواقع آخر."[٧]

ما هو هذا الواقع الذى على المرأة أن تستبدله بواقع آخر؟ وما هى طبيعة ذلك العبور؟ وما هى صورة "المرأة الجديدة" فى ذهن درية؟ وكيف ربطت ذلك بحق المرأة فى التفلسف؟ ونحن إذ ننقب فى أجزاء من كتاباتها، نكتشف الأثر العميق لأفكار جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) على تفكير درية وهى تتلمس الأسس الفلسفية لوعيها النسائى الوليد. فمبدأ روسو أن الإنسان بطبيعته خيرٌ وحر وسعيد قبل أن يفسده المجتمع، وتأكيده على نقاء الأخلاق والزهد الجنسى وإيمانه بأهمية التمسك بالمبادئ - كلها أمور كان لها صداها الإيجابى فى مجموعة القيم التى آمنت بها درية. وبلغ اهتمامها بروسو أن ركزت فى درجتها العلمية الأولى من السوربون على حياته وأعماله. فهى تستهل بحثها المعنون "هل من حق المرأة أن تتفلسف؟" بكلمات موجهة بالتحديد إلى قرائها من الذكور:

"لا تقلقوا أيها السادة، فالتفلسف ليس مجرد تأمل عقيم. فالعصر الحديث يستوجب فلسفة أكثر

واقعية من مجرد العقلانية المحضة. وقد كشف لنا روسو عن القيم الحقيقيــة للطبيعـة التـى بفضلها يمكن للإنسان أن يعيش فـى مواجهـة التناقضات التى هى جزء لا يتجزأ من عالمنــا، عالم يقع الإنسان فيه فريسة لأهوائه، فيســمح للصدفة أن تتغلب على إرادته، ويصبح الإنسان سخرية الكون، ينتظر قدره المحتوم.

كيف ننتقل من مفهوم رومانسي للأمــور إلــى واقعية جديدة؟ أمن اليســير أن ننتصـر فـى صراعنا هذا مع الأهواء؟ وكيف يمكن أن نكبت موجة الرومانسية الكبرى؟ لقد حصرت المـرأة نفسها فى عالم "الشعور" هذا الذى تحدث عنــه روسو، فاستبعدت المعرفة الواضحــة. ولأنــها أصبحت فريسة لأهوائها، تحولت إلى فريســة للذين يريدون أن يعيشوا الحب. وظلت المــرأة طويلا متمسكة بذلك الموقف العاطفى والـذى لا شك، أيها السادة، أنكم حبذتموه.

والآن علينا أن نتصور امرأة جديــدة تختلـف كثيرا عما كانت عليه. آن الأوان لواقعية جديدة تمسح تلك الدموع التى لم تعد لها فــائدة، بــل والتى أصبحت بادية التناقض.

والواقعية، حسب فهمى، هــى التخلــص قــدر الإمكان من أوهام الخيال، شــريطة الاحتفــاظ بالرغبة فى الوجود، بنداء الذات. فمـــن تلــك الذات انطلقتُ أخلصها من التهيؤات، وأدخلــها فى عالم المعرفة الخالصة. وها أنا أطلب العودة من هذا "التجوال الواعى". أطلب الانتقال مـــن شكاوى روسو إلى توافق اجتماعى يمهِّد للعودة إلى الواقعية.

ويبدو أن ما تعنيه درية بعبارة "العودة من التجوال الواعى هو الانتقال من مرحلة أولى تكون حساسية المرأة فيها مفرطة، إلى مرحلة ثانية حيث تصل المرأة إلى تفسير للكون.

> هناك لحظات هدوء فى حياة الإنسان، يتأمل فيها الذات ويستطيع أن ينظر فيها إلى نفسه بموضوعية. وهذه الذات المضطرمة تستطيع، إذا ما تأملت نفسها، أن ترى بموضوعية ما كانت عليه من انفعال. وذلك الكائن الذى كان يشبه الإله 'جانوس' ذا الوجهين، فهو فى نفس الوقت "أنا" وهو أيضاً "الذات"، ذلك الكائن المركب الذى يصعب تعريفه هو ما يجب أن يشكل موضوع الفلسفة. ولا بد للمرأة، إذا كانت قادرة على الاستنباط، أن تتمكن من تأمل ماضيها وأن تفعل ذلك بموضوعية. وهدوء العقل هذا شرط لا غنى عنه للمرأة فى عصرها الحديث.

وبذلك تفصح درية عن نظرة حديثة فى محاولتها لتناول واحدة من أهم قضايا الفلسفة: العلاقة بين المعرفة المباشرة والتلقائية والشخصية وبين العقل، أى المعرفة عن بعد وبشكل منتظم وموضوعى.

وهى تستكشف تلك المسألة فى سياق الأوضاع التى تواجه المرأة، وتواجهها هى شخصيا، عندما تجد نفسها بين لحظتين فلسفيتين:

> إن مقارنة امرأة الأمس بامرأة اليوم تعكس المواجهة الكبرى بين فلسفة الحس وبين الفلسفة التصنيفية. وأقصد بذلك فلسفة الحس الداخلى، الشعور الذى تسوده الأسرار والتى يلمح فيه قلب الإنسان أساساً متناغماً. وربما كان ذلك معقل الفلسفة العظيمة؟ على أية حال، فثمة فلسفة أخرى أقل احتراما وإن كانت، بلا شك، أكثر واقعية. إنها الفلسفة التى تُعنى بكل

> المشاكل التى تنشأ فى كل لحظة لتواجه الإنسان والتى لا حل لها سوى العمل. لابد للإنسان أن يعيش أولاً ثم يتفلسف، وإن كان مجرد العيش لا يكفى، فلا بد من تأمل الذات وتدارس النفس.

وكانت درية ترى أن جزءا من الإشكالية النسائية هو القدرة على توحيد نمطين من أنماط المعرفة، رغم تناقضهما البادى، ويدفعها ذلك إلى تأمل العلاقة بين الفن والفلسفة الوضعية وهى قضية معاصرة: "الفن والفلسفة الوضعية هل يشكلان وحدة ممكنة؟ فجوهر الفن يكمن فى تلقائية العمل الفنى نفسه؛ فلا يمكن للفنان أن يتنبأ بما يستهدفه إلا فى صورة مبهمة، ولا يبدو ذلك الهدف واضحا إلا عندما يكتمل العمل الفنى. أما الفلسفة الوضعية فهى عكس الفن تماما، إذ تتطلب القدرة على التمييز والتحليل، تستهدف مبدأ الوضوح، مستبعدة كل ما هو مبهم. إنها تستهدف التصنيف. فكيف يتسنى توحيد الاثنين؟

ويتضح من ذلك السؤال أن درية لن تكتفى بطرح المسألة باعتبارها مواجهة بين امرأة الأمس وامرأة اليوم، أى بين موقفين فلسفيين مختلفين.

> كيف أفسر لنفسي ذلك الربط بين مفهوم حسى ومفهوم نمطى للكون؟ وألمح جوابا ملموساً فى امرأة العصر الحالى. فهى قد مرت بأزمة نمو عظيمة، أزمة ترتبط بالانتقال من مرحلة إلى أخرى. وتبقى دائما فى رماد الحريق جذوة، كذلك المرأة التى تنظم وتصنف ستنتشل ذاتها الحساسة من رماد كيانها السابق المستعر، لتشكل ولعاً جديدا: الولع بالمعرفة! تماما كما تمخض السحر فولد العلم (وأستبيح لنفسي هذا التشبيه) فإن امرأة اليوم، ابنة امرأة الأمس، تحتفظ فى داخلها بما كانته يوما، ولكنها تعيش حياة جديدة. فكيف يمكن للمرأة، وهى فنانة، أن تدّعى المعرفة الخالصة؟ فهى فى حد ذاتها تحفة فنية! وهى لم تعد كتحفة مجرد شئ نتأمله. فهدفها هو المعرفة. إنها تريد أن تفهم بوضوح

ما تمخضت عنه تلقائيا. إنها تريد أن تُدخل روح التصنيف على ما هو غير قابل للتحليل فى جوهره. إنها ترى إمكانية دمج الحس بالمفهوم. ولذلك فلا يمكن أن ننكر حقها فى أن تتفلسف!

وهناك "حداثة" واضحة فى أسلوب درية فى عرض الأزمة التى تشكل اللحظات المتعاقبة للتاريخ النسائى، عندما يحل توافق جديد محل القديم. وإن كانت فى دراستها هذه لا تقوم بتحليل واقع تاريخى بعينه يتم فيه ذلك الانتقال، إلا أن لها رؤية واضحة للمشكلة التى تواجهها كامرأة متثقفة تسعى إلى التوصل إلى اعتراف بوجودها فى هذا العالم "حيث تتكاثر السلطات (وليدة العصور السابقة) الساعية إلى التهكم منها."

وهى كانت تؤمن بحقها فى الاختيار، مع وعيها التام بما يتطلبه ذلك من كفاح:

وهناك من سيعترض قائلاً: خسارة أن تفقد المرأة ما يميزها كامرأة، إذا ما سلكت مسلك الرجال! ورغبة المرأة هذه فى أن تتساوى والرجال، رغبة تتعارض مع مستقبل الحياة نفسها. أيها السادة! لماذا تفترضون أن المستقبل سيكون ما توقعتموه من الماضى والحاضر؟ ربما اشتقتم إلى رفيقة الماضى الوديعة فنقلتم صورتها إلى المستقبل، علها تُولد من جديد؟ ولكن ليس من شيم الأحياء البكاء على ما قد مات وولىّ، وإنما استنباط مستقبل لا بد وأن يكون جديداً ينبض بالحياة.

المرأة كتحفة فنية! ولم تكن العبارة مجرد استعارة عابرة. فدرية آمنت بذلك تماما، بل ورأت فيه صورة لنفسها باعتبارها المرأة الجديدة لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وكانت باريس عام ١٩٣٠ عاصمة الأناقة فى العالم الغربى، أما درية فكانت مولعة بالأزياء، وكانت تعرف تماما كيف تستغل شكلها الملفت

للنظر. وبالتالى فهى لم تعتبر أنه من التناقض فى شئ أن تكتب عن الفلسفة وهى فى نفس الوقت تعرض الأزياء التى تصممها زميلة لها مصرية تدرس تصميم الملابس فى الـ Ecole Normale.

وفى خطاب أرسلته إلى سيزا نبراوى فى شهر مايو من عام ١٩٣٠، تفصح درية عن المقصود من وصفها للمرأة الجديدة باعتبارها "وجهين لكائن واحد":

> عزيزتى الآنسة نبراوى،
> مرسل لك مع هذا الخطاب صورتين فوتوغرافيتين والمقال "الفلسفى" الذى كتبته إحدانا. الصورتان لعاليه كمال ودرية شفيق تعرضان فساتين صممتها عاليه كمال. والشال الذى تمسك به هذه الأخيرة، رسمته وصنعته بنفسها. أما الفستان، فهو من قماش التل الوردى (وهو أيضا من تصميمها). وفى المرة القادمة سوف نرسل لك صورتها فى الزى المكون من سروال، وهو من ابتكارها تماما. وهى الآن تستعد للحصول على شهادتها الثانية فى التفصيل والحياكة من معهد باريس. كما أننا نسترعى انتباهك إلى أن درية شفيق قد نجحت بمرتبة الشرف فى: (١) علم النفس (٢) الأخلاقيات وعلم الاجتماع (٣) الفلسفة العامة والمنطق. وهى تستعد الآن للحصول على الشهادة الرابعة والتى تؤدى إلى الحصول على ليسانس التدريس، ويحدوها الأمل أن تقبل الحكومة الفرنسية (بموافقة الحكومة المصرية) ضم امرأة مصرية إلى صفوف المتقدمين لشهادة الدكتوراه فى الفلسفة Aggregation، وهى شهادة كانت، حتى الآن، مقصورة على الفرنسيين.(٨)

ورغبة درية فى دخول امتحان مسابقة الدولة لتعيين مدرسى المدارس الثانوية فى فرنسا يشير إلى طموحها. ولا نعرف ما إذا كانت قد

قبلت ونجحت في المسابقة أم لا، ولكن ما يبدو واضحا في الخطاب هو رغبة درية في التغلب مرة أخرى على عقبة تعترض طريقها نحو هدفها. وهنا تستغل درية صفحات مجلة 'المصرية' وبتأييد ضمني من مجلس تحريرها، للتأثير على الحكومة الفرنسية!

ولقد وجدت في كتاباتها هذه متنفساً يخفف من شعورها المتزايد بالوحدة. كذلك زيارات السيدة هدى هانم شعراوي التي كانت دائما تحرص على الاتصال بها كلما مرت بباريس. وجاءت واحدة من تلك الزيارات في غياب درية التي كانت قد رحلت إلى سويسرا لاستكمال بحثها عن روسو. وعبّرت عن حزنها لعدم لقاء هدى هانم في خطاب قالت فيه: "يا صاحبة العصمة العزيزة، عند عودتي من سويسرا وجدت البطاقة التي تفضلت بتركها لي. وكم سعدت بكلماتك وكم حزنت لأني لم أرك قبل أن تغادري باريس. يداك الحنونتان خير من يمثل المرأة المصرية. تمنياتي لك بالصحة ولك مني كل الامتنان. درية شفيق."[9]

وازدادت الحياة صعوبة بالنسبة لدرية في ذلك المسكن الواقع بالقرب من غابة بولونيا. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير، عندما اكتشفت درية اختفاء قصائد صديقها الفرنسي. فلما واجهت زميلاتها في السكن، لم ينكرن أخذها، بل أخبرنها متشفيات بأنهن أرسلنها لمدير مكتب البعثات المصرية! فهزتها الصدمة ، وشعرت "بالاشمئزاز والإحباط. يبدو أن الإنسان ليس بكائن خيّر كما ظننت. هل فعلن ما فعلن بحسن نية؟ وظللت أسائل نفسي: ما الضرر في تبادل القصائد؟"

واستدعاها مدير المكتب وقال: "لا شك أنك تعرفين سبب استدعائك؟" فأجابت بالنفي. "ورمقني المدير في دهشة ثم أضاف: "على كل حال، أظن أن عليك الاستعداد للعودة إلى مصر! إنك تدركين، لا شك، أن منحتك لا يمكن أن تستمر!'" واشتطت درية غضبا، وبدلاً من الاستسلام للحزن قررت التصرف فوراً: "في لحظة واحدة اتخذت قراري: فليذهبوا جميعا إلى الجحيم: زميلاتي والمدير والمنحة والحكومة! سوف أعمل مثلي مثل الفقراء من زملائي في السوربون، ثم أفعل بحياتي ما أشاء! وحزمت أمتعتي وغادرت المسكن بلا عتاب ولا وداع. أخيراً تحررت!"

ولعل القارئ الرومانسي كان يفضل نهاية سعيدة تعود فيها درية إلى البنسيون لتلتقي بشاعرها الفرنسي، ثم يكافحان سويا ويعيشان في فقر حتى

نهاية الدراسة، يتبادلان قصائد الحب. أما نظرة درية للتحرر من عبء الأفكار المترمتة فكانت نظرة مختلفة: "آه من الترمت! كل هذا الماضي، بقرون من التقاليد والمعتقدات التي لا يمكن الإطاحة بها بضربة واحدة! مازالت تلك القرون قابعة في أعماق نفسي!"

وبدلا من التوجه إلى البنسيون في حي أوتوى، استقلت درية سيارة أجرة وتوجهت إلى 'الدار الدولية' الكائنة فى ٩٣ شارع سان ميشيل، وهو بيت يقع أيضا على الشارع الذى كانت تمر به دائما في طريق عودتها إلى مسكن الطالبات: "عنوان أعطيته للسائق تلقائيا دون أن أعرف ما إذا كانت به غرفة شاغرة أم لا." وتفقدت نقودها فوجدت أنها تكفيها للعيش شهراً، مع تناول وجبة واحدة في اليوم "وإذا ما سمحوا لى بسداد أجر الغرفة في نهاية الشهر، سأجد عملاً قبل ذلك."

ولم تشعر بالقلق إزاء تلك الظروف المادية لأنها شعرت بالتحرر من جو خانق: "من نافذة السيارة التى كانت تقلنى إلى 'الدار الدولية'، رأيت باريس وكأنى أراها للمرة الأولى. إحساس بالحرية وبالاطمئنان، حتى ولو كان نسبياً، فبيئتى المصرية، بدسائسها ومشاعر الغيرة، ربطت في ذهني كلمة الحب بكلمة الرعب. وكتبت للشاعر أطلب أن يكف عن إرسال قصائده وألا يتصل بى، كما رجوته أن ينسى القصة كلها. كان لا بد لى أن أفعل."

لقد كانت على وشك استهلال صفحة جديدة في حياتها، صفحة تقودها للاتصال بنساء من العالم أجمع - نساء مثلها، على وشك الخروج من مجتمعات تقليدية بحثا عن العلم والمعرفة في مجالات كانت محظورة عليهن؛ نساء سعين إلى حرية التحكم في مصيرهن فجئن إلى باريس لأسباب مختلفة. وجاء دخولها إلى 'الدار الدولية' كحركة تحد، فهى لم تكن واثقة من الاحتفاظ بالمنحة وبالتالى من مصدر عيش مضمون. وأمام مكتب الاستقبال، طلبت مقابلة المدير، وبعد لحظات وقفت أمام المدير الفرنسي ومعه المدير الأمريكي: "نظرا إليَّ بعطف عندما أخبرتهما بأننى مصرية وبطبيعة دراساتي وبرغبتي في غرفة عندهما. وسألانى عما إذا كانت لدى منحة، فأجبت بنعم، حيث لم أبلّغ رسمياً بعكس ذلك. فأومأ وأخبرانى بأن عليّ أن أنتظر سنة كاملة. ولم أتمالك نفسى وبدت على وجهى علامات الإحباط. وشعرا بمحنتي فوافقا على التصرف فوراً. هكذا انتصرت في جولتي الأولى!"

وقبل اصطحابها إلى غرفتها، طُلب من درية أن تملأ استبياناً عن خلفيتها واهتماماتها ومجال دراستها، كما ناولوها لائحة الدار حيث قرأت: "أى فتاة تعود إلى الدار بعد منتصف الليل ستجد الأبواب موصدة." "ولم يرد ذكر أى شكل من أشكال العقاب. فما على الفتاة التى تريد أن تبيت خارج الدار سوى أن تعود متأخرة! ياله من تحرر!".

وأعجبتها حجرتها بأثاثها الريفى وبساطة ترتيبها، وأخرجت كتبها من حقيبتها لتضعها على رفوف المكتبة.

> لأول مرة، رأيت كتب الفلسفة التى تخصنى مصفوفة جنبا إلى جنب، وشعرت بسكينة حميمة رغم قلقى. ترتيب الغرفة وأناقتها يبعثان على الهدوء. أصوات السيارات والأضواء الراقصة تحت نافذتى فى شارع سان ميشيل بدت وكأنها ترحب بى. واغرورقت عيناى لا بدموع اليأس بل بدموع الأمل. وقررت أن أؤجل قلقى بالنسبة للمستقبل حتى أعرف قرار وزارة التربية والتعليم المصرية. ثم أرسلت إلى أبى خطابا أعلمه فيه بعنوانى الجديد دون ذكر أى من الأحداث الأخيرة. وخلدت إلى النوم بروح هادئة.

ووجدت درية نفسها فى الدار، "محاطة بشابات من أركان العالم الأربع، كل منهن بعاداتها ومشكلاتها، "ولكن تبايننا لم يحل دون تآلفنا ودون أساس من التسامح." وأصبحت أعز صديقاتها ثلاث نساء من ثلاث قارات: "واحدة من جزر المارتينيك وأخرى مغربية وثالثة إيرانية"، تعرفت عليهن وهى تتناول وجبتها الأولى فى مسكنها الجديد:

> توجهت فى نوع من الاختيار التلقائى إلى مائدة تضم واحدة من أفريقيا وأخرى من آسيا وثالثة من أمريكا الوسطى. وفيما بعد أصبحن أعز الصديقات، فكل واحدة كان لها ما لها من مشكلات معقدة –مثلى–. وجدتُ حياة

الأمريكيات سهلة تنساب فى طريقها وسط هذا الجمع الدولى. ولم أحسدهن على ذلك. فلقد بدا لى الكفاح دائما ضرورة لتحقيق الذات. أما الشرقيات، فكن دائما فى معاناة. وكانت أعز صديقة لى، الإيرانية، متصرفة ولامعة، ولكنها لا تعرف ماذا تريد. كانت شبه ضائعة بين الشرق حيث ولدت والغرب حيث نشأت، بين ماض سحيق جاءت منه وحاضر جديد فى متناول يدها ولكنها لا تعرف كيف تتعامل معه (وكأن يداً خفية تقمعها). أما بنت المارتينيك، المدللة الجميلة، فيراودها حلم واحد يكاد يسيطر عليها: الزواج من رجل "أبيض"! والفتاة المغربية كان يملؤها النشاط والقدرة على التأقلم رغم نظرة القلق الدائم فى عينيها. وكانت هناك أخريات: فتاة من جورجيا، هربت أسرتها من الثورة الروسية، تعيش حياتها "حسبما تأتى به الرياح"؛ كانت تبالغ فى التأقلم مع الظروف وتعيش حياتها على السطح. وكانت الرومانية خبيثة، واليونانية خُطبت ثلاث مرات وفُسخت خطبتها، وكأنها وُلدت فى ساعة نحس.

وعرفت "أن بلدى ليس بالبلد الوحيد الذى تعانى فيه المرأة". وما شدّ درية إلى هذه المجموعة هو إحساسها بأن أشياء مشتركة تربط بينها وبينهن:

كل واحدة منّا مرت بتجربة عدم فهمها فى بلدها بسبب طموحها. كان لكل منا طبيعتها الشرقية وبالتالى موقفها الشاعرى من الحياة فى ذلك الجو المتأمرك الذى كان يسود 'الدار الدولية'، وكنا كلنا نؤمن بالخزعبلات. فكنت أقرأ حافظ(١٠) لأعرف طالعى. كنّا باحثات عن المجهول. بدا الأمر وكأننا جئنا سعيا وراء درجات علمية، ولكننا فى الواقع جئنا نبحث عن

المطلق. لقد تركـن، مثلـي، الديـار والبـلاد والأسرة رغبة فى العبور إلى مـا هـو بعـد الأسرة والوطن!

وبعد أسبوع من هربها من غابة بولونيا، جاءتها أخبار بأنـها لـن تُستدعى إلى مصر، بل أن المدير هنأها على إقامتـها "فـى مكـان أميـن" وأخبرها أن السلطات سمحت لها بالاحتفاظ بمنحتها. كما جاءها خطاب مـن أبيها "به بعض من عتاب وكثير من الحنان." وترددت فى ذهنها مقاطع ممـا كتبت: "أن يرغب الإنسان وأن يجرؤ! لا مجال للتردد عندما نشعر بـالظلم. لابد أن يتصرف المرء بحسن نية، ويأتى بعد ذلك ما يأتى كنتيجة منطقية."

ودفعتها فرحتها بالأخبار إلى تأمل إحساسها بالتحرر. وملأتها الثقـة بنفسها؛ إذ اختبرت عزمها ونجحت فى فرضه على مدير المكتب فى بـاريس وعلى من يأتمر بأمرهم. "وجاءنى كل ذلك بدافع إيمان حملتهُ بداخلى عـبر القرون من الشرق. كنت أشعر فى صميمي بتوليفـة جديـدة بيـن الشـرق والغرب، بين الماضى والمستقبل. شعور لا يقبل الشك، تغلغل فـى داخلـى كشعاع من نور. واندفعتُ أعمل فى جو من الثقة."
ولكنها أدركت أن للنصر ثمنا، إذ اضطرت للتخلى عن مشاعرها:

نعم كسبت المعركة بعزيمتى. ولكن ماذا كـان الثمن؟ كان غاليـا. فلقـد تركنـى انتصـارى جريحة. فكما فقدت حب أمى، فقدت مرة أخرى حباً جديداً أتـانى بـه ربيـع حيـاتى. وازداد شعورى بالأسى. كم كنت وحيدة فى بـاريس، والمدينة لا تبالى. ومرة أخرى، وجدت متنفسـا لحزنى فى دراستى.
كانت أمامى سنتان، قررت أن أحولـهما إلـى سنوات عمل شاق ينسينى عذابى. كان علـيَّ أن أنسى الحب والحنان فكنت أحيانا عندما أشـعر بذلك الفراغ فى حياتى، أعيد كتابة بعـض مـا كتبت من قصائد احتفظت بها فى ذاكرتى قبـل أن يسرقوها.

كلمات عروسة المولد

اليوم عيد الرسول،
مولد النبى!
وآلاف الدمى
من الحلوى
مثلى
مصفوفة فى الطرقات
بكل ألوان الحياة ...
يرنو الىَّ طفل ورفاقه
يأكلون:
عيون وشفاه وقلوب
دُماهم.
أما هو
ففقير
لا يملك الثمن ...
ثم إنه
لا يريد أن يأكل
بل ينظر الىَّ.
ولا أمدح نفسى
إن قلت:
أخاله ولهانا.
فحتى إن استطاع الحصول
على الدمى،
أعرف تماما
أنه سوف يُفضل نظرتى الناعسة
على كل مذاق آخر
وسوف يستبقى
فمى
ليقضمه

فيحتفظ بالكلمات التى تذوب رقة
والتى سوف أقولها.

وعاشت درية وحيدة نسبيا خلال السنتين اللتين عاشتهما فى الدار: "أطلقوا علىَّ فى الجامعة اسم أبا الهول لأننى كنت أفضل الوحدة. وظل معى ذلك الإحساس بأننى غريبة على الحياة، ولا نصيب لى من السعادة مثل غيرى. كان علىَّ أن أخط طريقى حتى لا أغرق فى ذلك الشعور بعبء القدر الذى لازمنى منذ الطفولة. وكنت فى حاجة إلى مساحة من الوحدة لأفكر فى مستقبلى وأخط طريقى نحو شئ لم أكن واثقة منه، إلا أنى كنت أعرف بأن لى رسالة فى الحياة، فعلى الرغم من صداقات ارتبطت بها، ظللت بعيدة عما يحيط بى، واحتفظت بقلبى فى عزلة."

وكانت هناك رحلات تنظمها 'الدار الدولية'. فقد رتبت الإدارة رحلة إلى استراحة اسمها 'لى مولان (الطاحونة)' فى قرية صغيرة فى جنوب شرق منطقة السافوى، بالقرب من 'إكس لى بان'، وذلك رغبة من الدار فى تشجيع الفتيات على العمل الجاد. واختيرت درية وصديقاتها للذهاب ضمن مجموعة فى خلال السنة الأولى لإقامتها. وانضمت للمجموعة فتاة يونانية قالت عنها درية:

كان من الواضح أنها لا تحبنى. وكنا معاً دائما. فكثيرا ما جاءت جلستى على المائدة بجانبها، ولاحظت فى عينيها السوداوين لمحة حزن. وعرفت من صديقاتى أن اليونانية هذه من أسرة فقيرة جداً، ماتت اختاها بالسُل وفشلت فى خطوبتها مرتين. أدركت حزنها فبدأت أتعاطف معها. ونظرت إلى قائلة: "ولكن لا يبدو عليك أنك عانيت أبدا." فأجبت: "ذلك لأننى لا أيأس أبدا ولكنى أعرف تماما معنى الحزن." وحدثتها عن موت أمى وأنا بعد طفلة، فإذا بشئ ما يربط بيننا. ولاحظت إعجابها بثوبى الأصفر، فاقترحت عليها دون أن أجرحها بأن الثوب سوف يكون أجمل عليها بشعرها الأشقر فسألتنى: "أتظنين ذلك حقا؟" ففرحت لأنها لم تُجرح وقبلت عرضى باعتباره

هدية من صديقة جديدة. فأصبحت جــزءا مــن مجموعتنا فسعدت. وبعد ذلك بسنة واحدة، تمت خطبتها وتخلى عنها الخطيــب مــرة أخــرى. ولكنه تركها حاملا. وجاءت إلى غرفتـــى ذات مساء ترينى خطابا من خطيبها الــــذى غــادر فرنسا: ظلت تردد عبارة: "ماذا أفعل؟ فات أوان إجراء عملية إجــهاض." وأجبتــها: "لا تبــك: ستلدين طفلك ولن تكونى وحيدة أبدا!".

وأقنعت درية سلطات الدار بتحمل نفقات الفتـــاة اليونانيـــة فـــى دار للحوامل حتى يولد طفلها. وبعد ذلك بشهور قليلة، حصلت الفتاة على شـــهادة كلية الطب، وقدمت نفسها للمجتمع باعتبارها مُطلقة لها طفل صغير. وكـــم كانت سعادة درية ، إذ ساعدتها فى حل مشكلتها. وعلى الرغم من شـــعورها بالغربة والوحدة، إلا أن درية لم تخل من الشعور بالعطف والتعاطف مع من حولها، فكانت تستجيب بصفة خاصة وتسعى لاستمالة من تشعر من جانبـــهم بشئ من العداء.

دأبت درية على العمل الشاق فى الســـوربون. فــهى قــد اختـــارت برنامجا صعباً وقررت دخول امتحانات شـــهادتين فـــى آن واحـــد، شـــهادة الليسانس الحر وليسانس الدولة. وكانت تلك الشهادة الأخيرة تتطلب النجـــاح فى اللغة اللاتينية، وهو ضرب من المحال لدرية التى تجهل اللاتينية تمامـــا. ووضعت لنفسها خطة للنجاح فى ذلك الامتحان، خطة لا تخلو مـــن مـــهارة خبيثة:

كنت أعرف احتمال الرسوب حتى لو درســـت اللاتينية بجدية وحتى لو أخـــذت المزيـــد مـــن الدروس. وأعرف أيضا أننى لو رسبت فستكون المأساة. فقد يعيدوننى إلى مصر قبل أن أستكمل دراستى. فلجأت إلى حل وســـط! قـــررت أن أدخل امتحانات الشهادتين معاً، حتـــى أضمـــن الحصول على واحدة منـــهما. وبـــدأت أدرس اللاتينية وكأنى أحرك الجبـــال. وقـــالت لـــى صديقتى الإيرانية: "اللغـــة لا تُرتشف بملعقـــة

كالحساء". اعتبرت ذلك تحدياً وعزمت على النجاح. وحفظت عن ظهر قلب مقاطع وردت في امتحانات سابقة. وحالفني الحظ فجاء مقطع منها في الامتحان، ولكني ذعرت إذ تضمن المقطع خمسة سطور إضافية لا أعرفها، سطور قد تفضحني إذا حاولت استكمال المقطع، لأن الممتحن سوف يفهم فوراً أن في الأمر شيئاً! فقررت أن أغفلها تماماً. وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة، لأن الممتحن عندما يجد ترجمة سليمة تماما لكل المقطع باستثناء السطور الخمسة، سيظن أن الوقت لم يسمح لي بإتمامها!

وجاءت النتيجة – فإذا بي حصلت على الدرجات كاملة! ونجحت خطة درية إذن، وحصلت على ليسانس الدولة بمرتبة الشرف. وقدرتها هذه على التركيز تماماً لتحقيق أهدافها، أصبحت فيما بعد مصدر قوتها ونقطة ضعفها في آن واحد. فلقد خدمتها هذه القدرة كثيرا في سعيها للمعرفة. ولكن هذا الطموح المستعر كان من شأنه أن يؤدي إلى عواقب مختلفة تماما في مجال حياتها العامة والسياسية، ولم يكن كل ذلك إلا بداية سعيها:

بدأ الحلم يتبلور، حلم التدريس في جامعة السوربون نفسها. نعم سأصبح يوما أستاذة في جامعة فرنسا القومية. ولكن لابد من العودة إلى مصر لتجديد منحتي. وكنت واجفة من هذا اللقاء الجديد ببلدي فلقد حفرت الأحداث هوة بين مصر وبيني. فالأحداث المؤلمة التي خيمت على طفولتي تجسمت بسبب مواقف زميلاتي المصريات في باريس. ولكني عندما رأيت اسمي مطبوعاً ووصفي بـ "النجاح الدراسي الباهر لفتاة مصرية في باريس"، شعرت بالزهو وبدأت أعد للعودة إلى مصر، مؤمنة بأن الكابوس قد انتهى."

ولكنها أرسلت إلى بطلتها وحامية حماها هدى شعراوى خطابا فــي يوليو ١٩٣٢، قبل أن تغادر فرنسا: "صاحبة العصمة، أنا عاجزة عن التعبير عن امتنانى لكل مافعلته من أجلى. انتظرت بفارغ الصبر لحظة رؤياك هـذا العام فى أوروبا لأعرب لك عن عرفانى. وآمل أن أتمكن من ذلك قريبا فــى القاهرة، إذ أبرقت للوزارة هذا الصباح طالبة السماح لى بقضاء عطلتى فــى مصر. وفى انتظار هذه اللحظة السعيدة التى أقبل فيها يديــك، تقبلــى كــل احترامى. المخلصة درية شفيق."[١١]

وعلى الرغم من نجاحها الباهر وتطلعها للعودة إلى أســرتها، إلا أن درية كانت تشعر بالقلق مما قد يكون فى انتظارها:

"شعرت وكأن ما أتركه ورائي: الدار الدوليــة والحى اللاتيني والسوربون، أقرب إلى نفســى بكثير مما سوف أجده فى بيتي. وعلى الرغــم من رغبتى فى العودة إلى مصر وإلى أســرتى التى اشتقت إليها كثيرا، إلا أن بــاريس هــى المكان الذى انتصرت فيه للمرة الأولى علــى العالم العدائى المحيط بى. وعلى الرغــم مــن العزلة والفراغ العاطفى وشــعورى بــالوحدة، وعلى الرغم من الأسى، وجدت عوضا معنويــاً عظيماً لأننى فرضت إرادتى وحققت حلمــى. درست الفلسفة وحصلت على درجة ليســانس الدولة من جامعة السوربون."

(٣)

البحث عن الحب (١٩٣٢ - ١٩٣٦)

آه ياوطنى
ها أنا ذا قد عُدتُ
فهل تُرحب بى
هذه المرة
ب
مزيد من الحب؟

روح تتعذب لأنـــها عطشـــى للمنتـــــهى. للكـــــــون. كيف أصل إليه؟ تريد الشابة أن تعيش بكل كيانها، ناسية الوقت وكل ما يُقاس به: تعاطف بينها وبين الكون؛ حُلمٌ أصيل يبحـث عن تناغم بين العاصفة التـــى تعصف بـــالذات وبيـــن تلـك العاصفة الأخرى التى تشـــكل وجود الكون نفســـه: معركـة هى، ودائما معركة بين الواقــع المُعاش وبين الوجود: الحـــب! كلمة لن تموت أبدا إلا بمـــوت الإنسان! أما اليوم، فحب مـــن وحب ماذا؟[١]

وهذا المقطع من مقال بعنوان "تأملات امرأة اليوم"، كتبتها درية عـام ١٩٣٢، وهى على متن الباخرة التى عادت بها إلى الإسكندرية يبدو وكأنـــه استشفاف لما ستمر به من تجربة شخصية بعد عودتها إلى الوطن. أما علـــى الصعيد السياسى، فلم تكن واعية أبدا بالقوى المتعاظمة التى كانت قد بـــدأت تُحوّل مصر إلى مجتمع يختلف عن الذى غادرته منذ أربع سنوات مضـــت.

كانت مصر كلها تعانى من عواقب الكساد الاقتصادى الذى مر بــه العــالم الحديث، فإذا بالفجوة بين السراى ورجال السياسة تتسع، وتدفع المحروميــن إلى البحث عن السلطة السياسية خارج المسالك المعتادة. وإذا بالتحدى الــذى يواجه القيم الإسلامية فى شكل الحداثة الغربية يُعمّق مــن أزمــة المثقفيـن المصريين. واصطدمت الإصلاحات الدينية بطريق مسدود بينما بدأ شــعور وطنى يواكبه تيار راديكالى محافظ جديد يسيطران على المجتمع.

ففى بداية الثلاثينيات، تبلورت فئات اجتماعية جديدة حول التيــارات السياسية المختلفة، وشنت حملة لتطهير الحياة الاجتماعيــة والسياســية فــى مصر من الثقافة والقيم الأوروبية. فإذا بحسن البنا، وهو مدرس بـــالمدارس الابتدائية من الإسماعيلية، يؤسس 'الإخوان المسلمين' عــام ١٩٢٨. وُلــدت حركة الإخوان فى شكل جمعية متواضعة إســلامية، أخلاقيــة دينيــة، ثــم أصبحت حركة قوية تتصدى لانتشار العلمانية ولما اعتبرته تراخيا أخلاقيــا ودينيا نتج عن عملية التحديث ومحاكاة أساليب الحياة الغربية، فاجتذبت مئات الآلاف من الجماهير المحرومة فى المدن ومن أهل الريف الذين يعيشون فى فقر دائم.

وكان إيمان حسن البنا وإخوانه عميقا بكمال الإسلام وبأنه مصــــدر الحل لمشاكل الإنسانية، كما آمنوا بأن الإسلام فى خطر بفعـــل المؤامــرات العدائية التى يحيكها المستعمر البريطانى وصنائعه المُغيّبيــن، أى حكومــة الوفد. وفى كلمات حسن البنا:

> إخوانى: لستم بجمعية خيرية، ولا أنتــم بحزب سياســى، ولا منظمـــة محليــة محدودة الأهداف. بل أنتم روح جديدة فى قلــب هذه الأمة، تحيونها بالقرآن؛ أنتــم النور الجديد الذى يبـــدد، بمعرفــة الله، ظلمات المادية ؛ أنتم الصوت القوى الذى يرتفع ليذكرّ برسالة الرسول ... عليكــم أن تحملوا العبء الذى لم يستطـــع أن يحمله أحد. وإذا سألوكم ما هى دعوتكـم، أجيبوا هى الإسلام، رسالة محمد، الديــن الذى يتضمن الحُكم وينص على الحريــة.

وإذا قالوا لكم هذه سياســـة، أجيبــوا أن
الإسلام لا يجيز مثل هذه الفـــوارق. إذا
اتهموكم بالثورة، قولوا: "نحن أصـــوات
الحق والسلام الذى نؤمن به ونفخر بـــه.
فإذا وقفتم فى وجه دعوتنا، فمن حقنـا أن
ندافــع عن أنفســنا ضـد ظلمكـم" وإذا
تمادوا فى طغيانهم قولوا: "السلام عليكـم،
وسنتجاهل الجُهّال."[٢]

ومن ناحية أخرى، بزغت جمعية وطنية متطرفـة جديـدة، مصـر الفتاة، شكلها عام ١٩٣٣ محامى يدعى أحمد حسين. وهى حركة اسـتلهمت صرامة الدول الفاشية فى أوروبا واعتزازها بنفسها، فاجتذبت الشـباب مـن طلبة الجامعة والمدارس الثانوية فى القاهرة والإسكندرية وغيرها من المـدن الكبرى. وتم تنظيمهم فى تجمعات شبه عسـكرية، القمصـان الخضـراء، ليتظاهروا احتجاجا على مظاهر الحضارة الأوروبية الدخيلة. وأبرزت حركة مصر الفتاة أهمية الإيمان بالدين وما يستتبعه ذلك من أخلاقيـات، مطـالبين بمزيد من التعليم للمرأة باعتبارها مصدر مجد مصـر وأبطـال المسـتقبل. وأعلن شباب الحركة أنهم جيل مصر الجديد، وطالبوا بترك زمام الأمور لهم حتى يقضوا على امتيازات الأجانب فى البلاد وحتـى يؤممـوا الشـركات الأجنبية.

وتشابه الإخوان المسلمون ومصر الفتاة فى معارضتـهم لمظـاهر الحضارة الأوروبية فى مصر. فاحتجوا على المدارس الأجنبية وعلى أنشطة الإرساليات المسيحية، وشنوا هجومهم على عمل المستشرقين الأوروبييـن.[٣] وفى نفس تلك الفترة، انتعش الحزب الشيوعى، وهو حزب ظـل محظـوراً كمنظمة سياسية منذ ظهوره فى العشرينيات؛ وانفصلت عن حـزب الوفـد أحزاب أخرى صغيرة وكثيرة. وعلى الرغم من اختلافاتهم الأيديولوجيـة، إلا أن ما كان يربط كل هذه المجموعات هو رفضها لأسلوب الوفد "الليـبرالى"، إذ رأوا فيه شكلاً من أشكال استرضاء البريطانيين.

عادت درية إلى مصر إذن فى مرحلة حاسمة من مراحـل تطـور البلاد السياسى، مرحلة أحبطت فيها الآمال فى تطـور الحكـم البرلمـانى. والأهم من ذلك، أنها فترة بدأ يترسخ فيها مناخ سياسى يتسـم بمزيـد مـن

العنف، انفصل فيها القادة والزعماء عن القصر، وانفصلت الجماهير عن أشكال الحكم الطبيعي المُنظم. وبرز إسماعيل صدقي (١٨٧٥-١٩٥٠) في شكل "الرجل القوى" في عالم السياسة المصرية، ورأس الحكومة من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٣. وفي وجه الأزمة الاقتصادية المتفاقمة، قام بحل البرلمان وإلغاء دستور عام ١٩٢٣، وأصدر دستوراً جديدا ينص على سلطات أكبر للسلطة التنفيذية، فسمح له ذلك بأن يحكّم مصر بيد من حديد في تلك الفترة التي وصفها البعض بأقسى فترة مرت بها مصر في تاريخها السياسي الحديث. ومع تأجج المشاعر الوطنية، أصبح أي اقتراح بالتأقلم مع الأساليب الأوروبية أو الحكم البريطاني بمثابة الخيانة. فمن أسباب كراهية إسماعيل صدقي، إيمانه بأن مصر لا بد أن تبقى جزءاً من العالم الغربي. إذ إنه كان ممن يؤمنون بالتطور التدريجي وبالمفاوضات الحاسمة، كأسلوب للتعامل مع الخصم، ولا يؤمن بالعنف. وكان البريطانيون يرون فيه مفاوضا صلبا وعنيدا للغاية. ولكن الانتخابات في هذه الفترة كثيرا ما صاحبها العنف وإراقة الدماء، مع اندلاع المعارضة في أنحاء البلاد. وأدت موجة المظاهرات بالبريطانيين إلى توجيه إنذار للحكومة وللوفد معاً، حول ظروف الأمن في البلاد وتدهورها بحيث بدأت تؤثر على أرواح وممتلكات الأجانب. وفي عام ١٩٣٣، تخلّص الملك من إسماعيل صدقي، وعين بدلاً منه رجلاً من رجاله هو على ماهر.

ولما اقتربت درية من رصيف الميناء ومن أسرتها، "رأيت أبي والدموع في عينيه بسبب تأثره العميق لرؤيتي بعد هذه السنين، أما شقيقاتي فانبهرن بأناقتي الباريسية". وعادت درية إلى بيت أبيها حيث كانت تسكن أيضا ثريا وزوجها وابنها، وكذلك ليلي وشقيقيها. وبما أن والدها كان كثير السفر بسبب عمله كمهندس، أصبحت درية تقضي جل وقتها مع أشقائها وشقيقاتها الذين افترضوا أنها عادت عودة نهائية. أما هي فقد أجلّت كل مناقشة حول رغبتها في العودة إلى السوربون "فلم أرد أن استبق الأمور". وكم كانت دهشتها عندما عرفت أنهم اختاروا لها زوجا ينتظر عودتها من باريس. فسألت أباها: "وأين رآني؟" وأجابها: "لقد رأى صورتك في المجلة. وهو رجل ثرى ومتعلم، كما أنه من أسرة محترمة." وأضافت أختها ثريا: "وهل لأى فتاة أن تطمع في أكثر من ذلك؟"

واحتارت درية. فرغم أن أسلوب الزواج هذا كان يتعارض وأفكارها عن حرية اختيار الزوج "على أساس من الحب الحقيقي، في رأيي"، إلا أنها لم ترغب في استبعاد الفكرة تماما. فمع التمسك الشديد للمجتمع بمثل هذه

الزيجات المتفق عليها، وضغط الأسرة والثقافة المحيطة التى تفترض الخضوع للسلطة الأبوية، فكرت درية "بأن قبول ما اختارته أسرتى قد يكون وسيلة لتحطيم الجدران التى أحطت بها نفسى، حتى لا أتألم من جديد. وبما أننى لم أعد أتوقع سعادة حقيقية بعد الأحداث المرتبطة بالشاعر الفرنسى، فربما ساعدنى ذلك الحل على التصالح مع الحياة المحيطة بى."

فقاموا بترتيب لقاء بين درية والشاب، وهو مهندس من معارف أخيها، وعلى علاقة طيبة بأبيها. ويبدو واضحا أن درية كانت موزّعة بين وفائها لأبيها ورغبتها فى إرضائه، وبين إحساسها الداخلى بأن العملية كلها غير سليمة: "وكأننى فى السوق، أساوم على جوهر حياتى نفسها." كذلك لم يرق لها الشاب المتقدم لخطبتها. وعلق أخوها جمال، محاولاً إرضاءها: "اتركى لخيالك الخصب العنان، فيضفى عليه الوسامة". وأضاف أخوها على: "الزواج مسألة تعوّد. وبعد مرور شهرين أو ثلاث، تتساوى الوسامة والدمامة." وعلقت ثريا: "عيب الرجل فى جيبه، لا فى وجهه."

وكافحت درية من أجل بعض الهدوء العاطفى فى حياتها: "أردت أن أخفف من جمود القواعد التى وضعتُها لحياتى، أن أحرر قلبى من العزلة التى أشعر بها." ففكرت فى الموقف بجدية: "فلم أستطع رفض الشاب بلا أسباب، إذ كانت له مزايا واضحة." ولكن ماذا يمثل الزواج بالنسبة لها:

> السعادة؟ لقد تنازلت عنها منذ أن خابت آمالى فى باريس. ربما كنت أسعى إلى التصالح مع الحياة فحسب، تصالحاً يسمح لى بأن أخلّص قلبى من الوحدة. وإذا كان ذلك هو كل ما أتوقعه من الزواج، فما من سبب يدفعنى إلى رفض هذا الرجل. ربما كانت فرصة لأتأقلم مع بلادى، وأن أعيش عيشة غيرى من بنات سنى. فهى وسيلة لدخول الحياة التقليدية المصرية، حتى يكفوا عن نظرتهم لى كشخص غير عادى. كنت أريد أن أضع حلاً لكل ما يدور حولى من مناقشات وأسئلة عن أسباب رغبتى فى استئناف الدراسة. لماذا أريد أن أعمل؟ لماذا لا أريد أن ألتزم

البيت وأتزوج؟ فلا تعمل سوى الفتيات من الأسر الفقيرة، وفتيات الطبقة العليا اللاتى يدرسن فى الجامعة دميمات، لم يجدن لهن زوجاً! كانوا يعتبرونى لغزاً، يصعب تصنيفه. فكان الزواج وسيلة لحل المشكلة والدخول فى فئة "النساء المتزوجات"، فيصبح الزواج قاسماً مشتركا بينى وبين نساء وطنى.

وفى استسلام مغاير لطبيعتها، وافقت درية على الخطبة بمشاعر تشوبها الازدواجية: "رأيت أن أقبل فكرة الخطوبة، وأن أؤجل الزواج الفعلى إلى حين عودتي بعد الانتهاء من الدراسة." وأبلغت المهندس الشاب عن طريق أخيها، بأنها وافقت على الزواج، فسارع بإهدائها خاتما كبيرا من الماس وغيره من الحلى "مصداقا للعهد". فلما رأت تلك الهدايا، انتابها شعور "بأننى بعتُ نفسى بالفعل عندما قبلت الزواج بلا حب"، وبدأت تشعر بالندم على قبولها الشاب، خاصة وأنه بدا "وكأنه يزداد حبا لى مع مرور الأسابيع. وحاولت أن أحبه فلم أستطع."

وازداد شعور درية بأنها دخلت فى علاقة سوف تؤدى إلى مأسلة إن لم تسارع بوضع حد لتلك التمثيلية." وما سيعانيه خطيبي من عذاب أقل كثيرا مما سأعانيه أنا فى زواج بلا حُب." وأبدى أبوها خيبة أمله عندما أخبرته برغبتها فى 'إعادة الشبكة' وفسخ الخطوبة. "ولكنه لم يحاول إقناعى، إذ كان يعرف أن قراراتى، بعد تفكير عميق، لا رجعة فيها. وكذلك كان يحترم حرية الآخرين ولا يتدخل في رغباتهم أو قراراتهم." وأخيرا تولىّ زوج أختها مهمة فسخ الخطوبة رسميا، فانتاب درية "شعور بأننى تحررت". هكذا اختارت درية مرة أخرى بين إحساسها بالحرية وبين التصرف كما يتوقعون معها، ففضلت الاستقلال، ورفضت أن تخضع لما تمليه التقاليد الثقافية والتوقعات المحيطة عما يجب على المرأة أن تفعل أو لا تفعل.

وفى نفس هذه الفترة، قابلت سيزا نبراوى التى كانت قد رتبت اللقاء لتحصل منها على حديث لمقال فى مجلة 'ليجيبسيان' (المصرية). وفى خطاب موجه من سيزا إلى هدى شعراوى، نلاحظ أن درية ما زالت محور اهتمامهما: "درية شفيق فى مصر الآن. كنت على موعد معها على الشاطئ منذ أيام. وهى لم تتغير: بسيطة ولطيفة. سألتنى عما إذا كانت برقية شكرها

قد وصلتك. لا أدرى ماذا أضيف. إنها سترسل لى مقالاً كتبته للمجلة وهـى على الباخرة الآتية إلى مصر. سأراها ثانية فى لقاء للمجلة. وهى قد حصلت على موافقة الوزارة للعودة إلى فرنسا لإعداد شهادة الدكتوراه، ولكن أسرتها تحاول أن تثنيها عن السفر."(٤)

ويمكننا أن نفهم "تأملات امرأة اليوم" التـى كتبتـها درية إذا مـا وضعناها فى هذا الإطار. فهى قد كتبتها فى وقت شعرت فيه بحيرة عاطفية، لذلك وصفت فيها تساؤلات المرأة الحديثة؛ وليس مـن قبيـل الصدفـة أن اختارت عنوانا يذكرنا "بأستاذى، روسو" الذى تشيد به.(٥) ففى أسلوب يشـبه ما كتبته فى حوارها مع أبى الهول، تكرر درية السؤال: "من أنت؟" وتبدأ فى صياغة الرد، فتصف ما يتنازع المرأة الشابة فى كفاحها للاحتفاظ بشعور من الاستقلال. ومن خلال استعاراتها نتبين شيئا مما تسميه "المغـزى الحقيقـى لحياتى":

قلبٌ شاب لا يفكر سوى فيما هو حقيقـى ومأساوى وجليل. شاب وكـهل فـى آن واحد، إنسان يتساءل "من أنـت؟" فأنـا بالنسبة لنفسى مجهولة: فمن تعرف نفسها لا تصبح إنسانة! فما الـذى أسـتطيع أن أعرفه عن نفسى سـوى هـذه القشـرة المادية والاجتماعية! آه لو أمكن أن ننقـل صيغة ديكارت إلى أسلوب الحياة فنقـول: "أنا أكافح إذن أنا موجود"، لأصبح لكـل فعل معنى. وفتاتنا المتأملة تخوض ذلـك الكفاح: إنها تحلم، نعم، ولكنه حلم حـى لأن الأفكار التى تتلاعـب بـها أفكـار مجرّبة! دائما نفس المشكلة، حل نفلسـفه قسراً، وكفاح دءوب يموت ويولـد مـن جديد: هذا هو الإنسان! وها هى امـرأة اليوم.(٦)

وبالنسبة للقوى الأكثر تحفظا فى مجتمعها، بدت مثل هذه التـأملات الفلسفية أنوية للغاية، وفيما بعد، عندما واجهت دريـة أصـوات الرجعيـة، انتقدتها لاستعراضيتها الغربية والأنوية. والأصوات الرجعية هـذه، لا مـن

صفوف الإخوان المسلمين فحسب ولكن من جانب رجال الدين المحافظين والحكومة، كانت كلها تندد بظهور الشابات المصريات على شواطئ الإسكندرية. وكتبت سيزا نبراوى رداً على انتقاداتهم: "لقد طرأت تغيرات كبيرة على العادات والتقاليد المصرية خلال السنوات العشر الأخيرة. وفى نفس الوقت، شنت بعض العناصر فى مجتمعنا حملة تصف شواطئنا بأنها أماكن تهلكة، يجب أن نمنع عنها فتياتنا. يا لها من صدمة بالفعل للذين اعتادوا على رؤية المرأة محتجبة بين أسوار الحرملك، عندما يرون فتاة اليوم تلعب وتتحرك تحت الشمس الساطعة وتستفيد من هواء الحرية النقى."(٧)

وتقول سيزا نبراوى إن كازينوهات القمار وبيوت الدعارة التى يتردد عليها شباب المجتمع الراقى، والتى لم تحاول الحكومة ولا السلطات الدينية إغلاقها، أخطر بكثير على الأخلاق العامة من الشابات اللاتى يستمتعن بالشمس والبحر على شواطئ الإسكندرية، فتستطرد:

> "روح الرجعية التى تسود الأوساط الرسمية منذ فترة، شجعت على نشر مقالات فى الصحف تشيد بالحجاب وتحذر من مخاطر التعليم العالى للفتيات ومن اختلاط الجنسين، إذ ترى أنها أمور تفسدهن وتحيد بهن عن رسالتهن الحقة. يمكن القول إن من يكتبون ذلك، يتعمدون تجاهل القوة التى لا تقاوم للأفكار الجديدة، وخاصة فكرة تحرر المرأة. فما هى حججهم إزاء هذه الحركة، ونحن نرى الفتيات قد برزن وتجلت مواهبهن اللامعة من خلال إنجازاتهن الأكاديمية، فأصبحن مثالاً للعمل الدءوب والسلوك المثالى؟"

تُرى من اختارتها سيزا نبراوى رمزاً تواجه به تلك الأفكار الرجعية، وتدلل به على أن الطالبات الشابات اللاتى سافرن إلى أوروبا فى بعثات، "يُمثلن الأمل فى مستقبل مصر"؟ فتقول:

وعلى شاطئ خليج ستانلي التقيت، ضمن من رأيت من شابات، بالآنسة درية شفيق التي حصلت، وبجدارة، على إجازتها للتدريس بالسوربون. كما التقيت بكريمة السعيد التي نالت دبلوما بمرتبة الشرف في مادة التاريخ من كلية وستفيلد. وفي حديثي مع الآنسة درية شفيق، شرحت لي أسبابها في اختيار الفلسفة دون غيرها مجالاً، فقالت:

"لأنها دراسة تفتح آفاقا فكرية على رؤى وأفكار عريضة. كما أنها تشكل طباعنا وتثرينا من خلال المعرفة الدقيقة." ورأى درية أن: "التعليم العالي للفتيات يسمح بتنشئة جيل جديد من النساء، أكثر وعياً بمسئولياتهن وما تستتبعه من واجبات." وهي لا تبدو قلقة إزاء الأزمة المعنوية التي تمر بها الشابة اليوم نتيجة لتيارات الحداثة هذه. فهي تؤمن: "أن المرأة، المتعلمة تعليما سليما، يمكنها التحكم في تلك التيارات، فتكافح الاتجاهات المادية لعصرنا، وسلاحها في ذلك إيمانها بالمثل."(٨)

ولما جاء منتصف أكتوبر من عام ١٩٣٢، كانت درية قد عادت إلى باريس لتستأنف دراستها. وفي خطاب مرسل لهدى شعراوي، من 'الدار الدولية'، تُعرب درية عن سرورها لأنها تمكنت من رؤيتها قبل مغادرة القاهرة، فتكتب: "أعود لدراستي بعزم غير مسبوق، مهتدية بالشجاعة التي تلهمينا إياها حتى نرفع من شأن المرأة المصرية. كم كانت فرحتي عندما قرأت المقالات الخاصة بـ 'آخر عهد الحرملك'، فمن خلالها عرفت كل ما حققتيه من أجل امرأة اليوم. اختتم خطابي بتقبيل يديك في احترام وبالتعبير عن امتناني. المخلصة: درية شفيق".(٩) وفي خطاب آخر مرسل بعد عامين، نعرف أن هدى شعراوي زارتها في باريس: "صاحبة العصمة، أشكرك مرة أخرى على أمسية الأمس اللطيفة. فرحت برؤيتك وبرؤية مصر في شخصك. كم يسعدني أن أراك مرة أخرى قبل سفرك، ولكني أعرف أن

وقتك محدود، فلا أجرؤ على مضايقتك. اسمحي لي، يا صاحبة العصمة، أن أقبل يديك في احترام. المخلصة: د. شفيق."[١٠]

وعادة ما كانت درية تقضي عطلاتها الصيفية في الإسكندرية التي كانت، في منتصف الثلاثينيات، قد أصبحت ملتقى الأسر القاهرية الثرية الهاربة من حر الصيف، بل والسائحين والأوروبيين الأغنياء الذين كانوا يتدفقون على مصر. وفي صيف ١٩٣٥، نُظمت بالإسكندرية مسابقة جمال لاختيار فتاة تمثل مصر في مسابقة ملكة جمال العالم. ولم يسبق لامرأة مصرية مسلمة أن تقدمت للمسابقة، وقررت درية أن تدخلها دون أن تخبر أبيها أو تستأذنه. فهي كانت ترى قرارها هذا متفقا وصورة المرأة الجديدة التي رسمتها في "هل من حق المرأة أن تتفلسف؟". فالمرأة الجديدة تمثل وحدة الجمال (الأنوثة) والذكاء (الرجولة) في كائن واحد. ولابد للحياة نفسها أن تصبح تحفة فنية: "في باريس أثبتُ وجودي في المجال الفكري. والآن أردت أن أثبت وجودي في المجال النسائي. وكأن الطبيعة في عدلها حرمتني من التميز الطبقي والاجتماعي ومن الثراء، فعوضتني في تلك المزايا الأخرى."

وجاءت المسابقة فرصة ذهبية لتختبر درية أفكارها. ولم يكن قرار دخول المسابقة قراراً سهلاً. وأدركت أنها، كامرأة مسلمة من أسرة محافظة من الأقاليم، ستعرّض "سمعتها للخطر" إن فعلت. كما أدركت أن المسألة كلها قد تبدو تافهة وسطحية من وجهة نظر محايدة، ولكن بمفهومها هي لم تبد سطحية على الإطلاق. ولذا عزمت على الاشتراك فيها: "كنت أعرف تماما أن أبي لا يوافق على اشتراكي في مثل هذا الاستعراض، وأن تصرفي سيؤلمه. فعزمت على أن لا أخبره، وبما أنه كان خارج المدينة، فلم يكن هناك داع، فإن فزت فسيفخر بي، وإن فشلت فلن يسمع بالموضوع أبدا."

وجاء في مقال نُشر في ذلك الوقت: "هناك خمسون فتاة متسابقة مساء السبت ١٥ أغسطس عام ١٩٣٥، استعرضتهن لجنة التحكيم لمدة عشر أو اثنتي عشر ساعة، مكررة نفس الملاحظات المرة تلو الأخرى: امشي ببطء، مُرّي مرة أخرى، اكشفي عن ساقيك، فلتأت التالية!. الساعة الآن الواحدة صباحا. الحرّ خانق وكلنا نتصبب عرقا. لجنة التحكيم انتقلت للتداول. تم انتخاب ملكة جمال مصر ووصيفتيها.[١١] اختيرت شارلوت واصف ملكة وذهبت بعد ذلك إلى باريس حيث تُوجت ملكة جمال العالم لعام ١٩٣٥. وجاء اختيار درية كوصيفة أولى، لا لجمالها فحسب، بل لأنها أول

فتاة مسلمة تشترك فى مثل هذه المسابقة، مما أثار فضول واهتمام الصحفيين.

ونشرت مجلة "لاريفورم إلوستريه" الفرنسية مقالة تكشف لنا عن صورة درية شفيق العامة كما تكشف عن صورتها لنفسها:

"امرأة شابة سمراء البشرة ذات قوام ممشوق، تبدو هادئة ومتأملة، ذات عزم قوى به نكهة إقدام وجرأة، وباعتبارها مسلمة، فإن الآنسة درية شفيق تستحق الإعجاب لأنها اشتركت فى المسابقة. ولقد أسرَّت لى أنها اشتركت بدون علم أسرتها. "ماذا دفعك إلى دخول المسابقة؟" وأجابتنى وصوتها وحركتها يدلان على أنها كانت تعرف ما سينتهى إليه الأمر. "أردت أن أسرّى عن نفسى، أن أرى الناس وأشعر بكل ذلك الجو حولى، أن أبتعد عن المألوف لليلة واحدة. وبالإضافة، فقد كانت المسابقة جادة. فلما عرفت أسرتى أننى لم أفز بلقب الملكة، هنأونى لأنهم يعرفون أن أبى لم يكن سيسمح بسفرى إلى أوروبا للاشتراك فى المسابقة العالمية. لذا فأنا سعيدة لأننى لن أندم على رحلة جميلة كانت ستفوتنى!" والآنسة شفيق تترك لدى المرء انطباعا بأنها شابة مثقفة جدا، يتطرق الحديث معها إلى الفلسفة. فلما طلبت منها أن تحدد لى مُثُلها وطموحاتها، أجابتنى بعبارة غامضة: "أتطلع إلى كل ما ليس لدى وأرغبه؛ فإذا حصلت عليه، سأعتبر أننى قد حققت مُثُلى" وأضافت بشئ من التهكم: "انزلقوا يا بنى البشر."[١٢]

أما الصحافة المصرية الناطقة بالعربية، فانتقدت اشتراك درية فى المسابقة وفردت اسمها على صفحات الجرائد. وكانت النتيجة أن جاءتها

خطابات من مدرسيها القدامى فى مدارس إرساليات طنطا والإسكندرية "ينتقدوننى لأننى تصرفت بأسلوب لا يليق بتنشئتى." وشنوا عليها حملة ضارية؛ أقسى ما جاء فيها من انتقاد: "أننى فتاة مسلمة تصرفت بما يتعارض والإسلام!" وآلمها هذا النقد بالتحديد ، لأنها شعرت بأنه سيؤلم أباها: "ولكنى اكتشفت عظمة نزاهته الأخلاقية ونبل مشاعره عندما هب للدفاع عنى، مؤكدا لى أن تلك الحملة المشينة لا علاقة لها بالإسلام. وشرح لى أن روح الإسلام الحقة فياضة بالحرية والتسامح، وبأن الإسلام لا يعارض الجمال. وأضاف مقتبساً من القرآن أن الرسول وُصف فيه بأنه أجمل خلق الله."

وأسفرت الضجة والشهرة، فيما أسفرت عنه، عن طلب جديد للزواج، وصفته درية فى مذكراتها بأنه يشبه كتاب سارتر 'لانوزيه' أى الغثيان! فيبدو أن درية وقعت ضحية مثاليتها. فالشاب الذى تقدم لخطبتها لم يكن سوى الصحفى المحبوب أحمد الصاوى محمد، صاحب ومؤسس 'مجلتى'، وهى أنجح وأوسع المجلات الاجتماعية انتشارا فى مصر فى ذلك الحين. وكان الصاوى صحفيا موهوبا ومعروفا بمقالاته التقدمية المستنيرة دفاعا عن قضية المرأة. كان قد درس الصحافة فى باريس قبل أن يلتحق بجامعة السوربون حيث حصل على شهادة فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٢٧. كما كان واحداً من شباب المثقفين (الذين ذهبوا إلى فرنسا لدراستهم العليا) الذين يحيطون بهدى شعراوى. والتقت به درية بمناسبة مسابقة ملكة جمال مصر، ثم أعلنت خطبتهما بعد ذلك بفترة قصيرة. وتذكر درية تلك التجربة بمرارة:

> فى خضم الجدل الذى أحاط بى، تسلل إلى حياتى صحفى مصرى يمتلك مجلة ناجحة. كان شديد الدمامة وشديد الجاذبية، فأغمضت عينىّ عن قبحه وتخيلته فى صورة سيرانودى برجراك. وأغرق بيتنا فى فيض من الورود الحمراء. وكان يحدثنى عن باريس، فظننت فيه روح شاعر. أحاطنى فى دوامة وتم كل شئ فى سرعة كبيرة لم تسمح لى بالتفكير ملياً قبل دخول هذه المغامرة الجديدة. وقعنا على عقد الزواج فى سرعة مذهلة.

وكانت الخطبة حدثا كبيراً، حتي أن صورة العروس وزوجها ظهرت لأول مرة في مصر على الصفحات الأولي. ويحكي مصطفى أمين:(١٣)

> صباح ذات يوم طلعت علينا جريدة الأهرام بصورتين كبيرتين على أربعة أعمدة من الصفحة الأولى وتحتها كلمات "زواج ميمون". ودُهش القراء إذ كانت المرة الأولى التي ينشر فيها الأهرام صورة عروسين في صفحته الأولي. فحتى زواج الملك فؤاد والملكة نازلي، في عهد فؤاد، لم تنشرها جريدة الأهرام الموقرة إلا في صفحة الأخبار المحلية بالداخل، لا على الصفحة الأولى. وازدادت دهشة القراء لما عرفوا أن الزوج هو الكاتب الشاب المحبوب أحمد الصاوي محمد، صاحب عامود "في الصميم" الذي يُنشر في صفحة الأهرام الأولى. والصاوي ليس وسيما، ولكن كتاباته عن الحب والهيام والجمال صوّرته في خيال القارئات في صورة أحلامهن عن روميو أو فالنتينو أو كلارك جيبل أو روبرت تايلور. أما العروس، فهي الآنسة درية شفيق الحاصلة على درجة في الآداب من السوربون في باريس، والتي طالما تحدث المجتمع عن جمالها وذكائها. ثم بلغت دهشة القراء ذروتها لما قرأوا أن حفل الزفاف تم بالإسكندرية، في قصر هدى هانم شعراوي، زعيمة الحركة النسائية في مصر، وأن المهر اقتصر على خمسة وعشرين قرشا.(١٤) وهذا بالفعل زواج الموسم، خاصة وأن العروسين من أنصار المطالبة بحقوق المرأة. وتم التوقيع على العقد في سرية تامة، لم يسمع به أحد ولم تعرف به الصحف ولا المجلات،

فانفردت جريدة الأهرام دون غيرها بالقصة."[١٥]

ونُشرت صور درية وأحمد إلى جانب صور قريبة السيدة هدى شعراوى ، حورية إدريس، مع زوجها فى عدد سبتمبر من 'ليجيبسيين' بعنوان 'عروسان عصريان'. وأهم ما جاء فى هذه القصة هو التشديد على موقف العروسين المعاصرين باعتبارهما مثالا جديداً لمساواة المرأة والرجل. فبدلاً من آلاف الجنيهات التى كان يُفترض أن يدفعها من يتقدم للزواج بقريبة لهدى هانم شعراوى، قبلت العروس مهراً لا يزيد على خمسة وعشرين قرشاً وهو ما نصت عليه السنة، وذلك تمسكا بالمبدأ. وحتى لا يُعتبر ذلك التنازل خطوة تجعل الطلاق أمراً سهلاً، حُدد باقى المهر، أى المؤخر منه، فى حالة الطلاق، بمبلغ ثلاثمائة جنيه، وهو مبلغ حدده الزوج. ومثل هذا العقد يستند إلى المبدأ التالى: بقبولها مبلغا صغيرا للمهر، تُيسر العروس الزواج على زوجها، أما الزوج، فعندما يلتزم بسداد مؤخر كبير، فهو يضع العقبات أمام إمكانية الطلاق. فلما تم ذلك بمناسبة زواج أحدث ضجة، وباركته هدى شعراوى، صار مثالاً لمزيد من التكافؤ فى عقد الزواج، وبدا فى صورة رسالة واضحة للمجتمع المصرى.

ومع ذلك فقد تعقدت الأمور فوراً بين درية وأحمد. فيحكى مصطفى أمين:

– ولكن الزواج الذى أثار كل تلك الضجة لم يدم طويلا. والواقع أن الطلاق تم قبل أن تُزَفَّ العروس. فأحمد الصاوى كان صعيديا فى غلاف أوروبى، وُلِدَ فى أسوان وتعلم فى باريس. كان متحرراً فيما يكتب، متزمتا فى بيته. أما درية شفيق، فقد تأثرت بدراستها فى السوربون وطالبت للمرأة المصرية بكل ما للمرأة الفرنسية من حقوق. أرادت لها أن تُدلى بصوتها فى الانتخابات وأن تقدر على تمثيل بلادها

وتولى الوزارة. ولم يكن الصاوى يعترض أن تتولى الوزارة أو السفارة أى امرأة مصرية ... ما عدا زوجته، فمكانها البيت. فأصبح الطلاق أمراً لا بد منه. وتحملت درية صدمة الطلاق بشجاعة تدعو إلى الإعجاب وقالت لى آنذاك: "هذه أقل تضحية أقدمها حفاظاً على مبادئى."(١٦)

أما رواية درية لتلك الأحداث، كما وردت فى مذكراتها، فتعطى انطباعاً بأنها خُدِعت:

كان حفل خطبتنا كبيراً، وأسعدنى أن أرى السيدة هدى شعراوى مرة أخرى. كان الجميع يرى فى ارتباطنا زواجا ناجحا: لقاء بين عقليات حديثة. وساورنى شعور غريب بأن شيئا ما غير سليم، ولكنى أقنعت نفسى بأننى على خطأ. وبما أن خطيبى لم يقدم لى خاتم خطوبة كما جرى العرف، أعطانى أبى نقودا لأشترى خاتماً، وعرف خطيبى بذلك وجاء يوما لزيارتى وفى يده لفافة صغيرة، ظننتها هدية. ودُهشت عندما فتحتها إذ وجدت صورة فوتوغرافية التُقطت لى فى المسابقة وأنا ألبس ثوبا عارى الكتفين، وإن بدت الصورة وكأنى عارية تماما. لم أفهم المقصود. فالتفت الىّ قائلاً: "إن لم تعطنى النقود، (وكان يقصد تلك التى أعطانى أبى إياها) ستنشر هذه الصورة على صفحات الجرائد، ولن تستطيعين السير فى الشوارع. فسمعتك ستضيع إلى الأبد!" ووقف ينتظر إجاباتى. وحاولت أن أكسب وقتا لأفكر، فأخبرته أننى سأذهب إلى البنك. "أعود غداً، إذن". ثم أخذ الصورة وذهب.

ويصعب أن نفهم لماذا أراد الصاوى أن يبتز درية بهذا الشــكل، ولا نجد تفسيرا فى مذكراتها. وكما لاحظ مصطفى أمين، كان الصاوى فى داخله "صعيديا"، تتبخر آراؤه الليبرالية عندما يتعلق الأمر بزوجته. وعندمـــا أدرك أن لدرية آراءها الخاصة، وأنها لن تقبل العيش فى داره 'الصعيدية'، ربمـــا ظن أنه يستطيع أن يخضعها بالتهديد. فكانت الصدمة لدرية: "شعرت بـــالقمع وبأننى اقتربت من حافة الهاوية مرة أخرى. كيف أهرب من هذا الكابوس؟"

ورغم عقد القران الذى تم بالفعل، إلا أن الصاوى لم يكن قد دخـــــل بها. ولكن درية اعتبرت نفسها 'متزوجة' أمام المجتمع. وخلافاً لمـــا فعلتـــه أمها قبل جيل مضى، عندما خضعت لرأى المجتمع فى الطلاق، بدأت دريـــة تبحث فى إمكانية إلغاء عقد الزواج. وأثارت كلمة "الطلاق" قلق أبيها الـــذى خشى على سمعتها، فنصحها أن "تعالج الموقف بشكل ودى. فخطبتان تنتهيان بالفسخ (بل واحدة بالطلاق) فى أقل من شهرين، كارثة!". أما درية فكـــانت "تشعر بالهول مما حدث وتريد الطلاق بأى ثمن." الموقف معقد. والطلاق بيد الزوج مادامت الزوجة لم تطلب العصمة فى يدها عند توقيع العقد.

> ذهبت إلى خالتى عزيزة، إذ كـــان زوجـــها محاميا مشهوراً ذا نفوذ. فطمأننى. وبـــالفعل، فى خلال أربعة وعشـــرين ســـاعة، أذعـــن "الخطيب المبتز" خوفاً، وقبل الطلاق. وهـــذا الخلاص فى اللحظة الأخيرة، ترك فى نفسى شعوراً بالمرارة بل والغثيان. شعرت بـــأن شيئا ما فى بلادى غـــير ســـليم، وأن قمـــع المرأة ما هو إلا مظهر من مظاهره .

وبينما كانت درية تفيق من كارثتها الشخصية عام ١٩٣٦، اعتلــــى عرش مصر ملك فى السادسة عشرة من عمره، الملك فاروق، وذلـــك بعـــد وفاة والده الملك فؤاد الأول. وعاد السيد علــــى مـــاهر – رجـــل السياســـة المصرية القوى والمقرب من العرش – بالملك الشاب مـــن إنجلـــترا حيـــث أرسله أبوه إلى كلية ساندهرست للدراسة. وكان يحيط بالملك لفيـــف ممـــن يسعون إلى شغل مواقع متميزة فى القصر. وعُين على ماهر رئيسا للوزراء. وتُعلِق درية: "أما الملكة الأم، نازلى، فأحست بـــالتحرر مـــن زوج متســـلط وقررت الانتقام من الحياة." وكانت تقصد أن نازلى بدأت تمـــارس ســـلطتها

الجديدة باعتبارها أم الملك، وأحاطت نفسها بكل من توسمت أنهم يخدمون أهدافها، خاصة أحمد حسنين، الذى كان المدرس الأثير للملك الشاب، وكان الشائع أن له أيضا تأثيراً عليه. وأغضب ذلك البعض فبدأت الدسائس تُحاك فى القصر.

ووجدت درية نفسها، على غير علم منها، متداخلة مع القصر بدسائسه.

تقرر أن تكون للملكة الأم أنشطة اجتماعية، وبالتالى فلا بد من امرأة متعلمة بجانبها لتساعدها. ووقع علىّ الاختيار، وقبل أن يصدر القرار الرسمى بتعيينى، انتهت القصة. كيف بدأت وكيف انتهت؟ لا أدرى. كان مراد محسن، المسئول عن خزانة القصر وصاحب النفوذ فيه، قد اقترح اسمى، لأن زوجته كانت تعرف أمى وتقدرها، وعرفتنى طفلة فى المنصورة. وفى داخل السراى، أصبحتُ محسوبة من أتباع مراد محسن، لأنه سعى إلى تعيينى. وتعيينى كان سيساعده كثيرا (نظرا لما سيكون لى من نفوذ لدى الملكة الأم)، يساعده فى معركته ضد أحمد حسنين، ذى النجم الصاعد. ويبدو أن الأخير أحبط المحاولة. ولم أكن أدرى عن كل تلك الأمور شيئا عندما حددوا لى موعداً لمقابلة الملكة. ومنذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها الصالون لأنتظر جلالتها، شعرت بالاختناق، بجو ثقيل ملأنى رغبة مجنونة فى الخروج وصفق الباب ورائى. صبراً! ثم دخلت وصيفة واستجوبتنى لمدة ساعة فى كلمات يعوزها الوضوح وتثير الحيرة. وأحسست فوراً بأن وراء الأمر شيئا. ولكن ماذا؟ وأخيراً وبعد لأى، أفهمتنى أننى صغيرة السن على المنصب. وقمت لأخرج فلم تمنعنى.

ويبدو أن درية حيثما ذهبت وكلما حاولت التصالح مع محيطها، باءت محاولتها بالفشل أو انتهى الأمر بجرح مشاعرها لأسباب خارج إرادتها. "ما حدث لي مع الصاوى لم يكن وليد الصدفة ولا نتيجة لعدم قدرتي على التأقلم. لا شك أن مرضاً خبيثا يلتهم بلادى من الداخل، ويتغلغل في هياكلنا الاجتماعية. لم أكن أعرف طبيعته، ولكنى كنت أشعر وجوده وأتوقعه. لابد لى من الرحيل."

هكذا قررت درية مرة أخرى أن تعود إلى المرفأ الذى وجدت فيه دائماً الدعم والقوة على مواجهة جراح وجودها الاجتماعى، إلى عالم الفكر، عالم السوربون والفلسفة. ولكن، فى هذه المرة "لم يكن رحيلى هرباً بل سعيا – وغزواً وتملكاً للمعرفة! سأرحل مرة أخرى إلى باريس! سأحصل على أعلى شهادة فى العالم. سأسلح نفسى بكل الأسلحة الجبارة التى تتمثل فى المعرفة! عندئذ، وعندئذ فقط سأجد طريقى نحو الحرية."

ولم تجد صعوبة فى الحصول على منحة جديدة للتحضير لشهادة دكتوراه الدولة فى الفلسفة من السوربون. وتفاءلت لأنها على وشك تحقيق حلم قريب إلى نفسها، ولكنها أحست فى نفس الوقت أن "هوة سحيقة تفصلنى عن بلادى. بذلت قصارى جهدى لأتصالح مع مصر ولكنى فشلت. وظننت أن السبب قد يكون المسافة الكبيرة بين أوهامى المثالية من ناحية وواقع مصر من ناحية أخرى. وتساءلت: كيف أقرِّب بلادى منى ؟" وفيما بعد، فى مذكراتها، تقدمت برد على السؤال: "إذا كنت قد فشلت فى أن أطابق 'أبعادى' على أبعاد بلادى، لماذا لا أحاول أن أفعل العكس – أن أطابق أبعاد بلادى مع أبعادى أنا!". هل كانت كلماتها نابعة من صَلَف، أم كانت تنم عن اقتناع بأن لها فى حياة بلادها رسالة؟ "كان يساورنى شعورٌ ملحٌ بأننى –فى يوم ما– سأحقق شيئا عظيما لبلادى. ولكنى كنت أدرك، فى نفس الوقت، الصعاب الكبيرة التى تحول دون مواءمة المبادئ العظيمة مع واقع الحياة."

وتصبح الفكرة المسيطرة على مذكراتها وهى تستعيد تلك الأيام، إدراكها بأن الحياة، وإن كانت حَبَتها بإمكانات عظيمة، إلا أنها ستطالبها بمقابل لا يقل قيمة. وتقارن نفسها بمحنة الشاعر على هذه الأرض، فتقتبس من قصيدة بودلير 'النورس':

الشاعر يشبه السحب
يجوب العواصف
يسخر من الشهب،
منفيٌ على الأرض بين ضحك البشر،
تثقله جناحاه عن السفر.

فإن وُهبَ الإنسان قدرات عظيمة، فمعنى ذلك أن يتعرض لمعاناة عظيمة فى نفس الوقت. وتستخلص درية: "إن ناموس الطبيعة العظيمة يُعلّمنا أن لكل شئ ثمنا، فكلما سما الهدف كلما ارتفع الثمن."

ودرية، كالنورس، كانت تسعى نحو شئ لا تدرك كنهه بعد "سوى أنه رسالة إنسانية بأعمق معانى الكلمة، أى بمعنى جوهر الإنسان. وكان علىَّ أن أبدأ فى الاستعداد للرسالة فوراً. أدركتُ أننى لا بد وأن أكرس نفسى لبلوغ أسمى المعرفة، وأن أخضع نفسى لسيطرة كاملة. فهى "كانت تفكر فى مستقبلها أكثر مما تفكر فى ماضيها: "لم يكن وقتى يسمح لى بأن ألعق جراحى. فقد سيطرت على مشاعرى فكرة العودة إلى باريس، إلى السوربون، لأصبح من أكثر نساء العالم ثقافة. عندئذ أكون قد تحررت من الماضى وتحررت من نفسى." وفى أغسطس ١٩٣٦، فى سن السابعة والعشرين، أبحرت درية إلى فرنسا مرة ثانية، وشعورها أن "هناك نوعا من العدالة، ييسر بعض الأمور ليعوِّض بذلك عن أمور أخرى."

وبينما ترحل درية سعياً وراء تحررها من ماضيها الثقيل، كان يعتلى عرش مصر فتى ساذج تعوّزهُ الخبرة، فى السادسة عشرة من عمره، فإذا به يفتح الأبواب أمام سلسلة من الدسائس والنزاعات على السلطة بينه وبين البريطانيين والوفد.(١٧) وتعاظم خطر المحور فى أوروبا، وزاده حدة غزو إيطاليا ثم ضمّها الحبشة وتكثيف الدعاية الفاشية فى مصر، مما جعل البريطانيين أكثر تجاوباً مع جهود المصريين من أجل محو آثار الاحتلال من البلاد. ولما تولى مصطفى النحاس زعامة الوفد بعد وفاة سعد باشا زغلول عام ١٩٢٧، جاء الوفد إلى الحكم إثر انتخابات دستورية، فتضافرت الظروف المناسبة لتوقيع المعاهدة بين بريطانيا ومصر سنة ١٩٣٦. ونصت المعاهدة فيما نصت عليه أن بريطانيا العظمى سوف تعترف لمصر بسيادتها كاملة (باستثناء بند يسمح لبريطانيا بالاحتفاظ بوجود عسكرى على قناة السويس لمدة عشرين سنة)؛ كما نصت على استمرار الإدارة المصرية-

البريطانية للسودان، وأن تنتقل المسئولية عن الأجانب والأقليات إلى الحكومة المصرية.

فلما اندلعت الهبَّة الفلسطينية (١٩٣٦-١٩٣٩)، تصـدرت القضيـة الفلسطينية الأحداث، مما شجع التيار الدينى المحافظ فى مناهضته لأوروبـا. وكان يسكن فلسطين فى ذلك الوقت ٤٠٠,٠٠٠ يهودى. بينما يبلغ إجمـالى تعداد السكان نحو ١,٤٠٠,٠٠٠. وسقط نحو ٥٠٠٠ عربى ويـهودى كمـا جُرِحَ نحو ١٥,٠٠٠ خلال المعارك. وقمع البريطانيون الحركة، وقاموا بنفى زعمائها، كما جرَّدوا الفلسطينيين من السلاح بينما قـاموا بتسـليح اليـهود. وتدفق سيل من المهاجرين اليهود على فلسطين من أوروبا. فلما جـاء عـام ١٩٣٩، كان شعار "إذهبوا إلى فلسطين!" قد زاد من عدد اليهود القادمين إلى ١٥,٠٠٠ سنوياً.[١٨] ونادى الإخوان المسلمون كما نادت مصر الفتاة بمزيـد من التعاون مع العرب الذين يحاربون الصهيونية فى فلسطين. ودعت هـدى هانم شعراوى لعقد أول مؤتمر للمرأة العربية حول القضية الفلسطينية عـام ١٩٣٩؛ كما أنها كرسَّت حياتها بعد ذلك للقضية.

وبينما كان البريطانيون يتفاوضون مع الصهاينة على تحويل فلسطين إلى "وطن" ليهود العالم، كانوا قد نجحوا فى التوقيع على المعاهدة البريطانيـة المصرية التى احتفظت لبريطانيا ببعض القوات عند قناة السـويس. وعلـى الرغم من قبول قطاعات عريضة من الجماهير للمعاهدة، إلا أنها وُوجـهت بمعارضة قوية من جانب الجماعات السياسية الصغيرة (الشيوعيون يسـاراً والفاشيون يميناً). ومع الوقت، تحولت المعاهدة إلى رمز للمقاومة الشـعبية للاحتلال البريطانى البغيض، فى فورة المشاعر الوطنية المطالبة بالاسـتقلال والتى اجتاحت البلاد على مدى العقدين التاليين. ونظم أحمد حسـين مصـر الفتاة على نمط التنظيمات الفاشية الأوروبية، فاجتذب العديـد مـن شـباب مصر. أما المجموعات الشيوعية فقد بدأت تنتظم صفوفها سراً، بينما الإخوان المسلمون التابعون لحسن البنا يزدادون قوة ونشاطاً.

أما درية، فلأنها قضت جُل تلك السنوات فى الخارج، لم تفهم المعنى الكامل لتلك "الاضطرابات المحيطة بى فى مرحلة ما قبل الحرب، اللهم إنـى كنت أشعر أن الفوضى آتية لا محالة."

(٤)

العودة إلى مدينة النور (١٩٣٦-١٣٩)

فى مدينة باريس
كثيرا ما شعرت بالجوع
وفيها بحثت
عن العلم
وفيها تعلمت
الفلسفة
كنت أتوق للحياة
بمعناها المطلق،
محررة، مطهَّرة
من كل ما يشين
سعيت طويلا
إلى المنتهى
وظللت
"الباحثة عن المطلق"
كعهدى سابقاً
فى مدينة
باريس[١]

انتابها إحساس حقيقى بالسعادة للعودة إلى تلك المدينة التى كانت تشعر فيها "بتجمع كل القوى الخفية فى قلبى، تدفعني دفعاً نحو وعى جديد ونظرة جديدة للحياة". وتطلعت درية إلى باريس وكأنها "أفيق من كابوس الأحداث السابقة". وآمنت بأن الزواج مرادف للألم وخيبة الأمل، فتعهدت لنفسها بأن لا تتزوج وأقسمت أن تكرس نفسها "للبحث عن الفكر الذى أجد فيه راحتى". وأصبح شغلها الشاغل البحث عن المطلق وهى تسعى إلى إعادة اكتشاف جوهر مدينة النور، مدينتها. وقضت السنوات الثلاث التالية تتذوق الأوساط الباريسية، تفكر وتتكلم وتكتب بالفرنسية، تدرس تراث أوروبا الغربية الفلسفى وحضارتها، وتلتقى برجال ونساء من شتى أنحاء العالم، وتتبين رويدا ما تعيشه أوروبا من اضطرابات سياسية فى أعقاب نجاح

الهجمة الفاشية. وشكلت تلك السنوات فى باريس وعى درية النسائى الناشئ، كما أعطته مضمونا، وكذلك صقلت نظرتها الجمالية.

وباريس فى الثلاثينيات كانت، بإجماع الآراء، مكاناً براقاً، تتفتح فيه الأفكار والأيديولوجيات الجديدة، وخاصة تلك الآتية من أمريكا وروسيا. فمن الغرب جاء "أسلوب الحياة الأمريكية"، المتمثل فى ثراء هنرى فورد وفى موسيقى الجاز الجديدة، متجسدة فى شخص جوزفين بيكر التى اجتاحت فرنسا كالإعصار فى العشرينيات والثلاثينيات[٢]. وتفجرت النظريات الخاصة بالحرية والمساواة بين الجنسين تتحدى التقاليد الفرنسية الكاثوليكية. ومضت أنابيس نين تكتب مذكراتها[٣]، كما راح هنرى ميللر وإرنست همنجواى وسكوت فيتزجيرالد يهاجمون المواقف المتشددّة من الجنس، ويبدعون أشكالاً جديدة من التعبير الأدبى. وتدفق الأمريكيون على باريس لزيارة صالون السيدة جرترود شتاين وللعيش بحرية وبتكاليف زهيدة على الضفة الشمالية لنهر السين، فى الحى اللاتينى.

أما الشرق، فجاءت منه "التجربة" السوفيتية، برفضها للقيم البرجوازية، تعيد تشكيل المجتمع وتمضى فى تطبيق برنامج الثورة. وبرزت الماركسية قوة فكرية جادة فى أعقاب 'الكساد الأعظم'. فبدأ "العقد الأحمر"، أو، على الأقل، العقد "الوردى". كذلك بدأ عددٌ من الكتاب الفرنسيين يهتم بالشيوعية فى الثلاثينيات، إذ انتابهم الإعياء واليأس من المتشككين والحالمين من الجيل السابق، فاعتبروهم لا مسئولين. وجاء التحول من الكآبة والاغتراب إلى الأمل والأهداف الاجتماعية وكأنه معجزة.

كان الافتراض فى الثلاثينيات بأن للفن مضمونا اجتماعيا، وأن على الفنانين أن يعملوا من أجل التغيير الاجتماعى. وبدأت حركة 'الدادايزم' تختفى، تلك الحركة التى كانت رمزا للغضب من العواطف والأخلاقيات البرجوازية ومشاعرها الوطنية. فأفسحت الطريق أمام السريالية، وهى حركة فنية واجتماعية تناقش الدور المناسب للمفكر فى مجتمع متغير.[٤] وكان من أبرز زعماء السريالية الشعراء أندريه بريتون ولويس أراجون وبول اليوار وبيير رفردى. وكانت أفكار الحرية الإنسانية تستهوى درية أكثر من الأيديولوجيات اليسارية، وهذا هو الجانب الذى حبب إليها أولئك الكتاب.

وكان نجم اليسار صاعداً، واتحد الراديكاليون والاشتراكيون والشيوعيون فى الدفاع عن الجمهورية الثالثة فى وجه التجمعات الفاشية وفى وجه هتلر ومصالح الـ "مائة أسرة التى تحكم فرنسا". وتولى رئاسة الوزارة

عن الجبهة الشعبية عام ١٩٣٦، المحامي الأنيق والناقد المسرحي والمحاور اللامع ليون بلوم. وهو أول من عين امرأة فى منصب وزيرة، وهى السيدة برنشفيج، زوجة أستاذ درية فى الفلسفة بالسوربون؛ فأصبحت أشهر من زوجها فى تلك اللحظة التاريخية. واندلعت الحرب الأهلية بأسبانيا فى نفس العام، وتحولت إلى رمز لاعتداءات الفاشية التى لا تنتهى والتى استمر نجاحها حتى ذلك الوقت. وتجمع مفكرو أوروبا حول مناهضة الفاشية إنقاذا لمعنوياتهم المنهارة، وأدركت درية أن هناك بشرا يعانون من قمع ويفقدون حريتهم، وهى قضية عزيزة إلى قلبها، وتظهر مراراً وتكراراً فى فترات مختلفة من كفاحها.

وعند عودتها إلى باريس، استقرت مرة أخرى فى 'الدار الدولية'. كل رفيقاتها القدامى كن قد رحلن، ولم تهتم كثيراً بعقد صداقات جديدة. "ولم يبد لى أحد فى جاذبية رفيقاتى القدامى." "فالعديد منهن أمريكيات واهنات ومدللات، جئن للقيام بدراسات عامة فى الحضارة الغربية"، وهو ما لم تعتبره درية دارسة جادة. "وتساءلتُ عما يدعو السوربون إلى منح دبلومات أكاديمية فى موضوعات تليق بالمدارس الثانوية!". وتبين لها أن إلزا، صديقتها الجيورجية، مازالت تعيش مع أسرتها فى باريس، كما أنها ما زالت تتردد على الجامعة للدراسة. وكانت إلزا تأتى إلى 'الدار الدولية' بين الحين والحين لتناول وجباتها مع درية. "كنت أشعر دائما بالمودة لإلزا التى اتسمت بشرقيتها والتى كانت تعيش الحياة بحيوية متدفقة، مثلها فى ذلك مثل المصريين." وتطورت صداقتهما حتى أن درية تعرفت على شلة إلزا ووصفتها بأنها "مجموعة غريبة، معظمهم من الفارّين من روسيا الستالينية ووسط أوروبا"، يعيشون أسلوب حياة باريسية يختلف تماما عما عرفته فى البنسيون أو فى شقة غابة بولونيا أو فى 'الدار الدولية'. "والروح المتوقدة لصديقتى الجيورجية وحبها الجامح للحياة، اقتربا بى من الواقع. فكثيرا ما كنت أتناول الغذاء مع أسرتها ومع اللاجئين. وكانت بالفعل جولة سحرية."

وهؤلاء اللاجئون، كما أسمتهم درية، كانوا من النخبة الروسية، كان من بينهم ضباط من الجيش القيصرى، هربوا إلى باريس بعد ثورة ١٩١٧. وكانت المناقشات حول مائدة الغذاء تدور حول القوى الاجتماعية والسياسية المختلفة التى انتشرت فى أوروبا. ولاحظت درية أن اللهجة السائدة فى الحديث عن السياسة الدولية فى شلة صديقتها الجيورجية لهجة "لا مبالاة، وتشكك سياسى وسلبية." "انتابنى شئ من عدم الارتياح، رغم أن الأحداث

نفسها فرضت نوعاً من التوتر، والرعب والعنف والشوفينية، إلى جانب انتهاك مستمر للقانون الدولي". وأضافت:

> كثيرا ما امتلأت المناقشات مرارة فيما بين الشباب من أهل جورجيا، وانتابني الفضول. فالبعض منهم كان يعارض الشيوعية (وبدا ذلك طبيعيا إذ اضطروا إلى مغادرة بلادهم)، ولكن البعض الآخر كان يدافع عنها، حتى وإن كانوا هم أيضا قد هربوا من بلادهم. ولم أفهمهم أو، بمعنى أصح، رفضت أن أتعمق في بعض الموضوعات التي شعرت بأنها قد تصيبني بخيبة أمل. فكثيرا ما كان ارتباطي بالمطلق يجعلني ابتعد عن مواجهة كل ما ينطوي عليه الواقع من فظاظة فجة. لقد منعني شئ من الخجل (الجمالي على ما أعتقد) من تخطي حواف الحقيقة كلما امتزجت تلك الحقائق بمتطلبات الحياة، وكلما أوشكتُ، إذا ما توغلت فيها، على الاصطدام بحبي للامتناهي. وهو موقف تمسكت به لفترة طويلة كقاعدة لحياتي. وهو الموقف الذي عطلني عن الإسهام في الحياة السياسية لبلادي. فالسياسة نادراً ما تسمح بذلك السمو الذي يفرضه التمسك بالمطلق.

مجال السياسة ومفهوم المطلق، قطبان أقامتهما درية شفيق وعبرت عن نفسها من خلالهما طيلة حياتها، وامتدت جذورهما إلى سنوات طفولتها الأولى في المنصورة وفي طنطا، ودعمتهما ووجهتهما سنواتها في السوربون. "أذكر أنني طيلة حياتي ظللت أنظر إلى الناس والعالم من زاوية جمالية. ومنذ سنواتي الأولى في السوربون، اجتذبتني فلسفة روسو كما تجتذب النيران الفراشة. ورأيت في إيمانه بالتناغم الكوني بين الطبيعة والإنسان شكلاً آخر لما أسميه أنا الحس الجمالي. ومما يتكون ذلك الحس؟ ما هي طبيعة ذلك الشعور الجليل الذي ينتابنا كلما شاهدنا الجمال، وما هي نهاية ذلك الشعور؟"

وكان أمامها شهر لتحدد موقع تلك الأسئلة وكيفية التعبير عنها بشكل ملموس في رسالة الدكتوراه. فبدأت في صياغة موضوعات محددة بمساعدة أستاذها في علم الجمال، فكتور باسن، الذي كان له أيضا نشاطه السياسي. "كان واحداً من مجموعة من الفرنسيين المتخصصين في علم الجمال، من أمثال لالو، وسوريو وفويون، وكان لباش (هذه الشخصية المعتدة بنفسها الصارمة مع الطلبة) ماض سياسي شيق. إذ كان صديقا لجوريس أيام قضية دريفوس (١٨٩٧-١٩٠٦)، أي كان مدافعا نشطا عن دريفوس".[٥] وتذكر درية حديثها معه عن الشعور بالجمال في فلسفة 'كانت'، عندما أدت امتحانها الشفوي معه منذ ثلاث سنوات، تمهيدا لرسالة دكتوراه الدولة. ولكنها خشيت ألا يتذكرها. فلما قابلته في مكتبه:

> "لم يكن قد تغير، بربطة عنقه السوداء وشعره الذي بدا كعهده دائما أطول قليلا من المعتاد. ودهشت لوجهه الذي بدا معذبا أكثر من أي وقت مضى (لعله كان يتنبأ بما سيحدث لليهود بعد الغزو الألماني لفرنسا). قال: 'لقد تغيرت يا أبا السهول. وأصبحتي امرأة ناضجة'. سعدت لأنه تذكرني. وشرحت له اهتمامي بالشعور الجمالي ورجوته أن ينصحني. 'لماذا لا تحاولين الكتابة عن فلسفة الفن في بلادك؟ فلديك فن عظيم وتاريخ لا يُضاهى. وأنت كمصرية لا بد وأنك تحسينه بعمق وأكثر مما تحسين تجاه أي موضوع آخر.' وكان اكتشافاً بالنسبة لي، وتساءلت لماذا لم يخطر على بالي. وفجأة حضرتني فكرةٌ بالنسبة لموضوعي الثاني. لماذا لا أكتب عن نساء بلادي أيضا. يمكنني دراسة شروط 'تحرر' المرأة المصرية خاصة، والمرأة المسلمة عامة. وعلق قائلاً: 'فكرة جيدة جداً. والآن لا بد من بلورة أفكارك وتحديد رؤوس موضوعات رسالتك واختيار الأساتذة الذين ستعملين معهم.' وتركته وأنا أشعر أنني وجدتُ طريقي بالفعل."

وانغمست درية على الفور وبشكل محموم فى عملها لعلمها بأن شروط منحتها من وزارة التربية والتعليم تتطلب منها الانتهاء من رسالة الدكتوراه فى ثلاث سنوات. وقد كانت، كعهدها دائما، فى عجلة من أمرها لأنها تريد أن تنهى الرسالتين فى نصف الوقت الذى يستغرقه أى طالب آخر لإنهائهما. وجاء اختيارها للموضوعات انعكاساً لوضعها الحياتى، أى لوجودها فى عالمين ثقافيين وفكريين مختلفين، عالم فرنسا وعالم مصر. فمن ناحية، مزجت الفلسفة الجمالية الفرنسية بدراسة للفن المصرى القديم، ومن ناحية أخرى حاولت التوفيق بين قضية حقوق المرأة وبين دين الإسلام وهى بذلك كانت تشكل فى نفس الوقت أنماط وجودها هى فى العالم: الوجود الشاعرى والوجود السياسى.

وتحدث فى رسالتها الأولى النظريات السائدة عن الفن المصرى القديم، أى الفن الذى يستهدف شيئا غير نفسه، أى الفن غير الخالى من المصلحة. وغاية الفن تلقائيته وإبداعه. وتساءلت: هل حقيقة لكل الفن غايات عملية. وهل يمثل إنتاج الجمال، بالنسبة للفنان، إحساسا جماليا بحتا، لا علاقة بما يؤديه من وظائف؟ أليس من الممكن أن يكون الفن المصرى القديم قد بدأ باعتباره عمليا ثم تفوق على نفسه حتى أصبح غير ذى مصلحة؟

وكتبت درية ردها على ذلك التساؤل فى دراسة عنوانها: 'الفن للفن فى مصر القديمة'. وكان من نتيجة البحث الذى قامت به أن "أثر لا على تكوينى الروحانى فقط، بل ولعب دوراً هاما فى تشكيل توجهات حياتى." وخاصة ما كانت تسميه "موقفها الجمالى من الحياة الذى يستند أساساً إلى أولوية المشاعر." والتى تعزوها إلى روسو "الذى أثر علىَّ تأثيرا كبيرا بسبب ما يوليه 'للقلب' من أولوية. إننى أعتبر التناغم وأولوية الشعور أساسيات كونية. وحسى الكونى يستند إلى شروط ثلاثة: التناغم الداخلى، والبعد عن المصالح والكونية." لقد مزجت درية كبرى الفلسفات الغربية عن الجمال والفن، بشاعرية مصر القديمة المتمثلة فى أساطير إيزيس وأوزوريس، وهى رموز تتخلل الكثير من أشعارها.

أما بالنسبة لرسالتها الثانية: "قررت أن أركزّ على موضوع قريب إلى قلبى، موضوع سيطر على فكرى لفترة طويلة وكان لا بد لى من اختياره – ظروف حياة المرأة المسلمة فى بلادى وكل ما تعانيه من عذاب،

كنت شاهدة عليه شخصيا وأنا بعد طفلة. قررت أن أكتب عن المرأة في مصر المعاصرة وما لها من حقوق بمقتضى الدين."

وأرسلت إلى أبيها تطلب المراجع العربية ذات الصلة. ولكن كان لا بد أن تحسّن من معرفتها بالفصحى حتى تستطيع قراءة تلك المواد، إذ كان إلمامها بالفصحى ضعيفا مثل غالبية نساء جيلها ووسطها، لأن تعليمها كان فرنسيا، بما أنهم كانوا يعتبرون الفرنسية لغة المكانة الاجتماعية الرفيعة، وكذلك لغة الثقافة. ووجدت مدرسا مصريا أزهريا يدرس في باريس، ووافق على إعطائها بعض الدروس. هكذا وبعد أن استقرت على اختيار موضوعاتها، عكفت على دراسة العربية الفصحى واللغة الألمانية والإنجليزية واليونانية حتى تتمكن من قراءة ما يلزم من نصوص خاصة بفلسفة الجمال، وتاريخ الفن، والمصريات، وعلم الاجتماع. ولم تكن المهمة سهلة نظرا لضيق الوقت، حتى أنها تساءلت كيف ستنجز كل ذلك في ثلاث سنوات!

وكان لها أساتذة ذوو شهرة عالمية، ومنهم من ينتمي إلى الأكاديمية الفرنسية، مثل إميل بريهي، أستاذها في الفلسفة ورئيس لجنة مناقشة رسالتها، وكان يُعتبر أعظم الخبراء في فلسفة ديكارت، وكان قد قام بالتدريس في جامعة مصر الوطنية لمدة سنة، عام ١٩٢٥. وموريس هالباخ أستاذ علم النفس الاجتماعي وتلميذ دُركهايم، كبير المستشارين فيما يتعلق برسالتها الثانية (وتوفي بعد ذلك في معسكر اعتقال بألمانيا في الأربعينيات). كما كان هناك أيضا شارل لالو، المستشار المساعد في موضوع رسالتها الأولى، وكذلك فكتور باش، وكلاهما أستاذيها في علم الجمال. وكان لالو تلميذا لباش ويشاركه عضوية مجموعة من علماء الجمال الفرنسيين الذين أسسوا اللجنة الفرنسية لرابطة حقوق الإنسان في الثلاثينيات، والذين عملوا بنشاط على مناهضة الفاشية. أما ريمون فايل، مستشارها الأول، والذي كانت تعاني أكبر الصعوبات في العمل معه، فقد كان من علماء الآثار المرموقين، الذين اكتسبوا الاحترام بسبب اكتشافاتهم ودراساتهم عن مصر القديمة، كما كان يرأس الجمعية الفرنسية للمصريات. ودرست درية الفلسفة أيضا مع ليون برنشفيج، الخبير المعروف المتخصص في باسكال، والذي عُرف بين أقرانه 'بفيلسوف الروح' والصديق الشخصي لهنري برجسون.

وهؤلاء الأساتذة – والذين اشترك الكثير منهم في النضال السياسي الديجولي الدائر في فرنسا في الثلاثينيات – اعتبرت درية أنهم "تركوا أهم

الأثر الفكرى والروحى على دراساتها فى باريس." ومن خلال برونشفج، قرأت درية شوبنهاور ونيتشه وهيجل، كما تعرفت على هنرى برجسون الذى أدهش الجماهير بنظرياته فى محاضراته العامة بال 'كوليج دى فرانس'.[٦] فمن خلالهم تعمقت درية فى فلسفة الغرب الإنسانية والليبرالية والحية والعقلانية والمثالية – تلك القيم الأيديولوجية التي، لا شك، اجتذبتها في بحثها عن المطلق وفي سعيها نحو تحديد موقفها الفلسفي. كانت تعتبر أن الفلسفة الغربية تعبر عن "التحرر المتصاعد للفكر من المادة، والذى بدأ بال 'ماجنا كارتا'[٧]، عندما تراجعت القيم الدينية فى العصر الوسيط أمام القيم السياسية من خلال مفاهيم الحرية وسيادة القانون وحقوق الإنسان، والتى بلغت ذروتها في القيم الجمالية لعصر النهضة، وترتبط كل هذه القيم، في نهاية الأمر. والقيمة الجمالية الأساسية التي تُعزى إلي الحرية في الفلسفة الغربية كان لها أعظم الأثر على تكوينى السياسى، وأصبحت المبدأ الأساسى الذى استند اليه موقفى السياسى."

* * *

وكانت درية تبحث عن الراحة من ساعات الدراسة الطويلة، فتتناول الغذاء مع أصدقائها الجيورجيين. وذات يوم وهم يأكلون فى مطعم بساحة سان ميشيل "حيث يُقدّمون قواقع ممتازة"، التقت بالشاعر الفرنسى الشاب الذى ظنت أنها انقطعت عنه تماما.

> كنت قد مزقت كل الأواصر والأحاسيس فلما رأيته يدخل، شعرت بدمائى تتجمد فى عروقى. وتردد قليلا، فلما شعرت إلزا بحيرتى، سألتنى ما الخبر. وشجع مرحها الشاعر على الاقتراب والجلوس معنا. وأعرب عن دهشته لعودتى إلى باريس، وسألنى عن أحوالى. وجلسنا نتحدث قليلا قبل أن يذهب. وبعد أيام وصلتنى الأشعار التالية:

فى سماء باريس
كم من نجوم!
كم من أصوات
تختلط فى صمت الذكريات.
ومن ساحة سان ميشيل

انهمرت الألوان
دموعا.
كل شئ بدا بعيدا وقريبا
حاضرا حضورا
جعل وقت الحياة
حبيسا فى شرك
وصوت واحد
مخلص
كان يتذكر.

وقرأت درية تلك الأشعار المرة بعد الأخرى وبدت لها "آتية من السماء، من منطقة بعيدة محاطة بهالة المطلق، حيث يتلمس المرء قلب الإنسان. كذلك أعدت اكتشاف الماضى خاليا من الجراح والآلام. ورأيت الشمس تشرق للمرة الأولى منذ ماتت أمى."

ولكنها ترددت فى الرد عليه، وجاء منه خطاب آخر بعد ذلك بعدة أيام – لم تكن أبيات شعر هذه المرة، بل عرض زواج:

انتابتنى الحيرة. ماذا أفعل؟ كيف أضحى بالسعادة الحقة المعروضة على فى لحظة لم أكن أتوقعها فيها؟ كيف أتخلى عنها وقد لا أجدها بعد ذلك أبدا؟ وإذا تخليت عنها، كيف أعيش فى الظلمات بعد كل هذا النور؟ وبعد تفكير، أزحت الغموض عن أسباب ترددى سببا وراء الآخر. أولا، ما سوف يسببه ذلك من ألم لوالدى. فلم يكن من حقى بعد كل إنكاره لذاته أن أسبب له التعاسة. ثم هناك الفارق فى الدين والتربية، والذى قد يتسبب يوما فى كبح شعور يقترب من المطلق، أردت أن أحافظ عليه بكل صفائه وجماله. ومن ناحية أخرى، كيف أتهرب من مسئوليتى تجاه بلادى التى، وإن كانت قد تسببت فى عذابى، أو لأنها تسببت فى عذابى، إلا أنها تتطلب عودتى لأحاول استئصال الجذور العميقة للتراخى الاجتماعى الذى هو

بيت الداء؟ وأخيرا شعرت بأن جرحى العميق لن يندمل أبدا إلا لو عُدت إلى مكان الهوة السحيقة حتى أشفيها. واستجمعت شجاعتى وكتبت خطابا قضيت فيه على سعادتى. بعد إرسال الخطاب بلغ بى الاضطراب أن رغبت الموت لأول مرة فى حياتى. بل فكرت فى الانتحار، ولكنى فكرت فى أبى وعدلت عنه.

وآخر ما نسمعه عن شاعرها الفرنسى يأتى بعد ذلك بفترة، وفى رواية مختلفة عن الظروف التى أحاطت بعرضه الزواج منها وذلك فى آخر موعد لها معه فى معرض "أساتذة الفن المستقل"، فى متحف القصر الصغير عام ١٩٣٧. وتصف درية التجربة من خلال ردود فعلها للوحات المعروضة:

بيكاسو! براك! كأننى فى حلم. لا أحتفظ بشئ سوى الجوهر! لا أرى شيئا سوى ما لا يُرى، المجهول. ما يتصل بروح الأشياء جورج روو! أعود إلى طفولتى! من الخطوط السوداء المحيطة والتى تحمل أضواءا تخاطبنى. اللوحات ترقص من حولى. وصوت يكاد لا يُسمع يهمس فى أذنى: "لماذا لا نتزوج؟!" واندفعت السعادة نحوى، تحمل فى يديها ياقوتا وزبرجد. ومع ذلك لم أستجب. فكرت فى رسالتى (أى رسالة لا أدرى) ولكنها هنا فى قلبى. فى كل مكان. يصعب أن أرضيها! لا تحتمل السعادة. وطال الصمت. وبدت اللوحات تتعذب. وانقطعت أوتار الكمان تعزف لى لحنا أخيرا وهو يهمس: "إنسى ما قلته للتو!"

هذا كل ما كتبته عن الشاعر. باستثناء سطور قليلة ظهرت بعد ذلك بسنوات فى كتاب ضم أشعارها، سطور تتردد وكأنها الصدى . . .

الحب الضائع

بعيدا هناك
فى الأفق
ظل يتلاشى
ويختفى
فى صمت

وقررت درية مغادرة 'الدار الدولية'، لعل تغيير المكان يساعدها على الخروج من هذه الأزمة. وانتقلت للعيش فى بنسيون يقع فى شارع ريشليه درووحتى تقترب من المكتبة الوطنية حيث انكبّت على إعداد الرسالتين، محاولة نسيان ألمها العاطفى. وكانت إلزا تزورها كثيرا "وروحها المرحة منعتنى من إطالة التفكير فى الأحداث الأخيرة." وعلى مدى الشهور التالية، وزعت درية وقتها بين المكتبة الوطنية واللوفر وبيت إلزا. وكانت حياتها تتسم بالوحدة. حاولت التركيز على الأنشطة الفكرية وحدها، ولكن ذلك لم يريحها، إذ إنها كانت تتوق إلى معادلة فى حياتها "ترأب الصدع بين الفكر البحث والشعور البحت. تحاشيت التفكير فى الحب والزواج، فهى كلمات ارتبطت فى ذهنى بالألم، وبالتالى، ركزت كل اهتمامى على الدكتوراه. قسوت على نفسي وفرضت على قلبى عزلة تامة، فابتعدت عن أى احتمال للدخول فى علاقة أخرى. وأصابني هذا الانضباط القاسي بوحدة عميقة. فعلى الرغم من عملى الدؤوب لم أستطع ملء فراغ قلبى."

وفى لحظات الوحدة العميقة هذه، عرفت درية من بعض أصدقاء إلزا من المصريين أن ابن خالتها عزيزة، نور الدين رجائى، حضر من القاهرة. كان قد نجح بتفوق، مما جعل جامعة القاهرة ترسله إلى جامعة باريس بمنحة ليحصل على الدكتوراه فى القانون التجارى. وجاء وصوله فى أنسب توقيت بالنسبة لدرية، التى كانت قد أقنعت نفسها بأن الوحدة هى قدرها فى الحياة. وكان نور يعرف درية منذ الطفولة، إذ كان كثيرا ما يصحب الخالة عزيزة فى زياراتها للمنصورة. ودرية كانت تتذكر أن "نور، وهو بعد فتى صغير، باع سترته وطربوشه لصاحب الكشك المجاور ليشترى الحلوى عندما كان مفلساً." وكان أبو نور هو المحامى المعروف الذى ساعد درية فى الخروج من أزمة الصاوى؛ فكانت تذكر بامتنان "لطف وتعاطف ابن خالتى معى خلال تلك المأساة" ولكنهما لم يتقابلا إلا مصادفة، بعد وصوله إلى باريس بعدة أسابيع، وذلك عندما ذهبت درية مع إلزا إلى فرع البنك المصرى، حيث "رحب بى متحمسا وعرفته بصديقتى التى سرعان ما همست فى أذنى 'أنا معجبة به إلى حد الهوَس'. وكانت على حق، فهو وسيم وجذاب للغاية،

ومحط اهتمام النساء فى مصر والآن فى باريس. ويبدو أنه قضى شـــهوره الأولى فى باريس يستمتع بوقته حتى أنه لم يخبر المدير بوصوله ولم يسـجل اسمه بالجامعة."

وجاء وصول ابن خالتها كالنسمة العليلة بالنسبة لدرية. فما أن التقيـا حتى دعاها وصديقتها إلى مقهى بالحى اللاتيني. ولما لاحظ أن درية طلبـت قهوة بدلاً من مشروب كحولى، حذا حذوها. وأعجبت دريـــة برغبتــه فـــى مشاركتها، وأخبرته أن خوفها من الأقاويل والضغوط الاجتماعية من جــانب الجالية المصرية فى باريس "جعلنى أسير على الصراط المستقيم من وجهـــة نظر إسلامية." وكان تعليقها يكشف عن شكوكها فى مواطنيها وفـــى حبـــهم لإطلاق الشائعات والمساس بسمعة النساء، ويكشف عن تـــأثير ذلـــك فـــى سلوكها: "كانت هذه المواقف تصيبنى بالاكتئاب." ولكن وجود قريبـــها فـــى باريس أصبح مصدر ارتياح "وشعرت بالاطمئنان لوجوده. فأنا كنت أثق فيـه وأرتاح لوجود شخص يدافع عنى. كما أننى شعرت بأننى لم أعد وحدى."

ولكن فكرة الزواج لم تخطر ببالها حتى التقيا يوما بمديـــر البعثـــات الذى دعاهما إلى مكتبه لتناول قدح من القهوة. وخرج نـــور مـــن المكتـب لحظات، فإذا بالمدير يسأل درية: "هل هو مجرد ابن خالتك أم أنه أيضا زوج المستقبل؟" وفيما بعد، كتبت درية معلقة: "أدهشنى السؤال. ولكن المدير اعتاد طرح مثل هذه الأسئلة الخالية من الكياسة وتذكرت قرارى بألا أتزوج حتـــى أفرغ من رسالة الدكتوراه. وعلى أية حال، فلن أتزوج أبدا من دون جـــوان ومقامر بالسليقة، فذلك مصدر للمشاكل العديدة. ثم أنه ليس برجل يفكر فـــى الاستقرار، وانتهى الموضوع عند هذا الحد."

وأخرج نور درية من عزلتها، واصطحبها إلى اسلوب حياة يختلـــف تماما عن حياة العزلة التى ترتبط بطلبة الدراسات العليا فى السوربون. فـــهو يحب الحياة والاستمتاع بها. فإذا به يدعو درية ذات مرة إلى ملـــهى ليلـــى اسمه 'لى جران فو' (النار الكبرى) وقد وصفته درية قائلة: "كـــأننى دخلـــت عالما آخر"

نساء جميلات ، أنيقات مثقلات بـــالحلى.
الناس حولى يستمتعون فعـــلا. ضحكـــات
تجلجل وموسيقى ناعمـــة، مـــع أضـــواء
خافتة. المكان يسبح فى جو ناعس. ونـــور

يتصرف بلا أى حرج، فمن الواضح أنه من رواد هذا المكان. وقمنا لنرقص، ولما عدنا إلى المائدة، وجدنا امرأة فرنسية غاية فى الجمال، فدعاها نور لتنضم إلينا. وعرّفنى نور بأننى ابنة خالته، فحملقت فى غير مصدّقة. وظننت فى البداية أنها زميلته في دراسة القانون. وأعجبت بجرأتها فى الانتقال من مائدة إلى أخرى، تتحدث ببساطة مع الجميع، وقلت لنفسى: "إننى لا أقدر على ذلك أبدا!" وكان حضورها كأنه مسّ من الكهرباء فى الجو المحيط. فلما خفتت الأضواء، ورُكز شعاع من النور على المسرح، رأيت صديقة نور، وإذا بها مغنية معروفة. وبدأت تغنى "خذنى بين ذراعيك" وهى تلقى تجاه نور بنظرات متحدية. وشعرت بأننا يجب أن نغادر المكان قبل نهاية الأغنية وإلا انتهت العلاقة بيننا. فاقترحت ذلك، واستجاب نور فوراً فطلب دفع الحساب وذهبنا. فلما وصلنا البنسيون سألنى: "هل نلتقى غداً؟" وأجبت: "نعم، إن شئت!"

وفى اليوم التالى، اتصلت المغنية بها مهددة، وطلبت منها الابتعاد عن نور. وبهتت درية إزاء جرأة وغيرة تلك المرأة، وقبلت التحدى وإن جالت بفكرها أن "كلما بدت لى فاتحة خير واكبها كفاح."

وأصبح نور ودرية متلازمين، ووجدت نفسها محاطة بعدد من الأصدقاء المصريين، لم تشعر معهم بكامل الارتياح. فكلما تذكرت تجاربها الأليمة مع مواطنيها فى مصر وفى غابة بولونيا، كلما خشيت الشائعات. ولكنها أدركت من خلال علاقتها بنور "إمكانية تصالح جديد مع مصر ومع نفسى. إذ أخرجنى نور من عالم الفكر البحت. وساعدتنى حيويته على مزج الفكر بالمشاعر وبالحياة نفسها. كنت أشعر بتكامل. لم أعد وحدى." وكان نور يمثل بالنسبة لدرية ما لم تجده أبدا فى شاعرها الفرنسى، يمثل إمكانية

تناغم جانبين من جوانب طباعها: الجانب الفكرى والجانب العاطفى. كان نور بمثابة جسر يمتد بينها وبين مصر.

ويستشف المرء فى درية شيئا من الهشاشة وعدم الثقة بالنفس، فهى تفصح بسهولة عن أعماق مشاعرها. وربطها الدائم بين الزواج والتصالح مع مصر يدل أيضا على أنها لم تتخل تماما بعد عن تراثها الثقافى وما يستتبعه من تقاليد. ومع ذلك، فعواطفها تجاه نور كانت أعمق من مجرد "التقارب" من مصر، إذ كان من الواضح أنها تدرك ارتباطها المتزايد به. وفاجأها نور يوما بأن عرض عليها الزواج. وأجابت درية بلهجة جادة: "الزواج خطوة كبيرة تحتاج إلى تفكير جاد." فأجابها نور: "لقد فكرت ملياً." وعلقت: "لا بد وأن أرتب الأمور فى ذهنى."

وكانت مشاعرها المتضاربة تجاه الزواج مشكلة. فهى تشعر نحو ابن خالتها بجاذبية قوية، ولكنها تدرك تماما اختلاف طباعهما وأسلوب حياتهما. فنظرته للحياة كمصدر للمرح والسعادة تتناقض تماما ونظرتها للحياة باعتبارها كفاحا مستمرا: "ولكنى اكتشفت شيئا مشتركا يقرّب فيما بيننا: حبنا المجنون للحرية، وإن اختلف تفسيرنا للحرية اختلافا كبيرا. فالحرية عندى معناها التزام صارم حتى أعدّ نفسى لتحقيق الهدف النهائى لتحررى. أما نور فكان يرى فى الحرية أساساً لخوض تجربة الحياة كاملة."

وعبرت عن تلك المشاعر المتضاربة فى مذكراتها فكتبت:

> كنت أشعر دائما بالتعاطف مع ابن خالتى، ولكن الأحداث كانت تتدافع نحوى بسرعة، أشعرتنى بأننى أسير بلا هوادة فى عاصفة مستديمة. وبلغت حيرتى ذروتها. لماذا أتردد فى الزواج من هذا الشاب الذى تتسابق عليه الجميلات. فهو ليس وسيما فحسب، ولكنه أيضا لماح الذكاء، دائم التفوق على أقرانه فى الجامعة دون جهد؟ ومن ناحية أخرى، كيف أقبل بلا تردد بينما أرى مسبقا كل ما سيجره الزواج من مثل هذا الدون جوان من متاعب؟ هل أندفع فى هذه المغامرة الكبرى وأنا لم أشف بعد من الأحداث الأخيرة؟ ومن زاوية أخرى، كيف يمكن التوفيق بين حياتينا وأنا فى خضم المعمعة مع قدرى، بينما لم يخض هو

بعد معركته الأولى (لأن الظروف مدته حتى الآن بكل ما يشتهى)؟ ثم تذكرت الفتى الصغير فى المنصورة الذى مُنع من شراء الحلوى فباع سترته وطربوشه ليحصل على المال، لا ليشترى الحلوى بل لأنه مُنع من ذلك. وتساءلت ماذا يفعل بى يوم لا أصبح شيئا ممنوعا عليه. لو قبلت هذا الزواج فعلىّ أن أقبل فكرة خوض معركة يومية من أجل غزو قلب زوجي، والتصرف بحيث يعمل هو أيضا يوميا على غزو قلبى، معنى ذلك الدخول فى حرب لا نهاية لها وغير مأمونة العاقبة. بل ربما كان ذلك هو الحل الوحيد بالنسبة لى، أن أمسك بزمام قدرى وأتزوج من مصرى بهذه القوة وعلى هذا المستوى، مصرى من أسرتى التى تؤرقنى ذكرياتى عنها. أنا شخصيا سأذهب للقائهم وأخوض المعركة. فهذه المعركة وحدها كفيلة بأن أتغلب على الماضى. وما أن أدركتُ ذلك، تبخّر ترددى على الفور. وبدا لى الزواج من نور تحرراً!

وبالفعل، كان الزواج من نور يمثل مواجهة وتحرراً من كل أثقال الماضى الذى كان يعذبها. وآمنت بأن الزواج ممكن لأن: "نور كان يمدنى بالأمان العاطفى الذى كنت أبحث عنه وآمله بحرارة. اقتنعت فعلاً بسلامة قبول عرض نور. فكنت أعرف أن مستقبلى فى مصر، بل فى مصر وحدها، وأن مثل هذا الزواج يساعدنى على التأقلم مع ظروف بلدى. وكانت هذه أفضل فرصة للتصالح مع مصر، ولم أطل التفكير فيما سيجره زواجنا من صعوبات، وقبلت هذه المغامرة الجديدة."

ورغم أن الزواج كان يعدُ بإمكانية التصالح، إلا أنه كان يعنى أيضا استمرار "توجهات حياتى المنسوجة بخيوط الكفاح." وكان أول التحديات بالنسبة لدرية ونور "كسر القيود المعتادة التى تواجه المرأة المصرية فى تحملها للزواج. أن نتزوج خارج نطاق الضغوط الاجتماعية وخارج سلطة التقاليد معناه أن نبنى حياتنا بأيدينا. ومعنى ذلك أن أخرج على كل العادات التى اعتبرتها دائما عبئا ثقيلا." أما التحدى الثانى فكان قرار إخبار الأقارب بالزواج قبل اتمامه. فاتمام الزواج فى فرنسا بدلا من مصر كان فى حد ذاته

خروجا على الأعراف، ولكن إتمامه دون إخبار الأهل كان كسرا جريئا لتقاليد الإسلام فى مصر. وقررا عدم إخبارهم إلا بعد إتمام مراسم الزواج. وكانت درية تؤمن بأن الخالة عزيزة "تحب ابنها حب التملك وكانت قد اختارت لنور شابة مصرية ثرية وجميلة. فإذا سمعت أننى سوف أتزوج من ابنها، فإنها ستفعل ما استطاعت لتمنع الزواج. كل شئ إذن فى يده هو. وله الخيار."

ولما كانت تكبر نور بسبع سنوات (إذ كانت فى التاسعة والعشرين وهو فى الثانية والعشرين عام ١٩٣٧)، ومن أسرة أقل ثراءا من أسرته، شعرت درية بضعف وقلق، حتى وإن كان الكثيرون يشهدون لها بالجمال. "وامتلأت ثقة بنفسى لأن نور اختارنى دون الجميع!". ولكن درية كانت، فى الواقع، قد اختارت نور بدورها.

لم يكن هذا بزواج مدبَّر رغم قرابة العروسين واحتمالات زواجهما طبقا للتقاليد. بل أن درية شعرت أنها تخرج به عن التقاليد وتضرب مثالا لغيرها على "المرأة المصرية التى تتحمل مسئولية اختيار زوجها بنفسها والسعى للحرية! كان زواجى فى باريس، وحدى وفى غياب الأسرة، بلا مهر ولا حلى ولا شروط مادية (وهى أولى شروط الزواج فى مصر) هو الرمز الأسمى. هو فى نظرى التحرر من كل العادات الاجتماعية البالية التى حولت المرأة المصرية إلى جارية. ولكنى كنت أدرك أيضا أن الزواج فى مثل تلك الظروف سيثير فضيحة فى مصر."

ثم إن هناك مسألة منحة درية واستمرار دراستها بعد الزواج. ولم يكن هناك صعوبة فى الاحتفاظ بالمنحة فيما يتعلق بنور، فهو رجل، بل أن له أن يحصل على بدل معيشة إضافى باعتباره متزوجا. أما درية فوضعها يختلف. فلم تحصل امرأة مصرية متزوجة على منحة دراسية من قبل، بل لم توجد آنذاك لوائح يُهتدى بها فى مثل تلك الحالة. ولكن نور شعر بأن موارده تكفيهما ولا داعى لأن تحتفظ درية بمنحتها. أما درية فكانت ترى الأمر بشكل مختلف:

> فهمت أن نور، كعادة الرجال المصريين، انتوى أن يكون "السيد" فى بيته. وكانت لى أفكارى عن الاستقلال، ولم أكن أحب الاعتماد

على أحد، حتى على من اخترتـــه شريكا لحياتى. فأنا فى حاجة إلـــى الحرية المطلقة، وهو شعور يتغلغل فى أعماق نفسي. وناقشـــنا الأمـــر ساعات طويلة حتى اســتقر رأينـــا على خطة عمل جريئـــة ولكنـــها ممكنة:

١) يُبرق نور لعميد جامعة القاهرة، طالباً الموافقة على الزواج، ذاكـــراً اسمي حتى يعرفوا أنه لن يـــتزوج من أجنبية.

٢) أبرق لوزارة التربية والتعليـــم أطلب الموافقة على زواجـــى دون أن أذكر المنحة.

فلما وصلتهما برقيات الموافقة من العميد والوزير، مع احتفاظ كـــل منهما بمنحته، سعدت درية: "آمنت فعلاً بالمعجزات!" أما العقبـــة الوحيـــدة الباقية فكانت إقناع السفير المصرى بجدية نواياهم. وحددوا أكثر من موعـــد لعقد القران حتى وافق السفير أخيراً على اتخاذ التدابير اللازمة لكتب الكتاب فى القنصلية المصرية فى شهر اكتوبر من عام ١٩٣٧.

ومن يقرأ مذكرات درية عن هذه اللحظة الهامة فى حياتها، يلاحـــظ الفارق العميق بين زواجها وبين زواج أمها، إذ تحاول درية أن تدمج قيمـــها الشرقية وقيمها الغربية:

فى اللحظة التى سبقت توقيعى علـــى عقد الزواج، كان لى رد فعـــل يـــدل على أننى لم أتخلص بعد من ايمـــانى بالخرافات، كما ظننت. فلما ســـألنى القنصل عما إذا كنت أريد الاحتفـــاظ بالعصمة فى يدى، بادرت بالإجابـــة: لا! إذ خفت أن يؤدى أى تحفظ مـــن جانبى إلى سوء حظ. فإذا بى بعد تلك الشرقية التى تؤمن بـــالقوة الخفيـــة

> الكامنة فى الكلمة. ولكن توقيعى على عقد الزواج بلا مهر سوى القــروش الخمس والعشرين الرمزية[٨]، وبــلا خواتم ماسية وبلا ملابس حريريـــة، أشعرنى بأننى أتخذ خطوة نابعة مــن إيمان، إيمان بمستقبل تتحـــرر فيــه المرأة المصرية من تلــك العــادات القديمة. وانتابنى شعور عظيم بــأننى وزوجى متساويان.

وظل معها ذلك الشعور بالحرية والمساواة طيلة زواجها من نـــور. ولكنها أدركت منذ بداية حياتهما الزوجية أن:

> على الرغم من لطف زوجى، لـــم تكــن الحياة معه سهلة. فلقد دخلت حياتنا منـــذ البداية نبرة جدال مستمرة، ولكنها، وهــذا هو الغريب، أقامت فيمـــا بيننــا تضامنـــا واحتفظت لزواجنا بحيويته. لـــم تتخلــل زواجنا الرتابة أبدا، ويرجع بعض الفضــل فى ذلك إلى حب زوجى للنقاش. إن قلــت أسود، قال أبيض. وحاولت حل الإشـــكال بأن أقول أبيض وأنا أريد الأسود، ولكنـــه سرعان ما يفطن، فأعود إلى التعبير عمـــا أريده حقاً. وأصبحت حياتنا اليومية لعبـــة. كما ظل كل منا مشدودا إلى الآخر!

وأوصلتهما نفس اللعبة إلى قرار بقضاء شهر العسل فـــى لنـــدن. إذ كانت تريد درية الذهاب إلى لندن، فقالت لنور: "يمكننا الذهاب إلى سويســـوا أو أى مكان آخر إلا لندن، فاختار لندن!" فلما وصلا فى الصباح الباكر جداً، طلب منهما حارس باب البنسيون أن يعودا بعد ساعتين. كان كل مـــا فـــى الحى مغلقاً. فبدأ نور يشكو بمرارة:

> "يالبرود وعدم مرونة البريطـــانيين. إنهم يعشقون اللوائح. تصـــورى، لا

يوجد مقهى واحد مفتوح! الجو بارد ولا يمكننا السير في دوائر حتى يفتح البنسيون بابه، فماذا نفعل؟" وضايقني موقفه واحتجاجه، وأدركت أن المبالغة في إرضائه لن تجدى فتيلا. وتذكرت عمي العجوز ينصح شاباً قائلاً: "إذا لم تفرض سلطتك منذ اليوم الأول للزواج، فلن تفعل أبداً!' ومادام ذلك هو رأى الرجل المصرى في كيفية معاملة المرأة، قررت أن أطبقه أنا مع رجلى. فلما بدأ من جديد يشكو من السير في البرد، أجبته: 'أسكت! وإذا لم يرضك ذلك، فاذهب إلى الجحيم.' "

فنظر إليَّ نظرة اختلطت فيها الدهشة بالمرح: "لم أدر أننى تزوجت من امرأة مجنونة!" ثم بدأ يضحك قائلا بلطف:

"درية، فلنكف عن الجدال."

انتصرت! وكذلك وضعت أسس تعاملى معه.

لا مبالغة في اللطف ولا في الحدة.

وبينما تعلق درية على "كيفية التعامل معه"، كانت تتساءل "كيف أنجح في الاحتفاظ بزواجنا قوياً؟ كنت أعرف أن زوجي كثيرا ما يفقد إحساسه بقيمة ما يملك. كما أدركت أننى لو أردت أن أبقى على اهتمامه بى، فلا بد أن أشعره بأن عليه أن يفوز بى كل يوم من جديد!"

وبعد وصول العروسين إلى لندن بأيام قليلة، أحاطت بهما الجالية المصرية التى أعجبت بمرح نور وجاذبيته، فأغرقتهما في سيل من الدعوات من الأقارب والأصدقاء الذين يدرسون هناك. ولأول مرة، شعرت درية بالسعادة في مثل هذا الجو: "شعرت وكأننى عدت إلى صميم مصر، وافتقدت النيل وكأنه شخص حى".

واستمرت درية فى بحوثها، حتى فى لندن، فترددت على المتحف البريطانى تبحث فى الوثائق الخاصة بالفن المصرى القديم، تطوف بالمعروضات الفنية وتزور المعالم التاريخية فى المدينة. كما التقت بالعديد من الإنجليز واستمعت إلى أحاديثهم السياسية عن الكارثة التى تحيق بأوروبا. وشعرت بالقلق السياسى والمعنوى الذى يجتاح البلاد: "تاركاً صدعاً فى التقاليد البريطانية العريقة والقوية. وكان انطباعها أن لندن، مثل باريس، مدينة تقف على حافة الكارثة، مع فارق واحد: فى باريس، كان رد الفعل 'لحافة الكارثة' يشبه 'المسرحية السياسية' من خلال حوار فوّار نابض. أما فى لندن فنشاط سياسى دؤوب متصاعد. إذ احتفظ البريطانيون بهدوئهم فى تلك الظروف الخطيرة، كسبا للوقت عند اللزوم. ولكن العاصمتين كانتا تحاولان الإقتناع بأن فرصة السلام ما زالت سانحة".

وعاد نور مع درية إلى باريس بعد أسبوعين، واستأنفا العمل المنظم الجاد اللازم لإنهاء رسالتيهما قبل أن تهب عليهما عاصفة الحرب. وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٣٧، أرسلت درية إلى هدى شعراوى تطلب مساعدتها فى الحصول على مواد لرسالتها عن المرأة وحقوقها فى الإسلام. وكان ورق خطابها يحمل عنوانهما وهو ٣٩ شارع باسكال فى الحى الـ ١٢ بباريس:

صاحبة السعادة

سامحينى إذا كنت أستغل وقتك الثمين واستحوذ على انتباهك للحظات بخطابى، ولكنى واثقة أنك سترحبين به، لطيبتك المعهودة التى تركت فى قلبى أثراً لا يمحى.

أستبيح لنفسى، يا صاحبة السعادة، سؤالاً يتعلق برسالة الدكتوراه التى أعدها والتى سأتقدم بها للسوربون بعد شهور. فأنا أتناول فى بحث من البحثين اللذين أقدمهما "تطور المرأة المصرية فى القرن العشرين". وبما أن بحثى هذا محوره الحركة النسائية فى مصر، تأسيسها وتطورها وما أسفرت عنه من أحداث هامة، فأنت، ياسيدتى،

خير من يخبرني عن هذا الموضوع، حيث إنك أسست تلك الحركة. فإن لم يكن في طلبي هذا إزعاج لسعادتك، أطلب منك، إن أمكن، إرسال بعض الوثائق الخاصة بأهم مراحل الحركة النسائية في مصر، وبأهم الإصلاحات الاجتماعية التي أسفرت عنها تلك الحركة.

وبعد ذلك بفترة قصيرة، انتقل نور ودرية للسكنى فى بنسيون تمتلكه نبيلة سابقة من مصر فى حى أوتوى الأنيق فى غابة بولونيا حيث "كنا الوحيدين الذين لا ينتمون إلى طبقة النبلاء." ونما إلى علم درية أن خالتها عزيزة ثائرة لزواج ابنها، فحرصت بإصرار على نجاح نور فى امتحاناته "تفاديا لسيل من الإتهامات سوف ينهال على رأسى."

ومرت أسابيع "ونحن نلتزم غرفتنا ونأكل وحدنا. ونور يستذكر دروسه بجدية بالغة حتى إنه أطلق لحيته ليتجنب إغراء الخروج مع أصدقائه المصريين." وبعد ثلاثة أسابيع، دخل نور الامتحان ونجح بتفوق. ورغم سعادة درية بنجاحه، إلا أنها أدركت "أن البنسيون لم يعد يصلح للعمل الجاد"، وتاقت للعودة إلى الحى اللاتينى. فوافق نور، وانتقلا إلى فندق ماديسون، فى مواجهة كنيسة سان جرمان دى برى: "عشقت المكان. ففى جوه أصداء زمن ولىّ. وكان وجود الطلبة حولنا يجدد الشباب. وكنا نتناول قهوتنا يوميا فى مقهى 'لى دو ماجو' وأنظر حولى بفضول إلى 'العباقرة الفاشلين' من رواد المقهى. كانوا عباقرة وإن لم يحققوا شيئا فى حياتهم. وتساءلت عن السبب؟ ربما أعوزتهم الإرادة. فالذكاء بلا إرادة لا يحقق شيئا." واقتحمت الجالية المصرية حياة نور، ولكن سيل الأصدقاء الذى لا ينقطع أصبح يعرقل درية فى عملها. فهى لم تكن تشعر بعد بالارتياح فى معيتهم: "ما زالت هناك بينى وبين أهل بلادى فجوة. هل كان عقلى الباطن يربط بينهم وبين ذكرياتى وتجاربى الأليمة؟ ولم تكن هناك جدوى من الخوض فى تحليل عميق لمشاعرى. فحاولت أن أستبعد تلك الأفكار وبذلت جهداً لأتأقلم مع أصدقاء زوجى. إذ كان من الضرورى أن أحافظ على زواجى." واستمرت حياتهما على هذا المنوال لمدة شهور، ولكن الحياة فى الفندق أصبحت أكثر حركة

مما تتحمله درية "شعرت أن الوقت يجرى بنا ولم يبق منه الكثير لننتهى من رسالتينا."

وقررا أن ينتقلا مرة أخرى، إلى مكان هادئ هذه المرة، فوجدا مسكنا خاصا بالقرب من السوربون ومن شارع سان جاك. واستعانا بمن تطبخ وتقوم بأعمال البيت، بينما ركزّت درية على الانتهاء من بحثيها. ولكن زيارات أصدقاء نور من المصريين استمرت وازداد تواترها، واستسلمت درية فى النهاية للأمر الواقع: "زوجى كان يشعر بالسعادة وحوله أصدقاؤه. وأدركت أننى يجب أن أعتاد ذلك وأن أستمر فى عملى رغم ما يحيط بى من حركة ونشاط." واستمرت الظروف الدولية فى التدهور فيما بين خريف ١٩٣٧ وربيع ١٩٣٩، ولاح شبح الحرب فى الأفق. وأوشك نور على الانتهاء من رسالته فى القانون التجارى، بينما استمرت درية تكافح للانتهاء من بحثيها.

وواجهت بعض الصعوبات مع أستاذها فى علم المصريات، إذ علق على الصيغة المبدئية لمخطوطها قائلاً: "هذا لغو! فأنا لا أفهم شيئا من كل حديثك هذا عن الحجارة!". فبدأت تشرح أنه تفسير فلسفى للفن، فقاطعها قائلا: "ما كل هذا اللغو عن قيمته الفلسفية؟ فالحجر ليس إلا حجرا عليه تاريخ ومكان. هذا كل ما فى الأمر. لا أجد فيما كتبت شيئا شيقا. ورمى بالبحث فى وجهى." وشعرت درية بأن رد فعله مرجعه غيابها عن محاضراته ولا علاقة له بما أبدته من آراء: "ولم أعد أجد جديداً فى محاضراته فلم أعد أستفيد منها شيئا، فتوقفت عن حضورها كسبا للوقت."

وأسقط فى يدها فاتصلت بإميل بريهى، أستاذها فى الفلسفة الذى وافق على مقابلتها فورا: "رحب بى فى ود وبطريقة أبوية قائلا: 'تبدو على أبى الهول التعاسة اليوم'، لما رأى دموعى تنهمر وأخبرته بما حدث، فأجابنى أن سياسة الجامعة لا تسمح أبداً بتغيير الأستاذ المشرف. واقترح حلاً: 'بما أن بحثك يجمع بين علم الآثار وعلم الجمال، فمن حقك الإستعانة باثنين من الأساتذة فى اللجنة المشرفة.' واقترح شارل لالو، أستاذى السابق فى علم الجمال، ثم كتب رسالة خاصة إلى عميد الكلية، ووجد لى بذلك حلاً لمشكلتى."

وفى ربيع ١٩٣٩، انتهى نور من رسالته وناقشها بنجاح.[٩] ثم عاد فوراً إلى مصر حيث تنتظره وظيفة مدرس بجامعة فؤاد الأول، وكذلك لأنه

أراد إعادة المياه إلى مجاريها مع والدته والتمهيد لعودة درية: "كنـــا نفــترق للمرة الأولى، وقد أحزننا ذلك. ولكننا أدركنا أننا لن نفترق طويلاً. وبقيــت درية مع إلزا، صديقتها الجيورجية، "فلم يكن مقبول أن أبقـى فـى مسـكننا وحدى فى غياب نور!"

وكان الجو السياسى السائد فى باريس يُشعر درية بـأن: "الفوضـى وعدم الارتياح والتفكك يخيمون على الساحة السياسية، وصدى كل ذلك فـى الأوساط الفنية يتخذ شكل سلبية طاغية." وهذا التناقض بين حججها دفاعاً عن 'الفن من أجل الفن' يفيض بالأسى، وسط الزوبعة السياسـية والفنيـة التـى اجتاحت فرنسا فى ذلك الوقت: "لم يكن هناك توحد، ولا رسالة تحمل قيمـا معنوية عميقة نابعة من إحساس بالجمال." وكانت الحركة السريالية قد بلغـت ذروتها، وفى طياتها فلسفة إنكار للأفكار والمعايير السائدة عن القيمة الفنيـة. وتعارض الكثير من تلك الأفكار مع مفاهيم درية للجمال والتى بلورتها فـى بحثها. وفى خضم تلك التقلبات والتشنجات السياسية والفنية، انتهت درية مـن الصياغة النهائية لبحثيها وقدمتهما لأساتذتها. واكتسبت مـن حكمـهم علـى عملها فهما جديداً لطبيعة الروح النقدية السائدة فى السوربون، كما توصلـت إلى حكم مستقل فيما يتعلق بمستوى وقيمة عملها.

وعلق ريمون فايل على بحثها الرئيسى ينتقد عدم تخصصها فى علـم المصريات، مع إقراره بأوجه القوة فى عملها:

> "العمل فى عمومياته جيد، خاصة علـى الصعيد الفلسفى. وإن كانت تحتاج إلـى المزيد من المراجع فى علم الآثار تدعـم بها حججها الفلسفية. والاقتباسات ركيكة، كما أن استشهادها بالنصوص المصريـة غير كاف. أمـا مـن ناحيـة الـترتيب التاريخى، فالخطوط العامـة صحيحـة وتتفق مع وقائع وآليات التطور. وإنـى لأقدّر كثرة الوثـائق المصـورة التـى استعارتها من مجموعات الآثـار غـير الكاملة المكتشفة حديثا. خلاصة الأمـر، أن هذه الرسالة يمكن أن تُقبل، شـريطة اسـتكمال الإضافـات والتصحيحـات

والتنقيحات التي أشرنا إليها. ويمكن إصدار أمر طبع لهذا العمل شريطة القيام بالمراجعة اللازمة وتأكد الممتحنين منها قبل الطبع."(١٠)

واستعرض الأستاذ المعروف جان كابار رسالتها المطبوعة فيما بعد وعلق علىَ مراجعها منتقدا إياها، كما انتقد ضعف خلفيتها في علم الآثار، فقال: "لا أريد أن أبالغ في الصرامة، باعتباره عمل مبتدئة أخطأت في التصدى لموضوع لم تستعد له الاستعداد الكافى."(١١) ولكن درية، كما نعلم، دأبت على التصدى لأمور "لم تستعد لها الاستعداد الكافى"!

أما عن رسالتها التكميلية عن المرأة وحقوقها في الإسلام، فقد علق موريس هالباخ قائلا:

هذه الدراسة جادة من بدايتها حتى نهايتها وتستند إلى تحليل لكمية من النصوص ذات الصلة، أحسنت اختيارها وربطت فيما بينها بذكاء. وركزت اهتمامها، فيما يبدو، على إحاطتنا بجدل لاهوتي وأخلاقى فى آن واحد يدور فى إطار دينى، طبقاً لقواعد جدلية تقليدية سليمة، معدلة لتتواءم وظروف الحياة الحديثة. والسيدة حرم رجائي مسلمة تحترم قواعد الإسلام والقرآن، وهى مازالت على اتصال بأساتذة فى جامعة الأزهر. ولكنها فى نفس الوقت أصبحت لصيقة العلاقة بحركة تحرر المرأة: وبالتالى نجد تناقضا جذابا بين تمسك بالشكليات (يدهش العقلية الغربية) وشعور فياض بتطلعات معنوية واجتماعية معاصره. ومن المؤسف أن يقتصر هذا العمل على أساس اجتماعى وتاريخى ضيق، بل وجاف أحياناً، وهو أيضا تعوزه المراجع الملموسة والوصف الكافى. وما يوجد منها مأخوذ من أعمال

مصرية معاصرة، معظمها أدبـــى. وثمــة محاولة فى الملحق الأخير علــــى الأقــل لاســـتخلاص بعــض النتـــــائج مـــن الاحصائيات، وجهد للدفاع عن نظرية عن العلاقة بين الدين والظروف الاجتماعيـــة فى مصر اليوم. هذا العمل أهل للتقدير من حيث المضمون والتكويــــن، وأقــترح أن يُصرّح للسيدة رجائى بطبعه.[١٢]

ومما لا شك فيه أن السنوات التى قضتها درية فى فرنسا فى أواخــر الثلاثينيات لعبت دورا حيويا فى تشكيل نظرة درية الجمالية، الفلسفية وكذلـك نظرتها النسائية السياسية. وهذا ينعكس بوضوح فى بحثيها. فـــالأول يقــول بوجود موقف جمالى يستند إليه قدماء المصريين فى حياتهم اليوميـــة، ممـــا يدعم التزامها بمبدأ وحدة الفن والحياة. أما بحثها الثانى، والذى وصفه واحــد من قرائها بأنه: "من أقوى الحجج التى قرأتها دفاعاً عن حقوق المرأة"، فقــد أصبح فيما بعد أساس كفاحها النسائى فى السنوات التالية، وهى تحاول إقامــة جسر بين الإسلام والإنسانيات، مطالبة بالمساواة فى الحقوق.

وتعليمها فى السوربون، عضد من سعيها نحو الحرية الفلســـفية ذات الجذور الممتدة فى أفكار المصلحين الإسلاميين من أمثال محمد عبده وقاســم أمين والعلمانيين من المصريين. وتغليب الفرد على الجماعة وأهميـــة إرادة الفرد فى كل عمل إنسانى، طبقا للتقاليد الإنسانية والليبرالية الفرنسية، فكــر يتلاءم ونظام قيمها الخاص بها. ومع ذلك فقد أدت سنوات السوربون هذه إلى عزل درية ثقافيا وسياسياً عن الأحداث التى دارت فى بلادها فى الثلاثينيات.

فقد نجح على ماهر فى إسقاط حكومة مصطفى النحاس، إذ حل على ماهر محل إسماعيل صدقى باعتباره 'الرجل القوى' على المسرح السياســـى المصرى خلال تلك السنوات الحاسمة التى سبقت الحرب. وتولــى رئاســة الوزارة فشكل وزارة وطنية، مناهضة لبريطانيا، وتسبب تعاطفه العلنى مـــع الفاشية فى أزمات مع بريطانيا التى سرعان ما شددت قبضتـــها وفرضــت قانون طوارئ ورقابة. وانقطعت العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيـــا وإيطاليـــا رغم تأييد العديد من المصريين لقوى المحور، لمجرد عدائها لإنجلترا.

وبينما تغوص درية فى دراسة ثقافة فرنسا وتاريخها وسياستها، كانت القوى المقهورة والمُحبطة فى مصر تحتج على 'التجربة الليبرالية الفاشلة'. وبدأت الجماهير المصرية تعرب عن خيبة أملها فى الوفد وفى السراى وفى الأحزاب الصغيرة وفى قدرة الجميع على معالجة القضايا الأساسية: التحرر الوطنى، والإصلاح الاجتماعى والاقتصادى وتمثيل سياسى أوسع. حتى قيادات الإتحاد النسائى المصرى لم تعد تركز اهتمامها على حقوق المرأة فحسب، بل على قضايا أعم مثل الاستقلال والسعى نحو إقامة نظام ديمقراطى حقيقى.

وفى يوليو عام ١٩٣٩، بينما تعد درية رسالتها للنشر وتستعد لمغادرة باريس، كانت سيزا نبراوى تحضر المؤتمر الثانى عشر للاتحاد الدولى للمرأة فى كوبنهاجن، جنبا إلى جنب مع ممثلة عن جمعية النساء اليهوديات فى فلسطين. وأدلت سيزا نبراوى بكلمة قالت فيها: "فى بلد مثل بلدنا حيث مازالت الأمية متفشية، يمثل الشباب نخبة تحترم الجماهير رأيها وترى فيها تعبيرا عن آمالها. وهذا الشباب إذ يدرك ما وُضع فيه من آمال عريضة، يتدرب منذ الآن على أداء الرسالة النبيلة التى وُضعت على عاتقه بسبب قدراته وتعليمه، ألا وهى مهمة تحرير البلاد من كل وصاية أجنبية، اقتصادية كانت أو سياسية."[١٣]

وفى أغسطس ١٩٣٩، عشية عودة درية إلى مصر، وقعّت ألمانيا مع روسيا معاهدة عدم اعتداء، تمهيداً لغزو بولندا فى سبتمبر. وفى التاسع من سبتمبر، أعلنت بريطانيا الحرب، أخيرا وبصفة رسمية، واندلعت الحرب العالمية الثانية، بينما تدور فى فرنسا تلك 'الحرب الغريبة': "شعرت بقلق بالغ وأنا أغادر باريس، ولا أدرى ما إذا كنت سأعود إليها أبدا. فإذا اندلعت الحرب، سوف أنتظر سنوات قبل أن أناقش رسالة الدكتوراه، وسوف تتحطم أحلامى."

(٥)
غريبة فى وطنها (١٩٣٩ - ١٩٤٢)

النساء من كافة الطبقات والأوساط
كن يجدن ما يأخذنه عليَّ. فسيدات
المجتمع يأخذن عليَّ تعليمى العالى
ويتهمننى بالتعالى. فلما حصلت
على الدكتوراه لم يسامحننى.
وكانت ثيابى أبسط من أن
تعجبهن، ومما يفضلنه فى لبسهن.
أما المثقفات فيأخذن عليَّ ملابسى
وترددى على الحفلات، وفى
رأيهم أن هذا لا يليق بثقافتى.
والطبقة الوسطى تلومنى على
معاشرة الأرستقراطية،
والبرجوازية الكبيرة تستنكف
رغبتى فى العمل فى مقابل أجر.
والمتطرفون المتدينون يلومون
خروجى على تقاليد الحرملك:
"إنها قدوة سيئة لبناتنا. وسوف تهد
بيوتنا. ثم لماذا تريد العمل ولها
زوج يأويها وينفق عليها؟!

لم تكن درية شفيق تشعر بأى قلق إزاء التغيرات السياسية العميقة فى مصر، وما سيكون لها من أثر على حياتها، بينما تقترب الباخرة اسبريا من الميناء عصر يوم خانق من أيام أغسطس ١٩٣٩. وحتى إن ساورها أى قلق من الحرب الجاثمة على أوروبا، تبدد أمام سعادتها برؤية جَمال خطوط مدينة الإسكندرية تلفها ألوان أشعة الشمس الموشكة على المغيب، وأصوات البائعين عارضين بضاعتهم على رصيف الميناء وروائح التوابل يأتى بها الهواء من صوب السوق. كانت عائدة إلى بلدها يملؤها الشعور بنوع من الرضا إذ نجحت فى التوفيق بين متناقضين: سعيها الشخصى "بحثا عن المطلق"،

وضغوط أسرتها حتى تخضع لما يتوقعه منها مجتمعها بمقتضى ثقافته التقليدية. فهى حصلت على أعلى الدرجات العلمية من واحدة من كبرى جامعات العالم الغربى، ثم اختارت زوجها بنفسها فى شخص رجل يحبها ويريدها لنفسها. وزواجها من مصرى، مسلم يمت لها بصلة القرابة لا من فرنسى، مسيحى غريب – يشير إلى أنها، رغم سنواتها الطويلة فى فرنسا، لم تتخل تماما عن قيم مجتمعها الثقافية ولا عن تقاليده. بل على العكس، فالزواج من رجل في جاذبية نور وبشخصيته الاجتماعية مكّنها من تقليل الفجوة التى شعرت أنها تفصلها عن مجتمعها. ورغم أنها تحايلت على القواعد نوعاً ما بالتغاضى عن موافقة الأسرة، وبرفضها للمهر وعقدها القران فى بلد أجنبى، إلا أن اختيارها لشريك حياتها كان يتفق ثقافيا مع ما جبلت عليه الطبقة المتوسطة المصرية من قيم. وغمرتها السعادة بلقاء زوجها وأسرتها، حتى أنها جرؤت على الاعتقاد "بأن السعادة المستمرة ممكنة لأول مرة فى حياتى."

وكان كل واحد من أشقائها وشقيقاتها قد تزوج أو ارتبط واستقر فى داره. فتزوج جمال من زهره، ابنة خالته اليتيمة، واستقرا فى المحلة ومعهما طفلهما. أما شقيقتها ليلى، فتمت خطوبتها، وأحمد شفيق الذى قنع بالعيش فى هدوء بعد وفاة زوجته "فكان لا يحلم بأى تغيير فى حياته" واستمر يعيش فى الإسكندرية مع كبرى بناته، ثريا، وزوجها وابنها. وأصغر أشقائها محمد أنهى دراسته فى ألمانيا وعُيّن ضابطا فى الشرطة، بينما عاد الأخ الأوسط لتوه من انجلترا ومعه شهادة فى الهندسة وعروس إنجليزية شابة: "ولم ير أحد غضاضة فى زواجه من أجنبية، فهو، فى نهاية الأمر، رجل لا امرأة، وله أن يفعل ما يشاء!"

وبعد زيارة لأسرتها دامت بضعة أسابيع فى الإسكندرية، عاد نور مع درية إلى القاهرة حيث نظمت أسرته حفل زفاف كبير تقليدى. وقضيا شهرهما الأول مع والدى نور، ورغم أن نور استأجر شقة على الكورنيش تطل على النيل الحبيب لدرية، إلا أنهما كانا ينتظران إعدادها. ووجد نور أنه من الطبيعى أن يقبل دعوة والدته للسكنى معها حتى ينتهيا من إعداد مسكنهما الخاص. ولكن درية لم يريحها هذا الترتيب، ولو أن الإصرار على الإقامة فى فندق كان سيُعتبر غيرُ مقبول لا اجتماعيا ولا أدبيا: "ومدّنى أبى بما يلزمنى لشراء احتياجاتى، وكان يعرف أن أهل زوجى لن يقابلونى بالترحاب، فحذرنى بلطفه المعهود بألا أطيل فى الانتهاء من إعداد بيتى الخاص. ولما شعرتُ "بمدى سعادة نور بعودتى" و "بالصداقة العميقة التى

اتسمت بها علاقتنا منذ بداية زواجنا"، لم ترغب في استهلال حياتها في مصر بسوء تفاهم معه، فوافقت: "أنا، من جانبي، كنت أخشى العيش مع حماتي تحت سقف واحد، رغم أنها ابنة خالة أمي وأعز صديقة لها ونشأت معها في بيت واحد في طنطا. فهي قد استقبلتني بشئ من الفتور، لأنها لم تغفر لي أبدا أنني تزوجت ابنها دون موافقتها أو إذنها، مخالفة بذلك كل الأعراف!".

وكانت درية تشعر "بنوع من عدم الارتياح يخنقني"، وتساءلت عن الأسباب الأخرى التي قد تكون وراء ضيق خالتها عزيزة منها:

> كنت أدرك أنها وزوجها غير متقاربين، رغم ما يحيط بهما من مظاهر الثراء. ولكنها لم تكن قادرة على مواجهة فكرة الانفصال عنه. فنساء جيلها مازلن يتمسكن بعادة الاستسلام لمصيرهن دونما تفكير في إمكانية تغييره. وكانت تجد راحة كبيرة في تكريس حياتها لتربية أولادها الستة، الذين وضعت فيهم كل آمالها. وكان نور أحبهم إليها وأول من تزوج منهم، فكان من الطبيعي ألا تحب من انتزعته منها. فإذا أضفنا أن ابنتها الوحيدة كانت تعيسة مع الزوج الذي اختاروه لها، حتى أن أباها فضل لها الطلاق والعودة لي بيت والديها، وجدنا أن خالتي عزيزة كلما قارنت سوء حظ ابنتها بحظي أنا الحسن، تضاعف ضيقها مني.

وتطلعت درية إلى مغادرة بيت حماتها في أقرب فرصة ممكنة لأنها شعرت "بجو من الدسائس والتآمر ذكرني بعهد الحريم في مصر وأثار ذكريات أليمة". وتذكر حادثة تتعلق بزجاجة عطر فرنسي أهدتها لحماتها عند وصولها. وبعد أسابيع، أعادت الخادمة الزجاجة لدرية وأخبرتها أن سيدتها لا تريد الاحتفاظ بها. ولاحظت درية أن تلاعباً ما قد تم بمحتويات الزجاجة: "وحذرتني أختي بأن ذلك لا شك ضرب من السحر حتى يكرهني زوجي."

وأخيرا تم إعداد مسكنهما، وانتقلا بسعادة للعيش فى أول بيت حقيقى لهما، مسكن فاخر بشرفة كبيرة تطل على النيل: "ولم يكن فرع رئيسى للنهر ولكنه نيلى الحبيب. وشعرت بوجود النهر كما يشعر المرء بوجود شخص حى. أحسست براحة غريبة وأنا أطل على النيل من شرفتى. ومن خلال تيارات النيل المندفعة، التقيت مرة أخرى ببسمة أمى، بوجودها الذى لا يُعَوض. أحسست أننى عدت إلى بيتى مرة أخرى، تماما كما كان الحال فى المنصورة."

وعلى مر الشهور التالية، انشغل نور سعيدا بالتدريس فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول. واكتسب على مر السنين سمعته كمدرس لامع للقانون التجارى. ولكن ماعُرف عنه من تعاطفه مع حزب الوفد كان فى نظر المتشددين من طلبة الجامعة "شيئا من الرجعية".[١] أما درية فكانت تنتظر أخباراً من باريس لتحديد موعد مناقشة رسالتها، ومضت بها الأيام فى رتابة بلا هدف: "لم تكن حياتى سوى وتيرة واحدة: أصحو من النوم وآكل وأروح وأجئ كيفما أشاء. لم يكن هناك فى إيقاع الأسبوع الأول شئ سوى تناول الغذاء يوم الجمعة مع أهل زوجى، تقليد أسرى استسلمت له بالضرورة. باختصار، لم يكن لى أى نشاط اجتماعى يسمح لى باتخاذ موقعى من تطور بلادى ومستقبلها، مستقبل شعرت أننى جزء منه لا محالة. وبدون عمل ألوذ به، أحسست بالضياع."

وبما أن درية لم تكن ممن يرضون البقاء فى المنزل بلا عمل، تصاعدت رغبتها فى المشاركة فى الحياة العامة. فلما اتصل بها وزير التربية والتعليم عارضا وظيفة مفتشة للغة الفرنسية لكل المدارس الثانوية فى مصر، قبلت درية عن طيب خاطر. وكانت الحكومة المصرية تتوقع ممن دعمتهم من الطلبة أن يعملوا فى الحكومة بعد تخرجهم. والتفتيش على اللغة الفرنسية كان يتطلب من درية السفر بانتظام فى كافة أرجاء البلاد لزيارة المدارس الثانوية التى تدرّس فيها اللغة الفرنسية، والتأكد من أن مستوى فهم تلك اللغة والتعبير بها يتفق ومستوى نظام التعليم الفرنسى. وقد أيدت وظيفتها هذه الشعور العام بأن درية شفيق فرنسية أكثر منها مصرية.

أما طموح درية الخفى فكان أن تدرّس الفلسفة بالجامعة الوطنية، ولكن بما أنها لم تحصل بعد على شهادتها رسميا، لم تجرؤ على التقدم للتدريس. وجاء عرض الوزارة حلاً مؤقتا: "فلن أخسر شيئا بقبوله، كما أنه سيمنحنى استقلالا ماليا. فقد استدنت بسبب حبى للأشياء الجميلة، وهى صفة

ورثتها عن أمى. وأثثت بيتنا على النيل، كما اشتريت لنفسى آخر صيحة من الملابس الباريسية. وبالطبع، كانت كل هذه النزوات تشكل عبئا على جيب نور. فقبلت الوظيفة، فهى شئ يشغلنى حتى أمسك بشهادة الدكتوراه فى يدى وأدرس بالجامعة."

وعلى الرغم من غيابها عن مصر طيلة الثلاثينيات، إلا أنها كانت تدرك ما يدور فى البلاد وما قد تستتبعه الحرب بين ألمانيا والحلفاء فى أوروبا من عواقب. وما إن بدأت عملها حتى جاءت أخبار غزو ألمانيا لبولندا، مؤذنة باندلاع الحرب العالمية الثانية. "وقعت علىَّ الأخبار كالصاعقة، أولا العنف الذى يجتاح العالم وخاصة مصر، وثانيا إدراكى أن الساسة ماهم سوى كذابين يتسببون فى القضاء على القيم الإنسانية، وثالثا أن فرنسا فى حالة حرب يعنى تأجيل مناقشة رسالتى إلى أجل غير مسمى. كانت أحلامى تتلاشى."

ومضت عدة شهور ودرية تعمل فى الوزارة حتى جاءها خطاب من السوربون يحدد موعد مناقشة رسالتها فى التاسع من مارس ١٩٤٠.

قررت الرحيل فورا! وذهبت إلى وكيل وزارة التربية والتعليم أطلب إجازة للسفر إلى باريس. فأجاب: "عودى إلى عملك وسنخبرك عندما يُتخذ قرار". فأخبرته أننى لا أستطيع أن أضيع دقيقة واحدة. فأصر على عودتى إلى عملى، محذراً: "إذا لم تعودى إلى عملك فى خلال ٢٤ ساعة سيتم فصلك"؟ وصفقت الباب ورائى وأنا أقول: "اعتبرنى مفصولة لأننى لن أعود إلى العمل!" "وقبل العودة إلى الدار، عرجتُ على مكتب سياحة وحجزت رحلتى إلى باريس!" وفى نفس اليوم، قابل وكيل الوزارة نور وسأله: "أخبرنى كيف تسوس درية؟" وأجابه نور ضاحكا: "ومن قال لك إننى أسوسها؟"

وعادت درية إلى باريس فى نهاية فبراير ١٩٤٠، فى فـترة كـان الوضع السياسى الداخلى فى مصر وفرنسا يمر بما وصفته هى "بتحلل القيم الأخلاقية". وأقامت مع إلزا الذى امتلأ بيتـها بـاللاجئين، معظمـهم مـن الجيورجيين الهاربين من نظام ستالين فى الاتحاد السوفيتى، والبعض الآخـر من اليهود الهاربين من النظام الفاشى فى ألمانيا. ولاحظت أن الكثـير مـن أصدقاء إلزا الجيورجيين تزوجوا من "نساء أمريكيات ثريـات". وهـو مـا اعتبرته درية رمزاً للفراغ النفسى العميق الذى يمزق باريس خـلال هـذه الحرب المزيفة، التى أضافت ضوضاءها إلى الفوضى السائدة:

"وباريس التى رأيتها فى ربيع ١٩٤٠ كانت مدينة أوشكت روحـها على الضياع! فترات الظلام تتكرر دون أن يقع هجوم، وإن كان هذا الفـراغ النابع من واقع الحرب أسوأ من الهجوم. فراغ نفسى – عادات جديدة وإنفـاق ببذخ على كماليات. مدينة تتعذب."

وجاء اليوم المشهود أخيرا، اليوم الذى وجَّهت نحوه كل جهودها على مدى سنوات. وعصر يوم سبت، فى الساعة الثالثـة، دخلـت دريـة قاعـة السوربون الكبرى لتناقش رسالتها للحصول على دكتوراه الدولة فى الفلسـفة. فماذا كان شعورها فى تلك اللحظة، وماذا كانت تعنيه اللحظة بالنسبة لها؟

انتابنى قلق رهيب. لم أنم جيـداً فـى الليلة السابقة، خشـية أن ينتقـم منـى الأستاذ فايل. ورحت أقرأ بعض سـور من القرآن. فـأخذت سـورة يـس، إذ عرفت وأنا طفلة أن من يقرأها أربعيـن مرة تتحقق له رغباته. وبعد أن قرأتـها عدة مرات، شعرت بالراحة، وتنـاولت جرعة منومة ونمت للصباح. ثم دعوت إلزا لتناول الغذاء معـى فـى مقـهى 'ديبون لاتـان'، مدركـة أن روحـها المرحة ستحسن من مزاجى. واقترحت على أن أشرب كأس نبيذ "ستسـاعدك على التمكن من حججك". وخشـيت أن تأتى بنتيجة عكسية. فطلبَت هى زجاجة شمبانيا، قائلة: "هـذا كـلام فـارغ!"

وهممت باحتساء كأس عندما لمحت الأستاذ لالو على مائدة قريبة، مرتديا حلته الرسمية، يزينها وسام "اللجيون دونير". وكان يرقب الزجاجة بقلق ثم أرسل لى ورقة يحذرنى: "لا تنسى أنك ستناقشين رسالتك بعد ساعة!". وامتلأ مدرج السوربون بالعديد من أصدقائى؛ الجالية الجيورجية وبعض المصريين بما فى ذلك مدير البعثة المصرية وعدد من المعارف الفرنسيين، منهم ناشر رسالتى والجمهور الذى يحضر مناقشة الرسائل بانتظام. كنت أجلس فى مقعد وحدى والجمهور ورائى، ولجنة التحكيم المكونة من خمسة أفراد على منصة أمامى.

وشعرت وكأننى متهمة فى محكمة وأنى وحدى مكلفة بالدفاع عن نفسى.

وجاء دور عالم المصريات. وتسارعت دقات قلبى وهو يقول: "سيدتى.. دعينى أخبرك أن كتابك شيق .. ومأخذى الوحيد هو أنك لم تناقشى معى كل شئ قبل أن تكتبيه." ودُهشت، فهى بالفعل معجزة. فالأمور تسير فى صالحى. ورُفعت الجلسة للاستراحة خمس عشرة دقيقة بين البحثين. وعقب مناقشة بحثى عن حقوق المرأة فى الدين، علق باييه قائلاً: "سيدتى، رسالتك أفضل دفاع عن حقوق المرأة كُتب حتى الآن أو قد يكتب فى المستقبل. لقد أثبتِ أموراً عن الإسلام لم يعد فيها شك. لقد نجحت فى تصحيح أفكارنا الخاطئة عن الإسلام، ولك أن تعتبرى نفسك المدافعة عن المرأة المسلمة عامة وعن المرأة المصرية خاصة." وأثرّت فى عبارته هذه أيما تأثير. وبعد مرور ساعات عديدة، انتقلت لجنة التحكيم للمداولة. كنت أشعر بالإعياء ولكنى هادئة. ثم عادت اللجنة وأعلن رئيسها: "لقد حصلت السيدة درية شفيق على درجة دكتوراه الآداب فى الفلسفة من جامعة السوربون بمرتبة التقدير."

وكانت السوربون فى تلك الأيام تعتبر "رسالة دكتوراه الدولة حدثا صغيرا فى أوساط المثقفين الباريسيين. فإذا كانت المتقدمة امرأة، ازداد الحدث أهمية، خاصة إذا كانت امرأة أجنبية وشابة، فإن ذلك يثير الفضول

والرغبة فى رؤية ما ستفعله. إذ من المعروف أنه امتحان عسير، يُفقد الرجال شجاعتهم أحيانا".[٢]

ويذكر صديق مصرى لنور حضر دفاع درية عن رسالتها، قائلاً:

> فتاة جميلة جدا، تملؤها الثقة بنفسها، دافعت عن رسالتها خير دفاع. كانت مدهشة. وكان تأثيرها على الجمهور وعلىَّ أنا شخصيا كبيرا. لُغتها الفرنسية ممتازة، وشكلها ملفت ومحترم. وأذكر أن المناسبة كانت مهيبة، تختلف تماما عن حصولنا على الدكتوراه من كلية الحقوق، حيث يجلس الواحد منا وحده مع أستاذه يناقش بحثه، ثم ينتهى الأمر. أما فى السوربون، فمدرج ضخم ولجنة من خمسة أساتذة يطرحون الأسئلة. كان من المدهش الاستماع إلى تلك الفتاة تدافع عن نفسها.[٣]

وعند تقييمه لدفاع درية، علق رئيس اللجنة قائلاً: "كم قدرت لجنة التحكيم السهولة التى قدّمت بها شرحها، وذكاء ودقة إجابتها عند تقديم الحجج."[٤] وفي مصر، نشرت مجلة 'ليجيبسيان' صورة درية مع خبر حصولها على الدكتوراه بمرتبة التقدير. "مع خالص التهانى للدكتورة الشابة، أمل الجامعة المصرية والحركة النسائية فى مصر."[٥]

واعتبرت درية نجاحها فى مناقشة رسالتها وحصولها عليها، أهم منجزاتها. واستبعد بعض نقادها أن تكون حصلت على الدكتوراه فعلاً. وقال أحدهم: "حتى وإن حصلت عليها، فقد منحوها إياها لأنها امرأة جذابة وليس لجدارتها علميا."[٦] فعلى الرغم من التأكيد العلنى فى المجلة، كان نقادها يرون فى جمالها دليلا على السطحية الفكرية، وهو صورة كانت درية تجاربها باستمرار. وهذا التناقض بين رأى درية فى نفسها وصورتها العامة زاد من غربتها فى مجتمعها.

ونزلت من الباخرة فى الإسكندرية وهى تتوقع الترحيب والتهانى من أسرتها، ولكنها فوجئت بعدم اهتمام تام "باستثناء والدى الذى تأثر كثيرا لأننى كتبت على بحثى الرئيسى إهداء له ولذكرى والدتى. ورأيت فى عينيه نظرة حزن تعكس عُزلته بعد أن كبر كل أولاده وتركوه." فقررت أن الحل لإخراجه من عزلته الحزينة أن يتزوج مرة أخرى، وراحت تبحث له عن عروس ووجدتها. كما أدركت أن أختها الصغرى ليلى "فى حاجة إلى زوج بعد أن فُسخت خطبتها مرتين." ووجدت لها زوجا مناسبا. وعلى الرغم من حزمها وأسلوبها فى "تولى شئون أبيها وأختها"، إلا أنها أثبتت بتصرفها هذا التزامها بالقيمة الاجتماعية للزواج. وكتبت درية وهى تتذكر زواجها فى مرحلته المبكرة تصف "حبها المتزايد لنور الذى ساعدنى عطفه وحنانه على تقليص الهوة التى تفصلنى عن مصر". وهذه الفجوة أو الهوة التى كثيرا ما تشير إليها كلما كتبت عن علاقتها بالمجتمع المصرى، لها علاقة أيضا بالفوضى الاجتماعية والسياسية المتزايدة فى مصر، بعد عودتها فى ربيع ١٩٤٠. وكانت تؤمن، بسذاجة، بأن الدكتوراه التى سعت إلى نيلها قبل اثنى عشر عاما، كفيلة بحل المشكلة. ولكن على العكس "شهاداتى التى حملتها بفخر وأنا أؤمن أنها مفتاح سحرى يفتح كل الأبواب، أصبحت، فى نهاية المطاف، عقبة كبيرة، بسبب كل ما أثارته من غيرة. فبدلاً من الورود على الطريق والتصفيق الذى توقعته، شعرت بعداء من جليد، بل وكراهية موجهة الىّ."

وانعكس شعور درية فى القلق الذى شعرت أن مصر تمر به والبلاد تنساق نحو الحرب "كنا نغوص فى موجة عاتية تجتاح بلادى، وتثير لبسا خطيرا بين بعض الأفكار الدخيلة وبين أعمق القيم المصرية. وذلك على كافة المستويات الوطنية والدينية والأخلاقية. وازداد اللبس وتسارع حتى سيطر على معظم العقول والقلوب."

وولدت سنوات الحرب فى مصر وعيا بين الجماهير الشعبية المصرية التى ازدادت تنظيما وطالبت بحقوقها فى الاستقلال الوطنى والعدل الاجتماعى، وكذلك ازداد وعى درية التى راحت تبحث عن مكان لها فى مستقبل بلادها، فتسد بذلك الفجوة بينها وبين مجتمعها: "وجدت جوا من عدم الاستقرار لم يسمح بتحقيق أحلامى على الفور. وتوقى لتحقيق رغبتى فى غمضة عين (وهو من عيوبى الشخصية التى وجدت صعوبة فى التخلص منها) أصطدم بمحيط عدائى زاد من حساسية الموقف. وامتزجت أوجه اللبس فى قلبى، امتزاجا تلقائيا يجعل نبض عروقى يدق تعاطفا مع بلادى."

لما عادت درية إلى مصر، افترضت أنها ستحقق طموحـــها القديـم وتحصل على وظيفة للتدريس بكلية الآداب فى الجامعة الوطنية: "فإذا كـانت الدكتوراه فى الفلسفة التى حصلت عليها من السوربون تؤهل لتدريس تلـــك المادة فى جامعة باريس، فمن الأدعى أن أدرّس الفلسفة فى الجامعة الوطنية. فهذا هو المنطق. "ولكن الدكتور أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤)[٧]، وكان آنذاك عميدا لكلية الآداب، رفض تعيينها بحجة أنه لا يستطيع تعيين امرأة جميلـــة لتدرّس بالكلية. وتقول درية:

> كنت مازلت أحتفظ بأوهامى، وأؤمـــن بأن المنطق يكفى ليفهم الناس. وحـددت موعداً مع عميد كليـــة الآداب، وهـــو خريج الأزهر، محافظ من حيث مبادئـه ومعادى للمرأة بطبعه - يؤمـــن بـــأن مكان المرأة فى البيت، ليس إلا. كنـت أرتدى زيا أنيقا وبسيطا حسب أحـــدث خطوط الموضـــة الباريسـية. وقبيـل دخولى إلى مكتبه، أردت أن أضيـــف نقطة عطر، فسقطت الزجاجـــة علـــى ثوبى وأحاطتنى بهالة من الأريج تثـير الدوار. واقـــتربتُ وأنـــا لا أتصـــور العاصفة التى ستثيرها هـــذه المقابلـــة واصطدمت عيوننا اصطدام الجيـــوش المقاتلة. وكان رد فعله الدهشة والتحدى والاحتقار بل وحتى الكراهيـــة. لمـــاذا بالله؟ لم يدعنى حتى للجلوس. فظللـــت واقفة، أشعر بالحرج. وفتحـــت بـــاب الحديث ولكنه ســـرعان مـــا أوصـــده. وتبينت رفضه النهائى دون أن ينبـــس ببنت شفه، فغادرت المكان وأنا حزينة.

ولم يرفض أحمد أمين طلب درية لمجرد أنها امرأة. بل آمن بأن من فى طباعها وجرأتها وحداثتها الفرنسية ســـوف تُعَـــرّض صـــورة الجامعـــة المصرية الوليدة للخطر. وهذه هى نفس الأسباب التى جعلته يفصل النابغـــة

الدكتور زكى محمود مبارك، والذى سُمىّ 'بالدكاتره' لكثرة ما حصل عليه من شهادات علمية من السوربون. وكان زكى مبارك بوهيميا، مخلصا وموهوبا، قال عنه جاك بيرك" من أكثر مثقفي بلاده وجيله أصالة"[٨]. أما أحمد أمين فكان حساساً ومتمسكا بعاداته المحافظة، احتفظ بزيه الأزهرى جُلّ حياته. وتمحورت مؤلفاته الغزيرة حول الآثار الثقافية والاجتماعية المترتبة على الحداثة، ورغم أنه كان ينادى بالاصلاحات الاجتماعية والأدبية، إلا أن خلفيته التقليدية كانت تحول دون تعيينه لدرية وتتعارض ومعتقداته عن القيم الروحية والثقافية للشرق. فدرية، من وجهة نظره، 'مبالغة فى الحداثة'، ودخولها المسرحي إلى مكتبه أقنعه بأنها بمثابة التجسيد لكل ما فى الغرب من سمات معادية للشرق. فلا عجب أن انعدمت أسس التفاهم بين الشخصيتين، فكل منهما يمثل نظرة إلى العالم تختلف تماما عن الآخر.

وبعد ذلك بعشرات السنين، فى كتاب أهداه للبارزات من نساء مصر، كتب عبد الحليم معلقا:

> من الغريب أن أحمد أمين، وهو من أوائل من كتبوا عن رسالة الإسلام فى سلسلة كتبه المعروفة: فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام، رفض تعيين الدكتوره درية شفيق التى نالت درجتها عن بحث فى النساء فى الإسلام. ولكن الرجل كان يعلم أن درية سبقتها سمعتها فى مجال الدفاع عن حقوق المرأة، وخاف أن يثير وجودها فى الجامعة عاصفة عنيفة يصعب كبتها، خاصة وأن درية كانت جميلة ومليئة بحيوية الشباب. فأوصد فى وجهها بابا، دخلت منه، فيما بعد، العديد من الجميلات وصاحبات النشاط بل والثوريات والشهيرات.[٩]

وحاولت درية مرة أخرى أن تحقق طموحها. وكانت تعرف أن الجامعة تخضع لإشراف وزارة التربية والتعليم، فربما أمكن إقناع الوزير بالتدخل لدى العميد للدفاع عن قضيتها، ولكنها لما تناولت المسألة معه، ابتسم

وأخبرها أن العميد اتصل به بعد المقابلة معها وأعلن متوعداً: "يوم تخطو درية شفيق بقدمها فى الجامعة هو يوم أغادرها أنا!"(١٠)

وبعد ذلك بقليل، حاولت الانضمام للاتحاد النسائى المصرى، ظانة أن الإسهام فى أنشطته سيصبح مخرجاً لشعورها بالضيق: "عدت إلى مصر وفى يدى سلاح لا للدفاع عن نفسى وعن حقوقى فحسب، وإنما للدفاع عن حقوق النساء فى بلادى. أليس صحيحا أننى بتحرير النساء أستطيع أن أحرر نفسى؟"

ونظراً لاحترامها العميق وامتنانها للسيدة التى عطفت عليها وساعدتها فى تحقيق حلم حياتها، كان من الطبيعى أن تفكر فى الإنضمام إلى منظمة هدى شعراوى. وحددت موعدا لزيارتها، لتقدم لها نسخة من 'المرأة والحقوق الدينية فى مصر المعاصرة وعليه إهداء "الى سعادة مدام شعراوى باشا، رئيسة الحركة النسائية فى مصر." وكانت تظن أن الصلة بينهما لم تنقطع رغم السنوات التى قضتها فى باريس. "شعرت أن الأوان قد آن لأصبح عضوة، وبدا لى التعاون بيننا جزءا من طبيعة الأمور لأننا نتشارك من حيث الأفكار والحماس." ولكن سرعان ما انقلب حماسها لمقابلة هدى شعراوى إلى إحباط:

> بدت سعيدة فعلا لرؤيتى. ووجدتها مازالت مشرقة. وتأثرت إذ وجدت نفسى فى صالونها مرة أخرى، وتذكرت مقابلتنا الأولى التى استقبلتنى فيها فاتحة ذراعيها. وحضرت بضعة اجتماعات، ولكن المحيطين بها أقاموا بينى وبينها حاجزا حتى انقطعت الصلة بينى وبين تلك المرأة الى أعجبت بها. وسرعان ما شعرتُ بالمؤامرات (وهى الأسلوب المعتاد فى الشرق، خاصة فى الأوساط النسائية) الدائرة حول هدى شعراوى، والتى استهدفت إبعادى عنها. والآن، عندما أنظر إلى الأمور من منظور التجربة، أتبين أن سكرتيرتها كانت مصدر هذه المؤامرات، فهى التى

بدأت حملة الهجوم عليَّ بعد موت هدى شعراوى، ولما أسست الاتحاد النسائى الخاص بى. وهكذا لم أصبح أبدا عضوة فى الاتحاد النسائى التابع لهدى شعراوى.

وكان رد الفعل السلبى لبحثها عن دور فى الحياة العامة، دافعا لمزيد من إحساسها بالغربة. فقد تحطمت آمالها بسبب نفس المرأة التى وصفت درية قبل ذلك ببضعة شهور فى مجلس 'ليجيبسيين'، باعتبارها "أمل الجامعة المصرية والحركة النسائية فى مصر" والتى تحولت الآن إلى عدوة لها. فالسكرتيرة المقصودة هى سيزا نبراوى، الابنة الروحية لهدى شعراوى وكاتمة أسرارها، والتى تحولت فيما بعد إلى ناقدة صارمة لدرية شفيق. وعندما يفكر المرء فيما أُغدق على درية من مديح وتشجيع من جانب هدى شعراوى والاتحاد النسائى المصرى – وخاصة من جانب سيزا نبراوى التى كانت وراء شهرة درية شفيق بعد أن نشرت صورها وأخبارها ومقالتها فى المجلة – تنتابه الدهشة أمام هذا العداء.

لاشك أن أحمد الصاوى لعب دورا فى تأليب هدى شعراوى على درية. فبعد فشل زواجهما الطنان، كان لابد أن 'ينقذ ماء وجهه' بأن ينال من صورة درية. وبما أنه كان شخصية محورية بين المحيطين بهدى شعراوى، أتيحت له فرصة إطلاق ما يرغبه من روايات عنها. أما عن الأسباب التى دعت هدى شعراوى إلى الاكتفاء برواية طرف دون الآخر، فهو سؤال وجيه. وتعلق زوجة ابن هدى شعراوى قائلة: "من نقاط ضعف هدى هانم الاستماع إلى المقربين، وما أن تكوّن رأيا سلبيا عن أحد، كان يصعب تغيّره. كثيرا ما سألتها "لماذا لا تقابلين درية وتسمعين روايتها هى؟ ولكنها كانت عنيدة"(١١) كذلك روى الصحفى مصطفى أمين أنه عندما سأل درية لماذا لا ترد على مقالات الصاوى التى ينتقدها بها فى '**مجلتى**'، أجابت بخبث: "لو أجبت، سوف تُنشر إجابتى مرة واحدة، بينما يستطيع هو النشر يوميا. من الأفضل ألا أعلق."(١٢)

وأيا كانت رواية الصاوى عن الملابسات المحيطة بالطلاق، فالأرجح أن انتماء درية إلى الطبقة المتوسطة فى الأقاليم – مع درجاتها العلمية المتقدمة وشخصيتها المعتدة بنفسها والجريئة – جعلتها دخيلة غير مستحبة فى نظر البعض من النساء الأكثر تحفظا فى ذلك المجتمع الطبقى ذى

الأصول الشركسية التركية، والذى يعير اهتماما كبيرا للمكانة الاجتماعية والثراء والسلطة. ولاشك أن صدّ المرأة التى عطفت عليها واعتبرتها درية بطلتها، آلمها أشد الإيلام. ولكن مذكرات درية لا تتوقف طويلا عند ذلك الشعور بالإحباط، ولا تتطرق إلى تحليل عميق للظروف التى تراها وراء ذلك الموقف العدائى السلبى. فهى تكتفى بالإشارة إلى "حيل الضعفاء وغيرة المحيطين بهدى شعراوى. أدركت أنه يستحيل علىَّ أن أصبح عضوا فى الاتحاد النسائى المصرى. فلقد "تجحت دسائس المحيطين بها فى إبعادى عن هدى شعراوى."

وزاد من شعور درية بأنها مرفوضة، فشلها فى الحصول على وظيفة التدريس بالجامعة وخيبة أملها فى الالتحاق بالاتحاد النسائى. ولولا حضور نور الحيوى فى حياتها، ربما تخلت درية عن الاستمرار فى سعيها: "من حسن الحظ أن زوجى كان يتمتع بروح الدعابة وسعة الأفق. كان هو سندى. إذ كنت فى حاجة إلى سند فى وحدتى الممتدة، حتى وإن أخفيت احتياجى هذا، لأننى كنت أعيش فى بلدى. يمر بى الوقت وكأننى أغوص فى رمال ناعمة، تائهة وضائعة. لا أشعر أننى أنتمى إلى المكان. حتى جوهر ثقافتى الفرنسية وتعليمى بدا غير ذى فائدة. ترى ما أسباب التنافر بينى وبين الوسط الذى قدّر لى أن أعيش فيه؟" وأرّقها هذا السؤال طيلة حياتها، ولم تكفّ أبدا عن التفكير فيه.

ولم يكن من عادة درية أن تتخاذل وتلعق جراحها، ولا أن تكيل اللوم علنا على من رفضوها وانتقدوها على الملأ. بل كان رد فعلها إزاء النكسات أن راحت تبحث عن وسائل أخرى لتحقيق طموحاتها. فعادت إلى عملها فى وزارة التربية والتعليم، وهى تدرك تماما أنها تبدو فى نظر العديدين وكأنها مغضوب عليها: فالمرأة من وسط ميسور نسبيا، تعرض نفسها للكثير من النقد بل والاحتقار إن هى عملت. ففى بعض الطبقات المصرية، إذا عملت المرأة فى مقابل أجر، فمعنى ذلك أن زوجها غير قادر ماليا على الوفاء باحتياجات زوجته. فالنساء من النخبة قد يعملن فى مجال الخدمة الاجتماعية والجمعيات الخيرية، ويُعتبر ذلك من باب التصرف النبيل. ولا تعمل فى مقابل أجر سوى المرأة من الطبقات الدنيا؛ أما لو عملت امرأة من البورجوازية الكبيرة، فهى تفقد مكانتها الاجتماعية وتصبح مجرد امرأة تحتاج إلى العمل. فلما كانت درية تجمع بين صفة سيدة مجتمع وامرأة عاملة، قررت أن تتحدى تلك الأفكار المتحجرة. إذ آمنت بضرورة تشجيع

كل من ترغب فى العمل فى أى مجال، وضربت عرض الحائط بانتقـــادات المجتمع "باعتبارها بقايا موقف ثقافى هو السخف بعينه."

واستمرت درية خلال سنوات الحرب الأولى، تجـوب البـلاد مـن الإسكندرية إلى أسوان، تحتك بجيل شاب مـن نسـاء الطبقـة المتوسـطة المصرية، يلتحقن بالمدارس فى أعداد متزايدة. وحيثما ذهبت أثارت الاهتمام والحماس. وتذكر ليلى تكلا، التى أصبحت الآن من البرلمانيات المرموقـات فى مصر، زيارة درية شفيق لمدرستها: "كنت فى السادسة عشرة وبدت لـى رائعة الجمال. كانت ترتدى حلة حمراء تتماشى وآخر صيحة، والتففنا كلنـا حولها. وكانت وهى تحدثنا تلتفت برأسها نحو المصور لحظات ثـم تعـود فتركز علينا. ورأيت فيها آنذاك امرأة جمعت بين الذكاء والأنوثة والشخصية العامة. كنا نعجب بها فعلاً.[١٣] وشعُرت من خلال تلك الشـابات بـالظروف السياسية والتيارات الأيديولوجية التى تتغلغل فى البلاد خلال تلك السـنوات الحاسمة. ولكن عملها كمفتشة أصبح رتيبا "نفس المنظر، نفس المنهج نفـس المدرسين. وشعرت بملل قاتل من كثرة التكرار، أنا التى حلمت يومـا بـأن أصير بطلة!". ورغم بقائها مع الوزارة طيلة سنوات الحـرب، إذ شـعرت: "مسئوليتى أن أشارك فى حمل أعباء تطور بلادى"، نال روتين العمـل مـن صبرها: "كنت أحس بأنى أقوم بعمل أدنى من مستوى تعليمى، فكـان ظلـم الموقف يصيبنى بالكآبة. شعرت بهوة تفصل بين عملى وذاتى، ولم أر لنفسى مخرجا." ورغبة منها فى تخفيف الملل عن نفسها، بـدأت تكتـب مقـالات صغيرة للجرائد الفرنسية المحلية، مثل 'لابورس ايجيبسيين'، بعد الحصـول على إذن وزير التعليم الذى حذرها "بأن لا تكتب فى السياسة أبداً."

وفى بدايات يناير ١٩٤٢، جاءها من طنطا نبأ وفاة جدتها خديجـة فزاد شعورها بالضيق، وخيمت عليها الكآبة:

> كأن خسوفاً أخفـى الشـمس، مجـدداً شعورى بأننى شئ ضـاع وشـعورى باليأس بعد موت أمى. ورغم أنى لـم أكن سعيدة فى طنطا أبدا، إلا أن جدتـى كانت فى نظرى شخصية نبيلـة، ذات قيم أخلاقية واجتماعية رفيعة، نـاهيكم عن روح الدعابة والجاذبيـة والطيبـة التى كانت تتحلى بها. كـانت تجسـد الكرم العربى الأصيل، إذ ظلت حتـى

آخر يوم فى حياتها تغدق حتى بعد أن ذهب ثراؤها. موت جدتى بالنسبة لى نهاية حقبة كان للقيم الأخلاقية فيها معنى فى حياة المصريين.

وبعد ذلك بسنوات، كتبت درية مقالة تقارن فيها نساء جيلها بنساء جيل جدتها وتتساءل: "هل كسبنا أم خسرنا بالتخلى عن عاداتنا وتقاليدنا؟ وهل تميل كفة السعادة فى صالحنا أم فى صالح جيل جداتنا؟:[١٤] لقد جاء موت جدتها رمزا لنهاية 'الأيام الحلوة'، ولكنه جاء أيضا فى لحظة بدأت فيها الأمور تتحسن فى حياة درية الشخصية.

(٦)
نقطة التحول (١٩٤٢-١٩٤٤)

كان لابد لى أن أنتظر الظـــروف المناســبة
للتحرك. أدركت أننى لست فى مركز يســمح
لى بدور سياسى أو اجتمـــاعى أو معنـــوى
بارز فى مجتمعنا. فلم أكن فى ثــراء هــدى
شعراوى
لأفرض نفسى. ولكن: كان يملؤنى الإيمان!

ولما كثرت غارات المحور على مصر وتقدمت قوات رومــل نحــو الإسكندرية، زادت الضغوط على زعمـــاء مصـــر السياســيين، وزاد قلــق البريطانيين من تدخلهم في الشئون الداخلية للبـــلاد. فبحجــة البحــث عــن جواسيس المحور وحماية جيشهم ماديا ومعنويا، ضاعف البريطانيون تدابــير الأمن العسكرى، وعمقوا بذلك من أزمـــة العلاقــات الأنجلــو-مصريــة، فتضاعفت كراهية الشعب لهم. وكما قال اللـــواء محمــد نجيــب (١٩٠٨-١٩٨٤)، أول رئيس جمهورية مصرى بعد استيلاء الجيش على السلطة فــى ١٩٥٢، "كانت قواتهم تسير فى شوارع القاهرة، تردد الأغانى الفاجرة عـــن مليكنا، ورغم أننا لم نكن نُعجب بالملك، إلا أنه كان رمزا وطنيا، مثّل رايــة البلاد. وبلغت جماهيرية فاروق ذروتها حينما تعرض للسباب العلنى على يــد القوات البريطانية. كنا نعلم، وهم أيضا يعلمون، أنهم عندما يســبّون الملــك يسبّون الشعب المصرى بأسره. تحرشوا بنســائنا واعتــدوا علــى رجالنـــا وضَربوا الأماكن العامة."[1]

وفي نفس الوقت ازداد سخط الجماهير القلقة بســـبب قلــة الطعــام وارتفاع الأسعار، وتلاشت ثقتهم فى حكومتهم وفى ملكهم اللعوب وفى شــلة السراى الباحثة عن السلطة، وفى الوفد الذى اعتبروه متعاطفا مع الإنجلــيز. فانقسمت مصر إلى مدافعين عن قوى المحور، أملاً فى أن يخلّصوا البــلاد، وبين مؤيدى الحلفاء. واتصلت جماعات سياسية مصرية عديدة برومل ســراً، ووعدته بتأجيج الثورات الداخلية وتيسير النصر لقواته. ومـــن أهــم هــذه المجموعات السرية حركة عُرِفت بالضباط الأحرار، تضم جمال عبد الناصر وأنور السادات اللذين خططا لانقلاب عام ١٩٥٢ الذى أطاح بالملكية.

ورغبة منهم فى حمايـــة مصالحــهم الحيويــة، راح البريطــانيون يفرضون الحكومات ويقيلونها بقوة الدبابات والأسلحة، مهينين بذلك الملـــك والوفد على السواء. وكان أشهر مثال على استخفافهم بالمشـــاعر الوطنيــة وعلى تدخلهم فى الشئون الداخلية، الإنذار المعروف الــذى وجهــه الســفير البريطانى، سير مايلز لامبسون، يوم ٤ فـبراير عـام ١٩٤٢ إلــى الملــك فاروق، طالباً استبدال رئيس الوزراء الموالي للمحور، على باشـــا مــاهر، بمصطفى باشا النحاس والوفد، لولائهم لبريطانيــا. وتفــاوض الملــك مــع لامبسون طيلة يومين، وفاروق يسعى إلى ائتلاف برئاسة النحاس بدلاً مــن حكومة وفدية بحتة. وازداد الحلفاء قلقا بسبب الموقف الخطير فى الصحــراء الغربية، مما دفع لامبسون إلي التشدد، قائلا: "ما لم أسمع قبل الخامسة مــن عصر اليوم أن النحاس باشا كُلِف بتأليف الوزارة، فعلى الملــك فــاروق أن يتحمل العواقب."[٢] ولم يأت رد حتى الساعة التاســعة. فــأصدر لامبســون أوامره، فتحركت الدبابات والقوات المدرعــة وأحــاطت بقصــر عــابدين. وعُرض على فاروق أن يختار بين التنازل عن العرش أو الموافقــة علــى تعيين النحاس. واعتبر المصريــون ذلــك وإلغــاءاً لمعــاهدة ١٩٣٦. أمــا البريطانيون فاعتبروه من ضرورات الحرب. وتم عزل على مـــاهر ونفيــه داخليا، ثم قُبض على أنور السادات وعزيز المصرى فيما بعد وسجنا بتهمــة التجسس لحساب الألمان.

وكانت سنوات الأزمات السياسية والتوتر الاجتماعى هذه، ســـنوات غبطة وسعادة شخصية في حياة درية، سنوات واعـــدة بـــالتحقق. ففـــى ٦ مارس، بعد الإنذار البريطاني المشين بشهر واحد، أنجبـــت دريـــة طفلتــها الأولى، عزيزة، وهو ما ملأنى "بشعور التصالح مع الحياة"، وذلـــك علـــى الرغم من خيبة أمل أسرة زوجها لأنها لم ترزق بصبي: "لما أكدت لحمـــاتى سعادتى إذ رزقت بابنة، حملقت فى غير مصدقة، وكأنها تتهمنى بالنفاق!".

وجاء مولد عزيزة نقطة تحول فى إحساس درية بالتحقق: "مع مولـــد عزيزة، اكتشفت مجدداً إشراق الشمس والحب المطلق الذى كان قد ولّى مـــع وفاة أمى. وما المانع فى أن أغدق هذا الحب الذى لا حدود له ولا أحصـــل على مقابل له، كما كان الحال فى طفولتى المبكرة؟ ألم يكن الحب دائماً ذلـــك الشعور المطلق فى نقائه الجليل الشفاف؟ كنت سعيدة! لقد أضفى مولد ابنتـــى على حياتى حلاوة."

وقرر نور بعد مولد ابنته بفترة قصيرة أن يفتح مكتب محامـــاة، أولا ليزيد من دخل الأسرة، ثم لينفق على حُبه المكلف للميسر وشغف درية بكـــل

ما هو جميل من أشياء. وربما كان السبب الرئيسى لقراره، مهارته المهنية وحبه لعمله. وتؤكد درية أن بعض الفضل فى قرار زوجها يرجع إليها: "ثار نزاع على الإيجار بين مستأجر وبين ملاك العمارة اليهود. وكنت صديقة للطرفين، فاقترحت أن يعرضا الأمر على نور. ووجد لهما حلاً بارعاً أدّى إلى تصالحهما. ودفعهما إعجابهما به إلى إحضار عملاء جدد. فلما نجح، قرر أن يتفرغ لعمل المحاماة بدلاً من تدريس القانون وانتهت مشاكلنا المالية!"

وفى صيف ١٩٤٢ الحاسم، بينما يتقدم جيش روميل رويدا نحو الإسكندرية، تضاعفت القلاقل السياسية فى الداخل، وانتشرت الشائعات عن قرب دخول قوات الألمان إلى مصر. ودفعت مشاعر الكراهية لبريطانيا بالعديد من المصريين إلى الترحيب بفكرة الاحتلال الألمانى ولم تفهم درية "كيف يمكن لشعب مصر أن يفرح لفكرة الاحتلال الألمانى. فالدعاية الألمانية أوهمت المصريين بأن انتصار روميل سيحقق لمصر الحرية. وشعرتُ بوحدة عميقة وأنا أتحسب للخطر القادم."

وانتقلت الأخبار بأن روميل اقتحم خط دفاع الحلفاء وأوشك على دخول المدينة، فخافت درية. ولكنها احتفظت برباطة جأشها وسط الذعر المحيط: "فى يوم يوليو الذى شهد فيه روميل هجوما جديداً على البريطانيين فى 'علم حلفا'، كنت أجلس فى الشرفة مع طفلتى عزيزة، التى قاربت الأربعة شهور. كانت تبتسم لى، وابتسامتها تنسينى كل مخاوفى. ولكنى لم أملك فى ذلك اليوم إلا أن أشعر بشئ جاثم فى الجو ... وكأن سماء مصر امتلأت بطيور كاسرة. وعلى الشرفة المقابلة، رأيت ولدى جارتى الصغيرين ..." وجاءت أمهما، ولم تكن صديقة لدرية، تُدخل ولديها ولكنها نادت على درية قائلة:

- "غادرى القاهرى فوراً. فكل الكبارى ستنسف بعد ساعات قليلة، ولن تجدى حتى حليبا لطفلتك:"
- "ماذا حدث؟"
- "سيدخل روميل الإسكندرية بعد ساعات. فلن يقدر الجيش البريطانى أن يوقفه. كان يمكن لسلاح الطيران الملكى أن

يعطله، ولكن زوجي يقول أنهم أضعف من أن يفعلوا."

- "وماذا ستفعلون؟"
- "سأغادر القاهرة فوراً وآخذ الأولاد إلى الهند."

ثم دخلت، آخذة الولدين معها. واحتضنت طفلتي وكأني أخشى الفراق. ماذا يمكنني أن أفعل؟ لم تعجبني فكرة الفرار، فهذا جبن. وحاولت الاتصال بزوجي هاتفيا ولكني لم أجده. وأخذت بعض علب الحليب وهرعت إلى شقة جارتي، السيدة المسنة، ووجدتها وحولها البعض من سيدات القصر وكذلك صديقتها، زوجة رئيس وزراء سابق. وكن على وشك الخروج.

"اذهبي إلى ضيعة أهل زوجك يا درية."

ولكني عدت دون أن أتخذ قراراً. وبينما أصعد الدرج إلى بيتي، خطرت لي فكرة الذهاب إلى شقة شاليم، المالك اليهودي للمبنى. وتساءلت عما إذا كان هو أيضا سيرحل. ووجدته في البهو وحوله زوجته وأولاده، وكان هادئاً

وسألت واحدة من بناته: "هل سترحلون؟"

فأجابت: "كلا".

وفكرت فيما إذا كان اليهود لن يغادروا القاهرة، رغم ما قد ينتظرهم من اضطهاد، فلماذا أغادرها أنا. وعدت إلى شرفتي أنتظر وابنتي بين ذراعي. فلما وصل نور واقترح أن نغادر القاهرة فوراً إلى الضيعة في بني سويف، أقنعته بالبقاء.

وفي ٤ نوفمبر ١٩٤٢ تقرر مصير مصر والعالم في معركة العلمين. نقلة حاسمة في مسار الحرب لصالح الحلفاء، والعالم. أما في مصر، كانت بداية نهاية حزب الوفد و"التجربة الليبرالية". فلما تلاشى خطر رومل، وتحول المد الحربي لصالح الحلفاء، أستُبعد النحاس ومعه الوفد الذي فقد الكثير من شعبيته في ذلك الوقت. كان الغضب على النحاس وسقوطه في أكتوبر ١٩٤٤، يرجع جزئيا إلى 'الكتاب الأسود' الشهير لمكرم عبيد والذي اتهم فيه زينب الوكيل، زوجة النحاس، بالاشتراك في الفساد. وجاء السعديون إلى السلطة وعلى رأسهم علي ماهر رئيسا للوزارة. وأسهمت مصر إسهاما

كبيرا مع الحلفاء حتى نهاية الحرب، وإن ظلت البلاد محايدة حتى ٢٦ فبراير ١٩٤٥ حين أعلنت مصر أخيرا الحرب على قوى المحور.

ولكن سمعة الوفد انهارت، ولم تغفر البلاد للنحاس تلك الإهانة القومية التى وافق عليها. وفقد الإنجليز كل ما كان قد تبقى لهم من ثقة، فقد أكد تصرفهم أن استقلال مصر أكذوبة. وتحولت قضية الاستقلال الوطنى إلى قضية رئيسية يدور حولها كفاح مرير فى الحياة السياسية المصرية.

ولما أوشك العام على الانتهاء، استأنفت درية عملها كمفتشة للغة الفرنسية بالوزارة، تاركة ابنتها الصغيرة فى رعاية مربية يونانية، وبدأت تجوب مصر من جديد. ومرت بطنطا أثناء تجوالها، وهناك وقعت لها حادثة شخصية. وبينما كانت تنتظر القطار:

> قابلت أبى مصادفة فى المحطة، إذ جاء طنطا يزور أخته بسبب مشكلة شخصية ألمّت بها. ولم يكن قطارى إلى القاهرة قد وصل بعد، فذهبنا نتناول القهوة فى بوفيه المحطة. وكنت سعيدة لرؤية أبى الذى كنت أقدره لأخلاقه وأصالته. وطلبت القهوة، بينما ذهب هو ليغسل يديه. فلما عاد، لاحظت رعشة فى وجهه وحركاته، فقد شحب وجهه وانكمش وكأنه شاخ فجأة. ثم انحنى وهو يتألم وسقط على الأرض وعاد الهدوء المعتاد إلى وجهه. وظننتها إغماءه، فكل شئ حدث فى أقل من دقيقة. وانتابنى الذعر، فاستغثت وسرعان ما أحاط بى جمع غفير. وحاولت أن أشق طريقى فى الزحام باحثة عن طبيب، فإذا بزوج ثريا أختى أمامى، يقوم بالتفتيش على محطة طنطا باعتباره طبيبا لدى السكك الحديدية. سمع الهرج، فجاء وهو لا يعرف أن المسألة لها دخل بحماه.

وبينما احتضنت رأس أبى، حقنــه بـــدواء
وراح يبحث عن نبضه، ثم استدار نحــوى
قائلا: "لا شئ!".

وبدا لدرية أن رحيل جدتها وأبيها فى سنة واحدة، انعكاس للفوضى المتزايدة والظروف المتدهورة التى تحيط بالبلاد، وخاصة بـالملك: "كان موتهما رمزا لاختفاء زمن يتصرف فيه الناس بوحى من المبادئ الأخلاقية والاهتمام بالغير." ولكن عطف نور وحبه بعد موت أبيها كان "بلسماً لجراح طفولتى. فهو يبذل قصارى جهده لينسينى الماضى. ودعمت هذه الظروف حبنا واحترامنا المتبادل."

ثم وُلدت جيهان بعد سنتين وامتلأ قلب درية "بشعور لا يوصف من الحب الفياض الذى أضفى مغزى جديدا لحياتى." فتربط درية فى كتاباتها، مرة أخرى، بين رباط الأم بابنتها وبين الحب المطلق:

سيان أن يعطى الإنسان أو أن يأخذ هـذه
الهبة الكاملة للنفس التـى تعطـى للحيـاة
معنى. فوجود ابنتى نفسه صدى لمشـاعرى
وطموحاتى. كنت سعيدة إذ رزقت ببنـات،
فهن قريبات إلى قلبى. وفى حبـى غـير
المحدود لهن، أعدت اكتشاف الحنان الـذى
لا يوصف والذى كنت قد فقدته بعد مـوت
أمى. كان وجودهما بركة، وكلما ابتسـمتا
لى شعرت أن الكون بين يدى، يرحب بـى
ويواسينى ويلف روحى المعذبة فى غـلاف
من الطمأنينة الحميمة.



ابنتا درية شفيق، عزيزة ١٢ سنة (على اليسار) وجيهان ١٠ سنوات

وبعد مولد جيهان، بدأت درية تبحث عمن تأتمنه على ابنتيها لتلتفت لعملها ولحياتها الاجتماعية النشطة مع نور. فالمربية اليونانية لم تقدر على إرضاء متطلبات شخصية درية القوية مع مراعاة الطفلتين. فانضمت السيدة ماري رايلي إلى أسرة رجائي، وكانت عانس أيرلندية في أواخر الخمسين من عمرها، تتكلم العربية بالكاد والفرنسية بطلاقة. وأصبحت المربية المحبوبة للطفلتين لمدة اثنتي عشرة سنة.

وكانت ماري واختها الكبرى وغيرهما كثيرات من الأوروبيات غير المتزوجات، قد جئن إلى القاهرة بعد الحرب العالمية الأولى ليعملن في منازل المصريين من الطبقة المتوسطة العليا. ولم تبق ماري طويلا في أي من البيوت، ولكنها ما أن رأت جيهان التي فتحت ذراعيها تلقائيا لتحتضن العجوز الغريبة، غمرتها السعادة، وربطت بينهما علاقة مودة عميقة استمرت

حتى ماتت ماري عام ١٩٧٥. كذلك أحبت درية السيدة ماري واحترمتـــها، فبفضل حبها ورعايتها العطوفة لعزيزة وجيهان، تحررت دريـــة مـــن أهـــم مسئولياتها وتفرغت "للدور التاريخي الذي شعرت أنه ينتظرني فـــي الحيـــاة العامة."

ولكن الأوان لم يكن بعد قد آن. فالحرب العالمية الثانية أوشكت علـــى الانتهاء، ولكن درية لم تجد بعد ما يشغل عقلها وطموحها وإرادتها. وانتابــها القلق والملل من حياتها التي شعرت أنها فارغة وبلا هدف: "لم يكن هناك مـــا أشكو منه من حيث المستوى الاقتصادي والاجتماعي لحياتي، ولكنها كـــانت خالية من كل مضمون سياسي." وأصبح شغلها الشاغل رغم مظاهر الســـعادة الزوجية والحياة الاجتماعية الزاخرة "رغبتي في تأديـــة رســـالة"، وواكـــب شعورها هذا احساس بالاغتراب. كان يبدو للعديدين أن حياتها ناجحة نجاحـــا باهرا، فهي تسكن شقة جميلة تطل على النيل، وكثيرا ما وُصفت بأنها مـــن أكثر نساء القاهرة أناقة، وهي سعيدة في زواجها ولها ابنتان جميلتان، همـــا الشمس المشرقة في حياتها:

> كانت حياتي مع زوجي سعيدة! فهو طيـــب القلب معي، يضفي مرحه على بيتنا جـــواً لطيفا. ويساعدني على التحلـــي بـــالصبر. ولكن على الرغم من كل عناصر الســـعادة في حياتي، كنت أحس بخواء فظيـــع فـــي قلبي. نوع من العدم وراء كل تلك الحركـــة التي تتسم بها حياتي. كنت أشعر أن شـــيئا ما ينقصني. وحاولت أن أفهم ســـبب هـــذا الشعور بأنني مُقتلعة من جذوري - بينمـــا كان من المفروض أن يملؤني كل ما يحيـــط بي سعادة. فما سبب شعوري هذا بـــالخواء؟ هل هو موت أمي المبكر؟ هل هي طفولتـــي البائسة التي قضيتها بلا حنان وكأنها يوم لا شمس له؟ هل هي أيام باريس التعيسة مـــع فتيات غابة بولونيا؟ أم هي رغبتي المحبطة في أن يكون لي دور في الحياة السياســـية

فى مصر؟ فقد شعرت دائماً بأن وجودى لن يصبح له قيمة فعلية خارج نطاق السياسة.

وقرر نور ودرية الانضمام لنادى السيارات، وكان من أكثر أندية القاهرة الاجتماعية أناقة أثناء الحرب، ربما لكونه المكان المفضل الذى يمارس فيه الملك الشاب فاروق وشلته لعب القمار. وكثيرا ما لعب نور على مائدة الملك، وهو شرف، كلف المحامى الشاب المولع بالميسر مبالغ ضخمة فى كثير من الأحيان. ووجدت درية نفسها فى هذه الأثناء وسط مجموعة من النساء، لا تستلطفهن كثيرا ولا هن يرحبن بها. وفى البداية، دخلت هذا الوسط لتكون مع زوجها الذى يحب الاختلاط بالمجتمع كما يحب لعب الورق. ومع مرور الوقت، أصابها الملل والإحباط:

هناك يقضى الملك فاروق وشلته معظم سهراتهم، بعيدا عن الملكة فريدة التى لم تظهر معه منذ فترة. واستقبلتنى سيدات النادى بفتور، واحتقرننى كدخيلة، لأنى لم أكن فى ثرائهن. كنت أتفوق عليهن بدرجاتى العلمية، مما ضايقهن، ولكنى كنت أتساوى وإياهن فى الأناقة. وكن جميعا يمقتن بعضهن البعض، فلما ظهرت أنا، وجدن فى هدفاً مشتركاً يتكالبن ضده. ولكنى صمدت. وبقيت! ثم إنى وجدت عوضا لعدائهن فى حماس الترحاب بى من جانب الأعضاء الرجال فى النادى. وخلقت جواً خاصاً بى فى هذا المجتمع الذى كرهنى واحتقرته. وكانت كل سهرة معركة تنتهى بالنصر أو بالهزيمة. وما الفارق؟ أهم ما فى الموضوع خوض المعركة – التى كانت تدور فى هدوء جليدى.

وكلما ازداد شعورها بالغربة بين النساء، كلما تقربت من الرجال من أعضاء النادى، ومعظمهم يشغل مراكز السلطة. وكانت تنطلق معهم فى مناقشات سياسية، ففتحوا عينيها على ما أسمته "سياسة العصر". "مازلت فى

أعماقى تلك الرغبة الدفينة فى العمل من أجل مستقبل بلادى. ولكى يكون لى دور، لا بد أن أفهم كل ما يحدث فى مصر. وأدركت أن نـــادى السـيارات بالقاهرة هو أفضل مكان أعرف منه كل ما يدور."

أما ما كان يدور ويغلى فى المجتمع منذ أيام سعد زغلول، ما يوشـك على الإنفجار من جديد بمجرد أن وضعت الحرب أوزارها، فهو الكفاح ضـد الإمبريالية البريطانية. ويقول محمد نجيب: "ظل التهديد البريطـانى كعـهده دائما، يزداد مع ازدياد أهميـة مصـر الاسـتراتيجية فـى الدفـاع عـن الامبراطورية البريطانية. وكم أذلنا البريطانيون أيام الحرب، فهم لم يفـهموا، ولا هم يفهمون بعد، أن مصالحنا الوطنية لا يمكن أن تتفق ومصالحهم. فلـم يطالب البريطانيون بلداً بمثل ما طالبوا به مصر؛ ولا هم استهانوا ببلد قـدر استهانتهم بمصر. فلقد توقعوا أن يتصرف المصريون كحلفاء مخلصين، ومع ذلك عاملوهم كشعب مقهور."(٣)

وبينما كانت درية تناقش ظروف مصر الاقتصادية والسياسـية مـع نخبة من الرجال فى نادى السيارات، كانت الجماهير المصرية التى عـانت من الظروف الاقتصادية السيئة أثناء الحرب، تستمع إلى أصـوات أخـرى تنادى بتحرك اجتماعى وسياسى جديد. وانفجر إحباطهم المتصاعد فى سلسلة من المظاهرات الطلابية والإضرابات العمالية. وكان القاسم المشترك الأعظم الذى وحد بين تلك القوى المختلفة هو الرغبة الأكيدة فى الاستقلال.

ولم تخف هذه الإحداث على درية التى كانت مدركة فعلاً للظـروف المجحفة فى البلاد وللقمع السائد - ظروف تراها هى وليدة النظام الاجتماعى البالى قدر ما هى وليدة النظام الاستعمارى المستبد. ولم يسـتهوها اليميـن المتطرف ولا اليسار الراديكالى، فهى أميل إلى الإصلاح منها إلى الثـورة. ومع ذلك، فقد أحست أن للنساء دوراً يقمن به فى هذا الكفاح الوطنى الموسع، وعبرت عن فلسفتها النسائية وعن رؤيتها فى بحث قصير بعنـوان 'المـرأة الجديدة فى مصر' (١٩٤٤) - وهو محاولتها الأولى الواعية لصياغة الوضع الاجتماعى للمرأة المصرية، منذ كتبت رسالتها فى باريس.

ولأنها كتبت بالفرنسية، فقد وجـهت رسـالتها للصفـوة المصريـة المتعلمة، أى الطبقة التى أرادت أن تحفزها وتتولى قيادتها فى مقدمة صفوف

التغيير الاجتماعى لصالح الأغلبية الفقيرة من الجماهير المصرية. فبدأت بالتنديد بنظرة المستشرقين الغربيين للمرأة المصرية:

> العالم عامة لا يفهم طبيعة الوضع الاجتماعى للمرأة المصرية. فالغربيون ما زالوا تحت تأثير الرحالة القدامى الذين سبقوا غيرهم فى دخول الشرق. وتلك الكتابات غير العلمية قد تعطى صورة عن المرأة المصرية كما كانت فى ذلك العهد. ولكنها لاشك تشوه فكرة الغرب الحديثة عن المرأة المصرية. لقد تطورت المرأة بسرعة جعلتها تختلف تماما عن صورتها الأولى، إذا ما قارناها بشقيقتها فى بداية القرن العشرين. فللمرأة المصرية اليوم أفكار جديدة وعادات جديدة وطموحات لا حد لها. ولقد كتبت هذا الكتاب لتوضيح تلك المسألة بالذات. فأنا أركز على الوضع الاجتماعى للمرأة المصرية كما كان منذ فترة غير بعيدة، وكما هو اليوم، وكما تأمل هى أن يكون عليه فى المستقبل.(٤)

ونلمح من خلال وصفها للمرأة الجديدة فى مصر، تصورها لنفسها ووعيها النسائى فى لحظة كان المجتمع المصرى يكافح فيها من أجل استقلاله الوطنى. وكما تعرف كل امرأة شرقية تحترم نفسها، فالمرأة الجديدة لا تحب الحدود، فشعارها "كل شئ أو لا شئ". فهى تخطو فى خطوة جبارة واحدة من الجهل التام إلى أعظم النجاحات الدراسية، ومن العزلة المغلقة إلى الحياة الاجتماعية البراقة. هى تسير قدما، دائما تتقدم ... وربما تنجح يوما فى اقتحام البرلمان! ربما أصبحت وزيرة (مثل مدام برونشفيج فى وزارة بلوم!). ربما اكتسبت شهرة عالمية! وقد يكون من الأصلح لها أن تضع ذكاءها جانبا للحظة وأن تفتح قلبها متسائلة فى حياد: ماذا أنجزت وماذا سأصبح؟ ما هو دورى الحقيقى؟ هل فشلت فى مهمتى؟ هل أهملت واجباتى التى خصصتها لى الطبيعة؟ هل فرضت علىَّ مهمة أكبر من أن تحملها أكتافى الرقيقة، أو مهمة تختلف تماما عن قدرى الحقيقى الذى من أجله

خلقت؟ ومن أول الأسئلة التى تطرح نفسها على المرأة [المتعلمة] هو كيف تحافظ على أنوثتها؛ وما دور المرأة فى الحياة العامة. وسؤال ثالث هو عن دور المرأة فى المجتمع. والوعى النسائى بمعناه الصحيح هو التفاهم الكامل بين الرجل والمرأة، لا النزاع الدائم بين الجنسين. أما عن القول "النساء الطبيعيات، وغير الدميمات لم يخلقن ليكن سياسيات أو دبلوماسيات أو لواءات جيش أو قارعات طبول"، فهو قول يثير غضبى! ماذا إذن عن كليوباترا، أجمل الدبلوماسيات والسياسيات، وماذا عن جان دارك أشجع المحاربات. إن عبقرية المرأة لا تواكبها الدمامة بالضرورة. كذلك يبدو أن معظم النساء العظيمات اللائى ذكرهن التاريخ، خاصمتهن السعادة. ولكن ذلك خيارهن، إذ يبدو أنهن فضلن حياة ذات مغزى، وإن كانت تعيسة، على حياة هنيئة ولكنها غبية. وكما يقول الشاعر "العذاب الكبير يضفى على المرء عَظمة."(٥)

وناشدت درية الصفوة من نساء القصر والطبقات العليا تعبئة مواردهن الكبيرة، المعنوية والمادية، لإحداث التغيير والتحول فى الظروف الفظيعة التى تعانى منها الجماهير. إذ كانت درية تؤمن بأن للمرأة المثقفة من الصفوة رسالة خاصة، ألا وهى تقليل الهوة السحيقة بين نساء الطبقات العليا والفقيرة. وأكدت أن مسئولية خاصة تقع على عاتق الصفوة من النساء، هى التغيير والتغلب على العقبات الاجتماعية والثقافية والقانونية التقليدية المعادية لاشتراك المرأة الحر والكامل فى حياة بلادها. وتُعزى قدرتها على الانتقاد العلنى لكل العادات التى تفرض قيودا على المرأة فى مجتمعها، إلى إقتناعها – والذى دافعت عنه فى رسالة الدكتوراه – بأن الفهم الصحيح للإسلام لا يحول دون حرية المرأة: "نحن كالآلة الضخمة التى لا تتلاحم تروسها. لقد اقتصر التقدم الكبير على الطبقات العليا من المجتمع، ولم يصل أبدا إلى قاع المجتمع، الذى هو فى الواقع الأساس المتين لكل مجتمع، وخاصة المجتمع النسائى، فمن هذا القاع تأتى معظم الأمهات. وهى قضية يجب أن نعيرها أكبر الاهتمام."(٦)

ومن أمثلة ما يتعين على نساء الصفوة أن يقمن به من نشاط لتقليل الهوة التى تفصل بين الطبقات، "الأعمال الخيرّة" التى كانت تقوم بها الأميرة شويكار، الزوجة الأولى للملك فؤاد الأول،(٧) والتى كتبت درية لها إهداءاً فى كتابها، تحية "لما ضربته من مثال عندما تفشت الملاريا فى صعيد مصر وما استتبعته من بؤس، إذ كانت صاحبة السمو الأميرة شويكار أول من بادر بالتصدى لهذه الكارثة. ويزيد من مغزى 'لفتتها الكريمة' ما تعانيه مصر اليوم

من حاجة للمساعدة. وصاحبة السمو تناشد الأغنياء والقادرين أن يساعدوا غيرهم ممن لم يبتسم لهم الحظ."[٨]

وهذه التحية لشخصية أحاط المجتمع المصرى سمعتها بسحابة من فضائح القصر ودسائسه، خاصة فيما يتعلق بالملك الشاب فاروق، بدت فى نظر قوى المعارضة المتزايدة للقصر موقفاً علنيا معاديا للكفاح الوطنى. وفضلا على ذلك، فإن مطالبة درية باستراتيجية إصلاح اجتماعى "يستند إلى شعور النبلاء بالواجب"، وصمتها "بالارستقراطية"، وهى تسمية وجدت صعوبة فى التخلص منها فى السنوات التالية.

ونداء درية فى منتصف الأربيعينيات "بتكاتف الصفوة من النساء لمكافحة ثلاث آفات هى الجهل والمرض والفقر"، كان يستند إلى اعترافها وإعجابها بالجهود الإيجابية للمصلحين الاجتماعيين من الجيل السابق. فمنذ نهاية القرن التاسع عشر، وطيلة سنوات الحرب، اعتمدت الخدمات الاجتماعية فى مصر على مبادرات وثروات المتبرعات من نساء القصر والطبقات العليا. فبفضل كرم الأميرة عين الحياة تأسست كبرى المنظمات الخيرية فى مصر، وهى مبرة محمد على، عام ١٩١٠ والمرأة الجديدة عام ١٩١٩.[٩]

وأغدقت سيدات عديدات من الصفوة الميسورة على إنشاء منظمات خاصة ودعم منظمات قائمة. وكانت القوة المحركة وراء أكثر المنظمات نشاطا، أى مبرة محمد على والمرأة الجديدة، نساء لهن رؤية ثاقبة مثل هديه عفيفى بركات (إبنة ياور القصر) وفاطمة سرى (أخت رئيس الوزراء) وأمينة صدقى (إبنة إسماعيل صدقى). أما ناهد سرى، خالة الملكة فريدة وزوجة حسين باشا سرى رئيس الوزراء، فأشرفت على جمعية الهلال الأحمر طيلة سنوات الحرب وحتى عام ١٩٥٢. بل وكانت هدى شعراوى نفسها عضوا فى جمعية المرأة الجديدة حتى عام ١٩٢٣ عندما دفعتها معارضتها لشويكار إلى تأسيس الاتحاد النسائى المصرى الخاص بها. وكان رأى درية أن هذه المنظمات الخيرية "تمثل مرحلة حاسمة فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة. فهى لا تقدم خدمات جليلة فحسب، وإنما تفتح الطريق أمام من يريدون خدمة بلادهم."[١٠]

وكانت الحكومات، ومعها رؤساء وزاراتها، تتشكل وتحل بسرعة فى الأربعينيات، فحال ذلك دون إنشاء وتطوير أية مؤسسات تدعمها الدولة لتقديم

الخدمات الاجتماعية للفقراء والمعدمين. ولم تبق سوى الجمعيات والمبرات التى ينفق عليها محبو الخير لتقدم الخدمات الصحية والاجتماعية التى لم تقدر ولم ترغب الحكومة فى تقديمها. فمبرة محمد على وحدها أنشأت عشرات المستشفيات والعيادات الصغيرة فى أفقر أحياء القاهرة وفى الأقاليم. أما جمعية المرأة الجديدة، فقد ركزت جهودها على إقامة مراكز التدريب للأميات من النساء، يتعلمن فيها القراءة والكتابة ويتدربن على مهارات تدر عليهن دخلا مثل التفصيل وصناعة السجاد.

وهذه الجمعيات الخيرية كانت، من حيث الأيديولوجية والعضوية، تعكس أهدافا نسائية تختلف تماما عن أهداف الاتحاد النسائى أو أهداف الجمعيات السياسية السرية التى انتشرت وبدأت تجتذب الشباب من صفوف الجماهير ومن الأسر الكبيرة. وارتفعت الأصوات التقدمية تقول إن الرأسمالية الليبرالية لن تقضى على آفات مصر الثلاثة، لأنها قامت على الظلم والاستغلال، وبالتالى فهى لن تحرر القوى الإنتاجية القادرة على استئصالها. وتلك المنظمات اليسارية الشيوعية التى ظهرت فى أواخر الحرب، اجتذبت العديد من الطلبة الذين تطلعوا إلى الاتحاد السوفيتى مثالا وإلى كارل ماركس دليلا، فانضم إليها فتيات من المدارس الأجنبية مثل انجى أفلاطون، ومن الجامعة الوطنية من أبناء الطبقة العاملة مثل لطيفة الزيات.[١١] وقُدّر لحياة انجى أفلاطون ودرية شفيق أن تتشابكا لفترة قصيرة ولكنها مثيرة، فى فترة الكفاح من أجل التحرر. كانتا تؤمنان بحلول أيديولوجية متناقضة تماما، لمواجهة التحديات، وكل منهما تمثل مفاهيم مختلفة تماما فيما يتعلق بالنضال الوطني-النسائى الذى أوشك على الانفجار. فلما انتهت الحرب، دخلت مصر مرحلة طويلة من التقلبات الاجتماعية والسياسية التى كان من شأنها أن تشكل وعى جيل بأسره.

فالحركة النسائية المصرية فى أعقاب الحرب مباشرة كانت فى حاجة إلى صوت نسائى أكثر راديكالية، يربط كفاح المرأة بالأمور السياسية والاجتماعية الأخرى، مثل الحركة الوطنية وصراع الطبقات. وتعلق درية على ذلك فى مذكراتها فتقول: "لم تكن مصر حرة. فمازالت مفاتيح السياسة فى أيدى البريطانيين. وفرضت السراى على مصر ديكتاتورية فعلية. كما لجأت الأحزاب إلى أساليب ديماجوجية. ولعب الأخوان المسلمون على الأوتار الدينية ليحققوا أهدافهم السياسية فى السيطرة الكاملة على البلاد، أما النساء، فليس لهن أية حقوق سياسية." ورغم أنها نادت بتعبئة الطبقات العليا لمحاربة المرض والفقر والأمية، إلا أنها أدركت أن المنظمات السياسية من

اليسار واليمين تجتذب أعدادا متزايدة من الشباب المتعلمين، نساءاً ورجـــالاً، من الطبقة المتوسطة، يدخلون صفوفها للنضال من أجل التحـــرر الوطنـــى. وكانت درية أيضا تريد المشاركة فى الأحداث السياسية الجارية، ولكنها لـــم تجد لا فى الاتحاد النسائى ولا فى الجماعات السياسية المتطرفة مـــا يتفـــق وإحساسها بأن لها رسالة. وبينما تضع الحرب أوزارها، كانت درية تبحـــث عن وسيلة تشكل بها لنفسها دورا فى الحياة العامة.

الكفاح (١٩٤٥ - ١٩٥٤)

كان بلدى فى حالة من الغليان يصعب معــها التنبؤ بكل ما يتجمع فى الأفق من عواصف. ووجدتنى مضطرة لخوض المعمعة. ولم تكن المسألة مجرد فضول، وإنما رغبـــة دفينــة مشوبة بالقلق، الرغبة فى أن ألمس بيدى ذلك الشر الذى تعانى منه بلادى والذى لم أتبيــن أسبابه بعد.

درية شفيق
"مذكرات" (١٩٦٠)، ص ١٦٤

(٧)

فى دائرة الأضواء (١٩٤٥-١٩٤٧)

كنت فى حاجة إلى مزيد من الخبرة فيما يتعلق بالحياة الفعلية، والتى انعزلت عنها بسبب دراستى الطويلة وميلى للتأمل (بل وللأحلام أيضا). ما كنت أحتاجه، فى آخر الأمر، هو نقطة ارتكاز، تسمح لى باحتلال موقع قبل أن أنطلق فى طريق الرسالة التى سيكشفها لى المستقبل.

بدأ عام ١٩٤٥ بداية عنيفة. فبعد أن أذاع رئيس الوزراء، على ماهر، أن مصر أعلنت الحرب على قوى المحور بلحظات، اغتاله المحامى الشاب محمود العيسوى، عضو الحزب الوطنى. وكانت مصر وقتئذ فى موقف متناقض. فرغم ما أسهمت به البلاد من جهد لصالح الحلفاء، إلا أنها ظلت على الحياد حتى السادس والعشرين من فبراير ١٩٤٥. وقرار إعلان الحرب هو رغبة مصر فى المطالبة باستقلالها أمام الأمم المتحدة المزمع إنشاؤها، والتى كانت ستجتمع فى مدينة سان فرانسيسكو، فى أبريل من نفس العام. وكان ذلك الحدث إيذانا بنقطة تحول فى تاريخ البلاد. فغالبية الشعب المصرى المتطلع لبناء بلده، يعانى من التضخم الذى أعقب الحرب العالمية الثانية وما واكبه من نقص حاد فى السلع وتفشى البطالة، وكلها مشاكل زادت من استقطاب الجماهير الشعبية: "الظلم الاجتماعى المتمثل فى الهوة التى تفصل الطبقات المختلفة، يزداد يوما بعد يوم، ومظاهر الثراء الفاحش تُبرز مذلة الفقراء."

فعلى الرغم من انتهاء الحرب العالمية الثانية رسميا، إلا أن حربا أخرى باردة بدأت تلوح، وهى التى قسمت العالم، ورسمت دور مصر فى السياسة الإقليمية والدولية لنصف قرن من الزمان[1] احتفظ البريطانيون بسيطرتهم على وادى النيل، رغم الطنطنة باستقلال مصر السياسى بعد الحرب. فأججوا جذوة النضال الوطنى فى صفوف الشباب الذين زادوا حسماً وتنظيما لمطالبهم بالاستقلال الوطنى وبالعدالة الاجتماعية.

والتهبت المشاعر مع ارتفاع الصيحة فى مصر كلها مطالبة بالتحرر من الاستعمار والسيطرة. جيل بأكمله، أصابته خيبة الأمل، أفاق سياسيا،

وشعر الناس بأن مصير مصر قد يتقرر فى أية لحظـــة. عَمَّــت الفوضــى السياسية وبدأت تتشكل القوى التى ستؤدى إلى الانقــلاب العســكرى عــام ١٩٥٢. دفع فشل 'التجربة الليبرالية' بالمصريين إلى صفـــوف الجماعــات الفاشية والشيوعية والوطنية والأصولية الدينية. وراحت القوات البريطانيـــة تطارد من اشتبهت فى أن يكونوا من زعماء الإرهابيين: "من وجهـــة نظــر وطنية، يمكن القول أن مصر عاشت فى رعب بيــن مــايو ١٩٤٥ ويوليــو ١٩٥٢، وفُرض حظر التجمع والتعبير وقُيدت حرية الصحافة. وساد جو بــه إرهاصات ثورة .. فترة من أتعس فترات تاريخ مصـــــر. إذ انتشــر وبــاء الكوليرا وأصبحت مصر معزولة وغير محبوبة فى الخارج بينمـــا ســادت الفوضى فى الداخل."[٢]

وفى تلك الشهور الأولى من عام ١٩٤٥، انتــهزت دريــة فرصـــة "وضع معين" مكنّها من فتح طريق جديد لنفسها، قُدِّر له أن يسير بــها نحــو أحداث لم يكن بمقدورها أن تتوقعها. ففى عصر يوم ما وعلى غير انتظــار، اتصل بدرية صديق لنور، تعمل زوجته وصيفة للأميرة شويكار، وأخبرهـــا أن الأميرة ترغب فى إصدار مجلة ثقافية وأدبية جديدة، وتريد درية رئيســـة لتحريرها. وتساءلت درية عن أسباب اختيارها لتلك المسئولية الكبيرة وهـــى عديمة الخبرة بالصحافة أو النشر. هل هو تقدير من شويكار لأن درية كتبت لها إهداءاً فى كتابها الأخير؟ هل هو اعتراف بشهادتها من السوربون؟ هــل لكل ذلك علاقة بتردد نور على نادى السيارات حيث يلعب الورق على مائدة فاروق؟

وفيما بعد، عرفت درية أن اختيارها جاء نتيجة لمؤامرات بين شلتين من شلل القصر المحيطين بشويكار:

> شلة من المنافقين لزوج شـــويكار الســابع، الذى يصغرها بثلاثين سنة ويريد أن يسرق الأضواء من الأميرة. وشلة مضاده، برئاسة سكرتيرة شويكار الشخصية التى اقــترحت مجلة جديدة لزيادة الدعاية للأميرة وأعمــال جمعيتها الخيرية المعروفة 'المرأة الجديـدة'. ولما كانت بعـــض مقـــالاتى تُنشــر فـــى الصحافة المصرية-الفرنسية فى فى ذلـــك الوقت، اقترحوا اســمى كرئيســة تحريــر

للمجلة الجديدة التى ستحمل اسم الجمعية الخيرية المعروفة.

لماذا قبلت درية المسئولية الكاملة لإصدار مجلة ثقافية أدبية وهى لا تعرف شيئا عن الصحافة أو النشر؟ لقد استهواها التحدى. فهى ليست بالمرة الأولى (ولا الأخيرة) التى تندفع فيها لتخوض مياها غير معروفة، وكلها جرأة وثقة. وقبولها لعرض شويكار فى وقت فقد فيه معظم المصريين ثقتهم فى الملكية، ربط بين درية نفسها وبين من اعتبرت مسئولة مباشرة عن إفساد الملك الشاب. وهى خطوة أبعدتها أيضا عن تيار الرأى العام، خاصة بين سيدات الاتحاد النسائى اللائى اعتبرن أن شويكار تحاول منافسة بطلتهن المحبوبة هدى شعراوى.

ومع انتهاء الحرب، أصبح الصراع بين السيدتين القويتين، الأميرة شويكار وهدى شعراوى، يمثل الصدع المتزايد فى صفوف الصفوة. فمن ناحية أميرة تركية نشأت فى القصور الامبراطورية وبعد أن طلقها الملك فؤاد، تركزت كراهيتها للأسرة المالكة فى شخص الملكة نازلى التى اعتبرت شويكار أنها انتزعت مكانها من على عرش مصر، فحاولت أن تنتقم منها فى شخص ابنها فاروق. والملكة نازلى التى فرض عليها الملك فؤاد عزله شبه تامة حتى وفاته عام ١٩٣٦، انطلقت تكسر كافة قواعد اللياقة، تعويضا عن سنوات سجنها فى القصر. ويعزو البعض تصرفات فاروق الرعناء وسلوكه إلى سلوك أمه الفاضح قدر ما يعزونه إلى انتقام شويكار. وكان اسم الأميرة وقصرها محور الحياة الارستقراطية فى مصر، إذ بدا وكأنها تحاول من خلال حفلاتها الباذخة أن تؤكد أن قصرها هو القصر الملكى الحقيقى فى مصر.

ومن ناحية أخرى كانت المصرية هدى هانم شعراوى، بطلة وطنية يظهر اسمها إلى جانب زعيمات الحركة النسائية فى أمريكا وفرنسا وانجلترا وايطاليا، ويحترمها الزعماء السياسيون فى العالم العربى على اختلاف ايديولوجياتهم. وفى رأى المخلصات من مريدات هدى شعراوى، مثل أمينة السعيد: "أثار ذلك غيرة التركية شويكار التى أرادت أن تتساوى وهدى شعراوى، ووسيلتها فى ذلك كسب صداقة الملك فاروق وشلته، والاحتفاظ به دمية بين يديها، فيتجمع حولها الأثرياء والطامحون كالذباب على موائد المال والسلطة."(٣)

ورغم إدراكها أن الانضمام لشويكار سوف يجر عليها عداء مجموعة هدى شعراوى ونساء الطبقة المتوسطة التى أرادت كسبهن، إلا أن درية آمنت بأنها لا تستطيع أن ترفض الفرصة الآتية من تلك الأميرة الثرية ذات السلطة: "ألا يؤدى رفضى هذه الفرصة إلى بقائى فى الظل؟ فمثل هذا العرض لا يأتى كل يوم. كان لابد الآن، وبأى ثمن، أن اكتسب شيئا من الشهرة يمنحنى من السلطة ما يسمح لى فيما بعد أن أثبّت أقدامى! وسيلة لتحقيق هذه الرغبة الملحة التى تراودنى." وأى تردد جال فى خاطر درية بالنسبة لقبول رئاسة تحرير المرأة الجديدة، ارتبط فى ذهنها برفض هدى شعراوى لها: "كنت أفضل العمل مع هدى شعراوى التى أكن لها الاحترام والامتنان العميق لمساعدتها لى فى بداية حياتى. ولكن القطيعة وقعت، ورأيت أن لا جدوى من رفض هذه الفرصة لمهنة جديدة تتفق واستعدادى. فقبلت عرض الأميرة."

وما أن استقر رأيها حتى اندفعت بحماس لمواجهة التحدى الجديد رغم عدم خبرتها: "كنت لا أعرف عن الصحافة شيئا، وفجأة أصبحت رئيسة تحرير بين ليلة وضحاها لمجلة لم تصدر بعد. كنت أجهل تماما كل ما يتعلق بعملية إصدار مجلة. كنت لا أعرف المقصود بكلمة 'كليشيه' ولم أر فى حياتى مطبعة، ناهيكم عن 'ميزان باج' أى ترتيب الصفحة، أو الدعاية، "ولكن عدم الخبرة لم يحبط درية أبداً. فراحت تطبق شعارها الذى وضعته منذ أكثر من خمس عشرة سنة "أن أعرف وأن أقدر وأن أريد وأن أجرؤ". فهى لا تحتاج سوى تلك التلقائية والجرأة مع ايمانها العميق بقدرتها على النجاح. وأما ما تبقى فسوف تتعلمه مع الوقت.

ولكن جو القصر والوضع الذى قبلته لنفسها كان يجتذبها وينفرّها فى آن واحد: "كان أول من قابلت فى قصر سموها زوجَها الذى هو أشبه بعشيق أجير، يصغر زوجته بسنوات. ثم التقيت بالأميرة وكانت شديدة النحافة، ولكن عينيها ضاحكتان، وهما آخر آثار لجمال ولّى". وخرجت الأميرة من الصالون حيث جلست عضوات لجنة جمعية المرأة الجديدة يملأن حيّز الأرائك."

وكانت شويكار تستخدم غرفة مائدتها مكتبا والمائدة تكتب عليها. الفوضى سائدة، وزوج شويكار والوصيفات وسيدات اللجنة، الكل يتكلم فى آن واحد ويقدم لها النصح. "وتعلمت الصبر، إذ قضيت فى نقل العملية من والى غرفة المائدة بالقصر وقتا يزيد عما قضيته فى إصدار المجلة. أما هيئة

التحرير فكانت تتشكل من أصدقاء شويكار الكثر: أجانب ومصريين، رجال ونساء من جنسيات مختلفة، كلٌ يريد التدخل أو يسعى إلى تحقيق غرض. كانت زوبعة، تشبه الجو المحيط بالملك فاروق في نادى السيارات، دسائس ومؤامرات وسط فوضى سياسية مقلقة."

ولم تكن مشكلتها الرئيسية تعلم مهنة جديدة قدر ما كان العمل في محيط يتنافى وطبيعتها. فالعمل فى محيط القصر معناه أن على درية: "أن تنحنى لسموها وأن تعيش فى جو يعكس تفسخ المجتمع بأسره." وهى بالطبع كانت تفضل أن تتقاضى أجراً، ولكن "شويكار افترضت أن كل من يبذل جهدا ووقتا في جمعيتها الخيرية، يفعل ذلك تطوعاً." وعينوا درية عضو شرف في مجلس إدارة المرأة الجديدة، مما أثار حفيظة سائر السيدات. ورغم أن المجلة كانت منفصلة عن أنشطة الجمعية الخيرية، إلا أن العضوات المسنات لم يرحبن بهذه المرأة الشابة من الطبقة المتوسطة وذات الدرجات العلمية.

أما العضوات الأخريات فى مجلس الإدارة، فكن من علية القوم، زوجات وبنات الأسر السياسية البارزة واللائى لم يحبذن وجود درية: "رحبت الأميرة بى بحرارة، ولكن سيدات اللجنة، ضيقات الأفق، كمثيلاتهن في نادى السيارات، كن ينظرن إليّ شذراً. شعرت بأننى دخيلة، إذ دخلت بشهاداتى، ولكنى كنت كالبطة السوداء." وكافحت لتثبت وجودها بينهن وقد وصفت درية نفس السيدات فى كتابها قائلة: "الرواد الذين بدأوا يسدون الهوة بين الطبقات."

وعمل درية فى ذلك الوسط جعلها ترى بنفسها التناقض بين الثراء والعوز، لا يفصل بينهما سوى أسوار القصر:

> دُعيت يوما لأبقى لتناول الغذاء، فأكلنا فى صحون من ذهب، يحيط بنا البذخ. وفكرت فى السائلين خارج أسوار القصر وتذكرت صورة "الصامتين" الذين كانت تطعمهم جدتى. يالها من هوة تفصل بين الطبقات فى مصر! شعرت بضرورة عمل شئ لإنقاذ غالبية المصريين من بؤسهم ولكن كيف؟ وأين أبدأ؟ وأدركت الصعاب

الجسيمة التى تقف فى وجه أى إصلاح.
كان علىَّ أن أصبر. فلابد لى من إعداد
خطتى أنا والتى لم تكن بعد واضحة فى
ذهنى.

وقررت درية أن تصمد رغم الصعاب، إذ آمنت: "إن أردت أن أساعد بلادى، فلا بد لى من مركز هام، ومجلة 'المرأة الجديدة' هى سبيلى الوحيد إلى ذلك. لقد وفرت لى وضعا أنطلق منه فيما بعد برسالتى." ولكن لكل شئ ثمنا. فقد انتقد العديد من المصريين علاقة درية الوثيقة بطبقة ازدادت رعونتها وأصبحت لا تشعر بعذاب الأغلبية الفقيرة. واستمرارها مع الأميرة وشلتها، ورئاسة تحريرها لمجلة فرنسية إلى جانب صداقتها للأميرة فايزة، أخت الملك فاروق، جعل الكثيرين يعتبرونها مجرد "سيدة صالون". أما هدى شعراوى فكانت تعتبر كل من له علاقة بشويكار ومشاريعها عدواً، مما يبرر هجوم الاتحاد النسائى المصرى على درية وانتقاده لها علنا فى سنوات ما بعد الحرب. أما بالنسبة للنساء من اليسار التقدمى، من أمثال انجى أفلاطون، فعلاقة درية بالسراى وصمتها "بأنها بورجوازية لا تؤخذ مأخذ الجدية"(٤).

وظل نور مصدر أمان وطمأنينة. وبدا وكأن علاقتهما تقوم على رباط حب وصداقة تجعلهما يتبادلان الصحبة والمساندة والاحترام. فكانت درية ترافق نور فى سهرات القمار بنادى السيارات، ويرافقها هو إلى حفلات الاستقبال بقصر شويكار: "وكنت أرتاح لوجوده فالجميع يحبونه، كما أننا شكلنا مجموعة من الأصدقاء هناك، وسرعان ما تحول قصر شويكار إلى مركز أنشطة اجتماعية، واكتسى دورا سياسيا يرتبط بالخداع والمجون. ووجدت نفسى وسط دوامة من المؤامرات حول مجلة المرأة الجديدة. هكذا وفى ذلك الجو المحيط، كان على أن أواجه أول تحد لى فى مصر."

ونظرا للمشاعر الوطنية الملتهبة التى اجتاحت مصر فى تلك الفترة السياسية الحساسة، واجهت درية انتقادا متزايدا يطعن في مصريتها. فعلاقتها بشويكار وبمجلة فرنسية، كذلك ملابسها الفرنسية، كلها أمور لم تخفف من هذه الصورة العامة السلبية. فتطايرت إشاعات حول اتجاهاتها المعادية للوطنية. ثم إن ظهورها المتكرر فى نادى السيارات واتصالاتها بالأجانب وتفضيلها الحديث بالفرنسية مع طلاقة لسانها بتلك اللغة، انتهى إلى اتهامها بالتعاون مع الاستعماريين: "ألا تكتب بالفرنسية؟ ألا تصدر مجلة فرنسية؟ ألم

تتلق تعليمها فى فرنسا؟. "وتأثرت كثيرا بسبب تلك الإشاعات. شعرت بــهوة سحيقة تتفتح بينى وبين بلادى. ربما أعمق من ذى قبل. ولكنى قــررت ألا أرد علي أعدائى، رغم أن الشائعات استمرت تنتشر مهددة عملــى. وكــانت تهمتى أننى فرنسية!"

وفكرت فى ترك عملها بالمجلة بسبب الجو السائد فى قصر شويكار: "حيث كنت لا أشعر بالارتياح. ولكنى كنت أعرف أنهم لن يرحبوا بى فــى الاتحاد النسائى حيث سمموا الجو ضدى. فالمحيطات بهدى شعراوى اغتنمن كل فرصة لإتهامى بالجحود: 'انظرى، ها هى درية شفيق التى وثقــت بــها تعمل مع أعدائك!' فلم يتبق لى سوى أن أظل مع الأميرة شويكار ودعمها."

ولكن النقد العام الموجه ضد هوية درية ووطنيتها أثر تأثيرا عميقــا فى عزة نفسها، فقررت "أن أفعل شيئا قبل أن ينتصر علــى نقــادى." فقــد استفزها أعداؤها، دون قصد، إلى التصرف بحيث اقتربت خطوة أخرى مــن رسالتها التى شعرت دائما بأنها فى انتظارها: "بدا الــرد المناســب للــهجوم المتزايد واضحا. فقبل أن أغرق فى الطوفان، ســأقلب اتهامــهم لصــالحى وأؤسس مجلة باللغة العربية!" ولكن كيف ستحقق ذلك وما المطلــوب مــن المجلة؟

وجاء مولد "بنت النيل" إيذانا بدخول درية مرحلة امتهان الصحافــة. بالطبع لم تكن أول من أسس مجلة للمرأة باللغة العربية فى المنطقة، إذ ترجع أولى المجلات النسائية إلى القرن التاسع عشر. إذن فمجلة درية وريثة لتقاليد عمرها نصف قرن، بدأت فى مصر بمجلة 'الفتح' عام ١٨٩٢ والتى أسســتها هند نوفل.[٥] ولكن 'بنت النيل' كانت خلال السنوات العاصفة التــى أعقبــت الحرب، أول مجلة نسائية باللغة العربية موجهة ومكرّسة "لتكون أداة لتعليــم المرأة المصرية والعربية بكل معنى الكلمة. أى العمل على تفتيح وعيها." أما القصص التى أحاطت بتحول درية إلى صاحبة ومحررة وناشرة أول مجلــة عربية للمرأة بعد الحرب، فهى تبين كيف تشكل الوعى النسائى مــن جــراء ذلك؛ إذ أدخلت المجلة لهجة نسائية جديدة على الصحافة المصرية.

وظهرت 'بنت النيل' على ورق مصقول فاخر وبها مقــالات حــول قضايا نسائية، واقتراحات بشأن التغذية، ونصائح حــول تربيــة الصغــار، بالإضافة إلى صور ملونة عن آخر صيحات الأزياء فى بــاريس. والمجلــة وليدة جهد وتفكير ثلاثة أشخاص: درية ونور والدكتور إبراهيم عبده، عميــد الصحافة المصرية والذى اشترك بعد ذلك مع درية فى كتابة مؤلفيــن عــن

الحركة النسائية فى مصر.[٦] وباعتباره صديق نور مذ كانا طلبة فى جامعة فؤاد، التقى ابراهيم عبده بدرية للمرة الأولى عام ١٩٣٩ عندما ذهب إلى باريس للبحث فى تاريخ الصحافة المصرية منذ عهد نابليون. وعرفه نور آنذاك بعروسه، فأصبح ثلاثتهم أصدقاء منذ ذلك الحين. وفى لقاء خاص بى معه قبل وفاته بعام واحد، قال إبراهيم عبده:

> وُلدت فكرة 'بنت النيل' بعد الحرب مباشرة عندما ناقشت درية معى ومع نور خطتها لإصدار مجلة نسائية ممتازة باللغة العربية. فمجلة هدى شعراوى 'ليجيبسيان' توقفت، و'فتاة الشرق' لم تكن مجلة جادة. وأذكر ذلك المساء ونحن نجلس فى شرفتهم المطلة على النيل، ودرية تتأمل نهرها المحبوب، فإذا بها تستدير نحونا فجأة وتعلن فى حماس "سأسمى مجلتنا 'بنت النيل!'" وأسهم نور بالمال بل وساعد على شراء الورق اللازم لطبع المجلة. فالمشكلة الرئيسية التى واجهت الإصدار فى فترة ما بعد الحرب هذه كانت الحصول على الورق الذى لم يكن متوفرا فى السوق وكان باهظ الثمن (أربعون جنيها للرزمة). وبما أن الإنجليز كانوا ما زالوا يتحكمون فى البلاد، فلا مفر من الحصول على الورق من خلالهم. ولنور صديق بريطانى ساعد فى حصولنا على الورق اللازم بسعر خمسة جنيهات للرزمة فقط.
>
> وصدر العدد الأول بخمسة قروش فى ١ نوفمبر ١٩٤٥. وبيعت ٥٠٠٠ نسخة فى الساعتين الأوليين. وتضاعف السعر والتوزيع بين ذلك الوقت وعام ١٩٥٢.[٧]

وظل ثمن المجلة خمسة قروش بين ديسمبر ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٤٩، نفس سعر مجلة 'ليجيبسيين'. ثم ارتفع إلى عشرة قروش وظل كذلك حتى أغلقت الحكومة المجلة عام ١٩٥٧. ولما كانت جريدة الأهرام اليومية

تبيع حوالى ١١٠,٠٠٠ نسخة فى اليوم بخمسة مليمات (أى نصف قرش) للنسخة، فالمفترض أن قراء 'بنت النيل'، ينتمون إلى فئة أيسر حالا ومتعلمة من الطبقة المتوسطة، لا من غالبية جماهير المدن والريف حيث يسود الفقر والأمية، خاصة بين النساء. أما النخبة التركية الشركسية فلا تقرأ العربية.

ودرية فى قصتها عن إصدار 'بنت النيل' تركز أساساً على آمالها هى وأهدافها من الإصدار، وتقلل من دور زوجها ودور ابراهيم عبده:

> كنت أريد مجلة للنساء فقط، وخاصة للمرأة المصرية والعربية. مجلة تركز على مشاكل المرأة، لأن التفسيرات الخاطئة للقرآن تسببت فى ظلم المرأة العربية. ومجلة نسائية ستساعد على تقدم بلادى والبلاد الإسلامية من خلال رسالة 'بنت النيل' الموجهة للمرأة فى جماهير القراء باللغة العربية. فمثل هذه المجلة قد تلعب دوراً ايجابيا فى تطور بلادى. ولكن من أين آتى بالمال اللازم؟ لم يكن فى تصورى أن أطلب من زوجى تمويل مجلتى، رغم الزيادة الكبيرة فى دخلنا منذ فتح مكتبه للمحاماة، إلى جانب التدريس فى جامعة القاهرة. ولكن مستوى معيشتنا ارتفع بدوره. إلى جانب تكلفة تربية البنتين وحب نور للعب الميسر الذى لم يسمح لنا بالتوفير ولابد للمجلة أن تصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتى! أما عن اسمها فلم يأت عفواً، بل كان حقيقة انبثقت من أغانى النوتية فى 'البحر الصغير' بالمنصورة، أغنية صاحبتنى فى طفولتى ثم خرجت من تلقاء نفسها وكأنها علامة إيمان. فى الواقع، شعرت فى قرارة نفسى بأنى ابنة النيل!

ولم تتردد درية فى استخدام صلاتها التى أقامتها من خلال ارتباطها 'بالمرأة الجديدة' فأقنعت كبرى شركات الدعاية فى مصر (الشركة الشرقية

للدعاية) بالتعاون معها: "ظنوا أنهم يتقربون للأميرة من خلالي". بل حاولت الاتفاق مع ناشر مجلة الأميرة: "ولكنه رجل أعمال فى المقام الأول بينما كنت أسعى أنا إلى إصدار تحفة فنية، فلم نتفق على شئ، وقررت أن أتولاها وحدى. وكنت فى حاجة إلى ترخيص وشقة مفروشة لمكتب من غرفتين، ومال لشراء الورق وللطبع والدعاية. ولكنى اضطررت للبدء وأنا خالية الجيوب."

وتبدو الجملة الأخيرة هذه مجانبة للحقيقة، إذ نعرف أن درية لم يعوزها أبداً الدعم المالى من جانب نور. كما قيل أن الأميرة شويكار منحت درية مبلغا كبيرا لإصدار 'بنت النيل'. أما أمينة السعيد المناصرة لدرية وإن كانت تصغرها، فتقول أن شويكار لجأت إليها أولا لإصدار المجلة:

> دُعيت إلى حفل استقبال فى قصر شويكار لتكريم العاملين فى الخدمة الاجتماعية. ووضعت هى على صدرى شارة عضوية مبرة محمد على، ثم أعلنت أنها سوف تمدني بـ ١٥,٠٠٠ جنيه مصرى لتأسيس مجلة 'بنت النيل'، مع وعد بتوفير كل ما تحتاجه المجلة من دعاية أنيقة تضمن الربح الوفير [هذا مبلغ مبالغ فيه إذ يساوى حوالى ٣ مليون جنيه اليوم] وأعترف بأن كلماتها جعلت الأرض تميد بى. وخفت أن تعتقد هدى شعراوى بأننى خدعتها بانضمامى "سعيا وراء الربح" لمؤسسة ترأسها عدوتها اللدودة. وازداد عذابى لما نشرت الجرائد فى صفحاتها الأولى أننى انضممت لجمعية مبرة محمد على وبأننى سأصدر مجلة نسائية اسمها 'بنت النيل'. وما إن قرأت السيدة هدى شعراوى 'الأهرام' حتى عادت من الصعيد إلى القاهرة. وما إن وصلت حتى اتصلت بى هاتفيا وطلبت مقابلتى بصوت غاضب. وما إن سمعت قصتى حتى أعطتنى ورقة وقلماً وطلبت إلىَّ أن أكتب لشويكار رافضة عضوية جمعيتها

وأى دور فى تأسيس مجلة القصد منها مناقسة 'ليجيبسيين'. وفعلت. فهبت عاصفة من الغضب فى محيط شويكار، ولكن الأميرة لم تيأس وبدأت تبحث عن بديل حتى توصلت أخيراً إلى اختيار د. درية شفيق.(٨)

ولكن تفسير أمينة السعيد تعوزه الدقة لعدة أسباب. أولا لأن مجلة 'ليجيبسيين' التابعة لهدى شعراوى كانت قد توقفت عام ١٩٤٠، وبالتالى فلا يمكن لبنت النيل أن تنافسها. ثانيا، لم تصدر 'بنت النيل' أبداً تحت رعاية شويكار، وذلك على عكس 'المرأة الجديدة'، مما يوحى أن أمينة السعيد خلطت بين المجلتين. ثالثا، لو أن هذا العرض صحيح (ويقول صابات إن "درية حصلت على ألفى جنيه من شويكار لتأسيس 'بنت النيل')، فرغبتها العارمة فى تأكيد هويتها المصرية كانت ستحول حتما دون وضع مجلتها تحت رعاية شويكار التركية الناطقة بالفرنسية. وأخيراً فإن درية تقول صراحة إن الفكرة وراء تأسيس 'بنت النيل' كانت أن تنفصل عن تأثير شويكار: "المجلة الجديدة سوف تصدر باسمى وتحت مسئوليتى الكاملة. ستكون لها خطة واضحة، وقيمة فى السوق. لم أرغب فى تكرار 'المرأة الجديدة' التى دس فيها الجميع أنفه. فمن مقومات نجاح مجلة باللغة العربية ألا تُنشر فى نفس ظروف 'المرأة الجديدة'. كنت فى حاجة إلى حيز من الحرية يمكننى من إثبات كل مهارتى."

ولم تبحث درية عن التمويل طويلا، إذ حصلت على قرض مصرفى بضمان من نور، وكلها ثقة فى قدرتها على السداد من دخل مبيعات المجلة الجديدة. وبالفعل تمكنت بفضل دخل العدد الأول من سداد القرض الأصلى ونقل المجلة من شقة صغيرة بشارع ابن ثعلب إلى شقة أكبر فى وسط المدينة عنوانها ٤٨ شارع قصر النيل، كما عينت المزيد من الموظفين. فلما أصدرت 'بنت النيل'، استقالت من وظيفتها كمفتشة للغة الفرنسية "لأن متطلبات هذه المهنة الجديدة التى تتعامل مع جمع غفير من البشر لم تترك لى وقتاً للاستمرار فى عملى بوزارة التربية والتعليم. كنت جد راضية عن مهنتى الجديدة. لقد وازنت بين ما عانيته من عذاب فى مجالات أخرى. وما وجدتُ فى الصحافة من الحيوية التى لم أجدها فى رتابة الحياة الاجتماعية المصرية. كانت الصحافة مليئة بالنشاط، كل يوم يأتى بجديد، بمعركة جديدة نحو فهم الأحداث ومغزاها."

ومن الواضح أن لنور دور ساعدها في الانطـــلاق. فـــهي تنـــاقش أفكارها وخططها معه، وتعتمد على دعمه لها ماليا وتشجيعه لها معنويا حتى تستطيع المضى بمجلتها وبمشروعاتها الأخرى التى سوف تقـــوم بـــها فـــى السنوات الإثنى عشر المقبلة. أما ابراهيم عبده، فخبرته كمشرف عام علـــى المجلة من ١٩٥٤ إلى ١٩٥٢ ساعدت على بقاء 'بنت النيل' فـــى ســنواتها الأولى. كما أنه ساعد درية فى التنسيق وفى كتابة افتتاحياتها حـــول قضايـــا حقوق المرأة. وفى الواقع، اعتمدت درية على آخرين ليترجموا كتاباتها مـــن الفرنسية إلى العربية. فبفضل صلاته بالجامعة الوطنية، استعان ابراهيم عبده بطالب له يجيد اللغتين الفرنسية والعربية، هو خليل صابات، ليساعد فى عمل المجلة: "عملت كسكرتير تحرير لدرية شفيق، أكتب وأترجم المـــواد للمجلـــة ولمجلة الأطفال 'الكتكوت' التى أصدرتها درية أيضا. وكـــانت هـــى تقـــرأ العربية وتتكلم العامية بطلاقة، ولكنها لا تستطيع أن تعرب عن أفكارها باللغة الفصحى مباشرة. فكنت أترجم ملاحظاتها وأفكارها إلى العربية ثم يضعـــها ابراهيم عبده فى شكلها النهائى."(٩)

وفى السنتين الأوليين للمجلة أثرت مساعدة ابراهيـــم عبـــده تـــأثيرا مباشرا على طبيعة الرسالة الموجهة فى الافتتاحيات التى توقع عليها دريـــة شفيق. والواقع أن الايديولوجية الواردة فى تلك الافتتاحيات الأولى تتعـــارض تماما مع التى جاءت بعد ذلك بسنوات. ويعترف ابراهيم عبده: "الافتتاحيـــات الأولى فى عام ١٩٤٦ لا تعكس مشاعر وكلمات درية شفيق. هى أفكـــارى أنا! كتبتها أنا لا درية." فلما طولب بتفسير الظروف التـــى اســتدعت ذلـــك التصرف الصريح، أجاب: "عانيت وأنا أحاول أن أخفف من أسلوب درية فى المجابهة. إذ كان علماء الأزهر يعارضون علنا وبشدة التحاق المرأة بالجامعة مع الرجال ودخولها مجالات تقتصر على الرجال، مثـــل الطـــب والقـــانون والهندسة والعلوم. ورغبة فى عدم إثارة غضب الأزهريـــين ومعارضتـــهم العنيفة لبنت النيل، رأيت أن نتقدم خطوة وراء خطوة بوتيرة هادئـــة. كذلـــك فعملى كمدرس فى الجامعة آنذاك، جعلنى أكثر لمسا للموقف المتفجـــر مـــن درية."(١٠)

وصدر العدد الأول من 'بنت النيل' فى فترة كان المجتمع المصـــرى يعانى فيها من أعمال عنف، واغتيالات ومظاهرات للطلبة والعمال. فالقضيـــة الوطنية أججت من مشاعر السخط النـــاجم عـــن بـــطء حركـــة الإصـــلاح الاجتماعى – وهو سخط قُدّر له أن ينفجر بعد ذلك بشهرين فـــى إضـــراب

الطلبة فى فبراير ١٩٤٦، إذ تجمع آلاف الطلبة فى الجامعة وتوجهوا فى مسيرة نحو قصر عابدين هاتفين "لا مفاوضات قبل الجلاء". وتصاعد الموقف حتى بلغ المواجهة الدامية مع الشرطة والتى أسفرت عن مقتل عشرات الطلبة وجرح المئات منهم. وأدى الصدام إلى اندلاع الإضراب العام للعمال فى كل مصر، مما دفع البريطانيين (فى سيارات مدرعة) إلى إطلاق النار على الجموع. فهجمت الجموع على المحال والأندية الأجنبية تدمرها انتقاما. فمات وجرح آخرون، وأعلن يوم مارس ١٩٤٦ يوم حداد، واضطر رئيس الوزراء للاستقالة وجاءوا مرة أخرى باسماعيل صدقى "رجل السياسة المصرية القوى."

وشهدت الشهور التالية القبض على مئات الصحفيين والمثقفين والزعماء السياسيين والعماليين والطلبة والمهنيين الذين اتهموا جميعا بالنشاط الشيوعى. وجاء فى تحليل جان وسيمون لاكوتير للوضع فى تلك الفترة: "أطلق اسماعيل صدقى اسم 'شيوعى' على كل من توسم فيه ليبرالية أو راديكالية زائدة، أو على كل من انتقد الوضع السائد ورغب فى التغيير. وانتقد المصريون معاهدته مع بيفين نقداً مريراً لأنها لم تحقق كل ما كانوا يأملونه، أى الاستقلال التام، وفى نهاية عام ١٩٤٦، أجبر إسماعيل صدقى على الاستقالة."(١١)

وبينما تؤجج تلك الأحداث عدم الاستقرار فى المجتمع، كان صوت ابراهيم عبده المحافظ يأتى عبر افتتاحيات 'بنت النيل':

> ولا أعتقد أن على نسائنا العاملات أن يطالبن بالمساواة، فإن ذلك لن يخدم أغراض حركتنا. فالمساواة سوف تحرمنا من مميزات عديدة نتمتع بها الآن، كما أنها ستثقل كاهلنا، كنساء، خاصة بالنظر إلى طبيعتنا الحساسة والمرنة. فأنا أرى أن المساواة معناها أن تفقد المرأة الكثير من المعاملة الخاصة التى تتمتع بها فى الظروف الراهنة. لقد ميزت الطبيعة بين الرجل والمرأة، ولا يمكن أن ننكر ذلك. فالمرأة خلقت أساساً لتحمل، فإذا ساويناها بالرجل، أعفيناها من مسئولياتها الطبيعية.

فالدور الذى أوكلته الطبيعة للمرأة يجعل المساواة بينها وبين الرجل شيئا غير ممكن. لقد فُرضت الشريعة على الرجال لصالح المرأة. فالشريعة جاءت لتحمى المرأة وحقوقها قبل الطلاق وبعده، كيف نطالب بالمساواة إذن وكل الديانات ميزت بين الجنسين؟ فالمرأة تحتاج معاملة خاصة، اجتماعيا وبيولوجيا. وبدلا من المطالبة بالمساواة، علينا أن نطالب بتغيير التشريعات المجحفة للمرأة.(١٢)

أمتنا يتيمة، ولا ندرى أين نتوجه. فالأحزاب السياسية فى بلدنا لا تكف عن التناحر.

وليس من أهداف المجلة الخوض فى هذه المناقشات بأى شكل من الأشكال؛ كل ما نريد هو أن نعرف ما وراء الجدل الدائر. فلسنا بمجموعة ذات اتجاه سياسى، ولكن لنا فى هذه الأمة أزواج وأبناء، لذلك نسعى إلى فهم أفضل لها. وزعماؤنا يعتمدون على الشعب ليؤيدهم ويستمدون منه مكانتهم وسلطتهم، لذا فهم مدينون للشعب بتفسير لما يحدث، وعليهم أن يقدموا للشعب الأمان والأمن. أما نحن، فعلينا كأمهات وزوجات أن نقوم بواجباتنا قبل أن نطالب بحقوقنا. فالبعض منا يستطيع أن يقدم لزعمائنا النصح والمساعدة لحل مشاكلهم التى يرجع بعض تعقيدها إلى ترك حلها للرجال وحدهم. لابد من قدر من التفانى وإنكار الذات. من واجب كل أم وزوجة وإبنة أن تطالب بمزيد من التفاهم بين زعمائنا، وبأن تسود روح المحبة بينهم. فرسالة المرأة عامة هى أن تبث روح المودة والتفاهم والمشاعر النبيلة بين الشباب والكبار على حد سواء.

فإذا لم يُعرنا زعماؤنا انتباها، فمعنى ذلك
أنهم يخدعوننا ولا يستحقون أن يمثلونا.
ومن يعلم، ربما يأتي الخير على يد من
يلبسن الأساور.[١٣]

وفى إبريل ١٩٤٦، قبلت درية دعوة لولى أبو الهدى، ابنة رئيس الوزراء السابق للأردن، خريجة أكسفورد ورئيسة جمعية تضامن المرأة فى فلسطين. وهى دعوة لزيارة القدس لمدة ثلاثة أيام وإلقاء سلسلة من المحاضرات عن المرأة المصرية. وكانت درية قد قابلت هذه الشابة فى أكسفورد عام ١٩٣٩ – بينما كانت درية تستكمل أبحاثها فى مكتبة بودليان من أجل رسالتها. ولم تكن لولى قد تزوجت، وكانت تعمل فى القدس مع هند الحسينى، ابنة أمين الحسينى، مفتى فلسطين. وفيما بعد، سجلت درية فى مذكراتها: "أحببت مدينتى القدس وبيت لحم، رغم أن تسلل اليهود على نطاق واسع قد خرّب جزءاً كبيرا من فلسطين."

ولأول مرة يُطلب من درية إلقاء محاضرة باللغة العربية، وملأتها الرهبة: "لم أحاضر باللغة العربية من قبل أبداً. فكل تعليمى بالفرنسية! وكم كانت دهشتى لما نجحت ولم أتعثر بسبب اللغة. وقد شجعنى ذلك كثيرا!"

وأعجبت بما رأته فى فلسطين، فلما عادت إلى القاهرة، كتبت مقالاً فى المجلة أشادت فيه بدور لولى أبو الهدى وغيرها من السيدات المتعلمات فى الشئون الاجتماعية والسياسية لبلدهن.

هن يقفن إلى جانب رجال فلسطين فى
زمننا الصعب هذا، مما يعكس قوة الحركة
النسائية هناك. فهن نساء لم يساعدن
شقيقاتهن فى فلسطين فحسب، وإنما النساء
العرب فى كل مكان. وهن يمثلن قوة جبارة
ومثالاً للوطنية الحقة. ونجد فى كل مدينة
وقرية قائدة للحركة النسائية، عادة ما
تساعدها المدرسات ومديرات المدارس،
وكلهن ينتمين إلى جمعية تضامن المرأة.
وهى ليست بحركة مصطنعة، فالنساء هناك
يقرأن بقدر ما يقرأ الرجل، ويعتبرن

المعرفة شيئا مقدسا. فلا غرابة لأن الأرض هناك مهد العلم والفكر الروحى الذى يحرك العالم اليوم. ودهشت لما رأيت أن معظم النساء اللائى جئن إلى محاضرتى محجبات. وأعجبت جداً بعزة نفس الفلسطينيين، فلم أر سائلا واحداً فى شوارع القرية، كما أعجبت بنظافة ونظام الطرقات والبيوت، وتأثرت لاهتمام ربات البيوت الفلسطينيات ببيوتهن. إنى أحب فلسطين حقا، ومع مرور الوقت تزداد محبتى لهم لأنهم كانوا مثالا مشرفاً للعرب أمام العالم! إنى واثقة أن ما من غربى أو محتل يستطيع أن يقلل من شأن جهود ذلك الشعب.(١٤)

واليوم، بعد سنوات من الحروب المدمرة فى فلسطين، ونحن نقرأ تلك الكلمات، نحزن للسخرية. فدرية رأت شعبا كريما، عزيز النفس، وبعد ذلك بثمانية عشر شهراً، أمرت الأمم المتحدة بتقسيم أرضه وأنزلت به المليشيات الإسرائيلية هزيمة مشينة.

وبلغ من تأثير تجربتها هذه، أن ركزت فى كتاباتها بعد عودتها من فلسطين على الأحداث السياسية الكبرى مثل مطالبة المصريين بجلاء القوات الأجنبية. فهى تكتب فى 'بنت النيل' فى يوليو ١٩٤٦:

"رغبة كل مواطن اليوم هى أن يرى جلاء قوات العدو من بلادنا. وهذا يتطلب التضحية مهما بلغ ثمنها. ونساء مصر يتساوين مع الرجال فى معرفة حقوق بلادهن. وأنا أطالب بجلاء آخر، لا غنى عنه إلى جانب الاستقلال السياسى. أطالب بجلاء الفقر والمرض والجهل. ونحن النساء فى وضع نستطيع فيه أن نسهم فى بناء مصر الحديثة؛ أن نشارك فى علاج مشاكل مصر الثلاث، بأن نحول الفقراء

منتجين، والمرضى أصحاء والجهلة مدركين. أنت يا سيدتى، فى بيتك، فى حيك وفى قريتك قادرة على المشاركة فى بناء جيل جديد. فمسئوليتك أكبر من مسئولية الحكومة. فلا يجب أن نعالج الفقر بالصدقة، فنشجع الكسل، بل يجب أن نقدم فرص عمل. وأناشد كل المواطنات مشاركتى فى التفكير فى هذه المسألة. وأنا هنا، فى 'بنت النيل' على استعداد لنشر كافة الآراء والاقتراحات التى يرسلها أى قارئ. فأنا أوجه دعوتى هذه إلى كل من يسعى إلى إنقاذ وطننا من هذه المشاكل.[١٥]

فلما ازداد نجاح 'بنت النيل' سعى الاخوة زيدان، أصحاب دار الهلال[١٦]، أقدم وأقوى دار نشر فى مصر إلى الاتصال بدرية لشراء مجلتها. وعرضوا عليها حصة من الدخل إلى جانب رئاسة التحرير. "ولكنى رفضت. فالأمر ليس المال فى حد ذاته، ولكن ما يمكن للمال أن يحققه. ولم أهتم بالمال طيلة حياتى، وساعدنى دخلى الكبير على مواجهة الصعوبات المالية. وبهذا الدخل، مع السيطرة على 'بنت النيل' أستطيع أن أواصل معركتى. كنت أريد أن أضع أفكارى فى المجلة، إلى جانب مُثلى الخاصة، لا أن أكتب ما يطلب اليَّ أن أكتبه لو أننى بعت المجلة." ولكن دار النشر واصلت محاولاتها "وهددونى إن أنا أصررت على الرفض أن يحاربونى فى السوق، ولمّحوا لى بأننى لن أستطيع أن أنافسهم". وكذلك ساعدها نجاحها فى إصدار مجلتها النسائية الخاصة، على ممارسة استقلالها فى تحرير 'المرأة الجديدة'. وبالتحكم فى المجلتين، أصبح بإمكانها أن توصل رسالتها الأيديولوجية إلى قرائها.

* * *

ومع موت الأميرة شويكار فى فبراير ١٩٤٧، أصبح مستقبل 'المرأة الجديدة' فى الميزان. والصراع الداخلى الذى تفجر حفز درية على التصرف بسرعة، فاستغلت الوضع لصالحها واحتلت مركز القوة. فالأميرة فايزة، أخت الملك فاروق، تولت رئاسة جمعية 'المرأة الجديدة' بعد موت شويكار. وتسجل درية:

اعتقدت سيدات اللجنة أن في ذلك نـهايتي. فحاولن إلغاء المجلة، مما أزعجني كثـيرا لأنني اعتبرت المجلة ابنتي. ولكني لم أكـن في موقف يسمح لي بالتصرف! فـالأميرة صغيرة السن، وواعية وقوية الشـخصية. وهرعت السيدات يلتففن حولها، أمـا أنـا فبقيت في ركني، صامتة، إذ كنـت أشـعر دائما بعدم الارتياح وسط جمع من النسـاء يتكلمن في آن واحد. كذلك شعرت فـايزة، ولكنها محاطة، فلم نتمكن حتى من تبـادل نظرات متعاطفة. ودخلت الأميرة عائشـة، قريبة فايزة وصديقتي، ووقفت إلى جـانبي. وأخبرتها أنهن يردن إلغـاء المجلـة، وأن فايزة يجب أن تدرك ذلـك الآن. فتكلمـت عائشة قائلة "سمعت يا سـمو الأمـيرة أن المجلة سـتتوقف!" وأجـابت فـايزة: "يـا للخسارة! إنها مجلة جميلة وأساسية للدعايـة لجمعيتنا. لابد أن نتصرف! "فردت هديـة بركات، عضو اللجنة والأمين العام للجمعية معترضة: "لا يمكن أن نستمر لأن التكاليف باهظة." ولأنني لـم أكـن مسـئولة عـن الحسـابات ولا أعـرف شـيئا عـن المصروفات، ودهشت لأني كنت أعرف أن زوج شويكار وشلته يربحون من المجلـة. ويمكن للمجلة أن تغطي تكاليفها، شـريطة ألا تتدخل سيدات اللجنة فـي إصدارهـا. واستدرت نحو عائشة، قائلـة: "إذا توليـت المسئولية كاملة فإنها لن تكلـف الجمعيـة شيئا!". وسألتني عائشـة إن كنـت علـى استعداد لتحمل تكلفة الترخيص وكل شـئ آخر، فأجبت: "نعـم!". لقـد وقعـن فـي حفرتهن، وتحولت مؤامراتهن إلى نصـر لي. وبعد الاجتماع، طلبت مني إحداهـن أن أوصلها إلى بيتها، وبينما نحن في السـيارة،

سألتنى: "أمجنونة أنت يا درية حتى تتحملى هذه المسئولية؟". "كلما فعلت شيئا شيقا اتُهمت بالجنون!". وبدأت السيدات دسائسهن، فسمعت أن فاروق أمر بأن تستمر المجلة تحت رعاية جمعية المرأة الجديدة، ولكن الأوان كان قد فات! إذ كان الترخيص قد صدر باسمى أنا!

وانتقلت مجلة 'المرأة الجديدة' رسميا إلى مكتب 'بنت النيل'، وعلى مدى السنوات التالية، وبفضل توجيه "المحنكين من الصحفيين، لا الهواة"، اكتسبت المجلة سمعة محلية ودولية كمجلة ثقافية وأدبية رفيعة المستوى. والسعر الأصلى للمرأة الجديدة كان خمسة وعشرين قرشا، ومع بداية إصدار الطبعة الموسعة والفاخرة الأرابسك فى ١٩٤٩، تضاعف السعر إلى خمسين قرشا، واقتصر القراء على الصفوة الميسورة من الناطقين بالفرنسية فى مصر والشرق الأوسط. والدخل كله، بعد خصم التكاليف، كان يذهب لدعم أنشطة جمعية المرأة الجديدة: "أردت أن أعطى 'المرأة الجديدة' طابعا خاصا وتوجها فنيا. فكل عدد يُكرس لجانب من جوانب التراث المصرى – شكل من أشكال الإبداع المصرى!"

وصدر العدد الأول لعهد درية وبرعاية الأميرة فايزة، فى ديسمبر ١٩٤٧. وجاءت الافتتاحية بتوقيع صاحبة السمو الملكى الأميرة فايزة، والأرجح أن درية كتبتها، تعلن بداية جديدة: "فى مرحلة شيقة كتلك التى نعيشها، تتقارب فيها العقول لتتآلف وتتفاهم، أردت مجلة تستطيع أن تعكس فكرنا وتقيم الصلات بيننا وبين سائر العالم. مجلة تكون مرآة لتقدمنا الراهن، وصدى لحضارة قديمة تولد من جديد لتعيش أبداً."(١٧)

وهذا التشبيه بين مولد حضارة قديمة من جديد وظهور المرأة الجديدة، يتكرر فى مقالات درية ويعكس صورتها هى عن نفسها:

نحن الذين ناضلنا لنخلق ونصون 'المرأة الجديدة' نعتبر اليوم يوما مؤثراً، يوم تولد من جديد، جميلة ونقية وواثقة. إنها تعود من بعيد ولكنها تسير قُدُماً، غنية بجمال ماضيها! إنها مستودع أعمال كبيرة ومجد

عظيم، ولها مكانـــها فـــى قلـــب الزمـــان والمكان. هى صاحبة رسالة، فلا بد لـــها أن تعكس صورة مصر الحقة، بـــل وصـــورة الشرق. هى صاحبة رسالة، فلا بد أن تعبّر عن حبّنا للإنسانية. ' 'المرأة الجديدة' تظـهر اليوم من جديد وكأنها بُعثت لتلعـــب دوراً عظيما. أن تعكـس نـــهضتنا الحاليـــة، أن توصلنا ببلدان أخرى فتصبح بذلك رباطـــا بيننا وبين سائر العـــالم. هكـــذا ســـيعرف الغرب مصر على حقيقتها، بكافة جوانبـــها، بأسرارها وتقاليدهـــا بعاداتـــها وطباعـــها. وحتى الآن، نجد أن معظم ما كتـــب عـــن مصر كان بلغات أجنبية وبقلم أجانب مـــروا بمصر أو عاشوا فيها. تلك كانت مصر كما يرونها من 'الخارج'، إن صح القول. أمـــا فى 'المرأة الجديدة' فنحـــن نقـــدم وصفـــا لمصرنا من 'الداخل'. نعرّفكم بها كما لـــو كنّا نعرّفكم بأمنا التى احتضنتنا ذراعاهـــا. 'المرأة الجديدة' ستكشف لنا عما تبقى مـــن كنوزنا القديمة، ولا أقصد الآثار والكنـــوز المادية فحسب، بل والكنوز التى تتوارثـــها قلوب الأجيال المتعاقبة." 'المرأة الجديـــدة' سوف تكتشف وتدرس وتعرض تلك الكنوز التى ورثناها من الماضى. وهى كلـــها، إذا ما تجمعت مع إسهامات الأمـــم الأخـــرى، ستسفر عن نتائج جـــد مثـــيرة، بـــها كـــل درجات الألوان المحلية.(١٨)

ومجلتا 'بنت النيل' و'المرأة الجديدة' تمثلان معا محاولة درية لتشكيل صورة جديدة للمصريين وللمرأة العربية، فى مرحلة ما بعد الحرب، وهمـــا أيضا تكشفان عن الخطين المتنافسين فى حياتها: الجمال والنضال، وكيـــف أنهما مرتبطان بعمق فى تجربتها وهى تستكشف مصيرها. 'المرأة الجديـــدة' هى صوت درية الجمالى/الثقافى المتجه إلى الخارج، نحو الغرب، بـــهدف "نقل صورة حقيقية عن عظمة مصر". أما 'بنت النيل' فهى صـــوت دريـــة

النضالى/النسائى، المتجه نحو الداخل، نحو المرأة المصرية والعربية من الطبقة الوسطى الناشئة، بهدف تحقيق "صحوة وعى المرأة بحقوقها الأساسية ومسئولياتها". والمجلتان تركزان على تشكيل هويّة، سواء كانت ثقافية أو جنسية، مما يعكس معارك درية الشخصية وكذلك قلقها إزاء الجدال العام الدائر فى المجتمع بين أنصار الفكر الإسلامى ومؤيدى الفكر المصرى باعتباره الأيديولوجية المناسبة لمستقبل مصر السياسى.

وخاطبت درية الغرب من خلال صفحات 'المرأة الجديدة'، كما خاطبت النخبة الأجنبية والناطقة بالفرنسية والمحلية، بغية تغيير صورتهم السلبية العتيقة عن مصر وعن المرأة المصرية. وفى وصفها للمرأة الجديدة، لجأت إلى استعارات تتعلق بالرسالة والرسول، بالرباط وبالجسر: "سيكون قراؤنا بمثابة الأسرة الكبيرة للمرأة الجديدة، الأسرة التى تعمل بلا كلل. الأسرة التى لا هدف لها سوى أن تحقق تقدم المرأة الشرقية. ستكون هى الرسول الذى يوجه الرسالة إلى الغرب مباشرة وتسمعه صوتها. فى خطوة واحدة جبارة ستمد جسراً عظيما بين الشرق والغرب.":(١٩)

> 'المرأة الجديدة' رسالة، رسالة غير مألوفة تنبعث من ضباب التاريخ وتتقدم نحو المستقبل، رسالة تكشف عن كنوز مكنونة وترفع عن كاهل مصر عبء أسرار عديدة حملتها هى وحدها لمدة ستة آلاف سنة! رسالة تسبر غور الزمان. رسالة عن كنوز مجهولة لا حد لها. 'المرأة الجديدة' رسالة فن أنطق الحجر ونفخ فيه الحياة. ولكنها أيضا رسالة تكشف عما تغير فى مصر وعن نهضتها.(٢٠)

كان رأى درية أن الشرق والغرب ليسا بوحدتين مغلقتين، بل انهما تكملان بعضهما البعض، والمرأة الجديدة تزداد ثراءً لا بفضل ماضيها فحسب، وإنما بارتباطاتها العديدة بحضارات أخرى، وخاصة الحضارة الفرنسية: "فى الماضى كان الشرق والغرب عالمان منفصلان ومغلقان، عنصران يسير كل منهما فى طريقه ولا يلتقيان أبدا. وكم من حضارات مختلفة تلتقى عبر الزمان والمكان، وتتفاهم وتتوحد وتكمل بعضها البعض. وهذه المجلة شاهد على ذلك التصالح، على ذلك التقارب المتناغم الذى نادراً

ما كان يُتوقع. " 'المرأة الجديدة' ستكون بمثابة الحلقة التى تربط بين الحياة الثقافية والفنية فى مصر وبين الغرب."[٢١]

وفى تركيزها على الثقافة المصرية، كانت درية تصف أيضا نهضة مصر. كانت تحاول كشف وجه مصر من الداخل، من خلال تراثها الجمالى وشعرها ورسمها ومسرحها وموسيقاها، مصر بكل عاداتها وتقاليدها. 'المرأة الجديدة' تكشف عن الشرق كما هو، بتاريخه الذى لا يقارن. ويشعر المرء من مقالاتها أنها تعبر عن صورتها لنفسها:

> 'المرأة الجديدة' بداية، تماما كالربيع. ما زالت بنيتها غير واضحة وغير محددة، ولكنها واعدة، فهى بعد فى مرحلتها النقية تبحث عن مادتها قبل أن تستقر. وهى فى حماس الربيع، مستعدة دائما للانطلاق من جديد. تعرف أن بمقدورها التغلب على كل الصعاب، فالإرادة مع العزم تكفى. وكان 'كانت' على حق عندما قال 'إن قوة الإرادة هى جوهر الإنسان'. و'المرأة الجديدة' ترفض كلمة 'مستحيل'. ولا بد من الاحتفاظ بهذا الزخم، أن تظل 'المرأة الجديدة' دائما بداية، دائما فى تقدم وتحسن. لا بد لكل عدد أن يكون اكتشافا جديداً، خطوة إلى الأمام. فلنتفاد الأخطاء القديمة والسهفوات السابقة."[٢٢]

أما 'بنت النيل' فكان لها هدف آخر ومحور آخر. كانت درية تريد إفاقة المتعلمين من الرجال والنساء ليدركوا واجباتهم ومسئولياتهم فى حل مشاكل الأمة: "كنت أتناول مشاكل مرتبطة بجوهر وجود المرأة المصرية." وبدأت رسائل القراء "تتدفق بالمئات، وتطمئننى. وربطت بيننا أواصر لا تنفصم. أولئك النسوة يكتبن لى عن مشاكلهن التى تؤرقهن، يفتحن قلوبهن، واجتاحتنى العواطف الجياشة وأنا أقرأ رسائلهن." واستندت إلى خطاب من تلك الخطابات لتكتب مقالاً تعلق فيه على أساليب تربية الأطفال التى تتولد عنها بعض العقد النفسية:

كتبت الينا قارئة فلسطينية لم تبلغ العشرين من عمرها ومن أسرة ميسورة، لا تعرف العوز. والقارئة تشكو من اكتئاب عميق واضطرابات عاطفية أخرى. وخطابها مثال للعديد من الخطابات الحزينة التى تصلنى فى 'بنت النيل'، والتى تعكس الوضع الراهن للعديد من الشابات فى بيوتنا فى مصر والشرق العربى. فالمشاكل النفسية موضوع المقال، ترجع إلى أسلوب تربيتنا لأطفالنا، الذى يولد فيهم الخوف بسبب صياحنا فيهم وضربنا لهم. كذلك المشاحنات بين الأب والأم وتصدع الأسرة، هى أيضا وراء المشاكل النفسية. وهى عقد نفسية تنمو مع نمو الطفل. وقد يكون الجنس مرجع المشكلات النفسية، وقد لا تتطلب المسألة سوى استشارة طبية أو غيرها. قد تمتد جذورها إلى المحيط الذى تشب فيه الفتاة. إن أفخم البيوتات وأكثرها ثراءا قد تكون مقبرة لأرواح لا تعرف لمشكلاتها علاجاً. وقد تكون للمشكلات أسباب أخرى، ولكن فيما يتعلق بقارئتنا الشابة، فلاشك أن مشاكل بلادها السياسية تسهم فى خلق مشكلتها. فجيلها كله يواجه نزاعا مستمرا يحول دون استقراره.(٢٣)

واستجابة لتلك المشكلات "التى تواجه شبابنا والتي يمكن أن نتفاداها لو أننا نشأنا أولادنا بطريقة تختلف عن الطريقة التى نشأنا عليها"، أصدرت درية مجلة أسمتها 'الكتكوت'، "هدفها التربية من خلال التسلية. مجلة تعين الأمهات فى تنشئة الصغار. فلا داعى أن نفرض على الأجيال القادمة تراثا تعيسا."

واجتهدت درية فى تطبيق ما تنصح به الآخرين، فرغم حياتها المهنية المشحونة، كانت تحرص على تناول الغذاء مع زوجها وأطفالها

يوميا. وبالنسبة للبنتين، فكانت أحب ذكرى هى ذكرى لحظة عودة أمهما إلى البيت. وتتذكر جيهان:

لم نكن نراها كثيرا فى تلك السنوات المبكرة. وكانت أسعد أوقاتنا وقت عودتها عصراً. كنت أتطلع كل يوم إلى الساعة الثالثة أو الثالثة والنصف، فنهرع نحوها. كان وقتا ثمينا جدا يوميا وبانتظام! وأذكر مرة فى المدرسة (حيث كنت دائما الأولى على الفصل أو الثانية)، أن جاء ترتيبى الخامسة. وعدت إلى البيت أبكى ومعى شهادتى التى أعطيتها لأمى وأنا أخبرها بترتيبى. فاحتضنتنى وقالت: "هذا لا يهم على الاطلاق. فأنت تبذلين كل ما فى وسعك، ولكن مثل هذه الأمور تحدث أحيانا". كانت دائما وأبدا عطوفة معنا. وكانت أختى عزيزة وهى صغيرة تذهب إلى فراش أمى صباحا وتضع رأسها فى حجرها، وتربت أمى على شعرها. وأتبعها أنا ونجلس معاً على حافة فراشها ونتحدثنا. لم تحرمنا من حنانها أبداً طيلة سنوات نموّنا.(٢٤)

وتصف الابنة الكبرى عزيزة هذه العلاقة التى كانت تربطها بأمها:

لم تكن بالأم التقليدية، بالمعنى الغربى، أى التى تساعدنا فى عملنا المدرسى أو تلعب معنا. لا أذكر أبداً أنها شاركتنا اللعب. ولكنى أذكر تماما أنها كانت تجلس معنا وتتحدث معى فى أمور عدة. وكانت لدينا سيدة تعمل فى البيت لم أكن أحبها. لم تكن مربيتنا، ولكنها كانت تُعنى بنا وكنت أخشاها. فكانت أمى تجلس معى وتناقشنى فى أسباب قلقى وخوفى، وتطمئننى. وكنت

أشعر بغيابها أكثر فى الأجازات الصيفية، إذ كانوا يرسلوننا إلى الإسكندرية، إلى واحدة من الخالات، حيث نقضى شهرين أو ثلاثة. وأسعد أوقاتنا عندما يأتى والدانا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع أو للبقاء معنا يومين أو ثلاثة. كانت تلك الأوقات أسعد أوقات الصيف. وكنت أفتقد وجودها وكذلك وجود أبى. فكثيرا ما كانا يغيبان عنّا خلال سنوات نموّنا.

وكلما ازداد انشغال درية بمجلاتها وانشغال نور بعمله كمحام، كلما ازداد عدد مدعويهم على الغذاء أو العشاء. وتقول عزيزة: "كان لأمى وأبى العديد من المعارف من الصحفيين والناشرين والمحامين، أناس يعملون بالسياسة فى بلدهم فى ذلك الوقت. وكثيرا ما كانوا يحضرون للغذاء، فكانت جلساتهم شيقة بالنسبة لنا، ثم، فى نهاية الأمر، كانت هذه هى حياتهم."[٢٥]

واستمرت علاقتها الوطيدة بالأميرة فايزة ("وكان لنا عدو مشترك هو الملك!")، مما أثار انتقاد الصحفيين لها. فالأميرة وزوجها التركى، بولانت محمد على رؤوف، كثيرا ما يتناولان العشاء فى بيت رجائى، وتذكر البنتان: "كان يضايقنا أن فايزة كلما جاءت بيتنا تقرصنا من أنفنا وهى تظن أنها تداعبنا." وكانت علاقة درية هذه بالقصر "تتيح لها معرفة كل الأخبار قبل غيرها من الصحفيين، مما يثير غيرتهم. "فشنوا علىّ حملة صحفية عامة. اتهمونى بالتعالى! وبالتكلف! 'إنها أشبه بعارضة أزياء منها بسيدة أعمال' وأطلقوا الشائعات للإضرار بحياتى الخاصة. ماذا أفعل؟ لا شىء! الانتظار! وقررت ألا أرد على الهجوم سواء جاء كتابة أو شفاهة!"

ووزعت درية وقتها وجهدها بين مهنتها الجديدة وبين سعادة الأمومة: "كانت عزيزة ابنتى فى الحضانة، وجيهان تبدأ المشى. وكنت سعيدة! أعيش طفولتى من جديد." ولما بدأت تكرّس المزيد من وقتها لنشر وترويج المجلتين، قل الوقت الذى تقضيه فى بيتها، وزاد اعتمادها على مدام مارى لتربية الطفلتين والإشراف على الخادمة والطاهى لتسيير شئون المنزل. فهى مشغولة صباحا باجتماعات التحرير وتخطيط النشر، بينما ينشغل نور بعمل المحاماة والتدريس، والمساء يقضيانه فى نادى السيارات حتى كفت درية عن ارتياده، كما أصبحت لا تطيق الجو السائد فيه: "بدأ

أعدائى يحيكون الدسائس حول زوجي وعلاقاته بنساء أخريات. فبدأت شائعاتهم تؤرقنى وتطغي على قلبى وتفكيرى. فكانت بداية إحساس بالغربة بيننا."

* * *

ومع نهاية عام ١٩٤٧، وقعت كارثتان قوميتان أثرتا على الحياة السياسية فى مصر تأثيراً عمقيا وساعدتا درية على الاقتراب من تحديد رسالتها في المستقبل. ففى شهر سبتمبر، تفشى وباء الكوليرا في محافظة الشرقية، وأودى بحياة عشرات الآلاف من المصريين فى شهور. وحدث ما حدث عندما تفشت الملاريا عام ١٩٤٤ وواجهت البلاد أزمة كبيرة، فاستجابت النخبة من السيدات لنداء الوطن لما طلبت وزارة الصحة من مبرة محمد على والهلال الأحمر تعبئة الموارد وإقامة مراكز التطعيم فى صعيد مصر والدلتا. وأسهمت جهودهن فعلا فى السيطرة على الكوليرا فى غضون شهور. وفى مواجهة ذلك الوباء وتزايد طلب الجماهير المحرومة على خدمات صحية واجتماعية أفضل، أضطر الزعماء السياسيون إلى وضع إصلاح الخدمات الصحية على رأس جدول الأعمال القومى.[٢٦]

وفى نوفمبر ١٩٤٧، بينما تهدد الكوليرا بالتوسع في الانتشار، نشأت أزمة ثانية أكثر خطورة من الناحية السياسية. إذ اعتمدت الأمم المتحدة قراراً يقضى بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية. وبما أن مصر كانت من الدول المؤسسة لجامعة الدول العربية، صوّت وفد مصر معترضا على قرار الأمم المتحدة، وبذا التزمت الحكومة المصرية بالمشاركة فى أى تدابير عربية جماعية تحول دون تنفيذ القرار فى فلسطين. أما بريطانيا التى كانت منتدبة من الأمم المتحدة لحكم فلسطين منذ ١٩٢٣، فقد رفضت الإشراف على تنفيذ القرار، معلنة أن قواتها (القوات الوحيدة الكفيلة بحماية السلم) ستنسحب من البلاد فى ١٥ مايو ١٩٤٨. وواقع الأمر أن آثار النكبة (هكذا أسماها العرب) مازالت محسوسة فى الشرق الأوسط كله بعد مرور خمسين سنة، ،محسوسة فى مأساة حرب الخليج، وتوقيع الاتفاق بين منظمة التحرير واسرائيل.

وبعد إعلان قرار الأمم المتحدة بيوم واحد، شن العرب حرب عصابات كانت بداية لفترة من العنف وعدم الاستقرار السياسى دامت فى فلسطين والمنطقة لمدة نصف قرن. استنكر العرب القرار الدولى ورفضوا ما اعتبروه بتراً لأراضيهم وتأكيدا بأنهم ضحية مشروع استعمارى. فإن إسرائيل من وجهة نظرهم مستعمرة أجنبية نجحت فى الاستيلاء على جزء

من أراضيهم وطرد سكانها العرب الأصليين وذلك بدعم من العالم الغربي كله بزعامة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

وخلال هذه الفترة بالتحديد، التقت درية شفيق مصادفة بالسيدة هدى شعراوى، ورغم ابتعادها عن صاحبة الفضل عليها منذ عودتها من السوربون، إلا أن هذا اللقاء كان علامة لدرية على الطريق، فهى مازالت تحترم هدى شعراوى كرمز للأمومة والزعامة: "التقينا مصادفة فى جروبى.[٢٧] وجريت تلقائيا نحوها لأحييها، وكانت معها ابنتها الروحية التى لم تسعد بالترحيب الحار الذى حظيت به، فأدارت لى ظهرها. ولكن هدى هانم حيّتنى بابتسامة عريضة وسألتنى عن أحوالى "لماذا لم تأت لرؤيتى يا درية؟". "لم أرغب فى إزعاجك" "تعالى على الرحب والسعة فى أى وقت. فأنا أستقبل الضيوف كل ثلاثاء. فتعالى أرجوك لرؤيتى."

سعدت درية بالتصافى مع "تلك السيدة العظيمة"، ووعدت بزيارتها فى الأسبوع التالى. ومع ذلك فلم تفعل، لأن هدى شعراوى ماتت بعدها بأيام بأزمة قلبية. وتقول حفيدتها "كان العنصر الرئيسى الذى أودى بحياة جدتى، صدمتها وخيبة أملها لقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين. كانت قد كرست السنوات العشرة الأخيرة من عمرها تناضل من أجل القضية الفلسطينية، فجاء القرار وحطم قلبها."[٢٨]

ماتت امرأتان قويتان. لعبت كل منهما دوراً حاسماً ومختلفاً فى تحقيق رغبة درية العارمة فى إيجاد مكان لنفسها فى الحياة العامة. فموت شويكار فى أوائل فبراير فى سن الواحدة والسبعين دفع درية إلى تولى 'المرأة الجديدة' ونشرها. ووفاة هدى شعراوى بالسكتة القلبية عن ثمانية وستين سنة، عشية عيد ميلاد درية، كان مصادفة أقنعت درية بأن القدر خطط لها وجهة رسالتها. فمع موت هدى شعراوى، انتهى فصل من تاريخ الحركة النسائية فى مصر، وأوشك فصل جديد على البدء. فهدى شعراوى، فى حياتها، مكّنت درية من تحقيق طموحها للدراسة فى السوربون. أما وفاتها فقد حفزّت درية على السعى إلى تزعم نضال المرأة المصرية من أجل حقوقها السياسية كاملة.

جرى العرف فى مصر أن يُقدم العزاء لأقارب وأصدقاء المتوفى فى اليوم الأربعين للوفاة. ونظرا لشهرة هدى شعراوى، فقد كُرِّمت علنا فى احتفال نُظّم فى قاعة اجتماعات الاتحاد النسائى المصرى فى يناير ١٩٤٨.

والى جانب بيانات التأبين التى ألقاها البارزون من الرجال والنساء، ألقت درية شفيق كلمة شخصية مؤثرة عن هدى شعراوى، لم تكتف فيها بالثناء على زعيمة الجيل التى سمعت أصداء حلمها منذ عشرين سنة وليَّت، ولكنها تحدثت عن نواياها هى فى كلمات لم تدع مجالاً للشك: "كلنا جزء منها. ولولا إلهامها ونورها لذهب كفاحنا سدى ولانمحت آثاره. كنا نعيش فى الحريم حتى أخرجتنا زعيمتنا من ظلماته وها نحن، رائدات، رضينا بقضاء الله، نحصى أعمالها المجيدة ونسير على هَدْى خطواتها."[٢٩]

ودعوة درية لإلقاء كلمة فى هذه المناسبة المهيبة، ثم تقديمها للجمهور بلقب 'هانم' يشير إلى أنه على الرغم من انفصالها عن الاتحاد النسائى المصرى، إلا أنها احتلت مكانة فى المجتمع. وأعلنت درية فى كلمتها أنها ستواجه التحدى وتستأنف الكفاح. وقالت لمستمعيها:

بكاؤنا لفقدانها لن يزيل الحزن من قلوبنا. والدموع لن تخفف من أسانا، وألمنا مهما بلغ فلن يواسينا. ويوم الأربعين هذا تثقله ذكرى كل ما فعلته هدى شعراوى من أجل مصر وكل شعوب الشرق. تذكروها فالذكرى مفيدة للمؤمنين، وتذكروها لأنها حاربت لتخلق مجتمعاً أبيا ومثقفا. تذكروها حتى تفهموا ما أنتم مدينون به لها، فهى قد عاشت لكم وماتت من أجلكم. وأنا حريصة على أن يدفعنا حزننا إلى المضى فيما بدأته. فلا يكفى أن نذرف الدمع على هدى شعراوى فهى أكثر من ذلك. حافظوا على ذكراها العطرة بكفاحكم. فكلما تعلمت امرأة القراءة والكتابة، أو ذهبت إلى الجامعة، أو وقفت تدافع فى محكمة أو نزلت الحقل تعمل أو دخلت البرلمان يوما فإنها تحيِّى ذكرى هدى شعراوى تحية أجدى من الدموع ومن النحيب لموتها."[٣٠]

(٨)

حاملة الراية (١٩٤٨ - ١٩٥٠)

كانت التقلبات تعصف ببلادى. حل الكــذب محل الصدق، فاجتاحنى الغضب. لابــد أن يتغير الوضع قبل فوات الأوان ولكن كيــف أحارب الجبال؟ هل أحركـــها؟ لابــد مــن التوصل إلي موقع نبدأ منه. لابد أن نبدأ من البداية: المرأة! فلا يمكن لأمة أن تتحـــرر داخليا أو خارجيا بينما نســاؤها مكبــلات. ووُلِدت حركتى النسائية وسط هذا الزلــزال وهذه الرغبة المجنونة لأمة بأكملها تريـــد الحرية.

ولما تقدمت القوات المصرية مع قوات الـــدول العربيـــة الأخـــرى ودخلت فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨، للحيلولة دون إنشاء دولة إســـرائيلية، تفجَّر العنف فى أنحاء القاهرة. عنف ضد الحكومـــة، والأجـــانب واليـــهود والبريطانيين. ومع اندلاع تلك الحرب، أولـــى حلقـــات سلســلة الحـــروب العربية-الإسرائيلية، ظهر المقال الآتى فى 'بنت النيل' بتوقيع درية شفيق:

حرب مدمّرة أشعلتها الصهيونية، أراقـــت دماء الأبرياء ودنست قدسية هــذه الأرض. لم نسمع أبداً بدين أصبح دولة. وبينما يؤكد العالم أجمع بأن الدين لله والدولة للجميـــع، نسمع أن دينا أصبح دولة. وأغر ب ما فـــى أمر هذه الحرب التى فرضها اليهود علـــى الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين. هـــى أن اليهود طالبوا بإقامة أمّة إسر ائيلـ ـــين فى دعوتهم أنهم يتمتعون بحياتهم لا كيـهود وإنما كمواطنين فى بلدان اخرى. فصـــراخ اليهود الأمريكيين ويهود البلدان الشـــيوعية

> يتناسى أن هؤلاء اليهود يحملون جنسيات أخرى. أين هو البلد الذى يسمح لمواطنيه بإنشاء دولة أخرى؟ لاشك أنها مسألة تنافس بين الأمريكيين والسوفييت. فالحرب فى فلسطين ليست بحرب سياسية ولا حرب دينية، ولكنها نوع من الاستعمار الروسى والأمريكي لخدمة تطلعاتهم فى العالم العربى.[١]

وهذا المقال الافتتاحى لا يسعى إلى تحليل جذور الصهيونية ولا ما عاناه اليهود من عذاب على يد النازية، وهو ما أمدّ الصهاينة بحججهم فى المطالبة بوطن لليهود. وعلى الرغم من وقف إطلاق النار وإعلان الهدنة أكثر من مرة بين إسرائيل ودول عربية مختلفة قبل مارس ١٩٤٩، إلا أن الجماهير ظلت تشعر بالاكتئاب والمهانة والإحباط والغضب: "وامتلأ العرب مرارة وغيظا، ورفضوا الاعتراف بالأمر المفروض من أوروبا، هذا البتر الاستعمارى الذى فرض عليهم. فالقتال توقف لعجزهم الذى أملوا أن يكون مؤقتا. فالحرب سوف تستمر بشكل أو بآخر."[٢]

وعندما تسترجع درية تلك الفترة، تكتب قائلة: "بدأت مآسى مصر الحقيقية مع حرب فلسطين، عندما خُدعت مصر فى مَلكِها الذى وضعت فيه آمالها. كانت خدعة قاسية فى لحظة حساسة من تاريخها والبلاد فى حاجة إلى قائد جديد بالقيادة. ولقد تقرر مصير مصر فى حدائق إنشاص الملكية، بينما يتنزه الملك مع مستشاره الخاص كريم ثابت، الذى شجع الملك على دخول الحرب، مدعياً أن الانتصار فيها يجعل من فاروق زعيم العرب بلا منازع، بل وخليفة العرب الجديد."[٣] أما الملك، فكان متورطاً فى صفقة سلاح فاسدة مع قائد سلاح الحدود، فسمح بشراء أسلحة غير صالحة وذخيرة تركتها جيوش مختلفة وراءها فى الصحراء الغربية، ثم باعتها للجيش المصرى بأسعار باهظة. فإذا بالجيش المصرى، بأسلحة فاسدة وقيادة سيئة، يتراجع أمام الإسرائيليين حتى تم وقف إطلاق النار فى يناير من عام ١٩٤٩: "ومع ذلك فجلالته الذى كان لا يمل التظاهر والادعاء، أمر جيشنا المنهزم بالسير فى شوارع القاهرة وسط هتافات النصر. والشعب يصفق وهو لا يدرك شيئاً."

وكان فاروق يأمل أن يسترد شعبيته إذا ما انتصر فى الحرب، فــإذا بلطمة أخرى تأتيه هذه المرة من زوجته الملكة فريدة المحبوبة، والتى كانت قد انسحبت من الحياة العامة تدريجياً، وإذ بها تطلب الطلاق. "كــان يبـدو وكأن فاروق يستمتع بتجاهل زوجته وإهانتها وتعذيبها. وفى إحدى حفــلات الأميرة شويكار، لم تدع إليها الملكة كالمعتاد، جلست آخر عشيقات الملـك - وكان يستبدلهن بسرعة غريبة - فى مكان الصدارة، بين الملــك والأمــيرة شويكار. وغضب رئيس الوزراء، النقراشى باشا لذلــك حتــى فكــر فــى الاستقالة، ثم عاد فعدل عنها إذ شعر أن من واجبه أن ينقذ ما يمكن إنقاذه."

وكانت فريدة قد أنجبت ثلاث بنات: فريال وفوزية (سُميت باسم أحب أخوات الملك إليه التى تزوجت من شاه إيران) وفادية. ولاشــك أن عــدم إنجابها لصبى أسهم فى زيادة كل ما عانته من مهانة خلال سنواتها الأخـيرة مع فاروق. ورأت درية فى طلاق الملكة فريدة، بداية النهاية بالنسبة لسقوط فاروق،(٤) بل ورأت فيه كذلك دعوة للمرأة المصرية:

> وأنا لا أقصد تنازله كملك، بل أقصد تنــازلاً أخطر من ذلك: تنكره لكل القيم الأخلاقيــة، حتى عن قيمته كإنسان. وتنازلت فريدة عن العرش فى مقابل حريتها، يا لها من لفتــة عظيمة فى تاريخ المرأة المصرية. ملكـــة تنزل سلم القصر بمحض إرادتها، تاركـــة وراءها المجد والعظمة بل وبناتها الثــلاث، لتجد تحت سقف أبيــــها أجمــل العــروش قاطبة: عرش الحرية. لقد دقـــت الســاعة لتخرج المرأة المصرية من سجنها. جــاءت اللحظة التى تكسر فيها قيودها. لقد أفـــاقت من سبات عميق، وها هى المرأة المصريــة تهب فى قفزة واحدة لتندفع نحـــو قدرهــا وتخوض معركتها.

ولم تكن سنة ١٩٤٨ مجرد بداية "المآسى الحقيقية لمصر"، بل كــانت سنة بلوغ جيل بأكمله من المصريين سن الرشد. فالمجموعــات السياســية المتطرفة ازدادت ظهوراً وارتفعت أصواتها وهى تعــد أعضاءهــا "ليــوم

الحساب". وكان الحافز فساد النظام الملكى وعدم فعاليته. وفى أقصى اليمين، ارتفع صوت الإخوان المسلمين ينددون بالإمبريالية الغربية كمصدر لكل مشاكل البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فقد اتهم الإخوان الامبرياليين بأنهم يحاربون الإسلام من خلال مدارس الإرساليات المسيحية التى تُدخل الشك فى أذهان الأطفال المسلمين، فتتركهم لا بالمسلمين ولا بالنصارى.(٥) وكان الحل فى رأيهم هو العودة إلى القرآن والحديث وسنة النبى محمد، كمصدر لإعادة نظام الحكم الإسلامى. وكان لحركتهم شعبية بين الجماهير والطبقة الوسطى الدنيا، فأصبح للحركة فى عام ١٩٤٨، ألفين من الفروع فى مصر وحدها. فمقاومتهم للإنجليز ومواقفهم البطولية فى فلسطين أكسبتهم خبرة نضالية ظهرت فى صورة سلسلة من الاغتيالات السياسية على الصعيد المحلى فى مصر: "حارب عدد من المناضلين ببسالة، خاصة الوحدات الخاصة التابعة للإخوان المسلمين، الذين حاربوا تحت لواء الإسلام، مستلهمين دعوة الجهاد، فكانوا عدوا يخشاه المحاربون اليهود أكثر مما يخشون جنود بعض الجيوش العربية. ومع ذلك فقد أبلى ضابطان مصريان خير بلاء فى المعركة وهما محمد نجيب (١٩٠١-١٩٨٤) وجمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠)، وقدر لهما أن يظهرا على مسرح الأحداث فيما بعد."(٦)

أما فى اليسار، فكانت أصوات الجماعات التقدمية، المنقسمة أيديولوجيا، والتى كانت محظورة قانونا، ومع ذلك قد اجتذبت عدداً متزايدا من العمال ومن الطلبة والطالبات من الطبقة المتوسطة البازغة. ومن أبرز هذه الجماعات الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، وهى منظمة شيوعية سرية أسسها وتولى زعامتها هنرى كورييل ذو الشخصية الجذابة. وكانت فكرة التحرر الوطنى فكرة كورييل، فقد فهم الشعور بالمهانة الوطنية الذى اجتاح المصريين عندما فرض البريطانيون أمرهم على الملك فاروق بالسلاح. وكان هنرى كورييل فى القاهرة عندما ردد آلاف المتظاهرين اسم روميل فى الشوارع. وكورييل، ابن اليهودى الثرى الذى يعمل فى البنوك، أدرك شعور المصريين بأنهم خُدعوا فى حرب ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل، وهو لم يتعاطف مع الصهيونية ولم يغادر البلاد، على عكس غيره من اليهود، بل طردته الحكومة المصرية فى صيف ١٩٥٠ بسبب نشاطه الشيوعى.(٧) وكانت جماعة ' حدتو' تعتبر أن الكفاح ضد الرأسمالية فى مصر ليس صراعا طبقيا وإنما تعبئة لكل القوى الراديكالية من كل الطبقات لخوض المعركة الوطنية ضد البريطانيين.

وعلى الرغم من وعيها بالنضال الموسع من أجل التحرر الوطنـي، وانتقادها الصريح للفساد والظلم الاجتماعى السائد، إلا أن درية لم تتعاطف أبداً مع الأيديولوجيات الراديكالية للشيوعيين ولا مع أعمال العنف التى يقوم بها الإخوان المسلمون.. كذلك لم تكن هذه الجماعات راضية عن صداقتها بالأميرة فايزة، ولا عن مظهرها المتأنق وأسلوب حياتها، ولا عن أشعارها الفرنسية وفلسفتها الإنسانية. فقد لامها الأصوليون لأنها "دنيوية وغربية" فى تفسيرها للإسلام، بينما انتقدها التقدميون لأنها "شديدة البرجوازية وتعُوزها الجدية". أما درية فكانت تعتبر نفسها شديدة الجدية، وبدأت توجه رغبتها فى التحرر نحو المعركة من أجل حقوق المرأة: "إذا أردنا لمصر أن تتحرر حقيقة، فلابد أن نبدأ بتحرير المرأة المصرية من طغيان التقاليد البالية ومن الظروف الاجتماعية والاقتصادية المجحفة التى تقهر غالبية النساء. فلا يمكن لبلد أن يتحرر إذا لم تتحرر نساؤه. والحل الوحيد هو بناء حركة نسائية تطالب بالحقوق السياسية للمرأة كاملة."

* * *

وربما ألهمتها هدى شعراوى، ولكن "مئات الخطابات التى وصلتنى من القراء هى التى جعلتنى ألمس بشكل مباشر المشاكل والمعاناة فى الأسرة المصرية. كل خطاب يصف بمرارة آثار تعدد الزوجات والطلاق التعسفى من جانب الزوج، وما يترتب عليه من دمار للبيت." وكانت ترد على الكثير من تلك الخطابات فى عامودها "دعوا 'بنت النيل' تحل مشاكلكم." أما الخطابات الأكثر خصوصية، فكانت تردّ عليها شخصيا، وتدعو أصحاب الحالات المأساوية لمقابلتها فى مكتبها الذى كانت تفتحه كل يوم جمعة لاستقبال النساء ومناقشة مشاكلهن على انفراد.

ومن خلال مكتبها للتوظيف وشبكة أصدقائها، نجحت درية فى إيجاد عمل للكثيرين، ولكن سرعان ما اجتاح مكتبها "المعدمون الذين يبحثون عن مساعدة مالية، والعديد من الطلبة والطالبات يقصدوننى كأخت كبيرة، حاملين شهادتهم العليا دون أن يجدوا فرصة عمل. وبذلت قصارى جهدى لأقدم ما يبحثون عنه. فالبعض يحتاج إلى المال للدراسة، والبعض الآخر إلى ثياب. وفى كل يوم أفرغ كيس نقودى، بما فى ذلك مصروف بيتى، ويئس منى زوجى." وقد بلغ من كرمها فى إنفاق مال نور أن أصبح الموضوع مصدرا رئيسيا لمشاكلهم الزوجية: "كانت معظم مناقشات أبى وأمى حول الأموال التى تنفقها أمى على مشروعاتها فى 'بنت النيل'. وظل أبى يفتح محفظته ويقدم لها الأموال حتى أطلقنا عليه اسم 'المحفظة'"(٨)

وسرعان ما أدركت درية أن مشاكل أولئك النسوة أكثر من أن تُحل فُرادى. فليس لديها من وقت أو مال يكفي لذلك. "وأى حل اقتصادى بحت ليس حلا نهائيا. فيبقى جوهر المشكلات قائماً: قلوب النساء المحطمة. وحتى لو تمكنت من إيجاد حل متكامل لمشاكل آلاف النساء المعذبات من قارئات مجلتى، فماذا تفعل الملايين الأخريات التى لا أعرف عنهن شيئا؟ كان لابد أن أجد حلاً مستديما. وبما أن توازن ورفاهة حياتنا القومية ينبعان من حيلة الأسرة، فالحل المستديم يتطلب تشريعات جديدة تضمن حقوق المرأة."

وتصادف اهتمام درية المتزايد بتغيير القوانين المجحفة بالمرأة، مع مناقشة عامة واسعة حول قبول القانون المدنى المصرى الجديد الذى صاغه رجل القانون المصرى العظيم عبد الرزاق السنهورى.(٩) وكان نور من تلاميذه، فلما أصبح أستاذا للقانون التجارى فى الجامعة الوطنية، اهتم لاشك بالجدال السائد وناقش قضاياه مع درية. ونظرا لاهتمامها بالتوفيق بين الإسلام والحداثة، فيمكن أن نفترض أن هذه المناقشات العامة جاءت تأييدا لقولها إن الإسلام لا يعارض حصول المرأة على حقوقها القانونية والسياسية.

وكان رأيها أن قضية حقوق المرأة لا تقتصر على حقها فى الانتخاب فهى كانت تسعى إلى تغيير القوانين المدنية التى تحول دون ترشيح المرأة لدخول البرلمان، وكذلك تغيير قانون الأحوال الشخصية الإسلامى والذى يسمح بتعدد الزوجات وبتطليق الزوجة والاحتفاظ بحضانة الأطفال. كانت تريد إلغاء 'بيت الطاعة'(١٠)، كما طالبت بإلغاء الإجراءات البوليسية لتطبيق ذلك القانون. وكذلك اتخذت نفس الموقف الليبرالى من الإسلام فى رسالة الدكتوراه: "فروح الإسلام الحقة تتعارض تماما وتعدد الزوجات (إلا فى حالة الزوجة العاقر أو المريضة). فالإسلام يسمح للرجال بالزواج من أربع نساء، شريطة أن يعدل بينهن تماما. وبما أن ذلك مستحيل مهما حاول المرء أن يفعل، فلا يمكن تفسير ذلك إلا بأنه حظر لتعدد الزوجات."(١١)

وأسفرت استفساراتها حول كيفية تغيير القوانين عن اقتراحين، واحد يحد من تعدد الزوجات والآخر يحد من الطلاق التعسفى، والاقتراحان قدمتهما هدى شعراوى للبرلمان قبل ذلك بربع قرن. "ومازالت الاقتراحات ترقد فى البرلمان المصرى." وسعت لكسب تأييد بعض البرلمانيين، أن تقنعهم بإصدار قوانين تكفل المزيد من الأمان للمرأة وأسرتها. ولكن

جهودها لم تلق آذانا صاغية. لابد إذن من امرأة في داخل البرلمان، لتدافع عن قضيتها بنفسها: "وهل من يد أقدر من يد المرأة لتهزهم من سباتهم؟ وهل من قلب أقدر من قلب امرأة على التعاطف مع عذابات المرأة؟ فلا يكفى أن تتواجد المرأة عند تشريع القاونين الخاصة بها، بل لابد وأن تشارك فى صياغتها. فإذا ما طالبت المرأة بكافة حقوقها، وخاصة حقوقها السياسية التى هى أساس كل الحقوق، فيمكنها أن تُدخل على المجتمع تغييرات جذرية."

وأخيراً انطلقت درية، تدفعها رغبتها فى إحياء حركة نسائية تحتضر، ويدفعها غضبها من إهمال الحكومة لحقوق المرأة. وما أن مر شهران على تأبينها لهدى شعراوى، حتى شنّت درية شفيق هجومها لا "بالدموع والنحيب" وإنما بالدعوة إلى مؤتمرين صحفيين (واحد تحدثت فيه بالفرنسية والآخر بالعربية)، لتعلن إنشاء "حركة جديدة من أجل التحرر الكامل للمرأة المصرية." وكان من الطبيعى أن تطلق على حركتها اسم اتحاد بنت النيل. فشعار النيل لم يغب أبدا عن كافة جوانب حياتها: فأول قصيدة منشورة كانت عن نهرها الحبيب، ومسكنها على النيل ومكتبها فى شارع قصر النيل، ومجلتها 'بنت النيل' بدأت تكتسب شهرة واسعة فى أنحاء مصر والعالم العربى. "منذ البداية وهبت روحى وجسدى لاتحاد بنت النيل".

وكانت درية تؤمن أنها لم تنشئ مجرد جمعية نسائية جديدة، بل أنها تجدد وتنشط الحركة النسائية المصرية التى كانت قد ضعفت وفترت بعد وفاة هدى شعراوى. وعقدت المؤتمرين الصحفيين فى فندق سميراميس، أشهر بقايا الأناقة الاستعمارية على ضفاف النيل. وافتتحت مؤتمرها باللغة الفرنسية ببيان جرئ:

– الشرط الذى لا غنى عنه فى تحرير مصر هو أن تتحرر المرأة

س– ماذا تعنين بالضبط من "تحرر المرأة"؟

ج– أقصد تحررها من عبوديتها للرجل!

س– أى شكل من أشكال العبودية؟

ج– أسوأ الأشكال! تلك التى تعتبر المرأة أقل شأنا من الرجل.

س– وما هى وسائلك لتحرير المرأة؟

ج– وسائل أساسية: المطالبة بحقوق المرأة السياسية كاملة.

س– وما المقصود بكلمة أساسية؟

ج- أى طالما بقيت المرأة خارج البرلمان، طالما لم تشترك فـــى تشريع القوانين (إذ لا يهتم الرجل بحقوق المرأة). فـــالمرأة وحدها قادرة على فهم عذابات المرأة.

س- أخبرينا يا سيدتى، هل أنت سعيدة فى بيتك وأسرتك؟

ج- إننا لا نناقش هنا حياتى الشخصية. فالمشكلة هـــى مشـــكلة حقوق المرأة التى لا يجب أن تُنتهك.

س- هل تظنين أن النشاط النسائى سوف ينتقص من أنوثة المرأة؟

ج- حركتنا النسائية لا تعوزها الأنوثة أبدا.

س- ألا تعتقدين أن الإسلام يتعارض والحقوق السياسية للمرأة؟

ج- الإسلام برئ من هذه الفريه. فلا توجد فى القـــرآن جملـــة واحدة تفيد ذلك. بل على العكس، فجوهر الإسلام المســـاواة بين الرجال والنساء.

س- ما المقصود "بالمساواة الأساسية"؟

ج- المساواة الأساسية بين الرجال والنساء نتيجة منطقية لكونهما بشر، متساوين بطبيعتهم، طبيعتهم الإنسانية.

س- هل أنت محامية؟

ج- كلا ولكنى مدافعة عن حقوق المرأة!

وإذا كانت أسئلة الصحفيين الأجانب قد تركزت حـــول رأيـــها فـــى الحقوق السياسية للمرأة، إلا أن الصحفيين المصريين ركزوا على رأيها فـــى تعدد الزوجات. "امتلأت القاعة برؤوس تلفها عمامـــة الأزهريـــين، وشـــعر خمسة وتسعين منهم بأننى أتهددهم شخصيا عندمـــا أطـــالب بإلغـــاء تعـــدد الزوجات. وبدأ المؤتمر الصحفى بهدير يصم الآذان وانتهى بصخب وتخللـــه صياح الأزهريين اعتراضا على كلماتى وتصفيقهم تأييدا لهجوم الصحفيـــين الماكر. أصبح من المستحيل أن تُسمع الكلمات، فشـــعرت بـــأولى وخـــزات المعركة التى قُدّر لى أن أخوضها فى السنوات العشر القادمة. قوّتهم رهيبة."

وكان لمؤتمريها وقع القنابل، فأثارت زوبعة احتجـــاج مـــن جميـــع الجهات. وفسرت النقد الموجه إليها على أنه موجه لشـــخصها لا لحركتـــها: "هاجموا مؤتمراتى الصحفية لأنهم فسروها على أنـــها دعايـــة لشـــخصى. فالمخضرمات فى الحركة النسائية غضبن لأننى حملت راية تحرير المـــرأة بعد وفاة هدى شعراوى: "كيف تجرؤ هذه النكرة التى لا تمتلك فدانا واحـــداً على محاولة احتلال مكان مليونيرة." أما المنظمات الإسلامية التى دأبت على ترويج تفسيرات خاطئة للإسلام، فقد اتهمتنى بمخالفة تعاليم القرآن. وانتقدنـــى

الرجعيون بما أسموه محاولتي للقضاء على التقاليد المصرية. كما رأى التقدميون أنني أفسد الحياة السياسية المصرية بإدخال المرأة فيها."

وفى مواجهة ردود الفعل السلبية هذه، كيف تبدأ ومن سيستجيب لندائها؟ وكان هناك عدد متزايد من الجامعيات اللائى اعتبرن أن أساليب الاتحاد النسائى المصرى أصبحت بالية مثل أهداف الاتحاد. وهذا الجيل من الشابات الآتيات من الطبقة المتوسطة كان يؤمن بأن فتح العيادات الصحية وتوزيع الصدقات لم يعد حلا مناسبا للمشاكل الاجتماعية السائدة وأن المساواة فى الحقوق لا تقتصر على التعليم وحده. وهذا الجيل الراديكالى من النساء المصريات أصبح يطالب بعد الحرب بحقوقه السياسية وبتغيير أكبر فى النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى يسهم فى قهر الرجل والمرأة على حد سواء. واستهدفت درية شفيق هذه الطبقة المتوسطة الناشئة فى دعوتها على أمل أن تجد منها استجابة "خاصة من الشباب القادر على رفع الظلم الاجتماعى."

وإذا شاءت لحركتها أن تشمل كل نساء مصر، فلابد لها أن تجتذب العناصر من كافة الأوساط وأن توفر لهم مكانا للإجتماع فيه. فتوجهت إلى ابنة شويكار التى كانت آنذاك رئيسة جمعية الهلال الأحمر، وأقنعتها بالتبرع بالمال اللازم لاستئجار الشقة التى تقع أسفل مكتب 'بنت النيل' بشارع قصر النيل. وتبرعت زوجة أخ هدى شعراوى بتأثيثها، كما أسهم فائض الدخل من المجلة فى تمويل هذا النشاط الجديد. ورغبة منها فى اكتساب أعضاء جدد، نظمت درية حفلة استقبال كبيرة فى مكتب المجلة، دعت إليها مئات النساء من خلفيات اجتماعية عديدة. سيدات المجتمع الراقى ذوات العلاقات السياسية القوية، وممثلات عن الجمعيات الخيرية كجمعية المرأة الجديدة، وعاملات سبق أن ساعدتهن درية من خلال مكتب 'بنت النيل' للتشغيل. فمن وجهة نظر درية "أردت للحركة أن تصبح رباطا، همزة وصل بين طبقات متنافرة. واجتماعنا نفسه كان توليفة ومساواة فريدة من نوعها. فالنساء من الطبقات الدنيا شعرن بالزهو لاختلاطهن بسيدات المجتمع، والمتعلمات المثقفات سعدن لمصادقة سيدات من علية القوم وبنات الأسر ذات النفوذ. أما سيدات المجتمع الراقى فقد أسعدهن مناقشة أمور مشتركة مع نساء الطبقة العاملة، واكتشفن فى ذلك مخرجاً من فراغ حياتهن اليومية. ولأول مرة لم أشعر أننى ضائعة فى الهوة السحيقة التى تفصل بين طبقاتنا الاجتماعية."

ورأت درية أنه من الضرورى أن يتم انتخابــها رئيسة للحركة النسائية حتى يتسنى لها بناء هيكل تنظيمي قوى يضع خطة عمل وينفذهـا: "فالحركة فى نهاية الأمر وليدة أفكارى! فأنا التى فكرت فيها وخططت لـها وعملت من أجلها. وأنا خير من يرعاها.!" ولكن كان لابد لها أن تقنع أولئك النسوة بأن اختيارها رئيسة، وهى الأصغر سنا والأقل مقاما من الناحية الاجتماعية، لا ينطوى على عدم احترام. ووعدتهن بمناصب فى المجلس التنفيذى فى مقابل تأييد ترشيحها رئيسة. "ونجحت الخطة فـانتُخبت رئيسة مدى الحياة. وبدورى ساعدت فى اختيار أقوى النساء وأذكاهن فى المجلس التنفيذى."

وجنّدت درية عدداً كبيرا من الشخصيات ذات النفوذ فى حركتها. فضمت لجنتها التنفيذية زوجات وبنات أغنى وأبرز رجالات المجتمع، ومنهن سميحة ماهر ابنة رئيس الوزراء المغتال، وصفية شكرى أخت زعيم حزب العمل المصرى، بالإضافة إلى أسماء العديد من المرموقات من المهنيات اللائى دخلن الحياة العامة بفضل انجازاتهن من أمثال مفيدة عبد الرحمن، أول من حصلت على شهادة فى القانون. وكانت مفيدة قد عملت مع هدى شعراوى ثم اشتركت مع فاطمة نعمت راشد وزينب لبيب وعطية شافعى فى تأسيس الحزب النسائى الوطنى. فلما تعثرت تلك المنظمة، انضمت إلى اتحاد بنت النيل فى أواخر الأربعينات.[١٢] أما زينب لبيب، وهى أول امرأة عينت فى وزارة الخارجية، فقد أصبحت النائبة الأولى لدرية شفيق، وعايدة نصر الله، خريجة السوربون بمرتبة الشرف، تولت رئاسة تحرير "المرأة الجديدة".

وتُعلق مفيدة عبد الرحمن قائلة: "لقد أيقظت درية شفيق النائمين. فاستجابت لدعوتها نساء بارزات فى المجتمع ومهنيات مرموقات، وكذلك عدد متزايد من طالبات الجامعة من الطبقة المتوسطة، بما فى ذلك عضوات سابقات فى الاتحاد النسائى المصرى، اجتذبتهن شخصية درية شفيق الجذابة والنشطة."[١٣]

أما زينب فؤاد، وهى من أوائل من انضم إلى درية وأصبحت سكرتيرتها الشخصية، فكتبت خطاباً إلى إبنة أخت هدى شعراوى تشكو فيه بأن "فى رأيى أن الاتحاد [الاتحاد المصرى] يحتضر. فعصمت هانم (ابنة هدى شعراوى ورئيسة الاتحاد) رفضت الذهاب إلى المؤتمر [مؤتمر الرابطة الدولية لحقوق المرأة] فى آخر لحظة. وسائر العضوات لا يصلحن للإدارة،

والرئيسة مشغولة ببيتها. فأخشى أن ينهار الصرح العظيم الذى شيدته خـالتك مضحية بمالها وصحتها ووقتها حتى انهارت. أما العضـــوات فــلا جـدوى منهن."(١٤)

وما أن أعلنت درية عن عزمها عام ١٩٤٨ على المبادرة فى العمل، حتى كرست نفسها تماما "لانتشال المرأة المصرية من أزمتها التـــى عـانت منها قرونا. فأصبح تحقيق المساواة الكاملة بـالرجل محـور حيـاة المـرأة المصرية العصرية، والذى لا يقبل تنازلاً مـهما صغـر." وقضيـة المـرأة والسياسة كانت دائما "تحتل صدارة كتابات درية، رغم أن صـوت إبراهيـم عبده المحافظ نجح فى كبح جماح أفكارها المتقلبة خلال السـنوات الأولـى. فكثيرا ما نُشرت مقالات تتحدث عن انعدام الوعـى السياسـى بيـن نسـاء مجتمعها بسبب أن "السياسة لا تلائم طبيعة المرأة":

"نساء جيلنا لم يتعلمن بعـد الإمسـاك بزمام حياتهن. وهن لسن مستعدات بعد لدخول الساحة السياسية. وما اسـترعى انتباهى إلى هذه القضية ما رأيته فـى مجتمعنا بالذات. فمن النادر أن نجد فيه امرأة تهتم بما يدور في الحياة العامـة، وكأن ظروف مصر وأحداثها قضايا لا تمس البيت المصرى. وأولئـك هـن الأمهات اللائى ينشئن لنا جيلا جديـدا ويعددن رجال السياسة والأدب. وأنـا أشير هنا إلى فهمنا للشـئون المحليـة والخارجية. فمن النادر أن نجد امـرأة تعرف أسماء الساسة فى بلدنا، نـاهيكم عن رجال السياسة خارج مصر. وهـى معلومات يمكن الحصول عليها ببساطة من الجرائد التى يأتى بها إلـى البيـت أباؤنا وأزواجنا وأشقاؤنا. ولكـن جُـلّ النساء لا يقرأن سوى صفحة الوفيـات والأخبار الاجتماعية، فإذا وجه أطفالهن سؤالاً عن قضية تشغل الرأى العـام، يعجزن عن الإجابة. وبدلاً من الاستفادة

من المناسبات الاجتماعية فى أحاديث جادة، يُفضّلن مناقشة الموضة وتبادل الشائعات. هذا ما نهدر فيه وقتنا دون أن تستفيد امرأة واحدة. وأنا لا أطالب بأن تعمل المرأة فى السياسة، ولكنى أرى أنها لابد وتدرك ما يدور. نحن نؤذى أطفالنا إذا ما عجزنا عن شرح ما يدور من أحداث فى الحياة العامة، إذ لابد أن نكتسب وعيا شاملاً بالأحداث السياسية ونحن ننشئ أطفالنا."(١٥)

ومع حلول عام ١٩٤٨، بدأت رسالة بنت النيل تتغير وتتركز، مما يوحى بأن درية بدأت تُعبّر عن نفسها وبوضوح، دونما رقابة من إبراهيم عبده أو نور زوجها.

نحن (النساء) هنا فى مصر نخوض معركة مريرة لا ضد الميسر والخمر [هنا تشير درية شفيق إلى فرنسا حيث شنت وزيرة الصحة الجديدة حملة ضد تعاطى الخمور هناك]، ولكن دفاعا عن الفتاة التى ترغب فى الالتحاق بكلية الهندسة أو الزراعة، وعن المتعلمة الراغبة فى الإسهام فى الحياة العامة، مطالبة بتطبيق الدستور وبحقها فى انتخاب الرجال، بل وعن المرأة التى تجرؤ على المطالبة بنصيبها فى مقاعد البرلمان أو اللجان القضائية ... فالرجال فى مصر لا يسعون إلى ما فيه خير بلادهم. فهم يحاربون جهدنا لتطوير البلاد، ويفعلون ذلك باسم الدين أحيانا، وإن لم نسمع أبداً عن دين يحول دون المرأة وحقها فى الحياة. وفى أحيان أخرى يفعلون ذلك باسم التقاليد. أى تقاليدُ هذه التى تقف حائلاً

> بين المرأة وفعل الخير؟ ... فى الواقع هى عقدة نقص يعانى منها بعض المصريين وهى التى تدفع بهم إلى مثل هذا السلوك. فهم يخشون أن تتولى امرأة منصب السلطة فتحظر الخمر والميسر. أيها السادة، أفسحوا الطريق أمامنا، ودعوا الركب يسير فى طريقه الطبيعى.(١٦)

هاتان المقالتان، الأولى عام ١٩٤٦ والثانية عام ١٩٤٨، تفصحان عن تغيير أكيد فى الأيديولوجية، نقلة من "طبيعة المرأة" إلى "حقوق المرأة". وفى المقالة الثانية يبدو صوت درية واضحاً، وهى بداية سلسلة من المقالات ذات النبرة السياسية الواضحة التى تحمل رسالة نضال نسائى. فهى تطالب الرجال المصريين بإفساح المجال للمرأة حتى تسهم فى الحياة العامة، مستندة إلى أن "حرمان المرأة المتعلمة من حق يتمتع به الأميّون من الرجال جريمة فى حق مصر، وسيظل المجتمع محروما من الديمقراطية طالما بقيت المرأة محرومة من كامل حقوقها السياسية. والرجال الذين يقفون بين المرأة وبين حقوقها هذه، رجال لا يحبون بلادهم إذ يحرمون مصر من خدمات أولئك النساء."(١٧)

وفى نفس السياق، كتبت فى عام ١٩٤٨: "بما أن الأمم المتحدة اقترحت منح المرأة حقوقها السياسية فى العالم كله، فمطالبتنا بتلك الحقوق أصبحت قضية غير قابلة للتفاوض. وفخامة شيخ الإسلام كان عظيما عندما وافق على مطالب المجلس الاقتصادى والاجتماعى، فالإسلام يعضد قضية المرأة، لأن الإسلام دين علم وتفاهم وتطور وحرية. الحمد لله الذى أبقانا حتى شاهدنا يوماً بارك فيه أئمة الإسلام قضيتنا."(١٨)

وبدأت توجه مقالاتها إلى رجال البرلمان: "حيث كنا نأمل أن تثار قضيتنا، حتى وإن جاءت بعد مناقشة حفر قناة فى قرية بالقليوبية! ألا تستحق مسألة مصير نصف سكان البلاد من وقت البرلمان ما يُكرّسه لتعيين شيخ لقرية ما؟ لقد بلغت المرأة أرفع درجات التعليم، ومع ذلك فليس من حقها أن تدلى بصوتها أسوة بصرماتى أمّى. بماذا يجيب رجالنا فى باريس إذا سُئلوا عن وضع المرأة المصرية؟ كيف يجيبون على مثل هذا السؤال؟ هل يريد المسئولون أن نلجأ إلى مساعدة العالم الخارجى ليحصل لنا على حقوقنا؟"(١٩)

وأكدّت بعد ذلك بشهر واحد: "افتتح البرلمان دورته الجديدة منذ أيام. وتجاهل المتحدث باسم البرلمان الحقوق السياسية للمرأة مفترضا أننا، معشر النساء، ناقصات عقل وغير جديرات بالمشاركة فى الحياة العامة. وهذا بمثابة القول إن عشرة ملايين من المصريين (نصف السكان) لا يستحقون المشاركة فى الحياة المدنية. تبا لرجال مصر الذين يعيشون فى ديار تسيّرها نساء ناقصات عقل وبعيدات عن الحياة العامة."(٢٠)

واستمرت مقالاتها الافتتاحية تؤكد العواقب السلبية على المجتمع والأسرة الناجمة عن منع المرأة من المشاركة فى التشريع للبلاد. وأكدّت أن مصر تعانى من أعلى معدلات للطلاق فى العالم: "ثلث الأسر التى تتكون فى أول العام، تتحطم فى نهاية العام. وبالتالى فحياتنا دائمة التعرض لكلمة قد ينطقها مغفل أو مخمور أو جاهل بالسلوك الاجتماعى والدينى السليم. لذلك أنشأنا اتحاد 'بنت النيل للدفاع عن الأسرة'. لذلك أيضا طالبنا بحق الانتخاب حتى نشارك فى توجيه الأحداث وفى تحديد مصائرنا."(٢١) كما تحدثت عن إمكانية إنشاء حزب نسائى مستقل "يحمى حقوقنا ويدافع عنها كما يناضل من أجل مُثُلنا"، وناشدت نساء مصر الانضمام لها فى الكفاح:

> ليس بهدف عمل المرأة بالسياسة فى بلد تُعوِزه الإدارة السليمة للشئون الاجتماعية. فنحن فى حاجة إلى حزب يوحد صفوفنا حتى نحل المشاكل التى عجز المسئولون عن حلها خشية انتقاد العناصر الرجعية التى تفسر كل شئ من منطلق الدين والتقاليد. أليس من العجيب أن يظل تعدد الزوجات أساساً للحياة الزوجية؟ أليس من الغريب عندما يتشاجر الزوج مع زوجته بشأن توافه الأمور أن تكفيه كلمة واحدة ليفصم كل ما بينهما من علاقة، حتى وإن كان لهما أطفال؟ وقائمة أوجه الظلم الاجتماعى لا تُحصى، عيوب لا بد لحزبنا أن يسعى إلى تصحيحها. قضايا خاصة بالزواج وبالطلاق وبالإرث والتعليم والحقوق السياسية

وغيرها تحتاج إلى دعم من حزب لـــه من القدرة والمعرفة والقوة ما يمكّنه من أداء رسالته. وإن استطاع حزب بنـــت النيل أن يسهم فى حل تلك المشاكل، ألا يكون فى ذلك ما يُشرّف؟"(٢٢)

نحن لا نطالب بالعمل فى السياسة مـــن خلال اتحاد بنت النيل، فهذا ما يحـــدده الساسة وكل من ينضم إلى الأحـــزاب السياسية. كل ما نطلب هو المساواة فى الحقوق السياسية. فليس لبنـــت النيـــل مآرب سياسية، فكل ما تأملـــه هـــو أن المرأة عندما تحصـــل علـــى حقوقـــها السياســـية، ستســـتخدمها فـــى خدمـــة المجتمع حتى نضمن للأسرة حقوقـــها فى مواجهة مساوئ المجتمع. فلا طلاق دون تقدير واع لعواقبه، ولا زواج مـــن أجـــل المتعـــة وحدهـــا، ولا أطفـــال مهجورون، ولا جهل فى البيت أو فـــى العمل من شأنه أن يقضى على صحـــة المرأة وكيانها. فالمرأة تعانى من كـــل ذلك. وإن أردنا معالجة تلك الأمـــور، فلا بد أن نختار من يمثلنا من النســـاء أو، على الأقل، أن ننتخب من الرجـــال من يتعاطف مع قضيتنا ونحن نطـــالب بهذه الأهداف العادلـــة والتـــى ليســـت بأهداف سياسية.(٢٣)

وإنكار درية هذا لأى طموحات سياسية دليل على موقفها الحريـص، وعلى رغبتها فى تحاشى أى رد فعل عنيف فى خضـــم الوضـــع السياســـى الفوضوى السائد فى مصر آنذاك. أما الحكومة فقد استأنفت حملتها لقمع كـــل المتطرفين، فألقت القبض على كل من يُشتبه فيه الانتماء إلى منظمات يسارية وشيوعية. وفرضت قانون الطوارئ، كما حظرت حركة الإخوان المســـلمين رسميا، ولكنهم نشطوا سراً للتحريض ضـــد الوضـــع الســـائد، واســـتعانوا

بالمساجد وبمسجد الأزهر والجامعات لترويج مطبوعاتهم الحاضّة على الفرقة. وفُتحت المعتقلات للشيوعيين والإخوان، وما أن أشرف عام ١٩٤٨ على الانتهاء، وفى غضون أسابيع قليلة، أغتيل النقراشى، رئيس الوزراء وكذلك أغتيل مؤسس حركة الإخوان المسلمين. فقُتل النقراشى الذى حظر الإخوان، فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨ بيد واحد منهم، وبعدها بأسابيع قليلة قتل حسن البنا.

وبيانات درية الصريحة بأن حزبها ليس حزبا سياسيا، أثارت انتقادات معارضيها من اليسار. فإنجى أفلاطون، الشابة الوطنية المثقفة التى اجتذبتها الشيوعية، كانت تنتمى إلى تنظيم كورييل السرى (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) فى الأربعينيات والخمسينيات. وتعليقها على محاولاتها العمل فى 'بنت النيل' يبرز الفوارق الأيديولوجية بين راديكالية درية وراديكاليتها هى:

> حاولت بعد الحرب أن أعمل مع المنظمات النسائية القائمة باستثناء الاتحاد النسائى المصرى، الذى تحول إلى منظمة اجتماعية بلا نشاط سياسى، فلم أحاول حتى الانضمام. فلما اجتمع المؤتمر التأسيسى للاتحاد النسائى الدولى الديمقراطى[٢٤] فى باريس سنة ١٩٤٥، رفضت المنظمات النسائية المصرية إرسال ممثلين عنها. لذلك قررنا تشكيل رابطة فتيات الجامعة والمعاهد المصرية، والذهاب إلى باريس. وعند عودتنا، عقدنا مؤتمراً صحفيا فى مدرسة الليسيه الفرنسية لنعرّف بمؤتمر باريس وننشر قراراته. وبعد ذلك ببضعة شهور، وبعد التوقيع على معاهدة صدقى/بيفين علم ١٩٤٦، أغلقت الحكومة كافة المنظمات التقدمية واليسارية، بما فى ذلك الرابطة، ولكنها لم تغلق الاتحاد النسائى المصرى أو أيا من تلك المنظمات الأخرى. وحاولت

بعد ذلك الانضمام إلى منظمة درية شفيق، أى 'بنت النيل'، ولكنى فشلت لأنهم أعلنوا عدم تسيسهم، ومعنى ذلك أنهم يؤيدون الوضع الراهن. فهم يخشون أية أفكار ديمقراطية جديدة قد تحيد بهم عن أهدافهم. فهم مجموعة يمينية. ولما سمعت درية شفيق أننى يسارية، فصلتنى من المنظمة، كما أنها نشرت بيانا فى 'آخر ساعة' وفى 'أخبار اليوم' تعلن فيه أن 'بنت النيل' تحارب تلك المبادئ الهدّامة. فاضطررنا إلى إعادة تشكيل تنظيمنا، وفى كل مرة باسم مختلف. وكانت تلك الفترة ذروة الحماس الثورى فى مصر.(٢٥)

وجاء رأى لطفى الخولى فى درية مختلفاً تماما عن الوصف السابق. وكان هو محاميا ماركسيا شابا، عمل فى مجلة 'بنت النيل' من أواخر الأربعينيات إلى أوائل الخمسينيات. ويذكر كيف التقى بدرية شفيق والتحق بمجلتها، ويقدم تحليله الشخصى لوعى درية السياسى المتطور والمزدوج:

فى عام ١٩٤٦ انضممت لتنظيم يسارى سرى، والتزمت بالعمل السياسى المناهض للملك وللاستعمار. وكان دورى أن أنشر وجهات النظر الماركسية وأن أبث مبادئنا فى الجامعة وفى المؤتمرات والاجتماعات العامة. وتوجهت إلى الصحفيين والى المحامين وخضت فى مناقشات معهم لأعرض وجهة نظرى. وفى سنة ١٩٤٧ دُعيت درية شفيق لتلقى محاضرة فى نقابة الصحفيين، وأخبرتها فى سياق الحديث أن قاسم أمين لم يكن أول من طالب بتحرير المرأة، بل سبقه رفاعه الطهطاوى وعلى باشا مبارك، ولفتت الملاحظة انتباهها. كما قلت أن المرأة

المصرية لن تتحرر ما لم يتحقق التحرر السياسي والاجتماعى للمجتمع المصرى. وطلبت منى أن أذهب لمقابلتها. وكانت درية شفيق تمثل بالنسبة لى، وأنا ابن البرجوازية الصغيرة، قمة البرجوازية الكبيرة والأرستقراطية. فذهبت بموقف عدائى للغاية. وكم كانت دهشتى عندما اكتشفت فى تلك الأرستقراطية، سيدة الصالونات، اهتماما عميقاً بالشعب. وتضاربت مشاعرى أنا وأصدقائى إزاء هذه الحقيقة، وكان المجتمع المصرى كله فى ذلك الوقت يموج بالتناقضات السياسية والاجتماعية وخاصة فى 'عالم اليسار'. وتعددت المحاكمات السياسية فى ذلك الوقت، وباعتبارى محامياً اهتممت بمتابعتها كما اهتممت بالحركة النقابية.[٢٦]

وبمناسبة إحدى تلك المحاكمات، لفت لطفى الخولى انتباه المحامى المعروف موريس أرقش الذى أعجب بقدرات الشاب فى الدفاع ودعاه إلى الانضمام لمكتبه. وهكذا التقى لطفى بجيرمين، ابنة موريس أرقش، مسئولة قسم الموضة فى مجلة 'بنت النيل'. ورتبت له لقاءاً بدرية شفيق، كان مدخلاً لانضمام لطفى الخولى لأسرة المجلة: "واعترض الدكتور ابراهيم عبده على شخصى، فهو رجعى قح! ولكنه لم يستطع الوقوف فى وجه درية لما شعر أنها تريدنى أن أعمل معها. وكذلك لم يستطع نور الدين رجائى، وكانت درية فى ذلك الوقت خاضعة تماما لتأثيره الأيديولوجى، وكان يسيطر على أفكارها. وبعد فترة، بدأت تستقل فكرياً عن المحيطين بها. وكنا نخوض المناقشات الحامية فى بنت النيل، مناقشات يبرز فيها جانبان، جانب محافظ أو رجعى، يمثله ابراهيم عبده، وجانب آخر تقدمى يمثله اليساريون مثل عايدة نصر الله وإنجى وأنا."[٢٧]

وأصبحت تلك التيارات السياسية فى إدارة بنت النيل مصدر خلاف بين الرجل وزوجته. كلما تأرجحت أفكار درية بين تأثير إبراهيم عبده وتأثير

لطفى، ونور بينهما، يحاول الحد من ميل زوجته للمغالاة فى اتجـــاه أو فـــى آخر. ومع الوقت، توصلت هى إلى نظرة أكثر استقلالا كلما ازداد احتكاكـــها بالقضايا الاجتماعية الخاصة بنساء الطبقة العاملة وبعاملات المصانع، وذلـك من خلال مناقشاتها مع لطفى الخولى.

وفى وصفه لدوره فى تسييس درية، يقول لطفى الخولى: "باعتبارهـا من الطبقة العليا التى أعدتها لتزيّن الصالونات، كان فهم درية لحقوق المـرأة فهما برجوازياً تماما. فالمرأة البرجوازية لن تكون متساوية تماما مع الرجـل البرجوازى، ولكن يكون لها حق التعليم واستخدام تعليمها فى مجال الحيـــاة العامة. فدرية كانت ترغب فى تحرير هذا النوع من النســـاء البرجوازيـات (تحريرها من أن تظل مجرد زينة). ليس تحرير كل النساء، بل هذا النـــوع فقط. ولكن مناقشاتنا وشعورها الإنسانى العميق، جعلوهـــا تـــرى الأمـور بمنظور مختلف. فبدأت تهتم بالمنظور الطبقى، ومع الوقت بدأت 'بنت النيـل' تركز على الصلة بين قضية المرأة والقضية الاجتماعية."(٢٨)

وبذلت درية جهداً واعيا لتُبقى المطالبة بالحقوق السياسية للمرأة فـــى مقدمة اهتمامات الناس: "كان هدفى الرئيسى هو الدعاية. فحتى الهجوم فـــى الصحافة علىّ شخصيا كان يساعد على التعريف بـ'بنت النيل' على أوســـع نطاق. فالدعاية المضادة لحركتنا من جانب أعدائنا، كانت أفيد لنا مما تستطيع أن تقدمه أعظم وكالات الدعاية. ولكنها لم تكن مسألة دعاية بحتـــة. فـــالظلم البيّن الذى تعانى منه المرأة فى بلادى وضرورة إيجاد العـــلاج المناســـب، حقائق كان لابد من التعريف بها فى الداخل وفى الخارج."

ودفعها ذلك الهدف إلى السفر لزيورخ فى صيف عام ١٩٤٩ "علـــى نفقتى الخاصة" لتسجل 'اتحاد بنت النيل' فى "أقدم وأكبر تنظيم نســـائى فـــى العالم"، مشيرة بذلك إلى المجلس الدولى للمرأة الذى تأسس فى واشنطن سـنة ١٨٨٨، والمتمثل فى شبكة من المجالس القطرية المكونة مـــن التنظيمـات النسائية المحلية. وكانت الأهداف المُعلنة للمجلس هى: "(١) أن يكون وسـيطا للتشاور بين النساء حول العمل اللازم لتعزيـــز رفاهـــة البشـــر، والأســـرة والأطفال والأفراد؛ (٢) تعريف النســـاء بحقوقـــهن ومســـئولياتهن المدنيـــة والاجتماعية والسياسية؛ (٣) العمل على إزاحة كل ما يحول دون مشـــاركة المرأة مشاركة كاملة فى الحياة؛ (٤) دعم السلام الدولى والتحكيم." ولم تكـن تلك المحاولة الأولى من جانب امرأة مصريـــة. ففـــى بدايـــة العشـــرينيات وبتشجيع من كارى تشابمان كات، سافرت هدى شعراوى إلى روما وأدرجت

الاتحاد النسائي المصرى فى التحالف الدولى لحق المرأة الانتخابى (والذى أصبح فيما بعد التحالف الدولى للمرأة). وهذا التحالف الذى أنشئ فى برلين عام ١٩٠٤، بفضل سوزان ب. أنتونى وكارى تشابمان كات، أعلن عن أهدافه: "(١) تشجيع كل الإصلاحات التى من شأنها ضمان المساواة الفعلية فى الحريات والوضع الاجتماعى وتكافؤ الفرص بين الرجال والنساء؛ (٢) حث المرأة على الاستعانة بحقوقها ونفوذها فى الحياة العامة لضمان قيام وضع كل فرد على أساس احترام شخصية الانسان، بلا تمييز أساسه الجنس أو العِرْق أو الدين، فذلك هو الضمان الوحيد لحرية الفرد؛ (٣) المشاركة فى العمل البنّاء من أجل التفاهم بين الأمم."[٢٩]

وقرار درية الالتحاق بالمجلس الدولى قُدّر له أن يجرّها إلى الصراع الأيديولوجى الموّسع بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، هناك بعيداً عن حدود مصر. وفى نهاية الأربعينيات أصبح الحديث الدائر فى مصر عن التحرر الوطنى وتحرير المرأة يعكس هذا الصراع الأيديولوجى للحرب الباردة. ولم تفكر درية فى الانضمام لتحالف المرأة الدولى، أولا لأن الاتحاد النسائى المصرى كان عضوا فيه، كما أنها استبعدت تماما الاتحاد النسائى الدولى من أجل الحريات الديمقراطية، واعتبرته شيوعيا تماما: "أولئك الشابات المصريات الراديكاليات كن عنصرا مدمراً فى قلب حركتى. ومع حلول الحرب الباردة وتسلل الأفكار الشيوعية، ظهرت القلاقل فى العالم وفى بلادى وفى الأوساط النسائية، مما أدى إلى شيوع الفوضى." وبررّت درية انضمامها للمجلس الدولى فى افتتاحية جاء فيها:

> مأساتنا أن العالم المتحضر لا يعرف عنّا شيئاً ولا عن وضع المرأة ودورها العظيم فى تنشئة جيل جديد والإسهام فى بناء مصر الحديثة. لذلك قررت تسجيل اتحاد بنت النيل لدى المجلس الدولى للمرأة، وأن أعلن للعالم تاريخ المرأة المصرية ودورها البارز فى حياة وادى النيل فى عصرنا الحديث. وليس فى نيتى أن أقدّم ملخصا وجيزا عن أنشطة المرأة المصرية، بل أنوى أن أثبت للأجانب أن حضارتنا عميقة الجذور، يحاول أعداؤنا إنكارها عندما

يدَّعون فى بعض كتابات الجهلة من أدبائهم وكتّابهم، بأن المرأة المصرية مازالت تعيش فى عصر الحريم. وهم يحاولون التقليل من شأننا دوليا بقصصهم هذه عن "تخلف" المرأة المصرية اليوم. ومن المؤسف أن حكومتنا لا تستمع لنصحنا. فمصر ممثلة فى مئات المؤتمرات واجتماعات الأمم المتحدة. ولكن كل ممثليها من الرجال، رغم أن العديد منهم لا يتقنون اللغات الأجنبية. وبالتالى يحرم العديد من نسائنا المثقفات من تمثيل مصر لمجرد كونهن نساء، وهو موقف شبيه بفكرة الأجانب عن الحريم. ويدل ذلك أيضا على أن المرأة المصرية لم تصل بعد إلى مستوى غيرها من نساء العالم، وهى غير قادرة على تمثيل بلادها فى أى مؤتمر دولى. كما نما إلى علمى أن مصر سوف يمثلها رجال فى أى مؤتمر نسائى تعقده أى حكومة! ولا أكف عن مطالبة الحكومة بإعادة النظر فى موقفها. ونصحت أن ترافق مجموعة من المثقفات مندوبينا للمشاركة فى المؤتمرات الدولية، لأن ظهورهن فى مثل هذه الاجتماعات أو المؤتمرات يضع بلادنا فى مصاف الأمم التى تحترم المرأة وتعرف أهمية دورها فى حياة الأمم.(٣٠)

وفى زيورخ قابلت درية نساءاً من بلاد أخرى، هن أيضا يكافحن من أجل حقوقهن، "فحتى المرأة السويسرية لم تحصل على حقوقها." وأعجبت كل الإعجاب بالسيدة الدكتورة جان ادر، رئيسة المجلس، "فهى خير مثال للمرأة ذات التعليم الراقى فى الحياة العامة، ولما عرفتها وجدت فيها المثل الحى للمستوى الأخلاقى والثقافى الرفيع الذى يجدر بالمرأة أن تتطلع اليه، خاصة

فى لحظات الأزمات الدولية عندما تكتسى الحاسة النسائية الخاصة أهمية كبرى." ومن الواضح أن السيدة أدر هى الأخرى أعجبت بدرية، إذ أوصت بدعوة 'اتحاد بنت النيل' لتشكيل المجلس الوطنى للنساء المصريات، ومعنى ذلك أن يمثل 'اتحاد بنت النيل' كل المنظمات النسائية فى المجلس الدولى، ويضمن عضوية درية شفيق فى اللجنة التنفيذية للمجلس. وهى أمور تشكل، من وجهة نظر درية، إنجازاً وإن ترتبت عليها فيما بعد مشاكل أخرى.

****

ومن سويسرا سافرت إلى باريس لتقابل صديقها، ناشر المقاومة المعروف ببير سيجير الذى كان قد نشر أول ديوان من أشعارها المختارة، بعنوان "La Bonne Aventure" ، وذلك فى مجموعته المرموقة 'أشعار'.[٣١] وأسس سيجر داره للنشر أيام الحرب ليدعم شعراء المقاومة من أمثال لويس أراجون وبول الوار وبيير رفردى وغيرهم من الشعراء الأجانب مثل بابلو نيرودا وفدريكو جارسيالوركا والزا تريوليه، ولكنه ألف أعمالا عديدة، منها الشعر والنثر والأغانى والأفلام. فلما مات فى ٤ نوفمبر ١٩٨٧، كتب جان أوريزى ينعيه، فقال: "فقد الشعر أخلص محبيه وأشد المدافعين عنه ... ومن المناسب أن نتذكر أن سيجر كان فوق كل شىء شاعر 'اللذة والهوى'.[٣٢] وكانت درية شفيق قد التقت به لأول مرة فى القاهرة بعد الحرب، عندما جاء سيجر مبعوثا من وزارة الخارجية الفرنسية ليمثل أدباء المقاومة:

> قالوا لى: "اذهب واحمل لاصدقائنا المصريين تحية شعراء فرنسا الذين وقفوا موقفا مشرفا ضد الألمان". واستقبلنى سفيرنا كوف دى مورفيل. فحاضرت فى الإسكندرية والقاهرة، وبعد محاضرتى فى القاهرة، تقدمت نحوى وتحدثنا. كانت فرنسيتها طليقة. ممتازة! وشعرنا بشىء ما يربطنا، ثم اكتشفنا أن بيننا أموراً عديدة مشتركة. وأذكر أنها دعتنى بعد المحاضرة إلى مكتبها فى دار النشر، وأطلعتنى على 'المرأة الجديدة'، وقرأت لى بعضا من أشعارها. جاذبية حقيقية قرّبت فيما

بيننا. وأخبرتني بقــرب ذهابــها إلــى
باريس، وبالفعل لما جاءت بعد بضعــة
شهور، دعوتها لتناول الغــذاء وبــدأت
صداقتنا منذ اللقاء الأول. نعم! قـــامت
صداقتنا على الشعر![٣٣]

وكما أن لهدى شعراوى الفضل فى تشجيع ودعم درية فى حماســها النسائى، وللأميرة شويكار فضل إتاحة الفرصة لها لتوجه سعيها الدءوب عن رسالة فى الحياة نحو الصحافة، فيمكن القول أن بيير سيجر هــو الشــخص الوحيد فى حياتها الذى تبيّن وقدّر وشجّع روح الشعر الكامنة داخلها. فمنــذ لحظة لقائهما الأول عام ١٩٤٧، أصبح سيجر موضع ثقتها، وناقدها الأدبــى وناشر أعمالها، وفوق كل ذلك، أستاذها في عالم الشعر الحديث: "لم تأت إلى باريس لرؤيتي فحسب، وإنما جاءت لعدة أسباب أخــرى. كــانت مشــغولة بمجلاتها ومطبوعاتها ونضالها من أجل حقوق المرأة. كان نشاطها مذهــلاً. ولكنى أعتقد أنها لم تأت لباريس مرة دون أن تلتقى بى. وهذا موضوع آخر، فعالمي ومجال عملي هو الشعر وهذا ما كان يربطنا؛ فراحت صداقتنا تــزداد عمقاً."[٣٤]

وشجعتها صداقتها بسيجر على اكتشاف "شاعريتها الحميمة" والتعبير عنها؛ فهكذا وصف سيجر أسلوبها الخاص:

أشعارها المبكرة، بداية وبشارة، مقدمــة
لعملها. فهى أكــثر إشــعاعا ونعومــة
حريرية من أشعارها اللاحقـــة. هــى
أشعار تبشر وتعلن عن مولد الشــاعرة.
ولكن الشعر كما تعرفون مثــل ســائر
الفنون. لا أستطيع القول إنها "أفضــل"،
فذلك يفترض أن أشعارها الأخرى أقــل
شأنا. وإن كنت أظـــن أن بــها قــوة
واندفاعا وصرامة مـــا، إلــى جــانب
الرصانة، مع تيار مستتر من الاقتــدار،
فى أعمالها اللاحقة التي تفوق أشــعارها
الأولى. فهذا الشعر الأخير يتغلغل فــى
أعماق وأعماق. هو شعر يــبرز فيــه

الفكر والتأمل والحياة الداخلية. هو أكثر مهابة إن شئتم، وهو ما يحقــق وعـد أشعارها الأولـــى، حتــى وإن كــانت مازالت بداية. وفيما بعد، نشعر بتلــك الجدية التى تستمر حتى الموت. ومــن وجهة نظر الشعر المصرى المعــاصر باللغة الفرنسية، فدريــة شــفيق هــى، لاشك، أول كاتبة مصرية، إن كان هـذا لا يعنى الكثير، لقلة عددهـــن. ولكــن بصفة عامة، وإذا نظرنا إلى الشـــعراء رجالا ونساءاً والى الشعر عامة، فـــهى شاعرة كبيرة، شاعرة مصرية كبــيرة. هى الأصل وهى المنبع العميق للشــعر الداخلى الحميم. فهى فى مصاف أفضل الشعراء، وهى ليست من الهواة مثـــل البعض، بل هى من الجادين.(٣٥)

وكان فى نشر أشعارها ما يملؤها ارتياحاً فى خضم حياتها المليئـــة بالصراعات، كما أسعدها أن ينال شعرها تقدير واحد من أهم الناشرين فـــى فرنسا: "حاجتى لكتابة الشعر لا تقل عن حاجتى للتنفس! لقد تذوقت الشـــعر منذ السنة الأولى لدراستى فى باريس، ومر وقت طويـــل قبـل أن أدرك أن الشعر تعبير عن المطلق. واستطعت بفضل نشر كتيب أشعارى أن أضفـــى بعداً ملموساً لذلك المنتهى الكامن بداخلى والذى لم أستطع صياغتـــه؛ لتلــك الشعلة الكبرى التى أشعر بها تتحرك ولكنى لا أستطيع أن أفصح عنها."

وتبادلت درية مع سيجر الرسائل والقصائد على مر السنين، فكـــانت ترسل له عيّنات من أعمالها، تستطلع رأيه فيها، ويرسل هو كتبه المنشـــورة تحمل إهداءات حارة. وعكفت درية على كتابة عمل ضخم بـــدأت بتســميته 'المسيح الأحمر' ثم عدلت العنوان إلـــى 'الخـــلاص' ، وهـــو عمـــل ملـــىء باستعارات منتقاة من ذكريات طفولتها عن الزجـــاج الملـــوّن فـــى مدرســـة الراهبات. وكتب بيير سيجر يقول لها عام ١٩٥٦: "لقد اقتربت مـــن بـــابلو نيرودا ومن (لحظات التجلى) لهنرى بيشت، وهما مثال يحتذى فى جمعـــهما بين التلقائية والاجتهاد."(٣٦)

ولم يكن الشعر بالنسبة لدرية تسلية، بل كان أساسيا كجزء من كيانها، ونحن نتعرف عليها كامرأة من خلال شعرها. فكما قال سيجر: "كانت امرأة شاعرة. لا أقول إنها كانت تعبُد الشعر، بل كانت شاعرة. هذا كل ما فى الأمر. وكل هذا الحماس والتشبب فى رأيى ينبىء عن إنسان لا يتسم بالهدوء؛ فهناك حاجة ملحّة وقلق واحتياج، وكلها أمور لا هدوء فيها ولا رتابة. فهناك دائما هذه الحرارة التى تشبه النار، والنار تأكل نفسها. هكذا كانت درية. هكذا كانت لأنها كانت فنانة؛ وكانت امرأة فكر."[٣٧] وهذا التقدير من جانب واحد من "شعراء الاندفاع والهوى" فى فرنسا شجع درية على الاستمرار. فكتبت ديوانا ثانيا عنوانه 'الحب الضائع'(١٩٥٤) [٣٨]. والكثير من قصائدها نُشر بداية على صفحات 'المرأة الجديدة' إذ إن 'بنت النيل' كانت أداتها للتعبير عن أفكارها النسائية، أما 'المرأة الجديدة' فكانت متنفساً لحسها الجمالى الذى كان لا يقل أهمية فى حياتها عن سعيها نحو رسالة سياسية.

وهذا التوتر فى داخلها بين عاشقة الجمال وبين المناضلة، زاد من غموض صورتها العامة وزاد من قناعة المسلمين المحافظين بأن درية شفيق صنيعة المجتمع الغربى، وأنها تحاول تقويض القيم الإسلامية للمجتمع. وتعرضت درية لنقد صارم من جانب الأصوليين بسبب أفكارها الحديثة عن دور المرأة فى حياة الأمم، وكذلك سبب سفرها إلى أوروبا وحدها للانضمام لمنظمة نسائية غربية، لأنهم كانوا يرون فى مشاركة المرأة فى الحياة العامة فتنة.[٣٩] واعتبروا انضمامها لمنظمة نسائية دولية دليلا جديداً على مؤامرة مشتركة بين الاستعمار والصهيونية. رأوا فيه هجوماً على بنية الأسرة المسلمة التى هى عماد المجتمع الإسلامى، هجوماً من قوى تتستر فى شكل حركة نسائية. فكل مطالبة بحقوق سياسية للمرأة وكل محاولة للحد من تعدد الزوجات ومن حق الزوج فى تطليق زوجته، اعتبروه مؤامرة امبريالية لتقويض البنية الاجتماعية فى مصر.

فلما عادت درية من أوروبا، شعرت بوخز النقد العلنى عندما هاجمتها جماعة من الأصوليين اسمها 'شعلة محمد' متهمة إياها بأنها عميلة لأعداء بلادها:

> للاستعمار ألاعيب وحيل عديدة،
> والحركة النسائية المصرية فى ظل
> المجتمع الإسلامى كانت فى حاجة إلى
> مؤامرة درامية تعطيها دفعة وتحقق

الهدف المطلوب في أقل وقت ممكـــن. وهي بالتالي كانت فـــي حاجـــة إلـــى شخصية تقوم بدور المعارضة في لعبـة العملاء هذه وفي مجال المرأة. فجـاءت أولا هدى شعراوى التي أسست الاتحاد النسائي المصرى، ثم جاءت الثانية التي أسست الحزب النسائي الوطني وجددت في أساليب الفساد. أما الثالثـــة فكـــانت حزب 'بنت النيل' الذى يسعى إلى إنقـاذ المرأة من الرجل واســـترداد الحقـــوق الضائعة للمــــرأة. ومـــن هـــي هـــذه الشخصية التي تقوم بدور المغــــامرة؟ إنها درية شفيق التي أسست حزب بنت النيل سنة ١٩٤٩ وسافرت بعدها وفـــي غضون شهر إلى انجلترا التي كان لـــها في ذلك الوقت مـــن القـــوات المحتلـــة للوطن ما يربو على ٨٥,٠٠٠ جنـــدى. وهناك اســـتقبلها رؤســـاء الحكومـــات والزعمـــاء ورحبـــت بـــها الصحافـــة البريطانية، وسلطت عليـــها الأضـــواء ونشـــرت لـــها الأحـــاديث ووصفتـــها بالزعيمة الأولى في مصر والمناضلـــة من أجل تحرير المرأة من قيود الإسلام ومن عبء الحجاب وآفة الطلاق وتعدد الزوجات، فكتب محرر فـــي جريـــدة الأسكتلندى عن أهداف حـــزب 'بنـــت النيل' كما أعربت عنها درية شـــفيق، فقال: (١) الحصول على حق الانتخاب ودخول البرلمـــان، (٢) إلغـــاء تعـــدد الزوجات (٣) إدخال قوانين الطلاق في مصر! وأفكار هذه المرأة "المشـــبوهة" إنما هي تحريض من الاستعمار مـــن خلال المؤسسات الاستعمارية![٤٠]

فلما عاد الوفد إلى السلطة بقيادة مصطفى النحـــاس للمـــرة الثالثـــة والأخيرة فى يناير ١٩٥٠، بدت الظروف فى المجتمع مواتية لظهور نشـــاط سياسى حاسم. فقد رُفع قانون الطوارئ وتم الإفراج عن الأحزاب المعارضـــة فبدأت تعيد تشكيل صفوفها واستأنفت الحركات الوطنية والمناهضة للاستعمار نشاطها، وبدأت الجامعات تنبض من جديد بالنشاط السياسى. فأحسّت دريـــة شفيق بهذا المناخ السياسى المتفتح، فأعلنت عن برنامج طمـــوح للإصـــلاح الاجتماعى يستهدف أساساً "النهوض بالمستوى الاجتماعى والثقـــافى للمـــرأة المصرية وإعدادها لحسن ممارسة حقوقها." وكان أمل درية "أن قيامنا بخدمة بلادنا خدمة جليلة قد يجعل أعداءنا يكفّون عن انتقادنا."

لذلك بدأت درية وزميلاتها بعدد من الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية تم تخطيطها وتوجيهها بوعى نحو خدمة طبقة أخرى من النساء، أى النســـاء العاملات والمحتاجات فى القاهرة. فافتتح اتحاد بنت النيـــل كافيتيريـــا تقـــدم وجبات ساخنة مدعومة لنساء الطبقة العاملة، ثم افتتح مكتب تشـــغيل لطالبـــة الجامعة ونادى بنت النيل، حيث تقام حفـــلات موســـيقية وثقافيـــة للشـــباب المتعلمين من الطبقة الوسطى. كما قام الاتحاد بتنظيم محـــاضرات ونـــدوات عامة "لرفع الوعى السياسى لدى المرأة بشـــأن حقوقـــها وبشـــأن القضايـــا الاجتماعية ذات الصلة." "وتسلل الإخوان المسلمون إلى العديـــد مـــن تلـــك الأنشطة والمناسبات بغية نشر الفوضى والبلبلة." وتتذكر جيهان أنهم كـــانوا يأخذونها أحيانا وهى طفلة إلى 'بنت النيل' لمشاهدة بعض العـــروض، كمـــا تتذكر وقف العرض وانهياره بسبب بعض هذه المحاولات.

أما أكثر برامج درية الإصلاحية طموحا فكان كفاحها من أجل محـــو الأمية المتفشية بين البالغات من النساء فى مصر فى ذلك الوقـــت. وبفضـــل جهود طه حسين، الذى أصبح وزير الوفد للتربية والتعليم، كـــانت الحكومـــة المصرية قد أصدرت قوانين التعليم الإجبارى للأطفال من الجنســـين، ومـــع ذلك ظل ثمانون فى المائة من السكان يعانون من الأمية؛ خاصة الريفيات من النساء وذوات الدخل المنخفض فى المدن. وكانت حجة درية أن المرأة التـــى سوف تنتخِب وتُنتَخَب فى يوم من الأيام، لابد وأن تنال الحـــد الأدنـــى مـــن التعليم على الأقل: "والواجب الأول لكل مواطن هو مكافحة الأمية. أليســـت خدمة جليلة لمصر أن نعلم مواطنينا القراءة؟ ألا تؤدى حملة مثل هـــذه إلـــى رفع المستوى العام للأمة بحيث نؤكد لأعدائنا شرعية مطالبنا؟ فمـــاذا تفعـــل المرأة الأمية بحقوقها السياسية إذا لم تكن تعرف القراءة والكتابة؟"

وهكذا خرجت جريدة 'البروجريه' فى فبراير ١٩٥٠ وبها إعلان يقول: "تنشئ درية شفيق وأعضاء اتحاد بنت النيل أول مدرسة لمحو الأمية بين صفوف المرأة المصرية، وذلك فى حى بولاق الشعبى."[٤١] وناشدت درية وزير التربية والتعليم ليمنحها بركاته ومساعداته. فوافق على استخدام مبنى المدرسة الحكومية الابتدائية فى بولاق بعد الظهر. أما الصعوبة فكلنت فى إقناع نساء بولاق بالحضور إلى المدرسة ليتعلمن القراءة والكتابة، "ومرَّت شهور ثلاثة دون أن تأتى امرأة واحدة."

ولجأت درية إلى حيلة لتجتذب النساء إلى المدرسة. وعصر يوم، بعد أن حصلت على منح محددة من اليونيسف، وجهت درية الحديث للشابات فى المدرسة قائلة: "أخبرن أمهاتكن وشقيقاتكن بأن كل من تأتى هنا غداً فى الساعة الثانية ستحصل على هدية مكونة من ربطة رأس ومشط وقطعة صابون وحلوى." وفى اليوم التالى، فى الساعة المحددة، رأيت وأنا أدخل الشارع جمعاً غفيراً عند مدخل المدرسة: حوالى خمسمائة امرأة جئن مع أطفالهن يتسلمن الهدية، فكسروا البوابة وارتفع بكاء الأطفال وصراخ المديرة. ووقفت على مقعد وأخبرت النساء المحجبات الصارخات بأن كل واحدة منهن ستحصل على هديتها كما وعدنا، شريطة أن يلتزمن الهدوء أولاً. وران الصمت والهدوء فجأة، مما يدل أن كلماتى لها صدى فى قلوبهن. وشعرت بأنهن يثقن بى. وقسمناهن إلى فصول حسب السن. وكان من الواضح أنهن ما إن يحصلن على الهدية فلن يخطون عتبة المكان ثانية. فاستبقيتهن برهة معلنة بأنهن سيحصلن فى بداية كل حصة على فستان وسوف يتعلمن كيف يصنعن مثله، وأن هدية سوف توزع فى خلال كل شهر، دون تحديد موعد لتوزيعها. كما وعدت كل واحدة منهن بمريلة جميلة إذا جرؤن على الخروج دون حجاب. وفعلن بالفعل!

وبعد مرور ثلاثة شهور من الدروس، عُقد امتحان عام بإشراف وزارة التربية والتعليم ودُعى الصحفيون للاشتراك فى حفل التخرج. وتقول درية أن ثمانين فى المائة نجحن – رغم أن امرأة طلقها زوجها لأنها جرؤت على الاشتراك فى ذلك البرنامج "فهو أمى ولم يحتمل فكرة أن تتعلم زوجته شيئاً يظل بعيداً عن متناول يده."[٤٢]

وبعد حملة محو الأمية هذه فى بولاق بفترة وجيزة، ظهرت صورة درية على الصفحة الأولى 'للجورنال ديجيبت' تحت عنوان رئيسى بالبنط العريض يقول: "طبقاً لحملة دعاية منظمة وجيدة وتحت بصر المصور، أبلت

درية بلاءاً حسناً، حيث أثبتت أن التطور الاجتماعي هو عبارة عن التخلص من الجذور الاجتماعية!"، وتحت الصورة مقال ساخر عنيف، من المفترض أنه بقلم سيزا نبراوي، تحقر فيه من محاولات درية في مجال الإصلاح الاجتماعي، وتدّعي أنها ومعها كاميرا المصور "اصطحبت فتاة من حي فقير إلى مسكنها الأنيق حيث أمرت بأن تستحم وألبستها ملابس نظيفة وأعطتها بعض الحلوى وعلمتها أصول التصرف العصري ثم أعادتها إلى بيتها. وهذا يثبت أن درية شفيق تتصرف بدافع من رغبتها في الدعاية لنفسها لا لإصلاح المشاكل الاجتماعية الخطيرة."(٤٣)

وفي نفس الوقت كانت سيزا نبراوي قد أصبحت رئيسة الاتحاد النسائي المصري، وتعمل من أجل الإصلاح الاجتماعي وفقا لاستراتيجية مختلفة تماماً. وكذلك انجي أفلاطون التي انضمت مع العديد من المتعاطفين مع اليسار إلى منظمة محلية هي 'أنصار السلام'. وكتب طارق البشري يصف تلك المجموعة: "كان 'أنصار السلام' يؤكدون بحرص أنهم ليسوا بحزب سياسي، ولا يعتنقون نظريات سياسية، بل هم مجرد لجنة لها هدف واحد – العمل من أجل السلام العالمي وتوحيد كفاح شعب مصر مع كفاح الشعوب الأخرى في العالم من أجل تحقيق السلام. وهي لجنة تؤيد الشيوعيين والوفديين والوطنيين والاشتراكيين والإخوان المسلمين، شريطة أن تتضمن برامجهم الدعوة للسلام وأن تنص سياساتهم على طرد الاستعمار من مصر ورفض قبول أي تعاون عسكري يحرم مصر من استقلالها أو يدفع بها إلى دخول حرب. أما أعضاء أنصار السلام فكانوا خليطا من كافة الأحزاب السياسية."(٤٤)

وقامت سيزا ومعها إنجي بتشكيل 'لجنة الشابات' في داخل الاتحاد النسائي المصري. فأصبحت اللجنة مظلة لنشاط النساء المؤيدات للشيوعية واللائي لم تسمح لهن الحكومة بإنشاء منظمة خاصة بهن. وكان لدخول هذه "الدماء الفتية" على الاتحاد فعل تنشيط المنظمة التي كانت قد فقدت تأييد جيل الشباب من النساء اللائي اندفعن بأعداد متزايدة نحو اتحاد بنت النيل'. وركزت لجنة الشابات نشاطاتها في الأحياء الشعبية، وكانت الفكرة هي تنظيم نساء تلك الأحياء حول قضايا محددة مثل الصحة والتعليم، وذلك لتوعيتهن بقوتهن السياسية وبمسئولية الدولة تجاههن، وكذلك إرشادهن إلى حقوقهن. وكانت الأيديولوجية وراء ذلك العمل تسعى بوضوح إلى تسييس نساء الطبقة العاملة ومدهن بما يلزم لتنظيم صفوفهن. والصلة التي تسعى أولئك التقدميات لإقامتها في داخل الأحياء الشعبية تستهدف إدخال نساء الطبقة العاملة في

المدن إلى ميدان السياسة. ولكن هذا التحالف الوثيق مع حركة أنصار السلام أدى في النهاية إلى استقالة سيزا من الاتحاد الذى دأب على إنكار أى صلة له بالسياسة، مؤكدا أنه تنظيم اجتماعي ليس إلا. ولم تكن إنجى أفلاطون ولا سيزا نبراوى تتعاطفان مع درية شفيق أو مع اتحاد بنت النيل، ودأبتا لمدة سنوات طويلة على انتقاد جهودها وتوجيه النقد لها.

ولكن درية لم تتأثر بالدعاية المضادة، فهى تدرك تماما أن محو الأمية ليس مسألة توزيع صابون وحلوى على الفقيرات الأميات، فأسست هى والاتحاد مراكز تدريب فى أحياء أخرى بالقاهرة وفى مدن الأقاليم الكبرى "حيث تتعلم النساء مبادئ القراءة والكتابة وبعض أسس الرعاية الصحية، وكذلك حرفة ما تساعدهن على زيادة دخل الأسرة. ثلاثون مركزا يعملون الآن، تتردد عليها سنويا آلاف النساء. وكانت كل المتخرجات من برامج محو الأمية والتأهيل يصبحن بالتبعية عضوات فى الحركة. أما مراكز الأقاليم، فتشرف عليها لجان محلية منتسبة للجنة المركزية لبنت النيل فى القاهرة. ولكل لجنة إقليمية مسئولوها المنتخبون، وهى تقدم تقريراً سنويا بنشاطها وميزانيتها للقاهرة. والهدف هو محو الأمية فى بضع سنوات."[٤٥]

وانشغال درية المتزايد ببنت النيل جرّ عليها انتقادات المجتمع، بل وأثر سلباً على علاقتها بزوجها. فشعرت

> باحساس غربة متزايد بيننا، وحالة عدم ارتياح وحزن تدخل بيتى. فراغ دخل بيتى فى غيبتى. كنت قد رحلت إلى أوروبا، رغم اعتراض نور الصامت ورغم دموع عزيزة وجيهان فى المطار. يبدو أنهما شعرتا أنها أولى سفرات عديدة، وأن رسالتى الجديدة ستبعدنى عن بيتنا أكثر فأكثر. وهذا الصراع بين التزامي برسالتى وأسرتى التى من المفروض أن أكون عمادها، قدر له أن يتصاعد كل يوم. فكانت بالنسبة لى مشكلة لا يواجهها الرجال عادة فى حياتهم العامة: هذا التنازع بين واجباتى كأم وكزوجة، وهى أكثر

إلزاما من واجبات الأب والزوج، وبين
المسئوليات الجديدة لرسالتى، وهى
ليست أقل إلزاما، وقد تغلغلت فى نسيج
قدرى.

وهذا الصراع الداخلى كان يعكس الصراع السياسى الذى يموج حولها. ومع ذلك فلم تتنازل درية عن كفاحها من أجل حقوق المرأة. وأصبح شعارها "كل من يطالب بالكثير عليه أن يعطى الكثير".

فلما جاءت نهاية عام ١٩٥٠، بدأ اسم درية شفيق ينتشر فى مصر والشرق الأوسط، أساساً بفضل نجاح مجلتيها. كذلك انتشر اسم 'بنت النيل'، لا بين النساء المتعلمات من الطبقتين الوسطى والعليا فى القاهرة والأقاليم فحسب، وإنما أيضا بين الفقيرات فى الأحياء الشعبية بالمدن. ومع ذلك فقد ظل اسم درية شفيق وغيرها من المناضلات مجهولا بين ملايين الفلاحين الفقراء والمعدمين.

ومما لا شك فيه أن شهرة درية امتدت على صعيد القطر. وهى شهرة أسهمت، مع نبرتها النضالية فى تجديد اتهامها بأنها "عميلة أجنبية" تدعمها القوى الإمبريالية الغربية لمحاولة تقويض قيم الإسلام.[٤٦] فهى لم تكن جميلة وجذابة فحسب، بل نجحت أيضا فى إقامة صلات اجتماعية وثقافية فى كافة الأوساط المصرية والأجنبية. وكانت تتحرك فى المجتمع بحرية غير معهودة، ولا تخشى أن تُلتقط لها الصور، على سبيل المثال، مع كبار ممثلى ذلك الوقت: ولها صورة مع مجموعة منهم – يوسف وهبى ومختار عثمان وحسين رياض، التقطت فى دار الأوبرا القديمة بالقاهرة ومعروضة الآن بمتحف دار الأوبرا الجديدة. أما أخبارها فكانت تنشر سلبا أو إيجابا على الصفحات الأولى لكبرى الجرائد والمجلات، مما أدى إلى رسم صورة عامة لها أصبحت مثار جدل.

وأصدقاؤها الذين كانوا يعملون معها عن كثب فى اتحاد 'بنت النيل'، كانوا يرونها "شخصية مشهورة، سيدة مصر العظيمة. تملأ صورتها الصحف، جميلة دائما، مدعوة من الأميرة فايزة وغيرها من العظماء والشخصيات، وتتشرف السفارات باستقبالها. فهى معروفة بين صفوة المجتمع. يقدرونها وكأنها أنديرا غاندى. وكان البعض من الطبقات الدنيا يعرفونها من خلال مدارس محو الأمية، والطبقة الوسطى تعرفها من

مجلاتها. ولم تكن تنتمى إلى أى حزب سياسى. كما كانت تقول إن على كل الحكام وكل الناس أن يعملوا من أجل رفاهة مصر، أيا كان انتماؤهم الحزبى، مثلهم فى ذلك مثل اتحاد بنت النيل. لقد كانت هى بنت النيل".[٤٧]

أما بالنسبة للآخرين الذين يعرفونها مما يقرأون فى الصحف، وهم الغالبية، فكانت لغزا يصعب تصنيفه أو فهمه. فهى تجمع بين علاقات صداقة وطيدة بالأميرة فايزة، وفى نفس الوقت تكافح صراحة ضد الظلم الاجتماعى الذى يفرضه النظام الملكى الذى تنتمى إليه صديقتها. ويُنشر شعرُها مع شعر أدباء ما بعد الحرب فى القاهرة،[٤٨] ومع ذلك فبعض مثقفى هذه الفترة اعتبرها أديبة ثانوية: "اندفاعها يعطى انطباعاً بالسطحية. وهى تسير على أكثر من درب، متقلبة، لا تتمسك بفكرة ولا تتعمق فى اتجاه واحد. تلبس آخر صيحة فى الأزياء". كانت درية مختلفة، أنيقة أكثر من اللازم، وأجمل من أن تُعتبر أكثر من مجرد 'سيدة صالون'.[٤٩] وهى صورة التصقت بها، وتظل حتى اليوم عالقة فى أذهان العديد من المصريين، عن درية شفيق 'الحقيقية'. ومع ذلك فجهودها السياسية على مدى السنوات السبع اللاحقة لخير دليل على عكس ذلك!

(٩)

اقتحام البرلمان (١٩٥١)

وظلت الحرية الممنوحة حتى ذلك الوقت على سطح بنيتنا الاجتماعية، لم تمس قيود المرأة المصرية. فلن يمنح المرأة أحد حريتها سوى المرأة نفسها. أن ننتزع الحرية بالقوة، ما دام جدالنا على مدى ثلاث سنوات لم يفض إلى شيء. أن نستخدم العنف مع الذين لا يفهمون سوى لغة العنف. وقررتُ أن أحارب حتى آخر قطرة دم لأحطم الأصفاد التى تقيد نساء بلادى فى السجن الخفي الذى ما زلن يعشن فيه؛ سجن أشد وطأة لأنه مستتر.

ومع بداية الخمسينيات، أصبح القلق السياسى السائد فى البلاد أكثر عنفاً. فبالإضافة إلى الاحتجاجات التى كان ينظمها اليسار والإخوان المسلمون، تصاعد النزاع بين القوى الوطنية من جانب وبين البريطانيين والقصر المصرى من جانب آخر، مع ترابط تطور الأحداث كلها، بمعنى أن الجماعات الراديكالية أعلنت عن رفضها لأى حل وسط فيما يتعلق بالاستعمار البريطانى. وأكد النحاس باشا أن اتفاقية سنة ١٩٣٦ بين إنجلترا ومصر لم تعد قائمة، وأن الجلاء البريطانى التام مسألة ضرورية من أجل استقلال مصر. أما البريطانيون ووراءهم ثلاثة أضعاف عدد القوات المنصوص عليه فى المعاهدة، فقد كثفوا هجماتهم على جماعات المقاومة المصرية المختلفة.

وهنا برزت درية شفيق فى صورة راديكالية جديدة، تعبر عن احتجاج نسائى نضالى لم يسبق التعبير عنه فى الحركة النسائية فى مصر. ويقول لطفي الخولى، "مع بداية الخمسينيات، بدأت درية تتحدث بلغة سياسية واجتماعية أعتقد أنها أصابت نور الدين بالدهشة. وبدأت تدخل المعركة السياسية، فحولت 'بنت النيل' من حركة لا هدف لها سوى تحرير المرأة البرجوازية، إلى حركة تربط تحرير المرأة بالكفاح السياسى الأعم. ومن هنا برز ربط الديمقراطية بالعدالة الاجتماعية وبالتنمية الاجتماعية، وتبنت درية

جدول أعمال أكثر تسيساً. واقتنعت تدريجيا، ولأول مرة، بفكـــرة الخـــروج بالاحتجاج إلى الشارع."(١)

ثلاث سنوات كانت قد مرت على إنشاء الحركة، ونفذ صـــبر دريـــة إزاء عدم قدرة أو عدم رغبة النحاس الوفاء بتعهدات الوفـــد. وفـــى مقـــال افتتاحى عنوانه "الحر يفى بوعده"، طرحت درية سؤالا سافرا على قرائـــها: "لماذا نتشكك فيما يقوله رئيس الوزراء؟ ألم يعلن ســـعادة مصطفـــى باشـــا النحاس فى الصيف الماضى أن هدف الوفد الأساسى هو أن يمنـــح المـــرأة المصرية حق الانتخاب؟ ومن ينكر أن سعادته رجل المبادئ؟ فقد كان سعادته من زعماء الحركة الوطنية، ورأى بنفسه إسهام المرأة المصرية فى الكفـــاح الوطنى، سياسيا كان أو اجتماعيا أو اقتصاديا. فقضيتنا إذن فى يد من يعرف الوفاء بالوعد." وقررت أن الوقت قد حان لتبّنى تكتيك مختلـــف، "مهاجمـــة الرجال وضبطهم متلبسين بالظلم، أى تحت قبة البرلمان نفسه".(٢)

* * *

وخطتها المحكمة تخطيطا والناجحة تنفيذا لاقتحام البرلمان المصـــرى عصر ١٩ فبراير سنة ١٩٥١ كانت أكبر مفاجأة للمجتمع، فأثـــارت خيـــال الصحافة الوطنية والدولية كما ضاعفت من هجوم أعدائها. وتحركت دريـــة من قاعة ايوارت بالجامعة الأمريكية فى القاهرة ومعها نحو ألف وخمســـمائة امرأة، وسارت جنوبا فى شارع القصر العينى واقتحمـــت بوابـــة البرلمـــان وقادت مظاهرة صاخبة لمدة أربع ساعات حتى استُقبلت أخيراً فـــى مكتـــب نائب رئيس مجلس النواب، وانتزعت من رئيس المجلس وعداً بـــأن ينظـــر البرلمان فوراً فى مطالب المرأة.

وهذا التحدى الجزئى للحصن الحصين لســـلطة الرجـــل، وتنظيمـــه وتنفيذه، كان شهادة نجاح للتخطيط السرى وعنصر المباغتة الذى دبرته درية وزميلاتها، وكن قد أقسمن على القرآن ألا يفشين الخطة لأحـــد، ولا حتـــى لأزواجهن. كانت "مسألة تخصنا وحدنا، فلماذا ندخل فيها الرجـــال؟". وقبـــل المظاهرة بشهر واحد، وأثناء اجتماع المجلس التنفيذى لبنت النيـــل، أثـــارت درية دهشة الحضور بقولها: "نحن نلهو فحسب." ثـــم هبـــت مـــن مكانـــها وضربت المائدة بقبضة يدها صارخة: "يجب أن نخرج إلى الشـــارع!" ثـــم جلست وأضافت بصوت خافت، "لماذا لا ننظم مظاهرة؟" وساد الغرفة صمت

عميق، ثم طرحت واحدة سؤالاً، "وإذا فشلنا؟" "نكون وحدنا المسئولين عن فشلنا. ولكن لابد من الاحتفاظ بالسرية!".[٣]

وبالفعل حافظن على السر شهراً كاملاً بينما استمرت الإعدادات لما قيل إنه مؤتمر نسائي موسع. وظل عنصر المباغتة سراً حتى وقفت درية على منصة قاعة ايوارت معلنة:

> اجتماعنا اليوم ليس بمؤتمر ولكنه برلمان. نعم برلمان صحيح! برلمان النساء! فنحن نصف الأمة! نحن نمثل هنا أمل ويأس ذلك النصف الحيوى من أمتنا. ومن حسن الحظ أن اجتماعنا هذا ينعقد فى نفس الساعة ونفس الحى الذى يجتمع فيه برلمان النصف الثانى للأمة. وهم مجتمعون على بعد خطوات منا، وأقترح أن نذهب إلى هناك، تدعمنا معرفتنا بحقوقنا، وأن نخبر النواب والشيوخ أن اجتماعاتهم غير قانونية مادام تمثيلنا مرفوضا، وأن البرلمان المصرى لن يصبح صورة أمينة للأمة كلها حتى تدخله النساء. فلنذهب ونقول لهم ذلك صراحة. فلنذهب ونطالب بحقوقنا. إلى الأمام نحو البرلمان!

فكانت اللحظة لحظة تاريخية فعلاً، لا بالنسبة لدرية فحسب ولكن بالنسبة للحركة النسائية كلها. أما الصحافة التى تابعت الأحداث المحيطة بمظاهرتها الجريئة فعلقت: "كان هذا هو الاجتماع العام المشترك الأول، نظمته مجموعتان أهدافهما واحدة وإن اختلفتا تاريخيا. أولهما الاتحاد النسائى المصرى وأسسته هدى شعراوى التى دخلت المعركة منذ ثلاثين سنة وروح الثورة الوطنية تجتاح البلاد. أما الثانية فهى حركة بنت النيل التى ترفع راية الشباب. وعزمت المنظمتان على التعاون وعلى العمل سويا".[٤]

والدليل على جدية درية شفيق، دعوتها لسيزا نبراوى - "وأعتقد أننا تصالحنا" - لتنضم إليها فى المظاهرة "لنوحد أكبر عدد ممكن من النساء،

بغض النظر عن اختلافهن أيديولوجيا أو فى الطباع، حتى نثبت للمجتمع تضامن كل النساء فى المطالبة بالحقوق السياسية والمدنية، ولنثبت بذلك التضامن قدرتهن فى التأثير على المجتمع."(٥) وكان أحمد الصاوى، عريس درية السابق، يعرف ما بينها وبين سيزا من تنافر، فكتب فى الأهرام معلقاً: "لم يكن من المتصور أن يأتى يوم نرى فيه سيزا نبراوى ودرية شفيق تتبادلان القبلات فى الشارع، ولكن هذا هو ما حدث أمس بالفعل."(٦)

وبفضل مسيرة الاحتجاج هذه أمكن لوفد نسائى أن يطالب للمرة الأولى وفى قاعة البرلمان بحقوق محددة: أولاً، السماح بالاشتراك فى الكفاح الوطنى والسياسة؛ ثانيا، إصلاح قانون الأحوال الشخصية بوضع حد لتعدد الزوجات وتقنين الطلاق؛ ثالثا، تساوى الأجور عن العمل المتساوى. ولما اقتحمت مجموعة من النساء بقيادة درية مجلس النواب، قابلهن نائب الرئيس، وكان جمال سراج الدين،(٧) الذى عاتبهن على عدم قانونية تصرفهن. فأجابت درية: ."نحن هنا بقوة حقنا." فقال نائب الرئيس: "قولى لفتياتك أن يمسكن ألسنتهن". فهددته درية قائلة: "حاولنا لمدة عامين أن نرفع أصواتنا بالأسلوب السليم. آن الأوان لتسمعونا. وهن لن يسكتن حتى أحصل على وعد منك". ولما رأت أن رئيس المجلس يرفض مقابلة الوفد بنفسه، قررت مقابلة رئيس مجلس الشيوخ، سعادة زكى باشا العرابى، لتقدم له شكواها. ومع الأسف كان غائبا يومها لمرض ألم به. فدخلت درية المجلس ولم تتردد فى الاتصال به هاتفيا: "ياصاحب السعادة، لقد اقتحمنا أبواب البرلمان. وهأنذا أكلمك من مكتبك ومعى أكثر من ألف امرأة يطالبن بحقوقهن السياسية، استنادا إلى تفسيرك أنت للمادة ٣ من الدستور والتى تنص على أن كل المصريين متساوون فى الحقوق المدنية والسياسية. ولقد أعلنت أنت نفسك أن كلمة 'مصريين' تنسحب على النساء والرجال. وليس فى الدستور ما يمنع ذلك. بل هو قانون الانتخابات الذى يغبن المرأة، ونحن على ثقة أنك لن تناقض ما أعلنت."



درية شفيق مع عضوات المجلس التنفيذى لاتحاد بنت النيل فى واحدة من جلسات التخطيط للمسيرة للبرلمان, فبراير ١٩٥١.

وفى مواجهة تلك المقاومة، حاول رئيس مجلس الشيوخ تهدئة السيدة درية شفيق، فأجاب بأنه سيتولى المسألة بنفسه.(٨)

واطمأنت درية لتأكيدات الباشا وكررت ما قالــه لجمهرة النساء الواقفات فى الخارج: "أسفرت مفاوضتنا عن وعد صريح بحصول المرأة المصرية على حقوقها السياسية! وارتفع صوت من الجموع يقول: 'وسنجعله يفى بوعده!' ثم غادرنا البرلمان ونحن نشعر بأننا انتصرنا."

وفى صباح اليوم التالى وصلها خطاب من زوجة سفير الهند تعتذر فيه لغيابها عن مؤتمر الأمس بسبب مرضها، واختتمته بعبارة: "حسناً فعلت! فالله يساعد من يساعدون أنفسهم."(٩) وفى نفس ذلك اليوم، قادت درية مع سيزا وفداً اتجه إلى قصر عابدين حيث تركن صورة من مطالبهن، ثم توجهن إلى مكتب رئيس الوزراء حيث تحدد لهن موعد فى الأسبوع التالى. وبعد اقتحام البرلمان بأسبوع واحد، قدم نائب وفدى، هو أحمد الحضرى،

مشروع قانون لرئيس مجلس النواب بتعديل قانون الانتخابات ومنح المرأة حق الانتخاب والترشيح للبرلمان."[١٠]

بدا وكأن الأمور تسير على خير ما يرام، حتى تراجع رئيس الوزراء عن الموعد الذى حدده لمقابلة الوفد النسائى. وجاءت الصحوة والشعور بأن الوعود الشفوية لا تحترم. فلما تراجع رئيس الوزراء، طلب أعضاء الوفد من مدير مكتبه أن يذكر سعادته بأنه: (١) تعهد رسميا عند انتخابه فى أغسطس ١٩٤٩ بأن تحقيق المطالب النسائية سوف يحتل الأولوية فى برنامج الوفد عندما يعود إلى السلطة، و (٢) أن مصر وقعت على ميثاق الأمم المتحدة الذى يمنح فى مادته الأولى المساواة لكل البشر، بغض النظر عن الجنس. وغادرن المكتب بعد أن رفضن احتساء القهوة التقليدية.[١١] وأطلقت جريدة التايمز اللندنية على الحادث "النحاس باشا يتجاهل المطالبات بحق الانتخاب"[١٢] وكانت الصحافة الأجنبية والمحلية قد تناولت اقتحام درية للبرلمان "باعتباره حدثا مثيرا. ونشرته الـ 'نيويورك تايمز' فى مقال على خمسة أعمدة به صورتان لدرية، واحدة تقرأ فيها كتابا مع جيهان وعزيزة، والأخرى تقود المسيرة إلى البرلمان، وكان عنوانه "المد النسائى الصاعد يدهش مصر: صدمة للمحافظين من المسلمين من جراء تصرف المطالبات بحق الانتخاب باقتحامهن للبرلمان."[١٣]

واستدعيت درية للمثول أمام المحكمة فى ٦ مارس لتسمع النائب العام يوجه لها التهمة رسميا: فأعلنت: "إنى أتحمل المسئولية كاملة عن كل ما حدث، وأنا على استعداد لدخول السجن إذا لزم!." ونظرا لطبيعة القضية، تطوع للدفاع عنها محامون وخاصة محاميات، وكن آنذاك يحاربن فى وجه معارضة قوية من الرجال فى محاولة منعهن من دخول المحاكم، بالإضافة إلى الحيلولة دونهن ومناصب القضاة. وعلى الرغم من وجود عدة مئات من المحاميات فى مصر فى ذلك الوقت، إلا أن تلك العقبات كانت لا تشجعهن على دخول المهنة. وجئن من بعيد، من سمالوط والإسكندرية ومن القاهرة للدفاع عن درية. ولكن درية اختارت سيدة مرموقة للدفاع عن قضيتها، هى مفيدة عبد الرحمن، المحامية الناجحة والأم لتسعة أطفال. "بنت النيل فى المحكمة: قضية السيدة درية شفيق هى الدفاع عن الحركة النسائية المصرية"، وهو العنوان الذى ورد فى الصفحة الأولى لجريدة 'لابورس اجيبسيين'. وجاء فى المقال: "هى قضية أثارت حماس ونشاط المدافعات عن حقوق المرأة فى مصر. والاتهام الواهى الموجه لمؤسسة بنت النيل يستهدف الحركة النسائية المصرية برمتها. فالقضية التى ستنظر فى ١٠ أبريل ١٩٥١ ليست

قضية ضمير، بل مسألة سياسية ســوف تستتبع آثارا محلية ودولية. فالمصريات المدافعات بحماس عن حقوق المرأة لن يترددن فى الاستفادة من فرصة المحكمة لعرض قضيتهن على الحكومة."[١٤]

فلما سئلت مفيدة عبد الرحمن عن خطة دفاعها فـى قضيـة دريـة، أجابت:

> لا يبدو لى أن هناك جريمة فى الذهاب إلى البرلمان لتقديم التماس. أما عن اقتحام البوابة بالقوة، فنحن نعلم أن البرلمان غير محظور على الجمهور، بل ويمكن متابعة الجلسات من جانب المدعوين لذلك. ولكن هل هناك قانون ينص على ضرورة وجود دعوة؟ كلا، لا يوجد مثل هذا القانون. لقد ذهبت النساء إلى البرلمان للمطالبة بحقوقهن، بالحق اللاتى حرمن منه ولم يتمكنّ من الحصول عليه بوسائل أخرى. لابد لأبواب البرلمان أن تكون مفتوحة – مثل الأبواب الأخرى – أبواب المصانع والتعليم العالى والمهن الأخرى. ولكل النساء، الأميات وغير الأميات، نفس حقوق الرجال فى المشاركة فى الحياة السياسية والاجتماعية للأمة.[١٥]

وفى لفتة رمزية، تقدمت أربع طالبات من الجامعة المصرية بالتماس كُتب بدمائهن إلى الملك فاروق يطالبن بحقوق متساوية للمرأة.[١٦] وبعد ذلك بيومين، تقدم مجلس إدارة رابطة السُنّيين بالتماس مضاد إلى السراى، وقعه رئيسهم أحمد حميد الفقى، يطلبون من الملك أن "يضع للنساء حدودا!"

> الحركة النسائية مؤامرة دبرها أعداء الإسلام والملحدون البلاشفة بغية القضاء على ما تبقى من تقاليد إسلامية فى البلاد. ولقد استخدموا النساء، نساء

مسلمات، وسيلة لتحقيق هدفهم. جعلوا المرأة تهجر مملكتها، أى بيتها وحياتها الزوجية وأمومتها. ولقد تبعت المرأة هؤلاء المنافقين وشاركت معهم فى أعمال خيرية تخفى شرا وفساداً. فلم تكتف بالمعارض والمستشفيات والمستوصفات، بل شكلت اتحادات وأحزابا تسعى من خلالها إلى المطالبة بمساواتها بالرجل، وبتقييد الطلاق وإلغاء تعدد الزوجات ودخول البرلمان. نناشد جلالتكم الدفاع عن الشرق والإسلام.(١٧)

والملك لم تعجبه كل تلك الزوبعة النسائية التى أعقبت اقتحام درية للبرلمان، فقال لزوجها الذى كثيراً ما كان يقابله فى نادى السيارات: "أخبر زوجتك أن النساء لن يحصلن على حقوق سياسية طالما بقيت ملكا."

وتحدد يوم ١٠ أبريل للنظر فى القضية. واندلعت حرب الالتماسات والالتماسات المضادة تحسبا للجلسة. وسافرت قبل ذلك درية شفيق يوم ٢٦ مارس إلى أثينا ومعها زينب لبيب لتمثلا مصر فى مؤتمر المجلس الدولى للمرأة، حيث دعيت لإلقاء كلمة عن نتائج مشروع اتحاد بنت النيل لمحو الأمية بين صفوف فقراء المدن. ودفعها الموقف الدرامى الذى ينتظرها فى مصر إلى التوجه لجمع المندوبات قائلة فى سخرية، "لاحظت بعد اقتحامنا للبرلمان بيوم واحد أن الحكومة اليونانية منحت المرأة حق التصويت. فإذا بغيرنا يستفيد من عملنا!" وأنهت كلمتها باقتراح "بمطالبة منظمة اليونسكو بمساعدة البلدان التى تكافح من أجل تعليم النساء الأميات."(١٨)

وبعد عودتها من أثينا، عشية المحاكمة، واجهت درية نقداً علنيا وجهته لها سيزا نبراوى وإنجى أفلاطون، حليفاتها عند اقتحام البرلمان. إذ نُشرت مقالتان فى الصحف المصرية، واحدة باللغة الفرنسية والثانية بالعربية، تتهمان درية "بتبنى وجهة نظر مغايرة لسياسة البلاد ومصالحها الوطنية، لأن درية أدلت بصوتها فى المؤتمر مؤيدة الاحتلال وإبقاء بريطانيا العظمى لقواتها فى قناة السويس بحجة الدفاع عنها."(١٩) وجاء رد درية سريعاً مباشراً: "لم أشترك فى التصويت على أى قرار خاص بالتسليح، فذلك ضد

مبادئ ميثاق السلام، بل أيدت قرارا بأن لكل بلد الحق في اختيار نظام دفاعه."[٢٠] ويدل هذا الجدل على تشابك القضايا النسائية مع النزاعات الأيديولوجية للحرب الباردة.

وأخيرا جاء اليوم المرتقب بالنسبة لكل المدافعات عن حقوق المرأة في مصر. ومثلت درية أمام المحكمة "ترتدي حلة رمادية داكنة، وكلها أنوثة واتزان وجاذبية. بدت رئيس بنت النيل رقيقة، محاطة حتى كادت تُحمل حملا، بمجموعة من المحامين في أروابهم السوداء. ولم تخيفها هيبة المكان، فدافعت شخصيا عن القضية المحببة إلى قلبها والتي ناضلت من أجلها بقوة ونشاط. ونظرا لعدالة القضية ولقوة دفاع المحامين عنها، مشرّفين بذلك مهنة المحاماة في مصر، تأجلت القضية لأجل غير مسمّى."[٢١]

وكان ضمن المحامين الذين "شرّفوا مهنة المحاماة في مصر"، مفيدة عبد الرحمن وعبد الفتاح رجائي، حمو درية الذي كان قد ساعدها في مشكلة الصاوي، وموريس أرقش المحامي السياسي المرموق ذو الأصل السوري اللبناني العريق، ولطفي الخولي الشاب الماركسي الذي علق قائلا: "اقتحام درية للبرلمان أدهش نور الدين وصدمه القبض عليها. وفي رأيي أن اقتحامها للبرلمان كان علامة على الطريق."[٢٢] واعتبرت الصحافة درية شفيق من المشاهير في بلدها، ولكن معركتها كانت في بدايتها وقُدر لها ولغيرها من المصريين أن تجتاحهم الأحداث المحيطة بالكفاح الوطني والتي شكلت مسار كفاحها من أجل حقوق المرأة في السنوات التالية.

* * *

وبعد شهور من التفاوض مع الحكومة البريطانية، قرر الوفد إلغاء معاهدة ١٨ أكتوبر ١٩٥١. وأعقب ذلك اندلاع حرب مقاومة ضد بريطانيا تكثفت على مدى الشهور الثلاث التالية، في مدن القنال، خاصة في بورسعيد والإسماعيلية. فكانت إيذانا بلحظة عنف مأساوية في تاريخ مصر الحديث. فلما جاءت نهايات سنة ١٩٥١، وتصاعد الصدام المسلح بين فرق المقاومة المصرية ووحدات الجيش البريطاني، دعت درية المرأة للمشاركة في النضال ضد البريطانيين من أجل التحرر الوطني:

> مصر حيث وُلدنا والتي علمتنا معنى
> الحرية، مصر تنادي أولادها ليدافعوا
> عن كرامتها. هو نداء من أمنا العظيمة

> من شأنه أن يدفع الأمة كلها لتضحى من أجل مصر. وأنا أنادى نساء مصر إلى الانضمام لصفوف المعركة وحمل البنادق لإنقاذ الأمة من أعدائها حتى تحتل مكانها اللائق تحت الشمس. هيا، أديروا عجلة التاريخ وتقدموا الصفوف، وابذلوا كل نفيس من أجل مصر. فلا خيار سوى أن نلبى النداء فالمرأة مسئولة أمام الأمة – ولابد لها أن تبذل الدماء من أجلها، لا دماء الأزواج والأبناء والأشقاء فحسب. وهذا الدم سيروى شجرة العزة حتى تعانق السماء.(٢٣)

ونظم اتحاد بنت النيل "أول فرقة عسكرية نسائية فى البلاد لإعداد الشابات للنضال مع الرجال جنبا إلى جنب، ولتدريب ممرضات ميدان، وتمرين أكثر من ألفى فتاة على الإسعافات الأولية. كما افتتح حملة تبرعات لتقديم المساعدات المالية للعمال الذين فقدوا عملهم فى منطقة القنال."(٢٤) وكان هدف درية من خلال المشاركة مع الرجال فى الكفاح المسلح، أن تثبت المرأة أنها جديرة بحقها فى احتلال مكانها فى الحياة السياسية والبرلمانية للأمة.

وفى ١٣ نوفمبر ١٩٥١، ذكرى ثورة ١٩١٩، تم تنظيم مظاهرة ضخمة اعتراضا على استمرار الاحتلال البريطانى لمصر. وانضمت درية شفيق إلى مئات آلاف المصريين ومعها عضوات اتحاد بنت النيل، وسرن إلى جانب إنجى أفلاطون وسيزا نبراوى وعضوات لجنة المرأة للمقاومة الشعبية، والتى تشكلت عند اندلاع الكفاح الوطنى فى الصيف، والتى قام بتشكيلها عدد من النساء اليساريات مثل إنجى وعايدة نصر الله ولطيفة الزيات وسيزا نبراوى التى تولت رئاستها. وهى لجنة سعت إلى دعم المقاومة الشعبية فى منطقة القناة بتقديم الرعاية الطبية والمساعدات العسكرية لرجال المقاومة. كما قامت اللجنة بتعبئة النساء والجمهور عامة ليساندوا النضال ضد البريطانيين وليشكلوا فروعاً فى أنحاء القاهرة، بل وفرعاً سرياً فى الإسماعيلية.(٢٥) وكانت هى المرة الأخيرة التى تغاضت فيها المنظمات النسائية عن تباين أيديولوجياتها واتحدت من أجل هدف مشترك.

ووصفت درية يوم ١٣ نوفمبر باعتباره يوما "شهد فيه العالم ملايين الناس يمشون فى صمت فى شوارع القاهرة، فيثبتون أن المصريين رغم شعورهم بالإحباط بسبب الاحتلال، قادرون على كبح جماح غضبهم. فالشعب الذى يعانى تعسف الإنجليز ومع ذلك يتحكم فى عواطفه إنما هو شعب عظيم حقا."[٢٦] فلما كتبت مذكراتها بعد ذلك بعشر سنوات، تذكرت خريف عام ١٩٥١ "لما انتابتنا أنا وزميلاتى فى بنت النيل حمى. اندفعنا تلقائيا مع عشرات الآلاف فى حماس وطنى."

وفى خضمّ الحماس والفوضى التى اتسم بها خريف عام ١٩٥١، كانت درية تضع اللمسات الأخيرة لروايتها الوحيدة المنشورة، 'الجارية السلطانة' (١٩٥٢). وقد يتساءل المرء عن مدى تشابهها مع بطلة الرواية، تلك الجارية المملوكية الغريبة التى عاشت فى القرن الثالث عشر، شجرة الدر، التى استطاعت بعزمها وقوة إرادتها وشجاعتها وطموحها العارم أن تفرض نفسها. أول سلطانة على مصر عندما بدأ الأيوبيون يخضعون للمماليك. وثمة صلة بين اسم درية واسم شجرة الدر، فالمصدر فى اللغة العربية واحد: دره. وتقول درية فى مقدمة روايتها "وتاريخ شجرة الدر هذا ليس خيالا. لقد التزمتُ بالوقائع. وإذ كان قدر شجرة الدر الوثيق الصلة بقدر مصر قد ألهم كتاباً آخرين، إلا أننى أعتقد أن أحداً لم يستند فى بحثه سوى على نوادر الأحداث. ولكنى أكتب بقصد إنصاف تلك المرأة الغامضة والتى أصبحت شخصية ساحرة بفعل سلسلة من الأحداث غير العادية."[٢٧] وتلك الكلمات ومعها الرواية نفسها مؤثرة لأنها تكاد تكون نبوءة عن حياة درية نفسها. فلقد عاشت درية، مثل بطلتها، لحظات وقفت فيها مصر عند مفترق الطرق: "يتلاقى فيه نظامان للحكم، أحدهما يحتضر والآخر يبزغ، فيصطدمان."[٢٨] ومن وجهة نظر درية لم يكن الأمر فى هذه المرة إنهيار العصر الأيوبى الذهبى أمام قوة المماليك، بل كان تعنت 'نظام قديم' أصابه الوهن أمام مد وطنى يرتفع.

أما هذا المد الوطنى الذى اجتاح الشرق الأوسط، فقد تجسّد فى شخص البطل الإيرانى مصدق الذى سُمّى فى ذلك الوقت بمحرر إيران. فلقد تولّى رئاسة الوزارة بعد مقتل الجنرال رامزار فى مارس ١٩٥١، وسرعان ما أمم نفط إيران، وهو قرار برّره بقانون برلمانى سعى إلى استصداره قبل تولّيه السلطة. وهكذا أصبح مصدق فى نظر الكثير من المصريين، ومعهم درية، رمزاً للروح الوطنية. وقُدّر لمصدق أن يقع ضحية للحرب الباردة. ففى عام ١٩٥٣ نجحت وكالة الـ 'سى.أى.ايه' الأمريكية ومعها قوى غربية

أخرى، فى تنظيم انقلاب يمينى، أسقط حكومة مصدق المنتخَبة وحدد إقامة مصدق نفسه، فعاد الشاه محمد رضا بهلوى للحكم على رأس نظام موالى للمصالح السياسية الغربية.

وفى خريف عام ١٩٥١، ومصدق في طريقه للعودة إلى بلاده من نيويورك، حيث كان مجلس الأمن يناقش مسألة التأميم، توقف فى القاهرة. ونجحت درية فى الحصول منه على حديث و"سحرنى منطقه وإيمانه بالواجب وثقته العميقة بأمته التى رفع من شأنها فوق كل الأمم. هو حقاً رجل التمرّد والثورة. هو رمز لكفاح بلاده فى وجه الاستغلال الأجنبى ومثال يحتذى فى العالم أجمع."[٢٩] وهى لم تكن تدرك أن بلادها ستسلك نفس المسار بعد ذلك بشهور قليلة.

(١٠)

حلم كاذب (١٩٥٢- ١٩٥٤)

كانت مصر تزخر بأفكار متعددة للتحـــرر. وتركزت تطلعات المصريين على اختــلاف خلفياتهم وتنوع دوافعهم – التلقـــائى منــها والمخطط – حول الهدف الوطنـــى. ولكـن مفهوم الوطنية جاء مغلفاً بتفسيرات متنوعة: من اللهب الطاهر الصاعد فى قلوبنـــا إلـــى المؤامرات الأجنبية التى تبث أوامر التدمـــير فى قلب أمتنا، متسترة وراء وطنية مُزيفة

ومع بدايات شهر يناير من عــــام ١٩٥٢، اجتــاحت البــلاد المظــاهرات وإضرابات الطلبة، تعبّر عن المعارضـــة الشــعبية المتصـــاعدة للحكومـــة وللملك. كما أن العديد من الطلبة المتظاهرين حملوا السلاح واستخدموه ضد الشرطة. وأدركت الحكومة أن العناصر المغرضـــة والهدّامـــة قـــررت أن تستغل الأزمة بين بريطانيا ومصر لأغراض سياسية خاصة بها. والقـــوات البريطانية فى منطقة القنال وجدت نفسها فى موقـــف مســـتحيل، فتصـــدّت لهجمات قوات المقاومة الشعبية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢، وحـــاصرت مركـــز الشرطة فى الإسماعيلية وأمهلت كل من فيه ســـاعة واحـــدة للاستســـلام. ورفض قائد الشرطة الإنذار، بتعليمات من فؤاد سراج الدين وزير الداخلية، وقاوم المصريون ببسالة، فسقط خمسون من جنود الشرطة والخفـــر، كمـــا جُرح الكثيرون. وفى اليوم التالى – يوم السبت الأسود – أشعلت الجمـــاهير الغاضبة الحرائق فى أجزاء كبيرة من وسط القاهرة ونهبتها، فمـــات مـــا لا يقل عن ثلاثين وجرح المئات.

وتقول درية تعليقا على هذه الفترة، "كنت أتجه إلى الإيمان بـــالعنف، إلى توجه حربى يتنافى وطبيعتى الأساسية ويملأنى بالاشمئزاز، وهو غـــير منطقى! والآن عندما أنظر إلى الوراء وأنا أكتب هذه السطور، أدرك كم فى الإنسان من تناقضات." ولكن هل شعرت درية بأنها "تتصرف بأسلوب غـير منطقى" و "متناقض" عندما خرجت فى يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢، علـــى رأس فريق من عشرين فتاة فى زى عسكرى، من الوحدة العسكرية لبنت النيـــل

والواقعة فى مواجهة مكتبها، وذهبن "لمحاصرة بنك باركليز ووقف نشــاطه لمدة أربعة وعشرين ساعة"؟ ولما كان القتال مستعراً فى منطقــة القنــال، ومقالات درية تناشد النساء "بذل الدماء فداءاً للوطن"، لم يكن من الغريب أن تسعى ميليشيات فتيات بنت النيل إلى القتال مع الرجال جنبا إلى جنب. ولكن درية "أحست بالمسئولية عن الشابات اللائى لم يتدربن بعد على المواجهــة المسلحة"، فقررت أن "تخوض نوعاً جديداً من المعارك ... احتجاجا سـلميا على رمز الاستعمار البريطانى، يكون فيه متنفس للحماسة الوطنية، مع الحد من الخطر."

وفى الواقع، اجتذبت مظاهرتها السلمية جمعاً غفيراً وغــير منظـم اشتمل على مجموعة من المحرّضين، هتفوا بشعارات تحث على العنــف: "الجموع الثائرة فقدت السيطرة وظننت أنهم سيهاجمون البنك. ووَضعت فتاة مقعداً أمام باب البنك لتقف عليه وتخاطب الجموع، ولكنى سبقتها فى ذلــك وصرخت فى الفتيات: "ضموا صفوفكم ولا تتركوا أحداً يمــر. مظاهرتنـا سلمية!" وأخيرا جاءت قوات الأمن وفرقت الجمـوع واصطحبـت معــها "المحرضين" ومعهم درية و"ميليشياتها"، إلى قسم الشرطة ثم اقتادوا دريــة إلى مكتب وزير الداخلية، حيث وجدت نور فى انتظارها "يشــتاط غضبـا لأنى أخفيت عنه نواياى." وأفرج وزير الداخليــة عنــها وعــن رفيقاتــها، احتراما لنور ولمركزه كأستاذ جامعى ومحامى مرموق ومعروف بتعاطفــه مع الوفد.

وبعد ذلك بثلاثة أيام، فى حوالى الساعة الحادية عشــرة مــن يــوم السبت الأسود، وقفت درية تنظر من نافذة مكتبها "فرأيت دخانا أسودا كثيفـا يرتفع بالقرب من ميدان الأوبرا. وجاء موظف يهرول وأعلن 'المؤسســات الأجنبية تحترق، ومعظمها شركات إنجليزية!' وكلمنى نور هاتفيــا فقــال: "القاهرة تحترق! عودى فوراً إلى البيت! سأذهب أنا لإحضــار الأطفــال! وانتابنى الفزع. هل هاجم الغوغاء مدرسة بناتى؟ وأمرت الموظفين بــالعودة إلى ديارهم، وأغلقت المكتب وهرعت لأصطحب عزيزة وجيهان، فوجئــت أن ناظرة المدرسة قد أرسلتهما إلى البيت حيث وجدتهما ونور عند عودتى."

* * *

وعلى مر الشهور التالية، امتدت توابع الأحداث فشملت مصر كلــها. فُرض قانون الطوارئ على البلاد. أزاح الملك النحاس باشا وأعاد على ماهر الذى لم يبق سوى خمسة أسابيع. وتوالت على مصر أربع حكومــات فــى

أربعة شهور، وأصبح من العسير العثور على شخص يقدر على تشكيل حكومة. وأصبح فساد فاروق وحاشيته مصدر سخرية العالم ومصدر عار لمعظم المصريين. وعمّت الفوضى وانهار النظام والضبط ونضجت كل الظروف المواتية لانقلاب.

كما كان للأحداث آثار على الصعيد الشخصي. فلما أدركت درية أن ابنتيها تعانيان من مضايقات الأطفال البريطانيين لهما في المدرسة، وأرادت أن تحميهما من احتمال قيام مظاهرات جديدة ضد بريطانيا، سحبتهما من مدرسة 'الجزيرة الإعدادية' وأدخلتهما في مدرسة أخرى خاصة وصغيرة هي 'كور موران' التي ضمت عدداً كبيراً من أطفال الأسر المصرية العريقة "المتفرنجة". والمدرسة كان يديرها رجل وزوجته، يهوديان فرنسيان، يتخيران تلميذاتهم ويتبعان فلسفة تعليم ليبرالية وأسلوب تربية ليبرالي.

* * *

ولكن درية لم تتسحب من نضالها، بل على العكس. فما أن مرت بضعة أسابيع على أحداث 'يوم السبت الأسود'، حتى خرجت بتكتيك جديد لمواجهة الحكومة. ولكن المسألة في هذه المرة كانت تتعلق بقضية حق المرأة في الانتخاب، ولا علاقة لها بالاحتلال البريطاني. وخططت للأمر من فراشها في المستشفى (حيث كانت تتماثل للشفاء من جراحة الزائدة الدودية)، ولم تخطط له من الشارع.

وأعلنت الحكومة الجديدة عن إعادة النظر في القوانين الانتخابية استعدادا للانتخابات العامة التي ستجرى في شهر أكتوبر. وتردد الحديث عن احتمال قيام الحكومة بتعديل شروط الانتخاب عند مراجعة القوائم الانتخابية، بحيث يستبعد الأميون ويسمح للمتعليمن من الرجال والنساء، فتشجعت درية لأن بعض المقرّبين للحكومة نوّهوا أن مطالب النساء من الأسباب التي دعت إلى استبعاد القوائم الانتخابية القديمة وفتح صفحة جديدة. ولم تكن درية ممن يدعون الفرصة تفلت، فتحركت من منطلق اقتناعها بأن مطالبها لا تتعارض مع الإسلام ولا مع الدستور. "ولقد أثبتنا ذلك في أكثر من مناسبة". ومع ذلك فهي تعلم أن رئيس الوزراء الجديد معروف "بعدائه للمرأة"، فقررت درية "بأنه ما من سبيل لاستعادة حقوقنا بالكياسة. فلا مفر من فرض الأمر الواقع".

فدعت لاجتماع المجلس التنفيذي في غرفتها بالمستشفى، واقترحت أن يتصرف الأعضاء وكأن لهم حق الانتخاب: "تختار كل واحدة منا دائرة

وترشح نفسها فيها لدخول البرلمان، وتدفع مصاريف الحملة الانتخابية وقدرها مائة وخمسين جنيها، فنضع الحكومة أمام الأمر الواقع." وفي ٣٠ مارس ١٩٥٢، وهى لا تزال فى فراش المستشفى، قدمت درية أوراق ترشيحها والمبلغ المطلوب وذلك عن حى عابدين الشعبى، حيث يقع مكتبها. وأرفقت بأوراق ترشيحها خطاباً تقول فيه "أستبيح لنفسى ذلك لأنى أطعن فى المادة الواردة فى قانون الانتخاب وهى مادة غير دستورية لأن الدستور يكفل المساواة فى الحقوق السياسية لكل المصريين، دون ذكر الجنس."(١)

وأرسل رئيس الحى أوراقها إلى وزير الداخلية الذى احتفظ بها إلى ما بعد موعد التسجيل، ثم ردها مع الإفادة بعدم قبول ترشيحها، لأن الترشيح يقتصر على الرجال وليس للمرأة حق التصويت. وكان رد درية بأن رفعت دعوى أمام مجلس الدولة مطالبة بتعديل قانون الانتخاب. "وفى نفس الوقت، جاءت المئات من النساء من الطبقات الفقيرة من عابدين إلى العيادة بقوائم من التوقيعات (أو البصمات) ليعطيننى الأصوات فى الانتخابات! وتأثرت كثيرا، فهو دليل جديد على أن النساء، حتى الأميات، يعرفن أهمية الحقوق السياسية".

وارتفعت أصوات المعارضين لمطالب درية، ولم تعد تقتصر على الحكومة، بل شملت السلطات الدينية. فبعد أسابيع أصدر علماء دمياط فتوى، برئاسة الشيخ كمال الحضره، عميد المعهد الأزهرى، وجاءت الفتوى قاطعة: "التصويت مهين للمرأة ويتعارض وطبيعتها".(٢) ودفع الغضب درية إلى الذهاب لوزير التعليم، طه حسين، تطالبه بأن يحتج رسميا على قرار رئيس الوزراء. وأرسلت للصحافة المصرية نص الفتوى المضادة التى جاءتها من عبد الحميد بدايونى، رئيس جمعية العلماء فى باكستان والذى كان يُعتبر حُجة أهم من مشايخ دمياط فيما يتعلق بالشريعة. وجاء على لسان العالم الباكستانى: "يكشف التاريخ عن تنوع ما لعبته المرأة من أدوار فى زمن الحرب وفى زمن السّلم، والإسلام يقر دورها ويمنح للمرأة كل ما منحه للرجال من حقوق. ويبدو أن مصر فى الوقت الراهن تمر بمرحلة من البلبلة، يتركز فيها الجدال حول حق التصويت، على عكس الباكستان حيث كُفِل هذا الحق ومُورِسَ."(٣)

وكتبت درية مقالاً افتتاحيا قالت فيه "اتضح أن حجة الرجعيين باطلة بما أن نساء سوريا وتركيا والباكستان حصلن على حقوقهن السياسية – فالإسلام لا يتطلب حرمان المرأة من حقوقها. ما هو عذر الرجعيين إذن؟"(٤)

وشعر مفتى مصر،[٥] الشيخ المحافظ حسنين محمد مخلوف، بالقلق لمطالبتها بإسلام متحرر، فأصدر فتوى أخرى يدين فيها القلاقل النسائية في مصر ويزجر فيها درية شخصيا.

والمفتى خريج جامعة الأزهر، المركز الفكرى للإسلام، ذى الألف عام، ويُعتبر المفتى حجة فى الفقه الإسلامى، ولرأيه وزنه الكبير فى نظر مسلمى العالم أجمع:

> والشيخ ذو اللحية المعمم، بكل وقاره التقليدى، عبّر عن رأيه فى كلمات تفيد العتاب لا الغضب. فجاء فى حديثه: "كانت زوجات الرسول محجبات. ولم يكن الرسول يلمس يد النساء اللائى يجئن لمبايعته. لقد أقام الإسلام حواجز لحماية المرأة. فمنعها من الخلوة بالأغراب ومن إظهار مفاتنها. فالمرأة لم يكن يسمح لها فى عهد الخلافة بالنداء للصلاة. ولم يفرض الإسلام على المرأة أن تصلى فى المساجد." ثم تساءل: "هل تريد المرأة الآن أن تتخطى الحواجز وتنضم إلى الرجل فى البرلمان وفى الانتخابات وفى الدعاية واجتماعات اللجان وزيارة الوزراء والسفر إلى المؤتمرات وأمور أخرى أخطر من التحكيم بين متنازعين، وهو ما مُنعت عنه فى فجر الإسلام؟" ثم أجاب على سؤاله برد قاطع: " لا يقبل أحد قراراً مخالفاً لضميره ولدينه."[٦]

وجاءت تلك الآراء من المفتى ضربة قاصمة لنضال درية النسائى، ولكنها لم تلتزم الصمت. ولكن معارضة رأى المفتى علناً يتطلب جرأة كبيرة، ففى ذلك نقض لأعلى السلطات الدينية فيما يتعلق بتفسير نصوص القرآن. ولكن اقتناعها بأن الإسلام لا يعارض الحقوق السياسية للمرأة، جعلها تتصدى لحجج المفتى.

فانطلقت بتحديها المعهود وشجاعتها تستند فى دفعها على شواهد من القرآن وعلى آراء علماء آخرين، واقتحمت الجدل الدائر حول الإسلام والحقوق الدستورية للمرأة:

> مقال الأستاذ حسنين محمد مخلوف والذى نشر يوم الجمعة الماضى، استثار العديد من القراء. وهو مقال يفتقر بوضوح إلى نصوص تؤيد آراءه التى تعتبر هامة بل وأساسية بسبب مركزه في الأوساط الدينية. وكان القراء يأملون أن تأتى آراؤه مرتبطة بشواغلهم اليومية، خاصة وأن الكثير من المسائل اليومية هذه كانت مصدر جدل طويل بين علماء الدين. ومن ناحية أخرى، فهناك مجموعة أخرى من علماء الدين ترى غير ما يرى وتحمل رأيا مغايرا. ولقد دفع مقال المفتى البعض منهم بالتطوع بالرد المدعوم بمصادر دينية.[٧]

وعلى مر الشهور التالية، ومصر تتقدم نحو الثورة، احتفظت درية بقضية حقوق المرأة فى صدارة النقاش العام، فأصبحت هى هدف هجوم متصاعد ومناهض للحركة النسائية من جانب السلطات الدينية المحافظة. ثم جاءت أصوات تؤيد تفسيرها الليبرالى للإسلام، من داخل مصر ومن خارجها. فالدكتور أحمد زكى بك، وهو شخصية مصرية دينية مرموقة، كتب عدة مقالات يشرح فيها، نقطة تلو الأخرى، كيف أن المفتى "تقيد بالمعنى الظاهر للآيات بل وأضاف إليه تحاملاته الشخصية. فالإسلام لم ينصّب فئة مختارة من الأفراد ليكونوا وسطاء بين الإنسان وخالقه. فلكل فرد عقل يفهم ويعى القرآن، أو كما جاء فى الحديث أن الإنسان يستطيع أن يقرأ ويفهم ويقدّر بعقله الذى منحه الله إياه .... العقل والرشاد".[٨] أما وزير التعليم الهندى، مولانا أبو الكلام آزاد، الذى ترجم القرآن إلى لغة الأوردو، نصير حقوق المرأة، فقد أرسل مقالات – نشرتها درية فيما بعد فى الكتاب الأبيض (١٩٥٣) – يعلن فيها أن: "الإسلام لا يعارض الحقوق السياسية للمرأة."[٩] وأصدرت لجنة من علماء المفتى فتوى أخرى، تؤيد فيها رأى الشيخ، وذلك فى ١١ يونيو ١٩٥٢، تفنّد فيها المطالب النسائية، على أساس أن "المرأة تفرض عليها الطبيعة مساراً تتبعه هى بالسليقة. فوضع المرأة كأم

له تأثير خاص عليها، إذ يؤثر فيها عاطفيا، بمعنى أنه يضعف من روحها المعنوية ومن عزيمتها ومن قدرتها على الكفاح دفاعا عن رأيها، ولا يمكن لامرأة أن تنكر ذلك."[١٠]

ودعت جمعيات دينية عديدة إلى مؤتمر إسلامى لتأييد موقف لجنة العلماء التابعة للمفتى. وجاء فى الدعوة المطبوعة للمؤتمر أن حضور النساء مشروط "بلبس الأكمام الطويلة والحجاب الذى فرضه الله عليها تكريما لها."[١١] ونشرت الصحف بيانا من عشر نقاط يعارض حقوق المرأة. فجاء ضمن ما جاء فيه: "مطالبة المرأة بحقوقها السياسية انتهاكا فاضحا لحرمة الدين، والحكومة تعتبر هذه الحركة خطراً يتهدد استقرار المجتمع وتضامنه، وتتمسك بحكم الإسلام."[١٢]

وبفعل تلك الضغوط النابعة من المعارضة الدينية القوية، تراجع رئيس الوزراء أحمد باشا نجيب الهلالى ووزارته عن موقفهم السابق، وعارضوا بحزم إدراج الحقوق السياسية للمرأة ضمن الإصلاحات التى اعتزمت الحكومة إدخالها على القانون الانتخابى. ونشرت جريدة الأهرام، وكانت آنذاك مستقلة، أن قرار الحكومة برفض حق المرأة فى الانتخاب والترشيح استند إلى مادة فى الدستور المصرى تنص على أن الإسلام هو "دين الدولة". وبالتالى أصبح لابد للوزراء أن يأخذوا برأى أعلى السلطات الدينية فى هذا الشأن.[١٣]

* * *

وأصاب تصرف الحكومة درية بالإحباط، واحتجّت بشدة على التفسير غير المواتى للقرآن والذى قدّمه العلماء، وطلبت من الحكومة "بدلاً من أن تتستر الحكومة وراء الدين، عليها أن تعلن عن الأسباب الحقيقية لرفضها حقوق المرأة". ثم أعلنت "أن اتحاد بنت النيل سوف يطعن فى دستورية استبعاد المرأة من الحياة السياسية، وذلك أمام مجلس الدولة، بمجرد أن يصدر القانون الانتخابى الجديد".[١٤] ولكن سرعان ما تلاشت هذه النقاشات ومعها الانتخابات المزمعة أمام الأحداث السياسية التى انتهت بالانقلاب العسكرى يوم ٢٣ يوليو.

أما القشة التى قصمت ظهر البعير، والتى أدت بالجيش إلى التمرد، فكان الصراع على السلطة بين الملك وجيشه. فأراد الملك أن يستبعد اللواء محمد نجيب من رئاسة نادى الضباط، رغم انتخابه للمنصب، ليعين محله واحداً من حاشيته. ورفض الجيش، متحدياً برفضه سلطة الملك لأول مرة.

فأمر الملك بإغلاق النادى. وضرب بالنصائح عرض الحائط، وحاول أن يفرض بدلاً من محمد نجيب، اللواء سرى عامر وزير الحربية، وهو عدو الضباط الأحرار الذين كانوا يمقتونه لدوره فى فضيحة الأسلحة الفاسدة فى فلسطين. وفى ليلة ٢٢ يوليو، انتقل الجيش من ثكناته فى مصر الجديدة ليحتل قيادة الجيش فى القاهرة. ولم تؤد العملية إلى مصرع أحد سوى جنديين. وفى يوم ٢٣ يوليو، كانت العاصمة قد سقطت كحبة الفاكهة الناضجة، وعُيِّن محمد نجيب رئيسا لمجلس الثورة.[١٥] وبعد أن طلبوا من على ماهر، الرجل الذى ساعد فاروق فى اعتلاء العرش، تشكيل حكومة جديدة، أرسلوه إلى الإسكندرية ليطالبه بالتنازل عن العرش: "وفى ٢٦ يوليو، رحل الملك إلى إيطاليا على يخته الملكى، تصاحبه الملكة ناريمان وطفلهما أحمد فؤاد وبنات فريدة الثلاث اللاتى لم يودعن أمهن. وكذلك مائتين وأربع حقائب."

وكانت درية مع نور فى القاهرة أثناء هذه الثورة البيضاء، بدلاً من الإسكندرية حيث كانا من المفروض أن يذهبا، وحيث ترسل درية ابنتيها كل صيف مع مدام مارى ليقيموا فى فيلا أختها ثريا. وفى المساء التالى للانقلاب، تناول نور ودرية العشاء مع أحمد أبو الفتح، رئيس تحرير جريدة المصرى التى أيدت درية فى جدالها مع المفتى. وأبو الفتح كانت تربطه صلة قرابة بواحد من الضباط الأحرار، وأكد لنور ودرية أن الضباط الأحرار لا يريدون سوى تغيير الوزارة وتعيين محمد نجيب قائداً أعلى. ومثلها مثل السواد الأعظم من المصريين فى أعقاب الانقلاب، أيدت درية "بحماس 'محررى الشعب' كما كانوا يسمونهم، وآمنت أن مصر مقبلة على عهد جديد من المحبة والحرية، مرحلة تحرر ومساواة وسلام حقيقى."

وكذلك فعل كل رؤساء الأحزاب القديمة. وكما شرح المؤرخ فاتيكيوتس: "بأسلوب سياسى تقليدى، هرع الجميع يهنئون الجيش إذ خلّص البلاد من الطاغية فاروق، وأقسموا الولاء للثورة. وهرول النحاس 'الزعيم الأوحد وحبيب الأمة' عائداً من عطلته فى أوروبا وفعل ما فعلوا. ولم يفهموا أن الضباط الأحرار لا ينتمون إلى شللهم، وأنهم جاءوا إلى السلطة بالقوة ليطهروا البلاد من كل العناصر التى أسهمت فى توريطها منذ الحرب العالمية الثانية."[١٦]

ولم تتقاعس درية عن إبداء رأيها هى الأخرى. فبعد الانقلاب العسكرى بيومين، توجهت الزعيمة النسائية إلى مكتب محمد نجيب، ولم

تكتف بتهنئة الضباط الأحرار، بل ذكرّت محمد نجيب بأنه لم يحقق سوى نصف الثورة، إذ بقى أمامه تحرير المرأة:

> واستقبلنى نجيب بكل لطف ولكنه أخبرنى بأننى قد أستثير كل العناصر المحافظة ضد الثورة لو أننى تعجلت فى المطالبة بالحقوق السياسية للمرأة. وأكد أن العجالة قد تضر ببدايات هذا العهد الجديد الذى يجدر به أن يبدأ بالهدوء، فوافقت ووعدت أن ألتزم بالهدوء فترة، شريطة ألا يُطلب منى أن أنتظر طويلاً. وكان أنور السادات حاضراً ذلك اللقاء. وأتذكر المشهد تماما. عينا محمد نجيب تملؤهما الثقة فى مستقبل الثورة وفى زملائه، وفى مواجهتهما وجه السادات المغلق والذى سيطر تماما على حديث محمد نجيب. فكانت نظرة واحدة من السادات تكفى ليمسك نجيب لسانه أو يغير الموضوع.

فلما وافقت أن 'أبطال التحرير' يلزمهم الوقت ليتخلصوا من بقايا فساد النظام البائد وليرسوا قواعد أكثر عدالة، تقوم عليها نهضة مصر، أجلت درية أسلوب المواجهة للحصول على حقوق المرأة بالقوة.

ولم يعن ذلك أنها تخلت عن نضالها. ففى بداية أكتوبر – وبعد أسابيع قليلة من إصدار "القانون الجديد للأحزاب السياسية" فى ١٠ سبتمبر ١٩٥٢، والذى نص على أن يعلن كل حزب لوزارة الداخلية عن برنامجه السياسى وتنظيمه الداخلى وموارده – قدمت لوزارة الداخلية (التى تولاها جمال عبد الناصر) ما يفيد بأن اتحاد بنت النيل يعيد تنظيم صفوفه كحزب سياسى، وسجلت نفسها رئيسة لذلك الحزب. وقُبل طلبها، فاجتمع حزب بنت النيل السياسى لأول مرة فى ١١ ديسمبر ١٩٥٢: "ولأول مرة فى تاريخ نضال المرأة، تعترف الحكومة رسميا بممارستها لأنشطة حزبية أسوة بالرجل." وأكدت درية ثقتها بالثورة فى كلمة ألقتها أمام خمسمائة فتاة وامرأة بمناسبة الجمعية العامة الأولى لحزب بنت النيل السياسى:

> إنه ليوم سعيد حقاً، لأن الجمعية العمومية لحزب بنت النيل السياسى واكبت فجر حركتنا الوطنية المباركة التى أخرجت البلاد من عصر الظلمات، والتى سوف تحرر المرأة من عبوديتها السابقة. فلقد قبلت وزارة الداخلية إعلان حزب بنت النيل السياسى، ولم تفرّق بين حزبنا وبين أحزاب الرجال. وهى خطوة حاسمة فى تاريخ المرأة المصرية، ستتجز بعدها الكثير. ولم يبق بعد هذه الخطوة سوى حقها السياسى الذى يبيح لها المشاركة فى تشريع القوانين وتوجيه مسار الحكم من البرلمان.[١٧]

وبعد أن تم الاعتراف باتحاد بنت النيل كحزب سياسى رسمى، أسست درية ملحقاً شهريا أسمته 'بنت النيل السياسية'، لتحرك وعي المرأة المصرية وتعرّفها بالأحداث العامة الجارية فى العالم. وآمنت درية بأن قضية حقوق المرأة احتلت أخيرا مركزها الشرعى فى ظل الحكومة العسكرية، وأن النظام الجديد سرعان ما سوف يؤكد تلك الحقوق رسميا. وركزّت جهودها نحو تأييد الثورة على صفحات مجلاتها. وعلى سبيل المثال، تولت الدفاع "ضد أعدائنا الذين بدأوا نشر الأكاذيب بشأن ثورتنا التى أعادت لنا كرامتنا أمام العالم. ومن واجبنا بالتالى أن نشرح ثورتنا بأعمال إيجابية فى الداخل وبنشر أخبارها من خلال كل وسائل الدعاية فى الخارج."[١٨]

وظهرت الرسالة التالية فى عدد خاص 'للمرأة الجديدة' نشرته درية بعنوان "نهضة مصر"، وفيه أشادت فى حماس بمحمد نجيب وبالثورة فى عبارات نابعة من القلب:

> انقلاب محمد نجيب أكثر بكثير من مجرد ثورة. فهو قد تخلص من نظام وخلّص مصر من أبشع الطغاة، ليس هذا فحسب وإنما أرسى قواعد صرح جديد على مبادئ الحرية والمساواة. فلم تمض سوى شهور حتى بدأت تتبلور إصلاحات اجتماعية

كبيرة الأهمية. فجاء الإصلاح الزراعي الأول الذى يسعى إلى التقريب بين الطبقات الاجتماعية عن طريق تحديد الملكية، ثم جاء إلغاء الألقاب، وآثاره المعنوية لا تقل أهمية عن آثار الإصلاح الاجتماعي من وجهة نظر اقتصادية. وبادرت الحكومة بتخفيض الأسعار مما أدى إلى ارتياح الشعب. والآن جاء دور الدستور الجديد القائم على أفكار جديدة: الحرية والمساواة. وهكذا فتحت مصر أجمل صفحات تاريخها، حيث تعلّم الشعب بقيادة محرره محمد نجيب كيف يطوى الماضى وراءه، ويعمل بأيد غير مغلولة على بناء مصر الغد.(١٩)

ثم عملت على دعم كلامها بالعمل "لنشرح ثورتنا بأعمال إيجابية فى الداخل" و "لنعمل من أجل بناء مصر الغد". فقدمت لمحمد نجيب مشروعا يتضمن الخطوط العريضة "لمكافحة الأمية بين الرجال والنساء فى مصر، واستئصال شأفة الجهل بين صفوف مواطنينا فى ثلاث سنوات." وراجية رجب، وهى عضو اللجنة التنفيذية لبنت النيل والمسئولة عن مدارسها، قدرت "كان لاتحاد بنت النيل فى ذلك الوقت نحو ثمانين مركزا فى كافة أرجاء مصر، تتردد عليها آلاف النساء."(٢٠)

أما درية فرأت أن "هذه ليست سوى بداية. ففى بلد يبلغ سكانه ٢٣ مليون، معظمهم من الأميين، يُعتبر تعليم بضعة آلاف منهم قطرة فى إناء. فلابد من إيجاد وسيلة تشمل البلاد كلها، رجالاً ونساءً". وكان فى نيتها أن تستعين بكل قراء مجلة بنت النيل وكذلك أن تحصل على معاونة الحكومة والمنظمات الشعبية. ولم يكن ذلك المشروع مجرد دعاية من جانبها.



درية شفيق تشرح مشروعها لمحو الأمية لأخت نهرو، فى مقر اتحاد بنـت النيل فى ديسمبر ١٩٥٣. وعلى اليمين، مصطفى أمين، صحفى مصرى

فهى تعرف أنه نجح فى بلدان أخرى مثل المكسيك وتركيا، وكـــانت تريد أن تجربه:

وشرحت بوضـــوح للمســئولين أن علـــى الحكومة، مع التنظيمات الشعبية التطوعيـة، أن تشارك فى توجيه وإدارة المشروع، لأنه من واجب كل من يعرف القراءة والكتابـــة أن يعلم عددا من الأميين. ولابد من إصدار قانون يعاقب كل من يستطيع أن يعلم الناس ويحجم عن تقديم خدماته، لأن تعليم الشعب واجب على كل مواطن. وما أفعله اليوم من خلال مجلتنا 'بنت النيل'، وبالتعــاون مـــع مدارس 'فاكس'، ما هو إلا تجربة نثبت بـها

أن محو الأمية فى مصر مسألة فى متناول اليد ولن تكلفنا الكثير. وهى تجربة تبين أن كل من يجيد القراءة والكتابة قادر على التعليم، شريطة أن يتّبع الخطوط التوجيهية التى ننشرها فى الكثير من أعداد المجلة على مدى الشهور الثلاثة الآتية. وبذلك نتجنب المتطلبات المالية الفادحة لتعيين المدرسين فى هذه الفترة التى نسعى فيها إلى التقشف والاقتصاد. فتشكيل فصل من الرجال أو من النساء لن يكلف شيئا سوى قدرات الذين سيشاركون فى الشهور الثلاثة المقبلة. هى تجربة أقدمها للأمة، وأنا أؤمن بأن نجاحها سيثبت صحة برامجنا وقدرة الشعب المصرى على التخلص من الأمية فى ثلاث سنوات، والله ولىّ التوفيق.[٢١]

وبينما تطالب درية قراءها القيام بواجبهم كمواطنين صالحين، كان الضباط الأحرار يعملون على تثبيت سلطاتهم. فألغوا دستور ١٩٢٣، وأمّموا الصحافة، وألغوا الأحزاب وصادروا أموالها. وعيّن محمد نجيب لجنة من خمسين عضوا، يرأسها على ماهر، لصياغة دستور مصر الجديد، على أن تُعيّن بعد ذلك لجنة مؤسسة منهم لتقرر شكل الحكم فى مصر. وكانت درية مازالت تأمل أن تحصل المرأة المصرية على حقوقها السياسية كاملة فى المستقبل القريب. "إنى أثق أن المسئولين أدركوا أن منح المرأة المصرية حقوقها كاملة هو تصحيح للوضع، فلا تقدّم لشعب نصفه عاجز وعاطل. فأبطال حركة التحرير لن يترددوا فى إعادة الحقوق لمن يستحقها، فهذا جزء من رسالتهم."[٢٢]

وسافرت درية إلى إنجلترا فى ربيع ١٩٥٣ لتحضر اجتماع المجلس التنفيذى للمجلس الدولى للمرأة فى مدينة ردنج، حيث واجهت وفداً بريطانيا عدائيا، اعتبرها من المحرضين على يوم السبت الأسود. ولم يهدّئ من عدائهم سوى لطف درية وقدرة رئيسة المجلس على الإقناع. وهاجمت جريدة 'الديلى اكسبريس' درية، متهمة إياها بأنها "كانت فى مقدمة الصفوف عندما حرّض حزب الوفد الناس على قتل عدد من البريطانيين فى القاهرة. وعلى الرغم أن درية كانت متطرفة فى مناهضتها لبريطانيا فى ذلك الوقت، إلا

أنها اعترفت لزميلة لنا أنها تحب الإنجليز، وقالت "لا يمكننا إلا أن نعتمد على الإنجليز."(٢٣)

وأثار المقال ردود فعل سلبية فى مصر: "هذه فرية، فدرية شفيق التى قضت حياتها فى خدمة بلادها، تحول مبادؤها دون إبداء تصريح كالذى ورد فى الجريدة الاستعمارية. كيف تجرؤ مثل هذه الجريدة الاستعمارية على تشويه وطنيتنا ووحدتنا باللجوء إلى الكذب للدعاية ضدنا."(٢٤) وفى نفس الوقت، كانوا يحتفلون بدرية عبر الأطلنطى باعتبارها المطالبة المثالية بحق الانتخاب:

> فى الأسبوع الماضى، كما هو الحال كل أسبوع، كانت درية تخرج لتناضل لمدة اثنتى عشرة ساعة فى اليوم، كل يوم، من أجل حقوق متساوية للمرأة المصرية. واقتربت من النصر عندما أوصت مجموعة خاصة فى اللجنة الدستورية بأن يوضع حد للتمييز ضد المرأة. طويلة ونحيلة وأنيقة، مقوسة الحاجبين وعلى جبينها قُصّة، فدرية شفيق أشبه بعارضة أزياء باريسية منها بمناضلة من أجل حقوق المرأة. ولكن جمالها يخفى روح فارس عربى، لا يخيفه عداء زعماء الإسلام الذين يقتبسون من القرآن ليصبوا لعناتهم على مشاركة المرأة فى الحياة العامة. فمشايخ الإسلام اعتبروها 'كافرة'، وهدد المتطرفون من الشبان المسلمين حياتها.(٢٥)

والمعارضة لدرية لم تقتصر على المحافظين من علماء الإسلام ولا على الصحافة البريطانية المعادية. فلقد انتقدتها النساء فى مصر لسعيها للظهور على صفحات الصحافة المحلية والعالمية. وصوّرنها على أنها أميلُ إلى المجتمع الأوروبى منها إلى مجتمعها المصرى. ورغم تأثرها الشديد بهذه الاتهامات، إلا أنها كانت تؤمن إيماناً راسخاً بأن التفاهم بين الثقافات ليس ممكنا فحسب، ولكنه ضرورى لتحتل مصر مكانتها كقطر عصرى. ولمعرفتها بالتقاليد الإنسانية الليبرالية فى الثقافتين، كانت أعرف بمصر

وبالغرب، ولذا سعت إلى إبراز القيم التى تربط بينهما. صحيح أنها كلما سافرت إلى أوروبا لحضور اجتماعات المنظمات النسائية الدولية، هللت لها الصحافة. ولكن من الصحيح أيضا بأن أهمية مصر السياسية فى سياسات الحرب الباردة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، جعلت العالم الغربى ينظر إلى درية باعتبارها رمزاً للمرأة العربية "الجديدة". ويبدو ذلك واضحاً من خطاب أرسلته ليدى مارجريت كوربت آشبى، رئيس شرف الاتحاد الدولى للمرأة:

السيدة العزيزة والرئيسة،

قرأت ببالغ الارتياح ما جاء فى الصحافة السويسرية من أخبار عن عملك النشط تجاه سلطات بلادك فيما يتعلق بالدستور الجديد. والأوضاع بين بلدينا تجعل أى عمل هنا خطراً على قضيتك، ولكنى أؤكد لك بأننا نعلن أنفسنا زميلات متحمسات لكفاحك من أجل كرامة المرأة المصرية.

فمن المؤسف حقا أن يُنكر على المرأة، فى مصر ذات الحضارة التليدة، حقها فى الانتخاب، بينما منحتها بلاد أخرى عديدة هذا الحق الأساسى. ومع الأسف، فالرجعيون يتحججون دائما بالدين دفاعا عن حقوق لهم لم تعد تتفق ومتطلبات العصر.

وإذا شاء اتحاد 'بنت النيل' أن يصبح جمعية فى إطار تحالفنا، ربما استطعنا أن نبدأ حملة تأييد لك إذا ما رأيت فى ذلك ما يفيد.

هل لديك مقالة ترسلينها لى؟ إذ يسعدنى أن يكون لامرأة مصرية صوت فى مجلتنا الواسعة الانتشار فى العالم أجمع.

تعرفين أن السيدة سيزا نبراوى لم تعد عضوا فى لجنتنا التنفيذية. لقد اختارت الشيوعيين رفاقا، وحال نشاطها فى الاتحاد الديمقراطى دون استمرارها عضوا فى

لجنتنا، رغم اعترافنا بما قدمته من خدمات جليلة لقضيتنا النسائية.

وافيني يا سيدتى بأخبارك، وحافظي على صحتك فأنت غالية علينا. وكنت سأكتب لك قبل ذلك، إلا أن مرضى أنا وزوجى منعنى.

تقبلى، يا سيدتى العزيزة، خالص صداقتى وتمنياتى بأن يتحلى قائدكم العظيم بالشجاعة اللازمة ليقف فى وجه قوى الرجعية، ويسمح للمرأة المصرية، ولك أنت بالذات، بشغل مكان فى مجتمع هو فى مسيس الحاجة لخدماتكم.(٢٦)

وفى وقت لاحق من نفس العام، انتُخبت درية عضوا فى المجلس التنفيذى للتحالف، أثناء اجتماعه فى نابولى. وجاء ذلك مخالفاً لكل السوابق، لأن النظام الداخلى يحول دون انضمام بنت النيل إلى هذه المنظمة، باعتبارها عضوا فى المجلس الدولى للمرأة. فلما عادت درية من ذلك الاجتماع إلى القاهرة، اكتشفت أن مجلة مصرية نشرت صورتين لها مع مندوبة اسرائيلية وعليهما كتابة بالعبرية. وكانت مصر، رسميا، فى حالة حرب مع إسرائيل، وسياستها الرسمية هى عدم الاعتراف بدولة إسرائيل وعدم قبول أى اتصال مباشر بمواطنيها (وهو وضع استمر حتى قام السادات بزيارته التاريخية للقدس فى نوفمبر من عام ١٩٧٧). ونشر صورتها وهى تخالف موقف حكومتها فى اجتماع دولى، كان بمثابة القضاء على مصداقيتها كامرأة عربية وطنية. وكانت تعلم أن محمد نجيب يفهم العبرية، فأرادت أن تصحح هذه الصورة السلبية، فطلبت من زوجها نور أن يرسل للرئيس نسخاً من الصور، مستعينا بصلاته بأحد الضباط. وأخبرهم هذا الضابط أن الرئيس ضحك لأن النص المكتوب يشير إلى اقتحامها للبرلمان عام ١٩٥١ "مما يبيّن أن الصور لُفقّت للإضرار بى". وآمنت درية بأن سيزا نبراوى وراء الحادث ("فهى تستغل كل فرصة لتتهمنى بمحاباة الاستعمار والصهيونية، ولتحكى فى كل مكان بأننى عارضة أزياء أهتم بمساحيق التجميل أكثر مما أهتم بالوطنية.")

وحاول لطفى الخولى مصالحة سيزا ودرية، ويعلق قائلاً: "لم أستطع التقريب بينهما. وفى رأيى أنه على الرغم من سمعة سيزا نبراوى كاشتراكية يسارية، إلا أن درية شفيق كانت فى طريقها لأن تصبح أكثر منها نشاطاً فى

مجال السياسة. فهى كانت تدرس وتقرأ وتحلل لتعلّم نفسها وتتسلح اجتماعيا وسياسياً."[٢٧]

وفى نهاية عام ١٩٥٣، بدأت الأحداث الاجتماعية والسياسية تتوالى بسرعة مذهلة وتشد انتباه البلاد، بحيث لا تترك مجالاً لحقوق المرأة. فقد أعلنت مصر جمهورية، ومحمد نجيب رئيسا لها. وأصبح مجلس قيادة الثورة هو السلطة العليا فى البلاد ومعه هيئة التحرير الذى قُدّر له أن يكون التنظيم السياسى الأوحد فى مصر لمدة ثلاث سنوات "المرحلة الانتقالية"، أى حتى ١٦ يناير ١٩٥٦. أما النظام البائد بزعمائه السياسيين، فقد تم تحييدهم أو القضاء عليهم.

وكانت درية مازالت تأمل أن يقتنع النظام الجديد بقضيتها، وبأن المعركة من أجل الحقوق السياسية للمرأة تدخل مراحلها الأخيرة، خاصة وقد تقرر ضم المرأة إلى صفوف الحرس الوطنى: "كم يسعدنا أن زعماء أمتنا بدأوا يوافقوننا فى الرأى. وهذا واضح من بياناتهم منذ بداية الثورة، ومؤخراً عندما أعلنوا حق المرأة فى دخول صفوف الحرس الوطنى، والتنفيذ الفورى لهذا القرار معناه اعترافهم بحق المرأة فى المساواة بالرجل. فكل شئ يشير إلى قرب تلبية مطالبنا. فنحن نستحق تلك الحقوق وهى بدورها تستحقنا."[٢٨]

ولكن تفاؤل درية قُدّر له أن يتحول إلى مرارة على مدى السنوات الثلاث التالية، وتعددت تحفظاتها: "بدلاً من حركة نهضة تؤدى إلى الاعتراف بحقوق المرأة، إذا بانتهاك صريح لحرية الآخرين، فى اتجاه متزايد لإنكار الحرية على صعيد الفرد والأمة وعلى الصعيد الدولى. ما هذه الهوة التى تتجه إليها بلادى؟"

(١١)

افتراق الطرق (١٩٥٤)

قررت أن أبدأ ظهر اليوم، ١٢ مارس ١٩٥٤، فى نقابة الصحفيين، الإضراب عن الطعام حتى الموت، احتجاجا على تشكيل اللجنة التأسيسية المزمع إنشاؤها لوضع دستور جديد، إذ لم تضم امرأة واحدة. أنا أرفض الخضوع لدستور لم أشترك في صياغته. وإنى لأقوم بهذا الإضراب فى نقابة الصحفيين لأن الصحافة بطبيعتها ترتبط ارتباطاً وثيقا بكل حركات التحرير

توقيع: درية شفيق[١]

واستهلت درية السنة الجديدة بالدعوة لأول جمعية عمومية لاتحاد 'بنت النيل'، ووصفتها صراحة بـ "أول برلمان لنا". واشترك فيها ممثلون عن كل فروع الاتحاد فى مدن وأقاليم ومحافظات مصر:

كم يؤسفنى أن من يعارضون حقوق المرأة لم يشاهدوا أولئك المندوبات وهن يُدرن الجلسة بروح ديمقراطية حقة، إنطلاقاً من إرادتهن المستقلة ووعيهن السياسي. ودارت مناقشات مكثفة وحامية الوطيس، أعربن فيها عن وجهات نظر مختلفة، بأسلوب منظم ودقيق وشامل. وعندما رأيت مستوى الوعى وقوة الشخصية والقدرة علي تحمل المسئولية فى هذا البرلمان الأول لنا، عزمت أكثر من أى وقت مضى على الاستمرار فى الكفاح للحصول على حقوق المرأة المصرية، من أجل مصر ومن أجل المشاركة فى حركة إعادة بناء مصر. فمصر المتحررة لن تنجز إلا بقدر تحرر نسائها.[٢]

وناقشت درية فى مقالاتها ارتباط تحرر المرأة بالتحرر الوطنى. وفى مقال نُشر فى فبراير، أكدت:

ذلك النضال الوطنى الذى يتصاعد يوما بعد يوم ضد الاستعمار فى المغرب وفى تونس، والذى يتجلى فى السودان وفى شرق الأردن وفى ليبيا والعراق، فى صورة وعى وطنى متزايد بالمؤامرات الاستعمارية، وعى تفجّر فى مصر ثورة على قوى الاستعمار والرجعية، أين دور المرأة العربية فيه؟ ونجد الرد المباشر على السؤال فى صور المقاومة الوطنية فى المغرب وفى تونس، حيث تشارك المرأة من أجل حرية بلادها. ونجده أيضا فى النضال الدائر فى السودان وفى الأردن وفى العراق. وكذلك فى تقدم ورقى المرأة فى لبنان وفى سوريا. على المرأة العربية اليوم أن تفهم تماما أن طريقها للتحرر مشروط بإسهامها فى تحرير بلادها، فالبلد الحر ليس به جوارى.(٣)

ووصلتها فى تلك الفترة رسالة من ليدى كوربت-آشلى، رئيس التحالف الدولى للمرأة تنم، رغم قوة نفوذ مركزها، عن عدم فهم بالواقع السياسى. والآراء الواردة فيها تؤيد الانتقادات الموجهة لدرية بسبب انتمائها لذلك النمط من التنظيمات النسائية الدولية. والخطاب يتضمن محاولة غير مباشرة لدفع درية واتحاد بنت النيل إلى تجنيد عناصر للدخول فى التحالف، وهى مسألة تبدو فى حد ذاتها تجاهلاً للمشاعر الوطنية للنساء العرب:

كم يسعدنا أن تكون 'بنت النيل' ضمن جمعياتنا. هل قمت بالدعاية للتحالف فى جولاتك؟ أعرف أن لك حساً سياسيا، وإننى أستطيع أن أصارحك القول، فجمعياتنا فى الشرق الأوسط لا نشاط لها على الإطلاق، ومع ذلك فالنساء فى سوريا وفى العراق فى حاجة إلى صداقتنا ومساعدتنا. فهن لا

يفكرن فى شئ حالياً سوى فى اللاجئين الفلسطينيين البؤساء، ويبدين استيائهن لعدم وقوفنا معهن فى هذا الموضوع. ولكنك تعرفين السياسة، وتدركين أننا حاولنا أن نسترعى انتباه حكوماتنا مراراً إلى مصير هؤلاء البؤساء، والتحالف لا يملك من الموارد ما يسمح بمساعدتهم. إنى على يقين أنك تتمتعين بثقة أولئك النسوة، وأنك تستطيعين استمالتهن إلينا تدريجياً. وحبذا لو نصحتنا فى هذا الشأن، فنكون لك ممتنين.(٤)

ولا نعرف بماذا ردّت درية على ذلك الخطاب، لو كانت ردّت عليه أصلاً. ولكن مقالها الافتتاحي في شهر مارس يجدد نداءها بتشكيل جامعة للشعوب العربية: "ناقشت الأشقاء فى بيروت وعمان والقدس ورام الله، فى أهمية توحيد النضال النسائى مع النضال الوطنى حتى نحقق النجاح لقضيتنا العربية. وهكذا خطرت لى فكرة إنشاء جامعة للشعوب العربية، مهمتها التعبير عن إرادة الشعوب العربية وتوحيد نضال شعوبنا من أجل الحرية. وتكون الجامعة ساحة تجمع رجال ونساء العالم العربى ليرفعوا راية الكفاح المقدس."(٥)

وبينما تناقش درية من خلال مقالاتها بأن تحرير المرأة امتداد منطقى للدعوة للتحرر الوطنى التى تنادى بها السلطات، كان النظام يعانى من مشاكله الخاصة به فى مواجهة أقوى الحركات فى البلاد قاطبة فى ذلك الوقت – الإخوان المسلمين. فقد تغلغلوا فى كافة قطاعات وطبقات المجتمع المصرى، خاصة بين الطلبة وبين فقراء المناطق الحضرية، بل وحتى فى صفوف الجيش. وعلى الرغم من استمرارهم كتنظيم سياسى دينى، إلا أنهم ظلوا مُبعدين عن المشاركة فى الحكومة التى سيطر عليها الجيش. وفى منتصف يناير عام ١٩٥٤، تحرك الإخوان فى محاولة للاستيلاء على السلطة. فاستغلوا مناسبة اجتماع للاحتفال بتكريم ذكرى شهداء أحداث عامى ١٩٥١-١٩٥٢ فى القنال، وحرّضوا أتباعهم من الطلبة على التظاهر. "وتفجرت الصدامات بينهم وبين الطلبة الأعضاء فى هيئة التحرير. وفى غضون ثمانى وأربعين ساعة، ألقت الحكومة القبض على زعماء الإخوان وعلى العديد من أعضائهم، كما قامت بحل التنظيم وحظر أنشطته. فتحول

الإخوان إلى حركة سرية، وسرعان ما نجحوا فـي السـيطرة سـراً علـى مجموعة فى داخل الجيش، أصبحت أشد خطراً على النظام."(٦)

ولم يكن النظام يواجه تحديا خارجيا فحسب، بل عانى أيضـا مـن انقسامات فى داخل مجلس قيادة الثورة، خاصة بسبب الخلافات بين البكباشى جمال عبد الناصر واللواء محمد نجيب الذى كان بطبيعته أميل إلـى عـودة حكومة دستورية. فقد كان يعارض قيام مجلس قيادة الثورة بفرض سياسـلته، وينتقد ما تصدره محكمة الثورة من أحكام تعسفية على الزعماء السياسـيين من رجالات النظام البائد. وفى ٢٤ فبراير ١٩٥٤، قيل إن نجيب استقال من منصبه كرئيس للجمهورية وكرئيس للوزراء ولمجلس قيادة الثورة، وأعلـن عبد الناصر توليه لرئاسة المجلس والـوزراء." وأعلـن ضبـاط الفرسـان احتجاجهم على مجموعة ناصر، وذلك بزعامة خالد محـى الديـن، عضـو الضباط الأحرار وعضو مجلس قيادة الثورة، وطالبوا بعودة محمد نجيـب. وفى خلال أربع وعشرين ساعة، عاد محمد نجيب للرئاسة، مع بقـاء عبـد الناصر عضوا. وأغلقت الجامعات فى ١ مارس وألقى القبض علـى مائـة وعشرين، منهم الإخوان والمتطرفين من الحزب الاشتراكى (مصـر الفتـاة سابقا) وكذلك بعض الوفديين والشيوعيين."(٧)

الضغوط السياسية الداخلية والخارجية دفعت بالجونتا العسكرية إلـى قبول بعض التنازلات لصالح الديمقراطية البرلمانية، فأعلنوا عـن تشـكيل جمعية تأسيسية يتم انتخابها فى شهر يوليو التالى. وعلى الرغم من اسـتمرار الأحكام العرفية إلى ما قبل الانتخابات بشهر واحد، إلا أن الرقابـة ألغيـت فوراً. وعاد محمد نجيب رئيسا للوزراء ولمجلس قيادة الثورة، ومعـه عبـد الناصر نائبا لرئيس الوزراء.

وفى هذه اللحظات المتفجرة سياسيا بالتحديد، قررت درية الدخول فى المعمعة. فلقد نفذ صبرها وهى تتابع تطور الأحداث، وفقدت إيمانها رويـداً باحتمال حصول المرأة على حقوقها فى ظل حكم الجونتا العسكرية الجديـدة، فهى، كغيرها من ذوى الميول الليبراليـة، تؤمـن بعـودة الحيـاة النيابيـة الدستورية. فلما أعلنت الصحف عن قرب تشكيل لجنة دستورية لم تتضمـن امرأة واحدة، تمردت إحباطاً. وتقول: "استلهمت غاندى وفلسفته السلمية، التى كانت تُشعرنى بالاطمئنان فى أحلك اللحظات. وتذكرتُ مقولة له أكّد فيها 'لـو أن الجنوح للسلم قانون حياتنا، لكان المستقبل للنساء. فمن ذا الذى يستطيع أن

يخاطب القلب سوى المرأة؟' فغاندى هو الذى أنار لى السبيل الذى اتبعته ذلك اليوم بعد أن قرأت الصحف."

كان اليوم يوم جمعة. وبعد أن غادر نور البيت للقاء أصدقائه في مقهاه المفضل، وذهبت البنتان للسباحة فى نادى الجزيرة القريب، حزمت درية حقيبة صغيرة وهرعت إلى المصعد. وذُهشت مدام مارى لخروجها المفاجئ، فسألتها عن وجهتها. "إنى راحلة إلى الإسكندرية لبضعة أيام". ولكن درية ركبت سيارتها إلى مكتبها فى 'بنت النيل' حيث أملت برقية على سكرتيرها الخاص الذى أبدى دهشة، وأعطته تعليمات دقيقة بأن يرسلها إلى كل أعضاء اللجنة التأسيسية، والى المسئولين فى الحكومة العسكرية، والى شيخ الأزهر، والى رئيس مجلس الدولة وأعضاء نقابة الصحفيين وكافة المكاتب المحلية لمندوبى الصحافة المصرية والأجنبية. ثم طلبت إلى سائقها أن يتوجه إلى نقابة الصحفيين حيث إدَّعت أنها على موعد مع النقيب، فأجابوها بأنه غير موجود، فردت قائلة، "سأنتظره فى مكتبه إذن". وأخذت حقيبتها من السائق وناولته رسالة يسلمها لنور تخبره فيها بقرارها، فتضع زوجها مرة أخرى أمام الأمر الواقع، وهى تعرف تماما "أننى سأسبب له ألماً كما حدث فى كل تصرف من تصرفاتى. ولم يكن أمامى خيار حتى أحصل للمرأة على حقوقها. وماذا عن طفلتيّ وقد بلغتا من العمر العاشرة والثانية عشرة، سن يكون فيها الطفل فى منتهى الحساسية، وهى نفس السن التى فقدتُ فيها أمى؟ ماذا لو حدث لى شئ، فستصبحان يتيمتان وتعانيان ما عانيت من عذاب؟ هل من حقى أن أقضى على سعادة الآخرين؟"

وفى غضون ساعات، جاء زوجها قلقا وحائراً إلى النقابة ومعه نعيم أبو الفتح، الأمين العام لنقابة الصحفيين والذى خاف على مركزه من المشاكل. ونعيم هذا شقيق صاحب جريدة المصرى، الذى سهر مع نور ودرية ليلة انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وحاول نور إقناع درية بالعودة معه إلى البيت، وعاتبها على القيام بالإضراب عن الطعام وحدها. وفى نفس اللحظة، دخلت عليهم راجية رجب، صديقتها وزميلتها فى اتحاد بنت النيل والتى عرفت بالإضراب من صحف المساء، وقالت "زوجى لم يمانع فى أن أنضم إليك." وبعد قليل، وصلت صديقة درية الصحفية فتحية الفلكى (وكان لها ابنتان فى سن جيهان وعزيزة، انتقلنا إلى بيت رجائى حيث عاشتا طوال فترة الإضراب). وبحلول المساء، وصل عدد النساء فى النقابة إلى ثمانية، جئن للتضامن مع درية.[٨] وأرسلن برقية ثانية يُقسمن فيها "الجوع حتى الموت ما لم يُجب طلبنا بتمثيل المرأة فى اللجنة التأسيسية وفى كل اللجان

التشريعية الأخرى."(٩) وجاءت مكالمة هاتفية من مقر اتحــاد بنــت النيــل بالإسكندرية تفيد أن خمس نساء يرغبن فى التوجه إلى القــاهرة للانضمــام للمضربات. ونصحتهن درية بالتوجه إلى نقابة الصحفييـــن هنــاك والبــدء بالإضراب. وبدأت برقيات التأييد تصل، منها برقية أرسلتها ســميحة أحمــد ماهر، وأخرى من أمينة شكرى، الشخصية المعروفة فى أوســـاط الخدمــة التطوعية وزميلة هدى شعراوى، وقد انضمت إلى مجموعـــة المضربــات بالإسكندرية.

فإذا بذلك الاحتجاج المسرحى الذى بدأته امرأة واحدة، يتحول إلـــى حدث تناولته الصحف لمدة عشرة أيام متتالية. فالصحافة التى تحررت بعــد رقابة دامت سنتين، وجدت فى الحدث المثير مرتعا. فمنظر سيدات المجتمــع المرموقات، متدثرات بملابس البيت، وشعرهن ملفـــوف، كــان فرصــة لا تُعوض بالنسبة للمتشككين والراغبين فى الانتقاد، بل لقد سخر مـــن دريــة الكثيرون وتندّروا عليها فى رسوم كاريكاتيرية لاذعة.

> أحاط بنا الصحفيون والمصورون ومندوبـو التليفزيون، فكان منظرنا شيئا لم يسبق لـــه مثيل فى الشرق. فثارت الشـــائعات حــول سلوكنا؛ قيل إننا ظـــهرنا أمـــام الرجــال الأغراب فى ملابسنا الداخليـــة، وبأننـــا لا أخلاق لنا. بل أن طه حسين نفســـه كتــب مقالاً عن 'العابثات'. وتحولت الشائعات إلى هجوم خطير. فتلقى نور برقيات من هيئات دينية، تسخر منه لأنه "لم يقو على ضـــرب زوجته وإعادتها إلى دارها." وعلى أســاس نفس الشائعات، اتهمنا البعض الآخر بأننـــا أضربنا لمجرد الدعاية. بل واتهمتنا جريـدة بتناول الطعام ســـراً، بـــل وبأننـــا نـــأكل 'المارون جلاسيه'. كما اتهمنا آخرون بأننـــا نمضى الليل مع الصحفيين! والغرض مـــن كل الشائعات القضاء على سمعتنا، فـــالذين أطلقوها يعرفون تماما خطورتها فـــى بلــد إسلامى كبلدنا.

ومع ذلك فهناك صحف أخرى وصحفيون آخرون أخذوا الإضـــراب عن الطعام مأخذا جادا. فتابعت جريدة الأهرام يومياً "معركة الإرادة" و"حرب الأعصاب" الدائرة بين المضربات وسلسلة من المندوبيــن غــير الرســميين لمحمد نجيب، ناقشوا وتوسلوا وهادنوا ثم أمروا بنقــل النســاء مــن نقابــة الصحفيين إلى مستشفى حكومي، خوفاً على صحتهن.

وما دار من لغط حول ذلك الإضراب عن الطعام يدل على أن دريــة شفيق ورفيقاتها نجحن فى وضع قضية حقوق المــرأة فــى مقدمــة وعــى الجماهير، بل ونجحن فى تحدى محمــد نجيــب والحكــام العســكريين، إذ واجهوهم بموقف محرج ومحيّر. وكانت اللحظة لحظة هــوة عميقــة بيــن المؤيدين لرجوع الحكم المدنى وعودة البرلمان، وبين من يفضلون ترك زمام السلطة فى أيدى الجونتا العسكرية، خوفاً من عودة القوى القديمة. وقد انتابهم القلق إزاء الموقف السياسى المتفجر الذى ساد المجتمع، فأى تحرك شــعبى كبير قد يتسبب فى المزيد من عدم الاستقرار. ومن ناحية أخرى، لا يريــدون الظهور فى موقف غير المتعاطفين مع قضية حقوق المرأة. فبادروا بإرســال على ماهر إلى نقابة الصحفيين ليقابل المضربات، ويحاول إقناعهن بوقــف الإضراب. ورأت درية "أن إضرابنا ستار ممتاز لكل ما يدور فــى داخــل الجونتا من تشنجات. فمع تركيز الاهتمام علينا، لم يتابعوا مــا يــدور فــى الظلال."

ودار الحوار بين درية وعلى ماهر حول تشكيل اللجنــة التأسيســية المكلفة بإعداد الدستور الجديد. وطالبت درية بتمثيل المرأة فيها "لأن النســاء لن يقبلن حكم دستور لم يشاركن فى وضعه." وأجاب على ماهر فى عبارات لا تقل حسماً "لا يمكن تعيين النساء فى اللجنة التأسيسية، إذ أن ذلك التعييــن من صلاحيات الجمعية التأسيسية المُنتخبة ". ومشروع الدستور الجديد وافــق مبدئيا على منح المرأة حقوقها السياسية. وعلى اللجنة التأسيســية أن تتقــدم باقتراحاتها فى هذا الصدد. لابد إذن من الانتظار دون التصرف برعونة".

وكررت درية حجتها: "المرأة تمثل أكــثر مــن نصــف الســكان. والدستور ينص على المساواة بين الرجال والنساء. وقانون الانتخابات هــو مصدر الخلاف". ورد على ماهر على حجتها قائلاً: "هذا الوضع قــائم منــذ ثلاثين سنة، والآن هناك أمل فى التغيير، وبالتالى لاداعى للاحتجاج."

ولم تقتنع درية بذلك: "النساء فى باكستان اشتركن فى اللجنة التأسيسية، ونساء مصر يطلبن حلاً قانونيا للمسألة، وهذا ما دعانا إلى الإضراب عن الطعام". وأشار على ماهر فى ضيق، "الإضراب لا يساعد البلاد، ولا يمكن للجنتى أن تدافع عن حقوق المرأة والمعارضين سوى أمام جمعية دستورية مُنتخبة. فالمرأة كسبت الجولة الأولى، ويجب عليها الآن أن تهدأ وتنتظر الجولة الثانية". ولكن درية أصرّت: "انتظرنا بما فيه الكفاية. نريد حقوقنا الدستورية فوراً، وفى هذا ما يتماشى ومنطق الثورة."[١٠]

وأنهى على ماهر الحوار معترفاً للصحافة "بأنه ما من حل سريع." ومع ذلك عاد إلى النقابة بعد أربع وعشرين ساعة حاملاً بيانا رسميا عن الحقوق السياسية للمرأة. وفضّل البقاء فى سيارته، وأرسل أحد مساعديه ليسلّم المضربات النص الآتى:

> وقفت المرأة المصرية إلى جانب رجال البلاد في ثورة ١٩١٩، وأثبتت وطنيتها، وظنت أنها ستحصل بعد ذلك على حقوقها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية كاملة. وهى الآن تعمل إلى جانب الرجل فى مكاتب الحكومة وفى الأعمال الحرة بل وحتى فى المناصب الأكاديمية بالجامعات. لا ينقصها سوى حقوقها السياسية. واللجنة التى دُعيت لإعداد دستورنا، حددت أن على المرأة أن تطالب بحقها فى الانتخاب. ويرى الكثيرون أن فى ذلك دفعاً للمرأة إلى الحياة العامة قبل أن تستعد بالكامل لمواجهتها. لذا فُرض التصويت على الرجال ولم يفرض على النساء.
>
> والسياسة العامة لهذه الأمة، والتى تتفق وصكوك الأمم المتحدة فيما يتعلق بحقوق الإنسان، "هى أن تُمنح المرأة المصرية حقوقها السياسية بكل سرور". ومن المناسب إذن أن تقوم الهيئة المُنتخبة بتضمين حق المرأة فى التصويت على دستورنا الجديد. ونحن نفخر بانتصار الهند

في الأمم المتحدة والذى تحقق بتعيين السيدة بانديت نهرو. وإنـــي لواثـق أن سياسـتنا الجديدة سـتقود المـرأة المصريـة إلـى النصر."(١١)

ولكن درية رفضت التنازل، فردّت: "قل لسعادته إننا نرفض! فلن نتخلى عن إيماننا ولن نتحرك من النقابة ما لم نحصل على تعـهد مكتـوب يضمن حقوقنا الدستورية." وفى نفس الليلة، تجمعت المئات من المؤيدات فـي مظاهرة أحاطت بمبنى مجلس الوزراء، مطالبات بمقابلة محمد نجيب، يهتفن: "لبّوا مطالب المضربات!" وتحولت النقابة إلى "سوق، وقاعة المجلس حيـث كنّا، أصبحت مثل قاعة تصوير، تعّج بالأنوار الضخمة وكاميرات التليفزيون ورجاله، والجدران تغطيها مقتطفات من الصحـف وصـور مـن الجرائـد العالمية." وبدأت تتبلور ردود فعل قوية، إما مؤيدة أو معارضـة. فتظـاهر جمع من المحرّضين المتدينين حول المبنى، صـارخين: "أدخلـوا عليـهن العاهرات! دعوا أزواجهن يضربوهن. فالقرآن يبيح ذلك!" واقتحم بعضـهم المبنى. وتم القبض عليهم قبل أن يعتدوا على النساء. أما شقيق الشيخ حسـن البنا، مؤسس الإخوان المسلمين، فقد أرسل خطاب تأييد ضمنه أبياتـا مـن شعره. وبعض المبعوثات من التنظيمات النسائية انتقدن الإضراب باعتبـاره لا يفيد "لأنه ليس من المناسب للمرأة المصرية اليوم أن تخوض حملة دعايـة انتخابية". والبعض الآخر، مثل سامية توفيق، نائب رئيس جامعـة النسـاء العرب والشرقيات، وفاطمة نعمت رشاد، رئيسة الاتحاد النسـائى الوطنـي، هاجمن درية شخصيا: "في مثل هذه الأوقات غير المستقرة فى مصر، ليـس من مصلحة البلاد أن نطالب بحقوق المرأة": "صُدمـت إذ سـمعت نسـاءاً يتهمنني بالعمل ضد مصلحة بلادى، وبأن الوقت لم يحن بعد! وأجبت بأنه لا يوجد أبداً وقت محدد للمطالبة بحرية المرأة. حريتنا من حرية البـلاد. فـلا يمكن أن تصبح مصر حرة ونساؤها مُستعبدات."

وكان رد الفعل العام مؤيداً. فأرسلت جمعية الهلال الأحمـر أربعـة أسّرة للمعتصمات. ووقف وفد من عشر منظمات نسائية ينتظر من السـابعة مساءاً حتى الواحدة صباحا ليقابل الرئيـس محمـد نجيـب وينقـل رأيـه للمعتصمات، "بغية التوصل إلى حل توفيقى." ورفض الرئيـس مقابلتـهن. وتدفقت برقيات التأييد من الداخل والخارج. وكان ضمن المؤيديـن أفـراد ومنظمات مثل اتحاد التحرير للخدمات الاجتماعية، والاتحاد النسائى الوطنـي وجمعية المرأة الجديدة، ولجنة حقوق المرأة اللبنانية، واتحاد نساء أم درمـان،

والنوبيون المصريون، واتحاد خريجات جامعة الإسكندرية، وأديث سمرسكل، وهى من أوائل الوزيرات فى الحكومة البريطانية، وليدى كوربت آشبى، رئيسة التحالف الدولى للمرأة. بل وأرسلت بعض محطات التليفزيون الأمريكى مندوبيها. ووقع مائة وعشرون من طلبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة على التماس موجه للرئيس محمد نجيب، يطلبون فيه "إنهاء الرجعية ومنح المرأة حقوقها السياسية كاملة. خمسة وستون بلد منحت المرأة حق الانتخاب، ولا يمكن لبلد أن يدّعى أنه دولة حديثة دون أن يكون قد منحت الحقوق السياسية الكاملة لمن يمثلن أكثر من نصف سكانه. وبالتالى فالثورة ومجلس قيادتها مسئولون عن منح المرأة حقوقها."(١٢)

ودخل محمد حسين هيكل، الأديب المصرى الكبير، فى الحوار معلقاً، "من الواضح أننا لم نعد فى زمن تسعى فيه المرأة إلى الاستعانة بالرجل لتحسين وضعها؛ ولكنى مندهش لإصرار المعتصمات، خاصة بعد البيان الواعد الذى أصدره على ماهر." وقال، مدلياً برأيه فى مسألة التمييز بين سلطات اللجنة التنفيذية والجمعية الدستورية:

> قررت الجمعية الدستورية بما يشبه توافق الآراء بأن المرأة المصرية لابد وأن تنال حقوقها السياسية كاملة. ولكن أولئك النسوة يردن المشاركة فى اللجنة التأسيسية كمرشحات ومنتخبات. ومهمة الجمعية الدستورية هى عرض الاقتراحات. والقانون الخاص باللجنة التأسيسية وانتخابها ليس بمسألة دستورية، وإنما هى مسألة تقررها الحكومة القائمة. فإذا ما أيدت الحكومة حقوق المرأة، فكذلك ستفعل اللجنة التأسيسية، والعكس صحيح. ومع ذلك فلا أظن أن النساء يعتقدن، إذا ما رُشحن، أنهن سيحصلن على الأغلبية. فالمرأة فى إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية من حقها الترشيح، ومع ذلك فهى لم تحصل على عدة مقاعد بعد. فهل تظن المعتصمات، مهما نلن من مقاعد، بأن فى ذلك دليلا على قوتهن وقدرتهن على الدفاع

عن حقوق المرأة؟ ربما. ولكن من الواضح أن انضمامهن للجنة التأسيسية قد يكسبهن تأييد الرجال، بدلاً من التمسك بموقف متعنت منهن. لقد قام رئيس الجمعية الدستورية بواجبه. والأمر الآن متروك للحكومة والمعتصمات لإيجاد حل لهذه المشكلة المعقدة.(١٣)

ولكن المعتصمات والحكومة رفضوا التنازل. وفجأة وعلى غير انتظار، ظهرت شارلوت ولر - وهى صحفية أمريكية سمعت بالإضراب وهى تجوب مصر مع زوجها جورج، مراسل صحفى مخضرم من جريدة 'شيكاجو ديلى نيوز'، "فأضافت إلى تظاهرنا بعداً دوليا. وكم سعدتُ عندما طلبت الأمريكية الانضمام لنا. ولفتة التضامن هذه أثبتت أن حقوق المرأة السياسية ليست قضية المرأة المصرية وحدها، وإنما هى قضية المرأة عامة." وتحت عنوان "زوجة المراسل الصحفى تدخل المعمعة وسيدات النيل يجُعن لنيل حق التصويت،" كتب جورج ولر:

خمس سمراوات وشقراوتان، كلهن متزوجات عدا واحدة، ومنهن من تلبس بيجامة زوجها الوردية - افترشن أربع مراتب على أرض حجرة فى اتحاد الصحفيين بالقاهرة لمدة خمسة أيام. وسقطت اثنتان من التسع الأصليات إعياءاً، ولم تتنازل واحدة. وحاولت الجونتا العسكرية الحاكمة في مصر أن تتجاهل الإضراب، أملا فى أن ينتهى فى هدوء. ولكن درية شفيق التى احتفظت، رغم إنجابها طفلتين، بقوام مارلين مونرو، أخبرتنى: "سأستمر حتى نحصل على ضمانات مكتوبة." أما محمد نجيب، فقد أرسل وبصفة غير رسمية سلسلة من ذوى النصائح الأبوية لإقناع النساء بالتخلى عن موقفهن. وشاهدتُ بنات النيل يهزمن المستشار القانونى لمحمد نجيب، وهو

سليمان حافظ المحامى الأسمر القصير، وكذلك محافظ القاهرة اللبق، محمود نور. وتطايرت العبارات باللغة العربية تتخللها كلمات فرنسية وعبارات بريطانية مثل "حقوق من طرف واحد" و "ضرائب دون تمثيل". والناطقون باسم محمد نجيب يجيبون: "لقد اكتسبتم تعاطفا من كل أنحاء العالم، وأعربتم لنا عن مشاعركم، وآن الأوان لتكفوا عن الإضراب، وإلا بدا الإضراب ضغطا فجاً على الحكومة." وأجابت السيدة درية شفيق بصوت مبحوح: "عندما أسقطت هذه الحكومة الملك فاروق، أصدرت العديد من القوانين فى ٤٨ ساعة. فلِمَ كل هذه الحساسية بالنسبة لإصدار قانون آخر يمنح نصف شعب مصر حقوقه؟". وتراجع مندوبو نجيب بعد رفضهم طلب درية شفيق بتسجيل الوعود كتابة.[١٤] وبعد يومين، كتبت شارلوت ولو روايتها عن الموقف: فى صباح الخميس، دخل بكباشى بالجيش المصرى ومعه نائب محافظ القاهرة حيث اعتصمت "بنات النيل" مضربات عن الطعام، وأمرا بنقل النساء إلى المستشفى. وقال علماء الأزهر إن الإضراب بمثابة محاولة انتحار، وهو ما يدينه الإسلام. وطلبوا من الحكومة اتخاذ موقف حازم مما أسموه "عبث بعض النسوة". وبينما تتناقش السيدات، سقطت الشاعرة أمانى فريد مغشيا عليها وحملوها على نقالة إلى عربة الإسعاف الواقفة بالخارج. وبينما يخرجن متجهات إلى المستشفى، أعلنت درية أنهن سيبقين معاً.[١٥] وقادت من تبقى من زميلاتها نحو عربة الإسعاف. وكانت درية تمشى فى شموخ الملكات، تلملم أطراف الروب الذى

ترتديه وهى تواجه نظرات الرجال الواقفين على الرصيف. وبما أنى لست مواطنة مصرية، فليس من حقى سرير فى مستشفى حكومى مع المطالبات بحقوق المرأة. ولكن درية ودّعتنى من سريرها وقبلتنى هامسة: سأستمر فى إضرابى حتى تعطينا الحكومة وعداً مكتوبا بأن المرأة سوف تشترك فى وضع دستور مصر الجديد."(١٦)

ولدهشة الحكومة وأسفها استمرت النساء فى الإضراب. "وبعد ستة أيام، تدهورت صحة المضربات، إلى درجة استدعت إطعام بعضهن عنوة بأنبوبة وحقنهن بالجلوكوز. ولكنهن أقسمن متابعة الإضراب فى المستشفى."(١٧)

وأرسلت ناظرة مدرسة عزيزة وجيهان رسالة لدرية تخبرها "أن المدرسة فى حالة بلبلة لأن الأطفال يرددون قول آبائهم بأن درية شفيق سوف تموت. وجيهان وعزيزة تبكيان، فلا يجب على أمهما أن تعذبهما بهذا الشكل."(١٨) والواقع أن الأختين، رغم أنهما تعودتا على كثرة غياب درية عن البيت، إلا أن إضرابها عن الطعام ملأهما شعوراً بالفخر والحيرة والقلق:

أذكر أن كانت لها صديقة، حضرت ابنتاها للعيش معنا طيلة مدة الإضراب .. لذا لم نقلق كثيرا لوجودنا مع أطفال آخرين يشاركونا المحنة. وكان بابى يأخذنا معه لزيارتها فى نقابة الصحفيين، ويلتقطون لنا الصور طول الوقت. وأتذكر مراتب على الأرض فى كل مكان، ونساء يرتدين أروابا منزلية، وتجلس مامى معنا تحدثنا قليلا. وظللت أسألها "متى تعودين إلى البيت يا مامى؟ متى ينتهى كل هذا؟" ولم نكن نبقى سوى قليلا لكثرة ما يدور هناك. وفى البداية لم أشعر بقلق كبير أثناء تلك الزيارات. ولكنى فوجئت بحدوث كل هذا فجأة. لغطٌ فى البلد كله، وكلما ذهبنا إلى

مكان وجدنا وكالة رويتر للأنباء. كانت أمى على الصفحات الأولى للجرائد. وفى المدرسة يسألنا المدرسون أسئلة ويشيرون إلينا دائما "ببنات درية شفيق". كنا نشعر بالفخر، وبالقلق أيضا لأننا كنا نسمع فى المدرسة أنها ماتت. إثارة وقلق فى آن واحد، ولكنه ليس قلقا كاملا، إلا عندما نُقلن إلى المستشفى وهن على شفا الموت ... عندئذ طغى القلق على كل شئ.[١٩]

وتوسل نور إلى درية أن توقف الإضراب، لأنها ليست بالقوة التى تسمح لها بالاستمرار: "هل فكرت فى مدى عذاب الطفلتين؟" وفى أى ظروف أخرى كان سيصعب علىّ أن أحبس دمعى. ولكنى كنت قد تخطيت مرحلة العواطف. كنت أعيش بروحى فقط، ناسية وجودى كإنسان له مشاعر وأوجه ضعف. فحيِّز المطلق الذى وصلت إليه لم يترك مجالا لأى شئ آخر .. ولا حتى لما كان يجعلنى أحب أطفالى أكثر من نفسى. لم يعد هناك قيمة لشئ سوى حُريتى!"

وجاء محمود نور، محافظ القاهرة، إلى المستشفى، يخبر درية أنه يحمل رسالة شفوية من الرئيس محمد نجيب: "كلفنى بأن أخبرك أن الدستور الجديد سيكفل للمرأة حقوقها السياسية كاملة" فأجبته بسرعة: "أريد ذلك كتابة". فغضب المحافظ وناشدنى قائلاً: "أنا الممثل الرسمى للحكومة. وأرسلت لأخبرك بما قلت. مستحيل أن تطالبى الحكومة بمثل هذه الورقة يا مدام شفيق". وترددت لحظة ثم قلت، "هناك مَخرج. أعطنى كتابة ما يفيد أنك جئت تتكلم كمبعوث لرئيس الجمهورية". فوافق.

ولما أعلنت الصحف توقف الإضراب "تدافع المئات إلى عنبر المستشفى لتهنئة المضربات اللاتى طُلب منهن البقاء فى المستشفى ثلاثة أيام لاستعادة قواهن قبل العودة إلى البيت".([٢٠]) ودرية نفسها انخفض وزنها خمسة وعشرين رطلا، "ولكنى فى غمار نشوتى لصومى الذى دام ثمانية أيام، شعرت بأننى عادلت حرية المرأة بحرية البشرية. فلما جاء زوجى وبناتى لزيارتى، احتضنتهم وأنا أحس بأننى عُدت من رحلة طويلة. كنت سعيدة، فزوجى وابنتاى بجانبى ... ومعى وعد مكتوب بالحقوق السياسية للمرأة .. وخضت تجربة عمرى، تجربة اقتربت بى من المطلق."

وعلى الرغم من مظاهر الغبطة لأنها لمست بيدهـا المطلـق، إلا أن تصرفاتها السياسية المسرحية غير المتوقعة، وآخرها الإضراب عن الطعـام، تسببت فى اضطراب حياتها الزوجية مع نور، وهى حياة لم تكـن مسـتقرة تماما. وكان نور مصدراً موثوقا يمكن لدرية الاعتماد عليه كزوج وصديـق ومستشار مالى، يقدم لها الدعم المالى والقانونى كلما استشـارته فـى إدارة مجلاتها. وكلما ازدادت تسيساً والتزاماً بـ "رسالتها"، كلما اتخذت القـرارات دون استشارته، وهى قرارات لا يوافق عليها أبداً.

وهكذا كان الوضع بالنسبة للإدارة المالية ولسياسة التحرير فى مجلـة 'بنت النيل'. ويذكر لطفى الخولى:

> فى حوالى عـام ١٩٥٤، تفجّـر الموقـف بينهما وكنت وقتها نشطاً جداً سياسياً. حـذر نور درية، ومعه إبراهيم عبده، بأننى قـد أعرّض صورة 'بنت النيل' للخطر، وبـأن الحكومة قد تُغلق المجلة لأننـى معـروف بأنى متمرد ماركسى، اعتقل أكثر من مرة. وأذكر أن نور انتحـى بـى جانبـا يومـا وحذرنى: "أنت رجل سياسة، ولا يمكـن أن نتحمل مسئوليتك. فأنت عبء سياسى كمـا أنك تشكل خطراً. أريدك أن تترك المجلـة." ولكن درية منعتنى. كانت سـيدة عظيمـة وصريحة. كان بإمكانها أن تكون من أعظم الزعيمات. على أية حال، تركـت المجلـة ولكنى ظللت أعمل معها. أحيانا أكتب لـها خطبها، وأحيانا أكتـب فـى المجلـة دون توقيع. وكانوا يدفعون لى خمسـة عشـر جنيها شهريا، ولكنها دفعت لى عشرين بعد أن غادرت المجلة. لم أكن أعمل رسميا فى 'بنت النيل' ، ولكنى، فى الواقـع، بقيـت على صلة وثيقة بدرية، وإن ظل هذا غـير معروف. كنت أتردد على مكتـب 'بنـت النيل' أو 'المرأة الجديدة' لأكتب مقـالاتى

في المساء، بعد أن يذهب الجميع. واستمر ذلك بضعة سنوات حتى أُلقي القبض علىّ ودخلت السجن لفترة طويلة.(٢١)

وظلت مشاجرات نور ودرية بين جدران بيتهما، فهما لا يحبان الجدال العلني. وتسبب ذلك في اضطراب جو المنزل وتوتر العلاقات الزوجية. وتتذكر عزيزة:

كانا يتناقشان كثيراً. ولم تكن مشاجراتهما بشأن غياب أمي الكثير عن بيتنا لنشاطها كشخصية عامة. كلا، كان شجارهما يدور حول جوانب متعددة من حياتهما اليومية. أعني مثلا أن أبي كان المستشار المالي للمجلات، وكانا يختلفان بشأن أمور عديدة. فهو متداخل في سير المجلات دون أن يتولى المسئولية، فهي المسئولة عن كل شئ رغم اعتمادها الكبير على دعمه المالي لها، وفي نفس الوقت ترفض الكثير من آرائه. فيصطدمان على هذا المستوى. ثم كان هناك أيضا جانب آخر. فهو شخص اجتماعي، يحب عشرة الناس. وهي تفضل الانطواء، فيتشاجران. لم تكن حياتنا المنزلية سعيدة. تناقض دائم، الصورة البادية براقة تثير الإعجاب، الخ... والواقع في البيت غير ذلك.(٢٢)

وكانت "سنة ١٩٥٤ بداية النهاية للعلاقة الزوجية بين نور ودرية"(٢٣) كما يعرف أصدقاؤهم المقربون.

ولكنهما حافظا على المظهر أمام الصحافة. فكلما سُئلت عما إذا كان زوجها يوافق على ما تفعله ويؤيده، أصرّت: "أنا وزوجي متفاهمان، وكل منا يحترم رأي الآخر، كما أني أثق في وقوفه إلى جانبي." وبالفعل، وعلى الرغم من اختلافه العميق مع بعض قراراتها، خاصة كل ما كان يهدد بدخولها في نزاع مع السلطات الحاكمة، لم ينتقد نور زوجته علنا أبدا ولا هو

سعى إلى تثبيط همتها." وتعلق عزيزة قائلة: "في الواقع كان أبى دائماً يؤازر أمى. فقد قبلا بالأمر الواقع بأن زوجته شخصية عامة. وكان شـديد الثقـة بنفسه، أى لم يكن يشعر بأنها تتهدده، وأبدا لم يقترح عليها أن تلزم البيـت، فقد كان يعلم أن ذلك مستحيل."[٢٤]

ومما لا شك فيه أن درية كانت تستمتع بالشهرة والدعاية التى صاحبتا إضرابها عن الطعام، واهتمام وسائل الإعلام بالإضراب وضعها فى مصاف المشاهير عالميا، خاصة فى الولايات المتحدة. وتعلق شـارلوت ولـر فـى خطاب موجه إلى درية:

> قامت محطتان للتلفزيون الأمريكى بتغطيـة الإضراب على مستوى البلاد، فى نشـرات الأخبار المسائية. وقصة الإضراب ظـهرت فى كل صحف أمريكا تقريبا. أصدقاؤك فى بيروت ودمشق يعتبرون إضرابـك فعـالاً للغاية. تُرى ما موقفك الآن بعد أن تراجعت الحكومة عن عزمـها إجـراء انتخابـات مبكرة، بما فى ذلك تراجعها عن الاقـتراح "بمنح المواطنين حقوقهم كاملة؟." لن أنسـى أبدا شرف المشاركة، ولو لمدة ٤٨ سـاعة، فى تطور الأحداث السياسية فـى مصـر. أرجو أن تخبرينى إذا كنت تنوين المـرور بروما، لأستضيفك وأعرّفك بالذين يشتاقون لمقابلتك هنا، ومنهم سفيرتنا كلـير بـوث لوس. تحياتى الحـارة لراجيـة وأمـانى وبهيجة وفتحية والمنيرتين. أشكرك مـرة أخرى للسماح لى بمشاركتك تجربتك.[٢٥]

واعترض منتقدوها المصريون على كثرة اللغط والاهتمام بما سـمىّ انتصار النساء فى مصر، مدعين أن المغامرة كلها لم تكن سوى دعاية باءت بالفشل: "كان فى موقف المعتصمات درس قاس للمرأة المصرية. وقـد أدت بهن العجلة إلى الفشل. وهل من المعقول بعد كل الجهود والدعاية العالمية أن يقتنعن بمجرد "النظر فى مشاكلهن"؟ هذا فشل مؤسـف رغـم محاولاتـهن ومحاولات الصحافة تصويره كانتصار. فأين الانتصار؟[٢٦]

ولم تتأخر درية فى الرد عليهم:

> لم يكن إضرابى عن الطعام مجرد تعبير نسائى بشأن مسألة حقوق المرأة، رغم محاولات بعض الأميين وذوى العقول الضعيفة النيل منا والسخرية بنا، فلقد فهمته الصحافة العالمية بكل أبعاده العميقة والممتدة، بما فى ذلك حقوق المرأة. لقد رأت فيه الصحافة الدولية حدثا تاريخيا يبشّر بقوة التيار الديمقراطى وبالجذور العميقة للوعى الجماهيرى الجديد فى مصر ... وهو وعى لا يقبل حكومة بلا برلمان وبلا دستور وبلا حرية. والعالم أجمع أدرك الحقيقة التى لا يجرؤ أحدٌ هنا على مناقشتها وهى: أن الديمقراطية كلٌ لا يقبل التجزئة، وأن الديمقراطية غير الكاملة مسخٌ غير مجدى وبهتان. فالشعوب الحرة لا تقبل مثل هذا الوضع ولا ترضى به. ولقد قلت منذ اللحظة الأولى إننا لا نعترف بجمعية تأسيسية تُحرم المرأة من حق الاشتراك فيها، ومازلنا عند رأينا ... فنحن النساء المصريات لا نقبل الإقصاء والاستعباد بعد الآن، وفى عصر المعرفة والاستنارة والحرية هذا ... ستجد وسيلة لنيل حقوقنا. ولم يكن الإضراب عن الطعام سوى تحذير. كان خطوة سوف تأتى بعدها خطوات![٢٧]

وبدا لوهلة بعد الإضراب عن الطعام، وكأن محمد نجيب ومؤيديه انتصروا فى النزاع الداخلى على السلطة، فصدرت القرارات تعلن عودة الأحزاب السياسية، ووعد محمد نجيب بحل مجلس قيادة الثورة عقب انتخاب الجمعية التأسيسية. ومع ذلك، وفى غضون اثنين وسبعين ساعة، بعد أسبوع من انتهاء الإضراب، ألغيت القرارات السابقة رسميا – وهو تصرف معناه تجديد الأحكام العرفية، وعودة الرقابة وحل كافة الأحزاب السياسية، وكذلك تأجيل الانتخابات حتى نهاية "المرحلة الانتقالية" (أى حتى يناير ١٩٥٦).

وبحلول منتصف إبريل، خرجت مجموعة عبد الناصر منتصرة من النزاع على السلطة. وبعد نجاته من محاولة اغتياله التى دبرها الإخوان المسلمون فى نهاية أكتوبر، دعّم عبد الناصر موقفه كزعيم بلا منازع للبلاد. وفى ١ نوفمبر ١٩٥٤، شُكلت محكمة ثورية جديدة لمحاكمة المتهمين بالخيانة، وخرج عدد من الضباط 'اليساريين' فى حملة التطهير أو أودعوا السجن مع غيرهم من المتهمين بالشيوعية ومن سبق القبض عليهم من الإخوان المسلمين. وفى ١٤ نوفمبر حُدِدت إقامة محمد نجيب فى منزله، وبذلك تمت تصفية كل من يعارض، وتولى عبد الناصر القيادة داخل الزمرة العسكرية.

وفى نهاية ١٩٥٤، كان عبد الناصر قد أحكم السيطرة على البلاد، ودعّم سلطته فيها. وعلى مدى عقدين، قُدّر لمستقبل المنطقة العربية أن يتشكل بقيادة هذا الزعيم القوى ذى الشخصية الساحرة. أما بالنسبة للمواطنين المصريين، فكانت تلك بداية انهيار المؤسسات الديمقراطية، حيث تعاقبت التدابير الرامية إلى تحقيق مركزية الاقتصاد والتصنيع، سعيا وراء تطبيق "التجربة الاشتراكية." صُودرت الأموال، وأعيد توزيع الأرض وأُممت الصناعات. كما قضى عبد الناصر على حرية التعبير بإلغائه الأحزاب السياسية ووضعه الصحافة تحت سيطرة الدولة، بعد أن كانت صحافة مفتوحة وحرة. وبالنسبة لدرية شفيق، بطبيعتها المستقلة وطبعها المسيطر، لم تستطع المُضى فى ذلك الطريق. وفى أقل من ثلاث سنوات، دخلت فى مواجهة مباشرة مع عبد الناصر ونظامه.

البحث عن المطلق (١٩٥٤ - ١٩٥٧)

عازمة على المضي إلى نهاية الطريــق ... بــلا تردد ... وبلا عودة. ولكن تُرى كيف يكون الطريـــق؟ سأكتشف الطريق حتما، بكل حبي للحقيقـــة وللحريــة (مفهومان أراهما واحدا). ولم يكن بالإمكـــان تصـــور الطريق مسبقاً، وبصفة نهائية. فالطريق رسمه العـــرَق والدم والمعارك والدموع. هو طريق الأشواك والحـــب. وقد يجده المرء أخيراً وهو يبحث عن المطلق.

درية شفيق
"مذكرات" (١٩٦٠) ص ٣٥٨

(١٢)

الهروب حول العالم (١٩٥٤ - ١٩٥٥)

أسرُ نفسى .
سباق مجنون
نحو السماء
لأسرق منها
بعضا
من النار
يعيد إلى الحياة
وإلى أرضنا التى تموت
مثلك يا برومثيوس
صدرك للنسر معرضا(١)

أرحب برحلتى هذه لأشرح الدور الهام الذى لعبته المرأة المصرية فى بناء مجد مصر الحديثة، وفى تخليص العالم المتحضر من الترهات العالقة فى الأذهان من أدران الماضى.(٢)

وأدت الدعاية القطرية والدولية الواسعة فى أعقاب إضرابها الشهير عن الطعام إلى فتح صفحة جديدة فى حياة درية شفيق، فرضت عليها أن تعيد تعريفها للكفاح من أجل حقوق المرأة، فى إطار الكفاح الأشمل من أجل الديمقراطية فى مصر. والظروف التى اقتضت هذه المراجعة نبعت من الأحداث التى سبقت ثم أعقبت رحلتها حول العالم فى نهاية سنة ١٩٥٤ وبداية ١٩٥٥. فمنذ تلك اللحظة سارت بلا رجعة فى طريق أدى بها إلى التحدى السافر لجمال عبد الناصر وسياساته.

وعزمت درية على حضور الاجتماع الهام للمجلس الدولى للمرأة فى هلسنكى، مروراً بروما حيث تزور شارلوت ولر. ولكنها تلقت فى نهايات شهر مايو خطابا أجج رغبتها المستعرة "فى مغادرة البلاد لفترة، والقيام

برحلة طويلة، لا بنيّة الهروب كما حدث فى شبابى، ولا بحثا عن شهادات أتسلح بها، وإنما رحلة حول العالم! أن أطير فى ارتفاعات شاهقة لأتأمل العالم دون أن أرى صغائره. ربما استطعتُ عندئذ أن ألمح المطلق."

وأتتها فرصة تحقيق حلمها بفضل جارلاند ايفانز هوبكنز، نائب رئيس مجلس إدارة الأصدقاء الأمريكيين للشرق الأوسط، وهى جمعية ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة، وتولاها فى بداياتها المتحمسون من أمثال دوروثى تومسون ودوروثى كنيون وفيليب هيتى ولودبل توماس. وكلهم من المؤمنين بمستقبل العلاقات العربية-الأمريكية. وتأسست الجمعية رسميا عام ١٩٥١، كهيئة خاصة، لا تقوم على الربح، فلسفتها وهدفها الرئيسى توعية الجمهور الأمريكى بالعالم العربى حتى يحس به ويتفهمه. وبفضل دعم سخى من الأفراد ومن شركات النفط الأمريكية، حاولت الجمعية تحقيق هدفها بوضع برنامج لاستضافة محاضرين فى الولايات المتحدة، وتيسير دراسة وتدريب الطلبة العرب هناك. ولكن وكالة المخابرات المركزية (سى.أى.ايه) بدأت تتسلل إليها فى نهاية الخمسينيات، بالأموال و'العملاء'. ولما أصبح ذلك معروفا في حكومات الشرق الأوسط، بدأت تحيط بالجمعية الشكوك، وبالذات فى نهاية الستينيات، وأحجموا عن إرسال الطلبة عن طريقها للدراسة والتدريب. وظهرت هيئات أخرى، بينما ساءت سمعة 'الأصدقاء'. ولكن جارلاند ايفانز هوبكنز ودرية شفيق لا علاقة لهما بهذا الموضوع.(٣)

اقترح هوبكنز على درية فى خطابه أن تأتى إلى الولايات المتحدة فى جولة مدتها ستة أسابيع، تتحرك فيها من المحيط الأطلسى إلى الهادى، تحاضر فى القضايا والمشكلات التى تواجه المرأة العربيةُ المعاصرة. وسعدت درية للفرصة المتاحة، وإن تساءلت عن كيفية الامتداد برحلتها حتى تجوب العالم. وقررت الاعتماد على ذكائها وعلى كرم نور الحاتمى. فوضعت خطة تعيدها إلى القاهرة عبر المحيط الهادى، بدلاً من العودة عن طريق أوروبا. فاحتاجت أولا مئات من الجنيهات وهو 'مبلغ ليس بالمستحيل على محفظة زوجى'، لتضيفها إلى تذكرة القاهرة/سان فرانسيسكو التى قدمتها جمعية 'الأصدقاء'. تبقى إذن نفقات المعيشة أثناء الجولة. وسعيا منها لتقليل نفقاتها فى الشرق الأقصى، قبلت فوراً دعوات جاءتها من اليابان ومن الهند وباكستان وبلاد أخرى فى المنطقة، وكلها دعوات تدفقت عليها بعد إضرابها عن الطعام. أما عن نفقاتها أثناء مرورها بعواصم أوروبا، "فنور يتولاها، فهو لم يرفض لى أبداً ما يستطيع أن يقدمه." وتم ترتيب محاضرات

ولقاءات لها في روما وباريس ولندن، في طريقها إلى أمريكا، أما في رحلة عودتها إلى القاهرة، فتم ترتيب نفس الشيء لها في طوكيو وكالكتا ودلهي وكولومبو وكراتشي وبيروت. فلما جاء شهر يونيو، كانت ترتيبات المرحلة الأمريكية من الرحلة أوشكت على الانتهاء، بحيث تبدأ الرحلة في الخريف.

والصحفية الأمريكية شارلوت ولر التي شاركت في الإضراب، كانت توّاقة لرؤية درية، فكتبت لها تقول: "أنا سعيدة بذهابك للولايات المتحدة، وآمل عندما تمرّين بروما في شهر سبتمبر، أن تقيمي معي أكثر من بضعة أيام. وأخبريني إذا كنت أستطيع مساعدتك بتعريفك ببعض الناشرين. لا تترددي في الكتابة لي باللغة الفرنسية، فأنا أفهمها جيداً، وإن وجدت صعوبة في نطقها إلا بلكنة أمريكية فظيعة، أما عن كتابتها، فلا أعرفها أبداً!"(٤)

وسارت كل الترتيبات بسلاسة حتى تلقت درية برقية قبل موعد سفرها بشهر، تسألها عما إذا كانت معرفتها باللغة الإنجليزية تسمح لها بإلقاء محاضراتها. وعاكسها نور بمرح، متسائلاً، "وبأي لغة ظننت أنك ستحاضرين بها الأمريكيين؟" وانتابتها الحيرة، فهي لا تعرف سوى بضعة كلمات من الإنجليزية، لا تسمح لها بالتعبير عن نفسها بحرية. فأبرقت لجمعية 'الأصدقاء' تؤجل وصولها، وبدأت على الفور دراسة مكثفة للمحادثة بالإنجليزية، مستعينة باسطوانات مسجلة. وبمساعدة ابنتيها وماتيلدا جريس، صديقة لها تعلمت الإنجليزية في الكلية الأمريكية للبنات، مضت تدرس وتستعد "باستيعاب درس واحد في اليوم".

واستعدادا لمحاضرات تلقيها في لندن، كتبت درية لليدي مارجريت كوربت آشبي تستشيرها بشأن موضوع محاضراتها. وجاء رد ليدي مارجريت يكشف عن نظرة ثاقبة حول ما يرغب الإنجليز في سماعه من درية:

> بما أنك تكرمت بسؤالي في هذا الشأن، أعتقد أن محاضرة عن 'المرأة والإسلام' سوف تحظى بالاهتمام، أو حتى 'المرأة والنظام الجديد في مصر". أما المحاضرة التي أعددتِها عن "رسالة المرأة في الحياة الروحية للعالم"، فهي أنسب للولايات المتحدة الأمريكية. فتجربتنا بعد عام ١٩١٨، وبمشاركة المرأة في السياسة،

> أوضحت لنا مدى التقدم المحرز فى المجال الاجتماعى، وهو أهم من التقدم فى المجال الروحى. ثم إن الإنجليز، رغم عاطفيتهم، يفضلون المحاضرات السياسية والعملية.(٥)

وتلى ذلك بفترة قصيرة، خطاب ثان من ليدى مارجريت تخبرها فيه

> حجزت قاعة لمحاضرتك فى ٢٨ أكتوبر الساعة السادسة بعد الظهر والجميع متشوقون لسماعك. هل لك أن تلقى محاضرتك عن 'وضع المرأة القانونى فى ظل النظام الجديد'، فالآن وقد أصبحت العلاقات بين بلدينا ودية، نريد أن نعرف المزيد عن هذا الموضوع. وفكرت فى دعوتك على الشاى مع بعض الشخصيات قبل المحاضرة، وعلى العشاء مع بعض البرلمانيات فى مجلس النواب بعدها، لأن المحاضرة ستكون فى تشيرش هاوس بوستمنستر، حيث مطعم جميل بالقرب من المجلس.(٦)

وأخيرا جاء يوم سفر درية، وفى المطار حبست دموعها وهى تحاول تهدئة ابنتيها ومسح دموعهما، فهما قد خرجتا للتو من أزمتهما بسبب إضرابها عن الطعام، وظلت تؤكد لهما "لا تقلقا، فالشهور الثلاثة ستمر بسرعة." ورغم أن نور أيدها فى قرارها بالسفر، إلا أن فراقهما الطويل هذا لم يسعده. ولوحت درية لأسرتها ولزميلاتها من اتحاد 'بنت النيل' الذين جاءوا يودعونها، ثم ركبت طائرة الخطوط البريطانية يوم ١٩ أكتوبر، نفس اليوم الذى وقع فيه جمال عبد الناصر مع إنجلترا اتفاقية الجلاء، والتى نصّت على انسحاب كل القوات البريطانية من منطقة القنال فى غضون عشرين شهر.

وشرحت درية لقراء 'بنت النيل' أسباب رحلتها حول العالم. ويبدو من الواضح فيما استخدمته من عبارات أنها اعتبرت نفسها سفيرة للمرأة المصرية فى العالم أجمع، رسالتها

> الدعاية لأمتنا ونشر صيتها فى كل مكان. وسأبدأ خلال هذا الشهر رحلتى حول العالم المتحضر. وهى ليست بنزهة أو برحلة متعة أو سعى لربح شخصى. فالرحلة جزء من رسالة آليت على نفسى أن أؤديها من أجل قضية المرأة المصرية، والتعريف بها فى كل مكان. ولقد أصبح من الواضح لكل ذى بصر وبصيرة أنه لا يمكن لمجتمع أن يتقدم ونساؤه مكبّلات، ولا تبقى أمة مكبّلة ونساؤها أحرار. ولقد دأبنا على تأكيد هذه الحقيقة لشعبنا على مدى ست سنوات من الكفاح المرير.(٧)

وعقدت مؤتمرا صحفيا غير متوقّع فى مطار روما، حيث وجّه إليها الصحفيون وابلا من الأسئلة: "كم عدد الشيوعيين فى مصر؟ إلى أى مدى يعارض الإسلام حقوق المرأة؟ ما رأيك فى دخول المرأة مجال الحياة العامة؟". واقترحت السفارة المصرية، خوفاً ألا تكون درية مستعدة لتلك الأسئلة، أن تؤجل الإجابة عليها إلى المؤتمر الصحفى الرسمى المُعَد لها فى المساء، ولكنها رفضت: "فضّلتُ ألا أؤجل حتى لا أترك انطباعا بأننى غير قادرة على الرد. فأجبت على أسئلتهم بأسئلة أخرى. كيف تحصون الشيوعيين؟ فهم مستترون! أما عن دخول المرأة مجال الحياة العامة، فأعتقد أن ذلك أقوى حدث فى القرن العشرين، بعد اختراع القنبلة الذرية."(٨)



درية شفيق مع ليدى مار جريت كوربت آشلى فى اجتماع
التحالف الدولى للمرأة، فى لندن، ٢٩ أكتوبر ١٩٥٤

وشعرت درية أن رحلتها حول العالم تبدأ فعلا فى باريس: "ربما لأن باريس أقرب إلى قلب أوروبا، أو ربما لأنى عشت ودرست هناك، فأحسست أن نجاحى فى بلدان العالم الأخرى يتوقف على نجاحى فى باريس." ولذا عبأت الجالية المصرية فى باريس، ليوزعوا ألف دعوة، "أملاً فى أن يحضر نصفهم". وأقنعت السفارة المصرية بالإسهام فى تغطية نفقات محاضرة عامة موسعة، تُعقد فى فندق بلازا الفخم، حيث كانت تقيم. ومن الشخصيات التى جاءت إلى محاضرة ذلك المساء، بيير سيجر الذى كان قد نشر لتوه ديوانها الثانى 'الحب الضائع'. ويحكى سيجر، "كان ذلك منذ مدة طويلة. وأذكر أن درية ألقت محاضرتها فى الدور الأول من فندق بلازا، عن 'المرأة والشعر فى مصر'. ألقتها باللغة الفرنسية، ولاقت نجاحا كبيراً. كانت خير من يمثل مصر، وأفضل سفير لها، إن صح القول. أولا كانت امرأة جميلة جداً، ثم كانت جذابة ومليئة بالحيوية ... "(٩)

وفى المناقشات التى أعقبت محاضرتها، هاجمتها صحفية فرنسية بمرارة لوطنيتها المفرطة: "انتقدت احتلال فرنسا المستمر للمغرب الذى

يناضل من أجل سيادته الوطنية بقيادة الملك محمد الخامس. وأفهمتنى الصحفية أننى ضيفة غير مرغوب فيها، لأننى عبّرت عن الحقيقة والحق، رغم أننى تعلمت فى فرنسا ولى فيها أصدقاء كثيرون. وأجبتها ألا تنسى أننى عربية."

وعشية سفرها إلى لندن يوم ٢٦ أكتوبر، قام الإخوان المسلمون بمحاولتهم الفاشلة لاغتيال جمال عبد الناصر فى الإسكندرية، وهى محاولة أثارت العديد من اللغط والتساؤلات فى الصحافة الأجنبية حول مدى سيطرة عبد الناصر على الموقف السياسى. وجاء رد فعل النظام فى مصر بما لا يترك مجالاً للشك بأن الديمقراطية فى مصر إلى زوال، فقد تم القبض عشوائيا على مئات المواطنين واتهموا بالخيانة وأعدم عدد كبير من الإخوان المسلمين، وفى خلال بضعة شهور، دخل السجون المصرية نحو ثلاثة آلاف سجين سياسى.

وتتبعت درية الأحداث السياسية المصرية طوال رحلتها، فوسائل الإعلام، والصحافة العربية بالذات، كانت تطاردها لتحصل على تعليق منها على الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى مصر مؤخراً، وكثيرا ما يضطرونها إلى الدفاع عن نظام فقدت ثقتها فيه. ووجدت نفسها فى موقف محرج ومزدوج، فهى تريد، فى نفس الوقت، أن تكون سفيرة عامة للمرأة المصرية والعربية، بينما الأوضاع فى بلادها تسير فى اتجاه مضاد تماما لما التزمت به دائما وبعمق، "الحقيقة والحرية". وحاولت جاهدة أن تتحاشى ذكر حكومتها "وهو ما لم تغفره لى السلطات المصرية أبداً." وبينما تتخبط صحف لندن فى تفسير الاعتقالات فى القاهرة، كانت درية تدلى بحديث للإذاعة البريطانية: "فلما لاحظ المحاور قلقى عند ذكر الأحداث فى بلادى، سألنى 'أليس من الفظاعة أن يعيش الإنسان فى مثل هذا الجو من التوتر؟ فبماذا أجيب؟"

وجاء امتحان درية الأول بالنسبة لقدرتها على التفاهم باللغة التى اكتسبتها مؤخراً. فوقفت على منصة فى وستمنستر لتلقى "أول محاضرة عامة لى بلغة غير مألوفة وأمام العديد من أعضاء البرلمان، وكبار المدافعات عن حقوق المرأة (زامل البعض منهن اميلى باركهرست) وزمرة من الصحفيين المتحفزين للانتقاد أبداً." ورغم أنها أعدت نصا "قررتُ ألا أتلوه، فالمحاضرة المتلوة، محاضرة ميتة." فوضعت نصها جانبا، وانطلقت ترتجل بأسلوبها الحيوى المعهود "أستخدم الكلمات القليلة التى أعرفها بالإنجليزية،

وأستعين ببديل فرنسى لها كلما أعوزتنى، وإذا لم يفهموا، أستعين بحركة اليدين والعينين والجسد حتى يكتشفون الكلمة المطلوبة، فيقولونها لى. نجحنا فى الاتصال، وألفنا المحاضرة معاً، فلنا نفس التجربة النسائية المشتركة، سواء جاء سردها على لسان امرأة مصرية أو إنجليزية. وحدث نفس الشىء فى أمريكا."(١٠)

وفيما بعد، كتبت درية فى مذكراتها تعلق: "إذا كانت باريس هى قلب أوروبا، ولندن منبع الحركة النسائية، فنيويورك كالقصيدة. وصلت أمريكا وكأنى سقطت فيها من علٍ، وظللت فاغرة فاهى. تحيط بى حركة دءوبة ومجنونة. أين أنا؟ الجميع يسير بسرعة لا أستطيع أن أسايرها بخطوتى الشرقية، وحديثهم أسرع من أن أفهمه بإنجليزيتى المحدودة. هل يتكلم هؤلاء الأمريكيون من أنوفهم؟"

وكان لقاؤها الأول بأمريكا فى مؤتمر صحفى، استجوبوها فيه عن الرقابة فى مصر:

بدا وكأن الصحفى يعرف أن فى مصر رقابة، وطرح سؤاله ليوقع بى. "أنا أتكلم. وقد جئت هنا لأتكلم." "هكذا دافعت عن حكومتى (رغم اعتراضى عليها تماما). ولم أرغب فى انتقاد بلادى أمام الأغراب.

> لم يكن ذلك خوفا، بل إحجام عن نشر غسيلنا المتسخ علنا. فمهما خدَعنا أهلنا، فهم بعد أهلنا، كل ما يمسهم يمسنا." "بلادى مضطرة لفرض الرقابة لفترة – مسألة أمنية" فأجابنى محاورى: "لو فرضت الرقابة عندنا ٢٤ ساعة لسقطت الحكومة." يا لكم من بلد محظوظ! والتزمت الصمت.

ولكنها لم تلتزم الصمت عندما أخبرت الجمهور الأمريكى بصراع وإنجازات المرأة المصرية فى العالم الحديث. وفى خلال شهرها الأول فى أمريكا، راحت درية، بحيويتها المعهودة ونشاطها الذى يعرف الحدود، تتنقل بين نيويورك وواشنطن والمدن الكبرى، كى تلقى أكثر من أربعين محاضرة، وتعقد المؤتمرات الصحفية، وتعطى الأحاديث للتليفزيون وتسجل اللقاءات

للإذاعة، وتلتقى بمختلف السيدات والمجموعات العاملة فى مجـــال حقــوق المرأة.

كانت تؤمن بأن جهودها "جعلت العالم يرى فى المـــرأة المصريــة الحديثة قوة مصر القديمة، ويفهم أن الدائرة اكتملت حين بلغت نساؤنا تفتــح واكتمال العقل وقوة القلب وعمق الوعى. فالعــالم يؤمــن اليــوم أن 'بنــات الفراعنة' خرجن من العصور المظلمة ولن يعدن إليها أبداً. فما من قوة علــى الأرض تستطيع أن تقف فى وجه تقدمهن."(١١)

وأعجبت درية كثيرا بما اعتبرته تمتع المرأة الأمريكية بكامل الحرية والمساواة بالرجل. وصورت المرأة الأمريكية لقرائــها فــى مصــر بأنــها "صاحبة الأمر"، وكتبت عنها فى عبارة مبالغ فى مثاليتها:

كلما سألت عن المرأة الأمريكية، وجدتها فى كل مكان: فى الحقــول وفى المصانع، فى المحاكم وفى المجالس النيابية، فى أحقر الأعمــال وفــى أرفع المناصب. هى روح وجمال المجتمع الأمريكى. هى أم طيبة وزوجــة صالحة. لا يعطلها عملها عن النضال من أجل شعبها وأمتها وأطفالها. وأنــا قد عرفت الآن سبب مجد الولايات المتحدة بعد الانتخابات، والجميع ســعداء لأن كل النساء المرشحات نجحن بلا استثناء. ويمكن لهذا المجتمع أن يعلــن للعالم أجمع أنه لا يتردد فى تفضيل النساء ولا فى الاعتراف بحقوقهن كاملة، فهو يترك للمرأة مكانها فى الكونجرس، بكل ارتياح ... لقد جئت أكلم النــاس عن تحرر المرأة فى مصر خاصة، وفى العالم العربى عامة. وشعرت بشىء من الخجل. فالهوة شاسعة بيننا وبين الأمريكيين، والمقارنة مؤلمة. ولكنــهم مروا بنفس المرحلة التى نمر بها، وتقدموا بسرعة وسبقونا فى الاعتراف بما تقدمه المرأة من خدمات. وهم لم يضنّوا على نسائهم بالنصح والتشجيع.

> فلقد رأوا فى حرية واستقلال نسائهم حريــة واستقلال أمتهم. وعلينا ألا نبتئس، فـــاليوم آت لا محالة، يوم تسير المـــرأة المصريــة جنبا إلى جنب مع المرأة الأمريكية، وهـــو ليوم قريب، طالما عرفت المرأة المصريـــة حقوقها وبذلت الجـــهد الجـــهيد للحصـــول عليها.(١٢)

وبالفعل كانت درية قد جاءت الولايات المتحدة الأمريكية بعد انتخابات عام ١٩٥٤ لشغل مقاعد شاغرة فى المجلسين، وكان ذلك فى عهد أيزنهاور. واصطحبوها لزيارة الكونجرس حيث حضرت جلسة من جلسات محاكمات مكارثى – والتى وصفتها فى مذكراتها بأنها "سبة فى جبين بلد الديمقراطية والحرية هذا". ومع ذلك فقد أعربت عن دهشتها" لإجادة مكارثى الحديث المقنع، ولكنه لم يحسن استخدام مهارته للصالح العام. فأصبح مثالا للعالم أجمع بأن النجاح الفعلى لا يتحقق بلا مبادئ ولا إيمان!".

وفى المقابل، قالت عن السيدة أديث سامسون "إنها الأمريكية الوحيدة التى تركت فى نفسى أثراً عميقا لن ينمحى". وكانت سامسون محامية سوداء، رئيسة لجنة العلاقات الدولية للمجلس الوطنى للنساء السود، وعضو اللجنة التنفيذية للجنة اليونسكو الأمريكية. وفى عام ١٩٥٢، عينها أيزنهاور كمناوبة لمندوب الولايات المتحدة فى الدورة السابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة. وفى إبريل ١٩٥٥، بعد عودة درية من رحلتها حول العالم بشهرين، وصلت سامسون إلى القاهرة فى طريقها لجولة محاضرات فى الشرق الأوسط، نظمتها جمعية 'الأصدقاء الأمريكيون للشرق الأوسط'. "هى شخصية تشرّف المرأة وترفع من مقدارها. لم أكن أتصور أنها بهذه الأناقة والوسامة. وإعجابى الزائد بها مرجعه أنها أول من هاجم السناتور جوزيف مكارثى، وأول من واجهه دون الاهتمام بحملة الإرهاب' التى شنّها عليها بحجة حماية البلاد من الشيوعية. رأيت فيها مثالاً لشجاعة المرأة فى مواجهة الطغاة. وتمنيت لو كنت مثلها وفى مثل شجاعتها".(١٣) كلمات تكاد أن تكون نبوءة بما سوف يحدث.

والغريب أن عدداً من الأمريكيين رأوا فى درية ما رأته هى فى سامسون من مزايا أعجبت بها. فوصفها جون جنتر بأنها "شخصية تثير الانتباه. فهى شاعرة مرموقة، وصحفية وناشرة. فإحدى مجلاتها تحظى بنفس شهرة 'ليديز هوم جورنال' – وهى زعيمة الحركة النسائية فى مصر، وقوة سياسية لا يستهان بها، وإلى جانب كل ذلك، واحدة من أجمل نساء الشرق الأوسط."(١٤) ووصفتها مجلة 'هوليداى' بأنها 'عاصفة فى الشرق': "درية شفيق أنيقة وعملية وهى النقيض المدهش والجذاب للمحجبات من نساء بلادها. هى متفجرة وشجاعة، سيدة ذات إصرار وعلى عجلة من أمرها. والدكتورة درية شفيق الأنيقة تكافح بلا كلل من أجل حقوق المرأة فى بلدها الذى هب أخيراً ويعيش تغيرات سريعة. فهى قصة حديثة لمعركة شخصية شيقة ضد التقاليد والجهل وعبء الماضى الثقيل."(١٥)

وبعد نشر هذا المقال مباشرة، اتصلت بها دار نشر 'هاربرز وإخوان' تخبرها "لاشك أن سيرتك الشخصية شيقة للغاية، لعلك تقتنعين بكتابتها".[١٦] وحاولت درية على مدى السنتين التاليتين أن تكتب قصة حياتها بأسلوب رأى الناشرون أنه "يروق للأمريكيين"، ولكنها فشلت. فهى كانت تكتب بالفرنسية، ويقوم أحد بترجمتها إلى الإنجليزية، فيأتى السرد مصطنعاً. واستعانت بشارلوت ولر، وأرسلت ما تكتبه إلى جارلند ايفانز هوبكنز لتستشيره. ولكن دار النشر لم يعجبها شيئا مما كتبت، ومات المشروع فى صيف ١٩٥٦ عندما كتب إليها رئيس مجلس التحرير يقول: "أخشى أن يصيبك خطاب رئيس التحرير المرسل في ٢٤ مايو بخيبة الأمل. فيبدو أن هناك فارق شاسع بين ذوق القارئ الأمريكى وبين ذوق القارئ المصرى. فإذا شئت أن ترسلى موادا أخرى، يسعدنا أن نقرأها. وإن كانت نصيحتى لك بإخلاص أن تبحثى عن ناشر آخر، يقرأ ما كتبته من منظور جديد."[١٧]

وشخصية درية، وليست كتاباتها، هي التى تركت أثراً لا يمحى فى ذاكرة من قابلتهم من الأمريكيين فى رحلة الأسابيع الستة هذه، بل أن البعض منهم تعلق بها تعلقاً شديداً. "بضعة كلمات أرسلها لك مع المقال المرفق من مجلة 'هوليداى' . كم يسعدنى أن ترسلى لى صورة بتوقيعك. شكراً على النسخة المرسلة من ديوانك. رأيت صورتك فى 'نيبون تايمز'. الفضل لك فيما أشعر به من راحة الآن."[١٨] ووجد فيها البعض الآخر مصدر إلهام: "كم استمتعنا بقراءة أخبارك وأنت فى رحلتك ماضية. أسعدنى مؤخراً فى الأمم المتحدة، يوم ١٥ ديسمبر، أن أسمع زوجة السفير المصرى، السيدة عزيزة حسين، تقول تقريبا ما قلته أنت بشأن وضع المرأة فى مصر وفى الإسلام".[١٩]

* * *

ورحلة درية لأمريكا اكتسبت دلالة أكبر من مجرد الدعاية التى أحاطت بجمالها، وأهم من الاهتمام بمسألة المرأة فى الشرق العربى، أو من الفضول بشأن حياتها الشخصية. فالوضع الحساس للعلاقات العربية-الأمريكية فى تلك اللحظة التاريخية الخاصة، جعل من نجاحها فى الأوساط الأمريكية ما يضير بها بعد عودتها إلى مصر. فبينما كانت درية تطوف أمريكا، حُددت إقامة محمد نجيب فى بيته: "ولم تعلق الجرائد، وإن كان من السهل استنتاج ما حدث. فالسلطة قد اتخذت مجراها داخل الجونتا العسكرية، وبلادى تسير إلى الهاوية." ودخلت سياسة الحرب الباردة مرحلة جديدة عندما بدأت سياسة عبد الناصر العربية تصطدم بسياسة دلاس الرامية إلى

الحد من نفوذ الروس، وأثر ذلك بشكل مباشر على العلاقات المصرية- الأمريكية لمدة شهور وسنوات بعدها.

وبينما تستعد درية لمغادرة الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٥٤، أرسل السكرتير التنفيذي لجمعية 'الأصدقاء' خطابا لمندوبهم الإقليمي في القاهرة، يقترح عليه أن ينتظر عودتها إلي مصر ليحدثها: "كما تعرف، درية شفيق تنتهى الآن من رحلتها كضيفة محاضرة بدعوة منا في الولايات المتحدة. وأحسن استقبالها، وكانت رحلتها ناجحة بصفة عامة، بل أنها لاقت نجاحاً باهراً فى بعض الأحيان، وهذا ليس بالغريب لمن يعرف درية. ولقد التقطت هنا بعض الأفكار الشيقة، تأمل متابعتها بعد عودتها، بشأن الاستعانة بالإذاعة والتليفزيون، وخاصة فى مجال حملة محو الأمية. وقد يكون من المفيد أن تتفاهم معك عند عودتها."[٢٠] وأمضت درية بضعة ساعات في واشنطن وهى في طريقها من نيويورك إلي سياتل حيث "قابلتُ هنرى بايرود، نائب وزير الخارجية والسفير الأمريكى القادم فى القاهرة، وحدثته فى إمكانية "الاستعانة بالتليفزيون فى حملتى لمحو الأمية فى مصر. وقد خطرت لى الفكرة فى إحدى المقابلات التليفزيونية العديدة التى تخللت زيارتى للولايات المتحدة. وفكرت أنه يجب على التليفزيون ألا يكتفى بالوصول إلى الناس، بل عليه أن يعلمهم. وراقت الفكرة لنائب الوزير، أما أنا فتحمست للقاء قد يساعد على إدخال التليفزيون فى مصر، وهو ما لم يتحقق بعد."



درية شفيق تلقى محاضرتها بعنوان 'المرأة العصرية في مصر'، في سومرست هاوس بكاراتشى، ٩ يناير ١٩٥٥

وكلما توغلت درية غربا، ازداد حنينها للبلاد: "أتوق للعودة سريعا إلى بلدى الحبيب كلما ردد لسانى كلمات شوقى الخالدة:

'وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى'."(٢١)

أما رحلتها عبر آسيا فكانت مرهقة وإن تعلمت منها الكثير: "شعرت فى يناير، عند وصولى لليابان كأننى نزلت على أرجوحة. بلاد معرضة للزلازل والأعاصير، بهرنى جمالها. وسعدت بلقاء نساء برلمانيات، وإن أدهشنى قبولهن باستسلام لنظام الجيشا. وفي هونج كونج، تعجبت عندما سمعت أن الرجال يستولون على النساء ويمتلكونهم طالما حلى لهم ذلك. واستخلصت أن تعدد الزوجات لا يقتصر على المسلمين! يا له من إغراء!"

وعلى مدى الأسابيع الأربعة التالية، طالبت درية أعضاء البرلمان اليابانى بالسعى إلى إصدار تشريعات تقضى على نظام الجيشا، وحثت نساء هونج كونج على المطالبة بحقوقهن. أما فى باكستان، فقد انتقدت رئيس الوزراء، شاودرى محمد على، علناً لأنه اتخذ زوجة ثانية. ولبت طلب الجمعيات النسائية فى الهند وفى سيلان والباكستان، فركزت محاضراتها



درية شفيق فى لقائها بفاطمة على جناح، شقيقة مؤسس الباكستان، في ١٠ يناير ١٩٥٥. ووصفت الصحف المصرية هذا اللقاء:"زعيمتان: واحدة من الهند وأخرى من باكستان.
درية شفيق فى صالون فاطمة جناح، سيدة باكستان الأولى".

على ما ينطوى عليه تعدد الزوجات من ظلم. "واتخذت محاضراتى طابعاً مأساويا فى باكستان، فأثارت قلاقل واحتجاجات فاقت ما أثاره الإخوان المسلمون فى بلادى". وقابلت فاطمة على جناح، شقيقة محمد على جناح، مؤسس دولة باكستان الحديثة[٢٢] "تحيطها هالة من الزهد، فتضفى عليها هيبة معنوية لم يسعنى سوى الإعجاب بها، رغم التطرف الدينى المفرط. وتركتها وهى تشعر بعميق القلق بشأن مستقبل باكستان."

أما البلد الذى شدّها إليه روحيا، فكان الهند، "بلد غاندى! معلمى! 'ساتياجراها'، قوة الحق، واللا-عنف! واقتربت من أرض الهند وكلى احترام يشعر به الإنسان عندما يدنو من الأماكن المقدسة. غموض بلد أحياها غاندى إلى الأبد بأن وهبها الهبة المطلقة: وهبها نفسه. والتقيت بجواهرلال نهرو، وشعرت من خلال حديثى معه بحضور غاندى الطاغى. وعشت فى عالم الحلم، حلم الحقائق." ولما سمعت درية، مصادفة، أن رئيس الوزراء نهرو سيمر بكالكتا فى طريقه إلى دلهى، أثناء تواجدها، طلبت إلى قنصل مصر العام فى كالكتا أن يدبر لها لقاءاً به.

ويتذكر مختار زكى لقاءه الأول بدرية سنة ١٩٥٠، لما عاد إلى القاهرة من سفارة مصر فى لندن ليتولى منصب نائب مدير المطبوعات فى وزارة الخارجية:

> جاءتنى درية بطلب كى تشترى الوزارة ألف نسخة من مجلة 'المرأة الجديدة'، لإرسالها إلى كل السفارات المصرية فى العالم. وكانت درية مدينة دائما بسبب إصدار المجلة. فأقنعت الوزارة بشراء ٥٠٠ نسخة. واستطعت بفضل سكرتير حكومة البنغال أن أرتب لها موعدا مع نهرو، وكان على علم بدرية وبجهودها من أجل حقوق المرأة، وكذلك بمدى اهتمام الهند بالثورة فى مصر. وتم اللقاء فى العاشرة مساءاً، وظل نهرو معها ساعتين. فلما عادت إلى القنصلية بعد المقابلة، حَرِصت على عدم

مناقشة التفاصيل حتى لا تصل عنها التقارير إلى القاهرة.(٢٣)



درية شفيق مع رئيس وزراء الهند نهرو، بعد لقاء دام ساعة فى كلكتا، ٢٥ ديسمبر ١٩٥٤

وكانت درية، قبل لقائها بنهرو، قد فكرت فى زيارة الصين الشيوعية:

أسفت لعدم زيارة أى بلد شيوعى أثناء رحلتي. فلقد دأبت حتى ذلك الوقت على إدانة الشيوعية، ولم أعرفها سوى من خلال عناصرها المدمرة فى بلدى. ولكن هل نستطيع الحكم على الأمور من بعيد؟ ألا يجدر بنا قبل الحكم على الأشياء أن نحاول فهمها بأن نقترب قدر الإمكان من الحقيقة؟ فلا حل لمشكلة ما إذا ما اقتصرت معرفة المرء على جانب واحد فى النزاع. كنت

أحتاج إلى معرفة الجانبين قبل الحكم عليها. وتشاورت مع القنصل العام بشأن خطتي، ولكنه اعترض تماما، فمثل هذه الزيارة ستغضب حكومتنا، كما أنها ستوصمني 'بالشيوعية' . وقررت أن أفاتح نهرو في الموضوع، ولكن خجلي منعني، إذ رأيت بأنه من غير اللائق أن أطلب خدمة من شخص أقابله للمرة الأولى. ومات مشروعي.

ولم تكن درية تعرف ما سيكون للقائها بنهرو من أثر على مصيرها بعد عودتها إلى مصر. وعشية رحيلها من الهند، "كنت أرتعد خوفاً من عودتي صفر اليدين لبلادي .. وليس معي شئ أقوله عن بحثي عن المطلق." وكانت غرفتها بالفندق في دلهي تطل على حدائق، وشعرت بنوع من التوحد الغامض مع الحياة نفسها: "شعرت بأوراق الشجر ترتجف وأنا أرتجف معها، فأدركت ارتباط كل الكائنات على كافة مستويات الحياة. وشعرت بتعاطف عميق مع كل نبضة من نبضات كل هذه الكائنات، وتذكرت أنشودة غاندي: 'من يصيبه سحر سهام الحب يعرف قوة الحب'. فروح الحقيقة، في عالميتها الجوهرية، ومبدأ الحب، والنوايا الطيبة، واللاعنف: هنا يوجد الطريق. وجدت طريقي: الحقيقة. وهي ليست مجرد كلمة. فهي تنبض بالحياة. وهي في صيرورة. هي مُشعلة النار، تأخذني من يدي نحو الأمل النهائي، الهدف النهائي: الحرية."

ونزلت من الطائرة في فبراير إلى أحضان زوجها وبنتيها، ووسط تهاني زميلاتها من اتحاد بنت النيل، الفخورين بما أنجزت. وصلت محملة بالحماس والهدايا والقصص، سعيدة باجتماع شملها بأسرتها، فلم تدرك أن مصر التي غادرتها منذ ثلاثة شهور، بدأت تتحرك في اتجاه لن يمكنها أو لن تقبل السير فيه.

(١٣)

بداية النهاية (١٩٥٥-١٩٥٧)

أوه يا حرية !
إليك أهدى
قلبى
لولاك
ما كانت لى
حياة!

منذ لحظة عودتى دخلت صراعاً جديدا، فقد اكتسب معنى جديدا مذ قمت برحلتى حول العالم. معنى أبعد مدى فيما يتعلق بمسألة الحرية: التنازل عن النفس، وهى اللبنة الأساسية لمفهوم الحرية. فلا يمكن أن نتحدث عن الحرية دون هذا الانصهار الكامل مع العالم، ودون التضحية المطلقة من أجل الصالح العام. وأى نظام لا يعترف بأهمية الإنسان الأساسية، وبأنه البداية والمنتهى، هو نظام لا يستطيع أن يتحدث عن الحرية.

وحرصت درية طيلة رحلتها حول العالم على التزام الصمت فيما يتعلق بعبد الناصر وبالنظام الجديد. صمت فسّرته السلطات فى مصر على أنه شكل مستتر من أشكال التحدى. والتغطية الواسعة فى وسائل الإعلام لكل لقاءاتها العامة فى عواصم أوروبا وأمريكا وآسيا، أكدت الشعور المتزايد فى بعض الأوساط فى مصر بأن درية "متواطئة مع مراكز الرجعية المناهضة للثورة." فلما عادت، أصبحت هدفا للصحافة، مما زاد من شعورها بالاغتراب عن مجتمع يزداد شعبوية فى أعقاب الصراعات السياسية الواسعة النطاق فى إطار الحرب الباردة. وفى رأى مصطفى أمين:

انطلقت درية في رحلة إلى أركان العالم جميعها تُعرّف بقضية المرأة المصرية. سافرت شرقا وغربا، وقابلت الزعماء والحكام. ودعاها نهرو، رئيس الوزراء، ضيفة عليه أثناء إقامتها في الهند. وفي عام ١٩٥٤، قالت وكالات الأنباء إن الدكتورة درية شفيق واحدة من أهم نساء العالم، ووصفتها جريدة 'الديلى ميرور' بأنها "تريد أن تصبح كليوباترة القرن العشرين". ولم ترتح السلطات في مصر لنشاطاتها التي تخطت بعض الحدود، وبدأت الصحف والمجلات تهاجمها وتصفها بأنها "الزعيمة المعطّرة".(١)

وكان جمال عبد الناصر قد تصدّر مسرح الأحداث العالمية في اللحظة التي بدأت فيه القوى الغربية، بقيادة أمريكا وبريطانيا، تشعر بقلق عميق بشأن التغلغل الشيوعي في المناطق الحيوية من الشرق الأوسط، وخاصة في حقول نفط إيران وتركيا والعراق، وهي مناطق تطمع فيها. وفي محاولة لوقف انتشار النفوذ الشيوعي هذا، قام جون فوستر دلاس، الوزير الأمريكي، وأنتوني ايدن، وزير خارجية بريطانيا، بوضع استراتيجية لمحاصرة النفوذ الروسي، وكانت مبادرة عُرفت باسم 'حلف بغداد'، وكان أملهما أن تنضم مصر إليه. ولكن جمال عبد الناصر، وقد أوجعته مهانة الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة واحتلالها لها، رفض الانضمام للحلف، ولم يأت رفضه لمجرد عدم ارتياحه لأن ذلك الحلف المناهض للسوفييت له صبغة استعمارية جديدة واضحة، وإنما أيضا لأنه شعر بأن انضمامه للحلف قد يضر بتطلعاته القومية العربية.

وفي إبريل ١٩٥٥، غادر عبد الناصر مصر لأول مرة في حياته ليحضر الاجتماع التأسيسي لبلدان عدم الانحياز في إندونيسيا، وهو اجتماع عُرف باسم مؤتمر باندونج. وهناك التقى بتيتو وبالبانديت نهرو وبشوان لاى، وقد ساعده الأخير على إقامة صلات سوفيتية لشراء الأسلحة. وانزعج دلاس لتقرب عبد الناصر من الشيوعيين (واستشاط غضبا من صفقة السلاح)، فقرر أن يلقنه درساً يقنعه بأن عدم الانحياز لن يجدى فتيلا.

فتراجع عن وعده السابق بمساعدة مصر في بناء السد العالي بأسوان. وسرعان ما حذا البنك الدولي وصندوق النقد الدولي حذوه، فتراجعوا عن تقديم الدعم المالي المطلوب.

وفي خطاب حماسي ملتهب يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦، أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس فألهب جماهير العالم العربي. وفي اليوم التالي، وفي ثورة الغضب، وصف ايدن جمال عبد الناصر بأنه "أدولف هتلر جديد يمسك بخناقنا"[٢]، وانضم سراً إلى فرنسا وإسرائيل في استعدادات انتهت باندلاع أول حروب قناة السويس في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، وهي الحرب التي عُرفت باسم العدوان الثلاثي. ورفض الرئيس ايزنهاور تأييد ذلك العدوان السافر، بل واستعان بنفوذه للتفاوض على وقف إطلاق النار وانسحاب القوات الأجنبية. واحتفظت إسرائيل بقواتها في سيناء. وفي تلك اللحظة التاريخية، خرج عبد الناصر من الأزمة بطلا قوميا وشعبيا في نظر الجماهير المصرية وفي نظر الحركات الشعبية المناهضة للاستعمار في كل أنحاء العالم العربي. أما بالنسبة لدرية، فإن تلك السنوات "بدأت تترك في بلادي وفي قلبي جرحا عميقا لا يندمل، يشاركنا فيه عالم يندفع في سباق نحو الهاوية. ومصر مُحاصرة بين روسيا التي تتغلغل في أعمال بنيتنا الاجتماعية وبين أمريكا التي تريد أن تحل محل إنجلترا وأن تلعب دوراً رئيسيا في الشرق الأوسط، وأن تدخل علينا بسياسات متذبذبة، أو بالأحرى، بلا سياسة مفهومة. وهناك دلالات عديدة تشير إلى أن العالم المنهك على شفا الانقسام. وفي الكتلتين وبين صفوف من ظنوا أنهم يستطيعون البقاء على الحياد، ساد شعور مريع بالسقوط في الهاوية."

وبينما يرتفع جمال عبد الناصر إلى قمة نفوذه الشخصي، آملاً أن يجعل من القومية العربية قوة سياسية، ليس في العالم العربي وحده وإنما أيضا في أفريقيا والعالم الإسلامي،[٣] إذ بالمؤسسات الديمقراطية التي آمنت بها درية وسعت إلى دخول المرأة فيها، تبدأ في الانهيار. ومن منظور اتحاد بنت النيل التابع لها، أدركت درية أن مستقبل المجتمع المدني يواجه خطراً كبيرا من فلسفة عبد الناصر البيروقراطية المركزية ومن تجربته الاشتراكية: "بالنسبة للحقوق السياسية للمرأة، كانت بداية النهاية، إذ عدنا إلى حيث بدأنا". وسيطرت الدولة على حركة بنت النيل، لأنها استحوذت على كافة التنظيمات النسائية وفرضت على أنشطتها أن تخضع لسلطة مركزية هي وزارة الشئون الاجتماعية. ومنح عبد الناصر المرأة حق التصويت، أملا في كسب دعم النساء من كافة الطبقات، وراغبا في تهدئة مطالبة الحركة النسائية بالمساواة

فيما يتعلق بالحقوق السياسية. وبعد ذلك بقليل، توقفت كل الجهود الرامية إلى تعبئة الناس حول قضايا نسائية أو طبقية، ليبرالية كانت أو تقدمية، وكل ما أسهمت به الحركة النسائية فى المجتمع المدنى، من دينامية وثقة، منذ عهد هدى شعراوى وحتى عهد درية شفيق، قُدّر له الزوال.

أما درية شفيق فى سعيها الدون كيشوتى نحو المطلق، فقد بدأت معركتها الأخيرة وحدها، فى تلك الظروف، تحارب نظام السلطة المركزية المتصاعد فى مصر: "منذ لحظة عودتى تقريبا، شعرت بجو من عدم الارتياح الغامض فى كل ما يحيط بى: فى مجلاتى، فى المجلس التنفيذى لاتحاد بنت النيل، بل وحتى فى محيط أسرتى." ولما عادت، وجدت أن إبراهيم عبده قد غادر البلاد ليعمل فى دار نشر بالكويت، بعد أن طُرد من منصبه كأستاذ بالجامعة بتهمة أنه من الوفديين الرجعيين. واضطر نور إلى مضاعفة ساعات عمله فى مكتبه الخاص كمحام ليمول مشاريعها وتكاليف حياتها العامة، إلى جانب احتياجات البيت وابنتيه. وأبعدته سفراته المتزايدة خارج مصر عن المشاركة فى إدارة المجلات، كما أنها أثارت الشائعات حول "أنه اتخذ عشيقة ولم يعد يقضى وقتا طويلا فى بيته الذى أصبح لا يطاق، كله مناقشات حول عمل درية بالسياسة وإنفاقها على حركتها النسائية؛ إنها كانت تبحث عن المجد والشهرة فقط."(٤)

وطرأت تغيرات تثير القلق داخل اتحاد بنت النيل، وبدأت العناصر المؤيدة للنظام تحتل مناصب أساسية فيه. وتتذكر زينب لبيب، نائب رئيس الاتحاد، قائلة:

> فى البداية كان أعضاؤنا كثر، أما بعد الثورة فقد انتاب الكثير منهم الخوف لأن النظام كان ضد درية، أى أنه لم يكن راضيا عن أنشطتها وتصرفاتها. فبدأت الأمور تتفكك مع الوقت. وبما أن الدولة كانت تتحكم فى كل الدعاية، لم يكن فى استطاعة درية التعاقد على دعاية فى المجلات، وأصبحت فى حاجة دائمة للتمويل. وأشرفت مشروعاتها كلها على الانهيار بسبب قلة الموارد وبسبب

البيروقراطية: نوادى بنت النيل ومـــدارس محو الأمية وكافيتيريا النساء العاملات.[٥]

وانعكس ذلك فى وسائط الإعلام المحلية والتى لم تكف عن تركـــيز الاهتمام على درية، بشكل أو بآخر. فما زالت جذابة وأنيقة، ومصدر أخبـار، إلى جانب أنها أول امرأة مصرية تقوم بمثل هذه الرحلة حول العالم.

ولكن أخبارها لم تعد تثير اهتمام أنصار النظام الجديـــد، إذ كـانوا يعتبرونها من بقايا "المجتمع الإقطاعى البائد"، و"سيدة الصالونات" التـــى لا صلة لها بالجماهير العريضة، والتى لا تعرف عنهم شيئا. وبدأت الصحافـة، بعد عودتها من رحلتها، تكتب عنها بلهجة ساخرة، بل وعدائية أحيانا. وفـــى حفل استقبال بنقابة الصحفيين، نظمه عدد من العـــاملين فـــى مجـال الفـن والمسرح والرقص، قدموا لها تمثالا صغيرا تمتطى هى فيه الكرة الأرضيـة، "المفروض فيه أنه يمجد رحلتى حول العالم". ولكنها تساءلت "لماذا يقدمه لـى فنانون وراقصات شرقيات، بدلاً من صحفيات وكاتبات ومربيات أفـاضل؟". وبعدها بأيام، ظهرت صورتها فى مجلة أسبوعية واسعة الانتشار، "صـــورة وضعوا فيها رأسى على جسم راقصة شرقية تقف فى وضع فـــاضح. بـدا الأمر وكأنه ابتزاز. يا لها من دعاية سيئة بالنسبة لزعيمة نسائية مسلمة."

وكانت هى أول مرة تتطاول فيها الصحافة عليها بمثل تلك السـخرية والتجريح. واستفزها الأمر إلى الرد دفاعاً عن نفسها:

> هناك فارق شاسع بين انتقادى وسبى. والنقد عمل وطنى هام يصدر عن كـــل مراقـب أمين. أما السب فأنا شـــخصيا لا أحـب أن أصفه، خاصة إذا ما جاء فـــى جريـدة أو مجلة. فالصحافة مصدر استنارة لمن يفـــهم قيمتها ويفهم عظمة رسالتها. وظلت مجلـــة بنت النيل تدخل كل بيت لمدة عشر سنوات، تُعرّف كل امرأة بواجباتها نحـــو زوجـــها وابنها، ولا تتعدى هذه الرسالة أبدا. وأذكـر ما تعرضت له هدى شعراوى من اتـــهامات كاذبة عندما افتتحت أول صالون دعت إليـه الرجال والسيدات معا. وكان الذين هاجموها

أحطّ الناس، تقاضوا أجراً لإحلال الكـــذب محل الحقيقة. ولقـــد قـــرأت الكثـــير عـــن الحركات النسائية، ولم أقرأ أبدا أن زعيمات مثل هـــذه الحركـــات يجـــب أن يتسـمن بالشحوب والشـــعر المنكـــوش والملابـــس الرثة. لذلك يدهشني أن المعارضين لصحوة المرأة في مصر، يركزون هجومهم على أن من يتزعمن النهضة، نساء يعرفن واجباتهن نحو الوطـــن والبيـــت ولا يـــهملن أناقـــة مظهرهن.[٦]

وعادت درية فندمت لأنها ردت علنا، وأقسمت "ألا أسمح لنفسي مرة أخرى بالهبوط إلى مستوى أعدائي." ومع تغير المناخ السياسي، إلى جـــانب شخصيتها الغامضة وصلاتها العديدة بالغرب، تصاعد الـــهجوم عليـــها فـــي الصحافة المصرية التي أصبحت خاضعـــة للحكومـــة. فاســـتهان البعـــض ببرامجها لمحو الأمية، وسخر البعض الآخر من سذاجتها السياسية، وتشـــكك الجميع في انتمائها القومي العربي.

وعندما حاولت أن تدعو إلى استعمال الإذاعة في مشروعها لمحـــو الأمية، سخرت منها الصحافة: "يبدو أن الدكتورة درية شـــفيق تعبـــت مـــن السعي للحصول على حقوق سياسية للمرأة، وقررت أن تشغل نفسها بشـــيء آخر، وهو الاتجار في أجهزة الراديو. وأصبح اتحاد بنت النيل مثل الدكـــان تباع فيها الأجهزة بالجملة والقطاعي."[٧]

ولما حصلت على إذن رسمي من دار النشر الحكومية بإصدار مجلة جديدة، وذلك في ٢ يوليو ١٩٥٥، قررت أن تسمي المجلة 'دريـــة شـــفيق'، فأثارت سخرية وازدراء الصحافة. أما بالنسبة لنظام الحكم الذي كان يتحـــول سريعا إلى بنية اشتراكية للدولة، فإن مجلة درية بدت وكأنها منشور يعـــود إلى اتجاه البرجوازية الليبرالية: "تدّعي درية شفيق أن السبب وراء إصدارها لهذه النشرة الجديدة هو أنها بحثت حولها عن مجلة تعبر عن آرائها وتتفـــق واتجاهاتها، فلم تجد. لذا قررت 'إصدار مجلة تحمل اسمي، أي أنني أتحمـــل مسئولية كل ما يُنشر فيها'. لذا نتساءل، هل معنى ذلك أن مجلة بنت النيـــل لا تعبر عن آرائها، رغم أنها ملكٌ لها؟"[٨]

أما جريدة الجمهورية، وهى جريدة شبه رسمية، فقد نشرت مقالاً به نقد لاذع، وأرسلت إليها نسخة منه ومعها كلمات لاذعة أخرى طبعت باللغة الفرنسية أعلى المقال، جاء فيها: "تقدم هذا المقال للسيدة درية شفيق، عسى أن يترجمه لها أحدٌ حتى تفهمه جيداً. مع تحياتنا." والتهكم واضح فى إرسال المقال باللغة العربية ومع تعليق بالفرنسية، إلى جانب مضمون المقال نفسه، فلقد تضمن نقداً صريحاً لدرية وتعليمها الفرنسى، وأيضا لما سموه سطحية فكرية:

> هل رأيتموها؟ إنها مجلة جديدة واسمها درية شفيق . وأمامى عدد منها، كما أنها ثالث مجلة أعرفها تحمل اسم سيدة، وذلك بعد روز اليوسف ومارلين مونرو. ودرية شفيق سيدة مجددة، والمجلة التى تحمل اسمها هى آخر مبتكراتها. وأيا كانت الموضوعات التى تتناولها المجلة، فهى نموذج لكتاباتها، ولقد رأينا مثالاً لتناولها الناقد من منطلق حياتها هى الاجتماعية والسياسية. ويكفى وصف المجلة بأنها: "التسمم الجماعى: حل لمشكلة الحموات". ونشير هنا إلى مخاطر السوبيا [مشروب رخيص من الأرز المختمر والسكر والملء، مسموم أحيانا، كان يباع فى الأحياء الفقيرة]. هل نجحتُ فى تقديم هذه المجلة الجديدة؟ أرجو أن توافقونى."(٩)

وبينما يسخر بعض المصريين من درية شفيق بسبب تحليلاتها السياسية السطحية، كان البعض الآخر، ومعظمهم من الناطقين بالفرنسية، يشيد بنجاح عدد الصيف الخاص من مجلة المرأة الجديدة. وقد وضعت له درية عنوان "مون بايى" (بلدى)، وهو عدد أنيق يتضمن الكثير عن الثقافة المصرية والتراث، بالصور الملونة، والأعمال الفنية والشعر والنثر. وكان ثمن العدد عشرة جنيهات، لذا فهو فى متناول الطبقة العليا الناطقة بالفرنسية دون غيرها. ومع ذلك فقد طلب مكتب القاهرة لأمانة المؤتمر الإسلامى عشر نسخ. واتفق المصريون والأجانب فى وصف العدد بأنه "إنجاز فنى وجمالى." بل أن بعض التعليقات كادت أن تكون تمجيداً:

> شكرا للفتتك بإرسالك آخر عدد للمرأة الجديدة. وشكراً على الإهداء الحار الودود، وشكراً أساساً على جهدك الخارق لإصدار مثل هذا العمل الجميل. فأنت لا تكتفين بمساعدة قرائك على الغوص في أعماق مصر، ولكنك أول من يجعلنا نشم عطر مصر، إن صح القول. فكل روائح وعبق بلدنا الجميل تتصاعد من أشعارك. وكلها أشعار بديعة، خاصة قصيدة منها بلغت من الرقة والحساسية والشاعرية درجة تجعل المرء لا يكف عن قراءتها، وأقصد 'عروسة المولد'. يا لها من حلم ويا لها من مَهرب، يستشف منها قارؤها روحك وشفافيتك. شكراً لأنك أحسست بها وحلمت بها وكتبتها.(١٠)

وكانت مجموعة معينة من شعراء الفرنسية في مصر تعتبر درية "امرأة ذات نشاط يسترعى الانتباه. كاتبة فياضة باللغتين، كتبت أشعاراً تشد المرء لبساطتها وتنطوى على مناظر حميمة وانطباعات مصرية كُتبت في لمسات قليلة وسريعة وواثقة."(١١) كما طُلب إليها أن تسهم بالعديد من قصائدها في ديوان جامع ضم بعض أعمال كتاب عرب بارزين مثل اندريه شديد وجورج حنين والبير قصيرى.

أما الصحافة المصرية من جانبها فكانت تجد متعة في وصف درية باستعارات تبرز شخصيتها العامة الغامضة. فالمزايا التي شدّت إليها الكثيرين قبل ذلك بسنوات، بدت الآن سطحية ولا تتماشى مع الخطط السياسية المتغيرة للنظام الجديد. وفي نهاية عام ١٩٥٥، نشرت مجلة روز اليوسف المشهورة مقالاً بعنوان "زعيمة المارون جلاسيه تناقش الحب والرقص والدكتوراه". وفي حديث آخر، طويل نسبيا، يصف المحرر درية بعبارات تكاد أن تكون سيئة:

لاشك أن الذين سـيكتبون تـاريخ المـرأة المصرية تنتابهم الحيرة أمام درية شـفيق، كما حيرتني شخصيا لمدة ساعتين كـاملتين. هل هي بالبساطة التي تبدو عليها؟ هل هـي بالمستوى الثقافي الـذي تدّعيـه؟ لا أدرى. ولكن ما أعرفه هو أنها، عمومـا، تسـحر بأناقتها وحديثها وعطرها. درية شفيق "سيدة صالون" ممتـازة. تعـرف كيـف تختـار كلماتها، سـواء بالعربيـة أو بالفرنسـية، وتعرف كيف تختار موضوعـات حديثـها سواء كان ذلك عن نفسها أو عن اتحاد بنت النيل التابع لها. وهي تريد دائما أن تكـون محط الأنظار ومحور الاهتمام أينما ذهبـت. وهي معروفـة أكـثر بتسـريحتها منـها بجمعيتها النسائية. وتحيط بها هالـة مـن "الارستقراطية" فـي حركاتـها وطريقـة جلوسها. هل كانت تؤكد تلك الارسـتقراطية عندما قدمت المارون جلاسـيه لأعضـاء مجلس بنـت النيـل خـلال اجتماعاتـهن الطويلة؟[١٢]

أما بالنسبة لعبد الناصر ونظامه، فلم تكن درية لغزا قدر مـا كـانت مصدر إغاظة. فانتماؤها الطبقي وعلاقاتها المتعـددة بـالغرب، وخاصـة بأمريكا، كانا مثار ضيق لعبد الناصر، في وقت كان يحاول فيـه أن يسـلك طريقاً مناهضا للإمبريالية وأن يسير على درب عدم الانحياز. ونظراً لوضع درية وشهرتها كزعيمة مسلّم بها لواحدة من أنشط الجمعيات النسـائية فـي المنطقة العربية، فقد شدّت انتباه مجموعات مختلفة وشخصيات عامة أثنـاء رحلتها.

وعلى مدى السنتين التاليتين، تلقت درية خطابات عديدة، منـها مـا يعلن عن زيارة شخصية ما، ومنها ما يطلب أن تساعده في تدبـير لقـاءات بشخصيات أخرى في المنطقة، أو ما يطلب تحديد موعد لقاء صحفـي مـع صحيفة أو مجلة أجنبية معروفة. وحاول دانييل باروخ، مدير منظمة من هذا النوع، هي المجلس الدولي للاجئين العـرب، أن يقنعـها "بقبـول شـرف

الانضمام إلى "محاولة إيجاد حل دائم ومُرضى لمشكلة ٣٠٠,٠٠٠ لاجئ عربى فى قطاع غزة، هم خطر وعبء دائم على موارد الأمم المتحدة. والمنظمة تعمل بتفان لإعادة توطين البعض منهم فى إسرائيل، على أن تستوعب البلاد العربية الآخرين."(١٣) وذلك الهدف يتعارض تماما والموقف العربى العام الذى يطالب بإقامة دولة فلسطينية يعود إليها اللاجئون.

ولا يوجد ما يدل على أن درية استجابت لعرض باروخ أو أنها قبلته، ولكن من الواضح فى مراسلاتها أن منظمات أجنبية عديدة كانت راغبة فى تكريم "جهودها للحصول على حقوق متساوية مع حقوق الرجال، لا للمرأة المصرية فحسب، وإنما أيضا للمرأة العربية."(١٤) وبعث رئيس الوزراء نهرو لدرية رسالة خاصة عن طريق سفيره فى القاهرة، "طلب الىّ أن أنقل لك عميق شكره على تهنئتك له لما اتخذته الهند من خطوات للنهوض بوضع المرأة فى الهند. كما طلب منى أن أعلمك بأن برقيتك بعثت فى نفسه السرور".(١٥) وفى أغسطس من سنة ١٩٥٥، تراسلت درية مع السفير على يافاريونج، تخطط لرحلة ثانية إلى الهند: "فكرتك فى الحديث عن تعدد الزوجات فكرة ممتازة، وأرى أن تزورى بومباى وحيدر آباد لهذا الغرض. وسفينتى تصل بومباى فى الرابع عشر، ثم أكون فى حيدر آباد يوم ١٥ حيث استشعر ردود الفعل ثم أعلمك".(١٦) وهى رحلة لم تتحقق.

وتوالت عليها خطابات المعجبين، خاصة من قراء الصحافة الأمريكية المعجبين بقضيتها: "قرأت لتوى قصة فى 'سنسيناتى بوست' عنك وعن نساء مصر. ماذا أستطيع أن أساعدك به؟ ربما توقف خلاص العالم أجمع على نتائج مجهوداتك الهامة".(١٧) وبفضل "المساعى الحميدة للأصدقاء الأمريكيين للشرق الأوسط" ومركز معلومات العالم العربى الذى أنشئ حديثا، وكلا الهيئتان تعملان على توطيد الصداقة والتفاهم بين شعب مصر وشعب أمريكا، دخلت درية فى شبكة من الزعيمات النسائيات والشخصيات الأمريكية البارزة.

وبالنسبة للنظام الذى كان يندفع فى اتجاه الوحدة العربية وعدم الانحياز، أصبح هذا الارتباط بالغرب، وخاصة بأمريكا، دليلا جديدا يؤيد الرأى السائد بأن "أفكار درية شفيق مبعثها تحريض استعمارى ومؤسسات استعمارية".(١٨) أما درية فكانت تؤمن بأن علاقاتها هذه تخدم قضية مصر: "تمر بلادنا بمرحلة حساسة من تاريخها، ولذا فهى فى حاجة لكل دعاية ممكنة. والمرأة المصرية بمثابة نصف الأمة، ودورها فى هذا العهد الجديد

أن تبدو أمام العالم واقفة فى الصفوف الأمامية. وهذا ما دعانى إلى السفر. أعتقد أن محاضراتى عن وطنى الحبيب، إلى جانب علاقاتى الخاصة والعامة بالسلطات فى البلدان المختلفة، قد حققت الهدف الذى من أجله سافرت".[١٩]

وبعد عودتها بأسابيع، بدأت تلك "السلطات" تصل إلى القاهرة. وايفا دين كمب، وكانت آنذاك ضابط اتصال لمركز معلومات العالم العربى فى نيويورك، كتبت تقول: "بتوصية من الدكتور جون بادو[٢٠]، ستأتى زوجة جنرال فى البحرية الأمريكية ومعها مجموعة من السيدات الأمريكيات المرموقات، إلى الشرق الأوسط، وتزور المجموعة مدينة القاهرة بين ٦ و ٢٢ مارس ١٩٥٥. وهن مهتمات بمقابلة النساء البارزات فى الشرق الأوسط من رائدات الشئون المدنية والثقافية. وبالطبع فكرت فيك، إذ أعتقد أن المجموعة ستستفيد لاشك من زيارة لمكتبك للنشر ومدارس محو الأمية."[٢١]

وتوالت شخصيات عديدة تستعين بخدمات درية شفيق لترتيب المقابلات والاتصالات، ومن هذه الشخصيات اديث سامسون وحرم ثيودور والر، مدير المنتدى الدولى التابع لجريدة 'الهيرالدتريبيون'،[٢٢] وخاصة الصحفية الأمريكية المشهورة دوروثى تومسون، واحدة من مؤسسى 'الأصدقاء الأمريكيون للشرق الأوسط' ورئيستها الأولى فيما بين ١٩٥١-١٩٥٨.[٢٣] ودوروثى تومسون كانت تؤمن تماما بالصهيونية فى الثلاثينيات، ولكن ما رأته من معاملة ظالمة للفلسطينيين بعد إنشاء دولة إسرائيل، أثار غضبها بحيث أرادت للجمهور الأمريكى أن يتعرف على وجهة النظر العربية.

وجمعية 'الأصدقاء' أنشئت لهذا الغرض بالتحديد. وتذكر عزيزة رجائى بوضوح زيارة دوروثى تومسون لهم فى البيت، "فى حضور عدد كبير من السيدات، معظمهن من عضوات بنت النيل." وكثيرا ما كانت درية ومعها نور يدعوان الضيوف إلى بيتهم. ودعوات الغذاء فى منزل آل رجائى كانت شبيهة بندوات مصغرة حول الأحداث الجارية: "عصر كل يوم فى حوالى الساعة الثانية أو الثالثة، كنا نتناول الغذاء مع أبى وأمى ومعنا دائما ضيوف، إما من مشاهير الصحفيين مثل دوروثى تومسون، أو من كبار الشخصيات الزائرة مثل جون جنتر الذى كان يعرف أبى وأمى. لم نكن نبدى رأيا أو نعبر عن مشاعرنا، كنا نستمع إلى ما يدور من نقاش، وكان دائما فى السياسة، وما يدور فى بلادنا وفى الخارج. كانت مناقشات جد شيقة."[٢٤]

وتوطدت معرفة درية بدوروثى تومسون على مستوى شخصى من خلال دعوة من دعوات الغذاء هذه. وعلى الرغم من اختلاف ثقافاتهما وخلفياتهما إلا أنهما كانتا تشتركان فى بعض الأمور. آمنتا "بحقيقة" الديمقراطية الليبرالية، وكلتاهما كانتا تتمتعان بإصرار وعزيمة وشجاعة على خوض المعارك من أجل قضايا تؤمنان بها.[٢٥] وكانت القضية التى تؤمن بها درية هى قضية الحرية الشخصية، وهى قضية سرعان ما كلفتها غالياً.

صدر دستور جديد فى يناير ١٩٥٦ يتضمن ١٩٦ مادة. وتم استبدال شكل الحكم البرلمانى بنظام رئاسى جمهورى يمنح الرئيس سلطة تعيين الوزراء وإقالتهم، نفس السلطة التى كان فاروق يمارسها باستهتار كبير. ونص الدستور على إنشاء مجلس وطنى جديد من هيئة واحدة. ولكن القانون الخاص بانتخاب أعضائه لم يصدر إلا فى يوليو لانتخاب ٣٥٠ عضو عن ٣٥٠ دائرة، وتشكيل تنظيم يسمى بالاتحاد القومى يتولى فحص واختيار المرشحين للمجلس الوطنى. ولم يسمح بوجود أحزاب سياسية، إذ رأت القيادة بأنها مصدر فُرقة. وجاء الدستور الجديد غير واضح فيما يتعلق بالانتخابات العامة، فنص على أن النساء "ينلن حقوقهن كاملة"، وهو ما يفهم منه أن المرأة اكتسبت حق الانتخاب والترشيح للمناصب السياسية. ولكن الدستور لم يلزم المرأة بالتصويت كما فعل مع الرجل – وهى مسألة ركزّت عليها درية فيما بعد إذ اعتبرتها تمييزا ضد المرأة. وعند التقدم للتصويت أو الترشيح، على المرأة أن تثبت معرفتها بالقراءة والكتابة (وهو شرط لا ينسحب على الرجال). حتى أن بعض المحللين السياسيين فى ذلك الوقت، فسروا الدستور على أنه يترك مجالاً للشك حول حق المرأة فى التصويت: "قانون الانتخابات الصادر فى ٣ مارس ١٩٥٦ كفل حق التصويت لكل الرجال الذين بلغوا الثامنة عشرة، كما أعفى العسكريين الذين هم فى مهمة."[٢٦]

ولما جاءت اللحظة المرتقبة، لحظة إعلان الدستور الجديد، جلست درية إلى المذياع في بيتها بدلاً من الانضمام للجموع فى ميدان التحرير، حيث وقف مئات الآلاف يستمعون لخطاب جمال عبد الناصر: "لم أسعد بما سمعت وأطفأت المذياع فى فورة غضبى فوقع على الأرض. أحسست بأن يدىّ مكبلتان أكثر من أى وقت مضى، لا كامرأة فحسب، ولكن كمصرية، بل وكإنسانة. شعرت أكثر من أى وقت مضى بأننى خُذلتُ فيما هو أعزُّ شئ إلى قلبى: الحرية." فلما سألتها الصحافة عن رأيها فى الدستور الجديد، أجابت بصراحة: "كارثة!". 'هل تسمحين لنا باقتباس ما قلت؟' "ما أدلى به للصحافة ليس بسر". ولكن صحافتنا لم تنشر أبدا لهذا الحديث. بل أحاطت

الصحافة المحلية اسمى بأكفان الصمت". ولكن الصحافة الأجنبية التقطت ما قالته فوراً:

> الزعيمة النسائية درية شفيق في حملتها الدءوب ضد دستور عبد الناصر صرحت: "لو أنني وافقت على هذا الدستور دون تحفظ، أكون قد فشلت في رسالتي". واستطردت: "الدستور لا يحدد بوضوح الحقوق الكاملة للمرأة. بل إن نص الدستور يخلو تماما من أى وعد بشأن الحقوق السياسية للمرأة." ثم أضافت: واجبى الأول أن أتخذ موقفا لا تنازل فيه بالنسبة لكافة الحقوق السياسية للمرأة". واحتجت على وعد عبد الناصر بحق المرأة فى الانتخاب وعدم منحها حق الترشيح. وأعلنت أنها ستستمر فى معارضتها للدستور بالرغم من "حملة التشهير" التى شنتها عليها "الصحافة الخاضعة للحكم." ثم اختتمت حديثها: "كنت آمل أن تأتى الأمور مختلفة فى مصر، الآن ومعنا أهل الدستور!"(٢٧)

ودعت درية فوراً لاجتماع المجلس التنفيذى لاتحاد بنت النيل و"على الرغم من نصائح الأقلية الناطقة، بما فيهم أعز أصدقائى"، أضافت إلى محضر الاجتماع قراراً يعرب عن عدم ارتياح اتحاد بنت النيل "للأسلوب المبهم وغير الواضح الذى عالج به الدستور الجديد الحقوق السياسية للمرأة، ويطالب بأن تكون تلك الحقوق موضوع بيان صريح لا يترك مجالا للشك يوضح نوايا الحكومة فى هذا الصدد." رمت إذن بالقفاز وتحدت عبد الناصر وحكومته علنا، وهو ما سارعت الصحافة الأمريكية بالكتابة عنه:

> السيدة درية شفيق، المدافعة عن حقوق المرأة، رفضت التهليل لتعهد الحكومة بالسماح "للمواطنات" بالتصويت لأول مرة. فبيان عبد الناصر فى ١٦ يناير ١٩٥٦ جاء فيه "ستنال المرأة حقوقها". وفيما بعد،

أعربت عن عدم ارتياحها أيضا للبيانات الرسمية التى أعلنت أن للمرأة حق التصويت دون حق الترشيح للمناصب العامة. وقد انبعثت هذه البيانات من مادة مبهمة فى الدستور تتعهد "بأن تكفل للمواطنات سبل التوفيق بين الواجبات الأسرية والمسئوليات العامة". وتتساءل السيدة درية شفيق عن ماهية تلك الحقوق. فلن يجبروها على قبول أنصاف الحلول. ستواصل درية شفيق الكفاح حتى الموت من أجل تحرر المرأة المصرية وحقها فى شغل المناصب العامة وفى التشريع والمشاركة فى مسئوليات تسيير البلاد أسوة بالرجل، ونادراً ما تلجأ درية شفيق لصيغة المتكلم عند التعبير عن شعورها بشأن هذه الأمور. لقد استعانت بثقتها فى نفسها وبأموال زوجها وبحيويتها المتدفقة لتعزز موقعها كزعيمة نسائية. ويقول أعداؤها إن ذلك من باب تمجيد النفس. امرأة طويلة القامة، حاجباها منتوفان بعناية فتبدو دائما مندهشة، وهى لا تتردد فى الحديث عن شعبيتها. امرأة ديناميية وذات عزيمة لا تقهر، وشخصيتها خليط من الرومانسية الحساسة والعواطف البركانية. وقلق الحكومة من نفوذ السيدة درية شفيق يبدو واضحا من هجوم الصحافة عليها لأنها رفضت المبادرة بالتعبير عن العرفان لعبد الناصر لأنه "حرر نساء مصر". ومن أمثلة الهجوم الذى تعرضت له أن جريدة الجمهورية وصفتها "بالزعيمة المعطرة" والتى لا تهتم بالمرأة العادية فى مصر. ولكن الصحافة المحلية الخاضعة للرقابة لم تنشر شيئا عن مآخذها على الدستور الجديد.

أما منطق درية شفيق فكان بسيطا. المرأة وحدها يطلب منها أن تسجل اسمها فى قوائم الانتخاب، أما الرجل فلا، وهى ترى فى ذلك إجحافاً وعدم قانونية. وبالتالى فعضوات بنت النيل لن يلتزمن بهذا الشرط، ولن يسجلن أسماءهن احتجاجا.

وما كان من الحكومة إلا أن أعلنت: "مُنعت عضوات بنت النيل من الترشيح للبرلمان لأنهن لم يقيدن فى القوائم الانتخابية" فقلت لهم: 'هل كافحنا كل ذلك الكفاح من أجل برلمان كهذا؟ لو وافقنا سنكون كمن صام وفطر على بصلة'". ولكن واحدة من عضوات الاتحاد بالإسكندرية، أمينة شكرى، شذت عن القاعدة وسجلت اسمها. وجُرّدت من عضويتها فى بنت النيل ولكنها أصبحت واحدة من اثنتين انتخبتا لعضوية أول برلمان مصرى فى يوليو ١٩٥٧.[٢٨]

التصدى لعبد الناصر علنا، وبلغة التحدى هذه، زاد من عزل درية عن المشاعر السياسية السائدة، وأدى بالعديد من زميلاتها القدامى إلى وصفها بالمبالغة. فبالنسبة لزميلاتها فى بنت النيل، كان إصرارها على المطالبة بحقوق سياسية كاملة فى ظل نظام ماض فى تحديد الحريات الديمقراطية، بدا وكأنه هباء بل ورعونة. فإذا بمن لم يتركوا الاتحاد حينما بدأت حركته تبطئ بعد الثورة، يسرعون الآن فى التخلى عن درية وعن قضيتها بعد موقفها الأخير هذا. بل إنها فقدت تأييد كل من حفزّتهم على العمل فى السنوات الثمانى الماضية. فالجيل الأكبر كان يعتبر درية خطراً فى ظل نظام تركزت السلطة فيه فى يد رجل واحد. أما الجيل الأصغر من شباب الطبقة الوسطى، فانبهروا بجاذبية عبد الناصر، ولم يعد لدرية شفيق معنى فى خضم المد الشعبى الصاعد فى مصر. والنظام نفسه اعتبر أنه لم يقصّر فى حق قضية المرأة، ولذا فقد اعتبر انتقادات درية المستمرة مصدر قلق ودليل عدم تعاطف بينما مصر تواجه تهديد الغرب المتزايد، وخاصة خطر الاستعمار الأمريكى الجديد.

ولكن درية شفيق، الباحثة عن المطلق والتى "تحب الحرية أكثر من حبها للحياة نفسها"، كانت ترى فى تركيز السلطة فى يد رجل واحد، وفى إلغاء حرية الصحافة "حيث تنعدم الحيوية إلا لو توفرت حرية التعبير"، وفى الخوف من تزايد النفوذ الشيوعى، وفى الاعتقالات، وفى تحطيم مشروعاتها وفى اختفاء كل ما كرست حياتها دفاعاً عنه "ومن أجل دستور لا يستحق أن

يسمى دستورا"، كانت ترى فى كل ذلك دلائل واضحة "لموت الديمقراطية والتحرر موتا بطيئا." ومع ذلك فرفضها الحاسم لما منحه الدستور للمرأة من حق فى التصويت كان خطأ تكتيكيا، إذ فقدت ما تبقى لها من مصداقية بين بقايا مؤيديها. وكان موقفها مدمراً لها سياسيا. فلقد وقعت بنفسها على حكم بإعدامها عندما وقفت فى وجه عبد الناصر.

ومع ذلك فقد ظلت مقتنعة بصحة موقفها، وملأها إحساس مبهم بأن "مصيرى ومصير العالم منصهران"، ورفضت التنازل، مما دفعها إلى التصرف أملاً فى أن يفيق المصريون إلى ما اعتبرته خطراً تتعرض له البلاد: القضاء على حرية الإنسان.

المطلق هنا
على حافة وعيى
فلا تمسّوه
فتحطموا ما هو إنسانى
ما هو لا نهائى
على هذه الأرض.

(١٤)

امرأة وحدها (١٩٥٧)

هل يمكن لفرد وحده أن يقود الجموع الهائجة ويحبط مؤامرة الدمار الكوني؟ هل يمكن لفرد وحده أن يصرخ فى الجموع: قفوا! ليس هذا هو الطريق. هذه ليست الحقيقة! هل يمكن لفرد وحده أن يحرك الجبال؟ هل فى استطاعة امرأة وحدها أن تقف فى وجه المد البشرى؟ امرأة وحدها لم تحمل سلاحاً أبدا ولكنها، مع ذلك، تحمل أقوى سلاح: قلبها؟

دُهشت السلطات المصرية عصر يوم الأربعاء ٦ فبراير ١٩٥٧ لما جاءتها الأخبار بأن درية شفيق دخلت السفارة الهندية، على بعد خطوات من مسكنها بالزمالك "لأضرب عن الطعام حتى الموت احتجاجا على اثنين من أعداء حريتي كإنسانة". وكانت قد دونت بيانا وجهّته بالعربية إلى جمال عبد الناصر، والآخر بالفرنسية إلى الأمين العام للأمم المتحدة

نظرا للظروف العصيبة التى تمر بها مصر، قررت بحزم أن أضرب عن الطعام حتى الموت بغية نيل حريتى الخارجية والداخلية. وأنا كمصرية وكعربية أطالب السلطات الدولية بإجبار القوات الإسرائيلية على الانسحاب فوراً من الأراضى المصرية، والتوصل إلى حل نهائى لمشكلة اللاجئين العرب. ثانيا، أطالب السلطات المصرية بإعادة الحرية الكاملة للمصريين ، رجالا ونساءاً، وبوضع حد للحكم الدكتاتورى الذى يدفع ببلادنا إلى الإفلاس والفوضى. وأنا وحدى أتحمل مسئولية التخلّى عن حياتى من أجل تحرير بلادى، تاركة ورائى زوجى الدكتور نور الدين رجائى وابنتيّ. فإذا مسهما شئ فإنى أحمّل

الرأى العام العالمى والمصرى مسئولية ما قد يترتب على ذلك درية شفيق[1]

وقرار درية شفيق هذا بالانطلاق فيما قُدّر له أن يكون آخر تحدياتها العلنية، قرار لم تتخذه بعد أسابيع طويلة من التردد والتروى. بل أنها كتبت فى مذكراتها فيما بعد تقول: "فكرة الإضراب عن الطعام فرضت نفسها علىّ كضرورة، فى يوم كان يغلى فيه قلبى كالنهر الذى يفيض على ضفتيه. وكان علىّ أن أضحى بكل شئ لأتمسك بشعلة رسالتى. ولا أذكر بالتحديد الملابسات التى دفعتنى إلى هذا فى ذلك اليوم على وجه الخصوص، إلا شعورى بأن حريتى ضرورة مطلقة، اتصال بما هو لا نهائى، حجاب يُنتزع - أن أتحرر أو أن أموت". وإذا شاء المرء أن يفهم بحث درية الدون كيشتوتى عن "المطلق" فى مواجهة نظام حكم مطلق، بعد عودتها من رحلتها حول العالم، فلابد له أن يتذكر أن فعل "يتخلى" يحمل معنيين، معنى "يرفض وينكر"، وكذلك معنى "يضحى ويُسلّم".

بدأ اليوم كأى يوم آخر، اللهم أن عزيزة أفاقت من نومها وهى ترتعش من الحمّى. وترددت درية لحظات بين تأجيل إضرابها وبين البقاء مع ابنتها فى البيت: "ويضطرنى ذلك إلى تعديل التواريخ وإعادة كتابة البرقيات، ووضعها فى مظاريف جديدة. ويمر يوم آخر مما قد يعرض الخطة كلها للفشل. لا مفر. سأقوم بالإضراب، وأترك طفلتى المريضة فأثبت للعالم أن المطلق من الحرية أعز عندى من حياتى، أعز من أطفالى، أعز من كل شئ."

وجُبلت درية على الانتظار حتى يغادر نور المنزل قبل أن تنطلق فى تصرفاتها المسرحية، مفضلة أن تواجهه بالأمر الواقع، حتى لا تتعرض لاحتمال منعه إياها من تنفيذ خطتها. وكالمعتاد، تركت له بضعة كلمات تُعلمه فيها بنواياها. ومع ذلك، وجدت هذه المرة أنه من الضرورى أن تخبر ابنتيها بما تنتوى: "لقد بلغتما من العمر ما يسمح لكما بتفهم ما أقول. أملى أن تكونا على مستوى التضحيات التى لا يسعنى سوى أن أفرضها عليكما. وبينما أستعد للخروج، جرت جيهان نحوى وأعطتنى بسكوته. ثم قالت 'كلى يا أمى قبل أن تخرجى'. وأحسست بدموعى توشك أن تنهمر فأسرعت بإغلاق باب المصعد قبل أن أتخاذل."

وانتابت البنتين حيرة وقلق إزاء ذلك القرار غير المتوقع من جانب أمهما:

أذكر أنني كنت أعاني من الحمى. وكانت هي تستعد للذهاب إلى السفارة الهندية دون أن تخبر أحداً. حزمت حقيبة وطلبت من حسن، الخادم، أن يحضر سيارة أجرة. ثم جاءت إلى حجرتي. أعتقد أنها لم تستطع الذهاب دون أن تشرح لي الأمور، لأنها تعرف أني مريضة وهي سوف تتركني، وبدا عليها العذاب. فقالت لي: "أنت أصغر من أن تفهمي ما سأفعل الآن، ولكنك ستفهمين يوماً ما تضحيتي هذه"، ثم أخبرتني بما تنتويه. وتوسلتُ إليها وانتابني الذعر. وذهبت. قلت لنفسي "ها هي تفعلها من جديد!" وشعرت بأن الأمر زاد عن حدّه. وفي الصباح، لم أجد في الجرائد ما يشير إلى الموضوع. لم أتوقع صمتا تاما كرد فعل، فاندهشت وفي نفس الوقت أحسست بالارتياح.
أذكر أن ذلك كان في اليوم التالي لعيد ميلاد أبي. كانت ترتدي معطفها من فراء المنك وتحمل حقيبتها الصغيرة. أخبرتني أنها خارجة، فسألت: "إلى أين يا مامي؟". فأجابت: "أنا أفعل شيئا من أجل مصر"، ثم ذهبت. أذكر أنني كنت آكل بعض البسكويت، فهرعت إلى الباب أعطيها إياه، وقلت "خذي يا أمي هذا البسكويت". وفي اليوم التالي بدأ الجميع يتساءلون: "أين درية شفيق؟" جاءت خالتي ثريا من الإسكندرية ووجهها يعلوه القلق. الجميع اعتراهم القلق. فلما ذهبت إلى المدرسة، سألتني المدرسة الفرنسية: "أين والدتك؟" وساد جو من عدم الارتياح والتوتر يختلف عمّا حدث في

الإضراب الأول حيث كانت كل الأمور واضحة. أما الآن فلم تذكر الجرائد شيئا. كان أبى قلقا للغاية. خيّم إحساس بوجود كارثة ما.(٢)

واستشاطت السلطات غضبا – أولاً لأن الشرطة المصرية لا تستطيع أن تدخل السفارة للقبض على درية. وثانيا لأن الصحافة الأجنبية أفردت مساحات واسعة لإضراب درية ومطالبتها بإنهاء الديكتاتورية فى مصر. ففى ٩ فبراير ١٩٥٧، كتبت الـ "لندن تايمز" بعنوان "المدافعة المصرية عن حقوق المرأة تضرب عن الطعام: ٣٦ ساعة فى السفارة الهندية". أما الصحيفة الألمانية، 'دى فلت'، فنشرت القصة فى صفحة كاملة بعنوان "امرأة من وادى النيل ترفع راية المقاومة ضد عبد الناصر." وأخيرا، فإن ما أثار ضيق عبد الناصر حقاً هو أن حركة درية المسرحية تمت فى السفارة الهندية بينما يقوم هو بمفاوضات حساسة مع الحكومة الهندية. وتدخّل نهرو، رئيس الوزراء، وبعث إلى الرئيس جمال عبد الناصر يرجوه السماح لدرية بمغادرة السفارة الهندية –حرة– وبالعودة إلى بيتها دون القبض عليها. ووافق جمال عبد الناصر على تحديد إقامتها فى شقتها بالزمالك.

وإضراب درية عن الطعام، رغم أنه جاء كرد فعل تلقائى، إلا أنه لم يأت جزافا. لقد انعكست فيه رؤيتها لتلك اللحظة التاريخية، وجاء متفقا مع طبيعتها وميلها للتصرفات المسرحية. ولقد أدركت أن عليها القيام به وحدها. "من المؤكد أن أحداً لن يتبعنى هذه المرة. ولكن هذا لا يهم. ففى داخلى ذلك الصوت القوى." ولما توقعت "أن الرقابة قد تلتزم الصمت حول إضرابى، قررت أن أبلغ وكالات الأنباء الأجنبية."

وقد اختارت السفارة الهندية لأن "الهند بلد محايد وبالتالى لن أتهم بأننى فضلت معسكرا ما." ورأى بعض المصريين أنها قررت اللجوء السياسى فى سفارة الهند باعتبار السفارة تقوم بأعمال الرعايا البريطانيين بعد حرب السويس وقطع العلاقات الدبلوماسية بين لندن والقاهرة: "الهند بلد المقاومة السلمية وموطن معلمى غاندى". ثم إن درية التقت بنهرو فى كالكتا عام ١٩٥٤، واستضافت ابنته إنديرا عندما جاءت إلى القاهرة عام ١٩٥٥ لتلقى محاضرة عن تحرر المرأة الهندية. كما أن درية كانت تعتبر سفير الهند، على يافاريونج، وزوجته من أصدقائها المقربين. وبينما كانت تحزم حقيبتها،

اختارت درية ثلاثة كتب من مكتبتها الخاصة لترافقها فى رحلتها المنفـــردة: القرآن وسيرة غاندى وأشعار لبيير ريفردى.

وكل من الكتب الثلاثة يعكس جانبا من رؤية دريـــة شـفيق لنفســها ولرسالتها ويلقى الضوء على ما قد مر بفكرها وهى تستعد "لمتابعة الطريــق حتى نهايته" فى مطالبتها بالحريتين. فهى كانت مؤمنة ومرتبطـــة بدينــها، وكلما مرت بأزمات أو كلما حاصرتها الضغوط، لجأت إلى القرآن كمصــدر لراحتها وشجاعتها: "كلما قرأت آيات من القرآن أو سمعت النداء للصلاة مـن المئذنة، شعرت بقلقى يزول وبعبء ينزاح من على قلبى". ونعرف أيضا أنها كانت تعتبر حياة غاندى وفلسفته مصدر إلهام لها. ولكن بيير رفردى كان هو الأقرب إلى قلبها – وهو الشاعر الفرنسى والناقد والروائى وكاتب القصــص القصيرة – والباحث عن المطلق. وقد وصفه بيير سيجر بأنه "بركان الحيــاة الداخلية العميقة والرفض، والعنف المكبوت والثورات، تجرى فــى عروقــه دماء مصارعى الثيران. يكشر عن أنيابه ولكنه جيـــاش بـــالعواطف، ودود ومتحفظ فى آن واحد. وحيد. هو واحد من أعظم شعراء عصرنا وأكـــثرهم توهجاً."(٣)

وفى ذلك اليوم المشهود، ودع الخادم، حسن، درية عند باب الســـفارة الهندية قائلاً: "حفظك الله من كل سوء". ورحبت بها ابنة السفير واصطحبتـها فوراً إلى مكتب أبيها. فلما عرف السفير من درية ما تنتوى، حاول أن يثنيـها عن عزمها، ولكنه فشل. وكان موقفه حساساً للغاية، فهو على موعـــد مــع جمال عبد الناصر بعد أيام. وروى السفير لأمينة السعيد تفاصيل طلب دريـة اللجوء السياسى فى السفارة الهندية. وتقول أمينة: "كان السفير صديقا حميمـا لجمال عبد الناصر وللعديد من المصريين، ومنهم أنا وزوجى."

وفى قول السفير: "دخلـــت دريـة شـفيق السفارة فجأة، دون إنذار مسبق، وأعلنـــت عن عزمها الإضراب عن الطعـــام حتـــى الموت إن لم يتنح الرئيـــس عـــن الحكـم. ولحظة وصولها، كان بهو الســـفارة يعـج بالصحفيين الأجانب الذين اتصلت بهم قبـــل وصولها. وبما أننى كنت صديقا شـــخصيا لجمال عبد الناصر، وبلادى تربطها ببــلاده علاقات وثيقة، لم يسعنى سوى أن أتصل به

لأستشيره فيما يجب أن أفعل. وأجابنى بهدوء ولطف: "لماذا تقحمنى فى هذه المسألة؟ من الأنسب أن تتصل بزوجها، فهو أحق منى بإبداء الرأى فى الموضوع." وكان الوقت متأخراً، ويصعب علىّ العثور على زوجها. فقررت إرجاء المسألة إلى اليوم التالى. واصطحبنا الضيفة، أنا وزوجتى، إلى غرفتها حيث استقرت. وكانت تحمل فى يدها مصحفاً كبيراً تغطى جلدته النقوش المذهبة. ثم عُدنا بعد قليل لنجلس معها. وحان وقت العشاء، ولكنها رفضت النزول إلى غرفة المائدة لتناول الطعام. فطلبنا الطعام لثلاثتنا فى غرفة النوم، وحاولنا إقناعها بتناوله ولكنها رفضت. وبعد أن تركناها لتنام، اتصلنا بزوجها وأخبرناه برأى عبد الناصر. وحضر على الفور وأقنعها بالخروج معه، ثم أخذها إلى المستشفى حيث بقيت بضعة أيام بحجة معاناتها من إرهاق عصبى."(٤)

وتؤكد مذكرات درية أنه كانت هناك اتصالات مستمرة بنهرو الذى "قال للسفير إن درية شفيق تُعتبر ضيفة على السفارة وتبقى فيها ما يحلو لها من وقت." وأعدّت لها زوجة السفير فراشها ثم اتصلت بعزيزة وجيهان لتطمئنهما على أمهما. ودعت درية للعشاء معهم ولكن درية رفضت وظلت فى حجرتها. وفى اليوم التالى، بينما السفير على يافاريونج فى اجتماعه بعبد الناصر، اتصل مكتب الرئيس بدرية وطلب منها مغادرة السفارة فوراً: "وعرفت فيما بعد أن فى نية الحكومة القبض علىّ بمجرد أن أعبر عتبة السفارة، ونقلى إلى مستشفى الأمراض العقلية حتى يعلنوا للصحافة أن إضرابى جاء نتيجة لانهيار عصبى. وكان نور معى فى تلك اللحظة، واعتراه الشحوب لمجرد فكرة مطاردتى بهذا الشكل. 'هل رأيت الموقف الذى وضعتينا فيه؟' وأجبت من اتصل بى بأننى لن أغادر السفارة. واستدار نور نحوى وقال فى صوت هادئ: 'سأبحث عن حل، عن مكان تكملين فيه إضرابك. لا تتحركى حتى أعود'."

وفي اليوم الثالث، وعلى الرغم من تعتيم الصحافة المحلية للخبر، تطايرت أنباء درية في أنحاء القاهرة. وأذاع راديو مونت كارلو أخبار إضرابها احتجاجا، ووصف درية بأنها "الرجل الوحيد في مصر". أما وكالات الأنباء الأجنبية في القاهرة والتي وصلتها نسخاً من برقية درية، فقد أرسلت تقارير لصحفها تقول: "لا نعرف بالتحديد مكان الدكتورة درية شفيق، وهي زوجة محام مرموق وأم لطفلتين. وأعلن زوجها، نور الدين رجائي، أنه يريد لزوجته 'أن توقف إضرابها عن الطعام لأسباب صحية' وأضاف 'ولكني لا أستطيع أن أخبركم بمكانها'"[٥]

وفي الواقع أن نور اتفق مع الدكتور عبد الوهاب مورو، الجراح المصري المعروف، على نقل درية من السفارة إلى مستشفاه حيث استمرت في الإضراب عن الطعام لمدة إحدى عشر يوما تحت إشراف طبيب العائلة. ولكن نهرو هو الذي أمر بألا تغادر درية السفارة إلا في سيارة من سيارات السفارة، وتحت حماية السفير الدبلوماسية، حتى تصل إلى المستشفى. وفي يوم ٩ فبراير، كتبت 'لندن تايمز' تقول: "انتقاد النظام علنا، وبالعبارات التي استخدمتها السيدة شفيق، يصعب على السلطات أن تتقبله، وإن كان من المفهوم أنهم لا يرغبون في أن يعيروا للحدث أي أهمية. وعرفنا من زوج السيدة شفيق بأنها لم تتغلب تماماً بعد على آثار الإضراب عن الطعام الذي قامت به منذ ثلاث سنوات للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة." وكتبت صحف أجنبية أخرى متعددة تقارير عن الحدث.[٦] وفي ١٠ فبراير، وحسب ما جاء في 'نيويورك تايمز'، "بدأت علامات الإعياء تبدو اليوم على وجه درية شفيق وهي تدخل يومها الرابع من الإضراب عن الطعام احتجاجاً على النظام الديكتاتوري في مصر، ومطالبة بانسحاب القوات الإسرائيلية من سينا وبتسوية المشكلة الفلسطينية."[٧]

وفي اليوم السادس لإضرابها، نشرت جريدة الفيجارو الفرنسية مقالا جاء فيه: "والآن بعد انتقادها عبد الناصر، هل ستلحق السيدة درية شفيق بالمعارضين الذين تفيض بهم سجون بلادها؟ هل يعاملها 'البكباشي' بكياسة لم يُعرف بها عادة، أم هل يقرر ألا يسمح لها بالاستمرار في الإضراب؟ وحتى وإن كانت غير معرّضة للعقاب، إلا أن هذه المدافعة المصرية عن حقوق المرأة ضربت مثالاً للشجاعة. فهي تريد أن ترى نهاية دكتاتور رهيب، ولذا فهي في خطر من أن يقرر البكباشي العنيد الانتظار، آخذا وعيدها مأخذ الجدية، ولكنها في النهاية لن تكون في حالة تسمح لها بتذوق انتصارها."[٨] وفي ١٧ فبراير، جاء في 'نيويورك تايمز' أن "السيدة درية شفيق غادرت

المستشفى اليوم إلى بيتها وهى محمولة، وهو اليوم الحادى عشر من إضرابها عن الطعام احتجاجا على 'النظام الديكتاتورى' فى مصر. وقد أخبرها طبيبها المعالج "أنها ستموت حتما لو استمرت فى إضرابها لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى." وقال زوجها إنه سيعود بزوجته إلى البيت "أملاً فى أن تنجح ابنتاها فى الضغط عليها لإقناعها بوقف الإضراب."[٩] وفى اليوم التالى نشرت الـ 'تايمز' أن درية أنهت الإضراب.[١٠]

وكانت درية، وهى فى المستشفى، تحت حراسة مشددة من البوليس ولم يُسمح لأحد بزيارتها سوى زوجها والطبيب المعالج وصديقة واحدة، رفيقتها فى اتحاد بنت النيل، راجية رجب. وراجية هى الوحيدة بين كل من عملت معهم درية لمدة سنوات، التى واتتها الشجاعة لزيارتها فى المستشفى:

> لم تكن لدى أية فكرة عما تنتويه درية، لأنها لم تتصل بأحد منا فى هذه المرة. وزوجى، الذى كان يناصر المستضعفين دائما، أخبرنى أن درية مضربة عن الطعام فى السفارة الهندية، احتجاجا على عبد الناصر. ثم أضاف: "يجب أن تذهبى إليها يا راجية، هى صديقتك وهى الآن فى موقف سيئ للغاية. ولا نعرف ماذا سيفعلون بها، ولكن يجب أن تذهبى لرؤيتها." ولما ذهبت إلى مستشفى مورو وكانت مازالت مضربة، وأول ما قالته لى: "لا علاقة لك بهذا الموضوع." وأجبت، "أريد مساعدتك فقط. لماذا فعلت ما فعلت؟ أنا لا أفهم. لم ذلك وكل مشاعر مصر مؤيدة لعبد الناصر، ونعرف أن حرب ١٩٥٦ لم تكن هزيمة لمصر!" فردت قائلة: "أفعل ما أفعل عن إيمان. فلابد أن نقف فى وجه الشيوعيين. وأنا لست مع الأمريكان، ولا مع أحد، ولكن واجبى كمصرية يحتم علىّ أن أعترف وأن أسأل حاكم مصر إلى أين يقودنا. لقد آن الأوان. فإن لم نفعل شيئا الآن، فلن نفلت من عبد الناصر أبداً. وكانت تعارض عبد الناصر خوفاً من دخول

الشيوعية مصر، خاصة بعد صفقة الأسلحة بين عبد الناصر والروس. ولما ذهبتُ إلى المستشفى، كانت تقرأ فى القرآن وهى سعيدة بحضورى. كنت الوحيدة. وقالت لى: أرجوك، إن طلبت أى واحدة من عضوات بنت النيل زيارتى، أخبريهم أننى لا أريد أن أقحمهم فى هذا الموضوع." كانت تدرك تماماً أنها فى موقف سيئ للغاية."(١١)

وكانت راجية أيضا فى موقف صعب، فما أن عادت من المستشفى إلى بيتها حتى زارتها المخابرات، وهى الوكالة الخاصة الداخلية التى أسسها ناصر لتجمع له المعلومات عن أعداء الثورة. وظل رجال المخابرات يلاحقون راجية كل يوم لمدة أسابيع، لأنهم كانوا يعتقدون أن السفارة الأمريكية وراء إضراب درية عن الطعام.

هددونى فى أسرتى، قائلين "زوجك لا يعمل وابنك من العسكريين وأنت تتسببين لأخيك حسن رجب فى مشاكل." وكان أخى آنذاك وزيراً للحربية. وظلوا يسألونى: "ماذا قالت لك درية شفيق؟" فأجبت، "لاشىء. كانت تقرأ في القرآن." فيلحون على بالسؤال مرة بعد الأخرى: "من وراء درية شفيق؟" فأجبت: "الله وراءها. فهى مؤمنة وتخشى على بلادها من الشيوعية. لا يدفعها سوى حبها لمصر. ألا تفهمون ما هو حب الوطن؟ نحن نبعث بأولادنا ليموتوا فى سبيل مصر. وعبد الناصر هو الحاكم، فلابد أن يخبره أحد. لماذا لا تفهمون أن امرأة تستطيع أن تفعل بنفسها ذلك؟ ولقد فعلته وحدها، لا مع نساء بنت النيل. ولم تكن لى علاقة بهذا الموضوع."(١٢)

وكادت راجية أن تصاب بانهيار عصبى، واتصل زوجها بالمخابرات قائلاً: "أنا زوج هذه السيدة. بالله عليكم، نحن مسلمون ولا يصح أن تؤذوا

امرأة. فهى ربة بيت ليس إلا، ولقد انضمت لبنت النيل وللهلال الأحمر لتخدم مصر. لماذا تضطهدونها؟ إذا كنتم تريدون من زوجتى شيئا، أو إذا كانت قد ارتكبت خطأ، فخذونى، أنا المسئول وأنا سوف أكلمكم."(١٣)

ولما سمع بعض المثقفين المصريين بما فعلته درية، صفقوا سراً لشجاعتها. فهناك جلال الحمامصى، نائب رئيس تحرير جريدة الجمهورية الحكومية فى السنوات الأولى للثورة وواحد من ألمع الصحفيين المصريين، وكان ينتقد تصرفات درية أثناء نضالها من أجل حقوق المرأة. ولكنه، فى ١٩٥٧، شعر بالقلق للتوجه الذى سارت فيه البلاد، بينما عبد الناصر يركب موجة التأييد الشعبى بعد حرب السويس فى ١٩٥٦.

> كانت درية شفيق شخصية غامضة. هل كانت بالفعل جادة؟ وتغير رأيى فيها عندما تحدت عبد الناصر وأحسست فعلا أنها امرأة شجاعة. فجرأتها وهى تواجه عبد الناصر علنا جعلتنى أدرك أنها ترى ما يحدث بوضوح. فهى، بتحديها هذا، حققت ما تمناه الكثيرون فى سرائرهم ولم يجسروا عليه. لقد أجبرت عبد الناصر أن يتخلى عن فكرة حبسها، وعلى التفكير فيما يكون رد فعله لتحديها. ولم يمنعه من حبسها سوى خوفه من رد فعل عام أعم. وفى رأيى أن مثل هذا الفعل، وإجبار عبد الناصر على التفكير فى العواقب، لهو إنجاز حقيقى.

وبعد زيارة ليوغوسلافيا مع عبد الناصر، اعترف جلال الحمامصى لزوجته سراً "بأننا فى طريقنا إلى الفوضى وأنا مرعوب من هذا الرجل، عبد الناصر. هو كذّاب ويقود مصر إلى التهلكة."(١٤)

ولكن غالبية المصريين كانوا يخالفونه الرأى. ومن السخرية أن موقف درية المنفرد، والذى اعتبرته هى تضحية بنفسها من أجل بلدها، موقف استنكره عدد كبير من النساء، بل واعتبرنه خيانة. فهناك من اعتبر تصرفها دعاية شخصية وسيئة التوقيت، نظرا لظروف مصر العسكرية فى ذلك الحين، وكان هذا رأى انجى أفلاطون.

أعطت للعالم انطباعا بأن كل النساء المصريات يعارضن عبد الناصر. وسمعتُ سفارات أجنبية عديدة تقول إن المرأة المصرية عظيمة وأنها تقف في وجه عبد الناصر. وبما أن الأوروبيين والفرنسيين والإنجليز والأمريكيين كانوا جميعا يقفون ضده، لم يكن ثمة داع لفتح جبهة جديدة ضده، خاصة وإسرائيل مازالت تحتلنا. فاستجبنا فوراً. وقدمنا عريضة نشرح فيها أن درية شفيق لا تحظى بتأييد كل النساء المصريات. وأرسلناها إلى وكالات الأنباء بالخارج، ولكنها لم تُنشر في مصر أبداً. ربما خشى عبد الناصر أن يسترعى نشرها مزيداً من الانتباه حول المسألة. وناصر لم يقبض عليها، بل اكتفى بتحديد إقامتها، وكان من الطبيعى أن يقبض عليها لما فعلته. ولكن عبد الناصر تصرف بذكاء في تلك المرة، فدرية شفيق كانت تريد أن تكون ضحية. آمنت وقتها، ومازلت، بأنها فعلت ما فعلت توقعاً منها لانقلاب تخرج منه بطلة (فالمؤامرات ضد عبد الناصر كانت كثيرة في ذلك الوقت).[١٥]

والعريضة المذكورة، وعنوانها "النساء المصريات يستنكرن موقف درية شفيق" لم تحمل توقيعات ولكن تضمنت أسماء سبع وعشرين امرأة يمثلن أكثر من عشر تنظيمات نسائية ومهنية ونقابية، وتولت سيزا نبراوى توزيعها مع انجى أفلاطون. ولم تخلُ القائمة من أسماء أهم مجموعات نسائية في مصر. ومن النساء منْ تعاطفن مع درية ولكن معظمهن اعتقد "أن الحكومة أمرت كافة التنظيمات النسائية التابعة لها بالتوقيع على عريضة استنكار لموقف درية شفيق من جمال عبد الناصر".[١٦]

وكان الهدف من العريضة التنديد علنا بموقف درية السياسى من عبد الناصر ونظامه، وانتقاد دورها فى الحركة النسائية فى تلك المرحلة التى تناضل فيها مصر عسكريا ضد إسرائيل والغرب. وجاء فى العريضة:

> فى يوم ٧ فبراير، أعلنت السيدة درية شفيق إضرابها عن الطعام حتى الموت، قائلة: "فى وجه الظروف الصعبة التى تعيشها مصر"، تناشد السلطات الدولية التدخل بغية: (١) ضمان الانسحاب الإسرائيلى من كافة الأراضى العربية؛ (٢) والتوصل إلى حل عادل ونهائى لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين. ثم توسلت السيدة درية شفيق إلى السلطات الداخلية أن (٣) كى تعيد لكل المصريين حريتهم -رجالا ونساءاً- وأن تضع حداً للحكم الديكتاتورى الذى سوف يؤدى ببلادنا إلى الإفلاس والفساد. وأخيراً تؤكد أن إضرابها مبادرة شخصية محضة، وأنها على استعداد للتضحية بحياتها من أجل حرية بلادها. "أضحى بحياتى لتحرير بلادى، وأنا وحدى أتحمل المسئولية."
>
> ونحن نساء مصر نعرب عن دهشتنا لما أعلنته السيدة درية شفيق، كما ندين بشدة هذا التصرف الذى يضير بسمعة الحركة النسائية فى الخارج.
>
> ونسارع بالقول إن حركتنا النسائية دخلت مرحلة جديدة منذ ثورتنا القومية عام ١٩٥٢، ومنذ نالت المرأة المصرية حقوقها السياسية كاملة بمقتضى الدستور الجديد. وحركتنا النسائية حركة شعبية، بعيدة كل البعد عن الاتجاهات الفردية القائمة على الدعاية الشخصية والتى اتسمت بها الحركات النسائية قبل الثورة. وثمة ما يشير إلى أن السيدة درية شفيق عزلت نفسها عن الحركة النسائية الحديثة وعن سائر النساء

المصريات، وأنها تعترف بعزلتها هذه من خلال بيانها الذى قالت فيه: "أنا وحدى أتحمل مسئولية هذا العمل. وأنا وحدى أتحمل مسئولية هذا التصرف."

ونحن نسأل السيدة درية شفيق عما دعاها إلى الإدلاء بمثل هذا البيان فى هذا التوقيت بالتحديد، ومصر وبلاد عربية عديدة تواجه خطر التفكك بسبب القوى الأجنبية، وبينما مصر والبلدان العربية تواجه مخططات الاحتلال، تلك المخططات التى تهدد تضامن شعب مصر والشعوب العربية، حتى تيسّر للمحتل أن يستعبدنا ويخدعنا.

نحن نسأل السيدة درية شفيق ما تقصده عندما تشير إلى "السلطات الدولية" عندما تتحدث عن مطلبها بالانسحاب الفورى للقوات الإسرائيلية من الأراضى المصرية. هل هى تتوجه إلى الأمم المتحدة؟ وفى هذه الحالة، ألا تعرف أن الأمم المتحدة أدانت العدوان الإسرائيلى بالإجماع وطلبت من إسرائيل الانسحاب، ولم يخرج على الإجماع سوى إسرائيل وفرنسا؟

هل تؤمن السيدة درية شفيق حقاً بأن إضرابها عن الطعام سيكون أكثر فعالية من الأمم المتحدة فى إجبار إسرائيل على الانسحاب؟ ونسأل السيدة درية شفيق أيضاً، على أى أساس تطالب "بحل نهائى وعادل لمشكلة اللاجئين العرب"؟ ألم يرفض العرب بل واللاجئون أنفسهم أن تقتصر القضية الفلسطينية على كونها مشكلة لاجئين؟

ولمصلحة من تفعل السيدة درية شفيق ما تفعل؟ والسيدة درية شفيق التى لا تمثل سوى نفسها، لصالح من تصف الحكم الحالى فى مصر بأنه ديكتاتورية ستقود البلاد حتما إلى "الفساد والإفلاس"؟ هل تعتبر السيدة درية

شفيق أن سياسة حكومة مستقلة، سياسة حكومة حررت اقتصادها من السيطرة الأجنبية، هى سياسة تقود البلاد نحو "الإفلاس والفساد"؟ هل تدرك السيدة درية شفيق أن محطات الإذاعة الأجنبية فى إسرائيل وفى الدول الاستعمارية استخدمت نفس العبارات فاستثارت غضب الأمة المصرية -رجالا ونساءاً- فدعمت تضامنهم مع حكومة جمال عبد الناصر المستقلة؟ ألم يكن من الأفضل لو أن السيدة درية شفيق أعربت عن اهتمامها بـ "حرية بلادها" بالانضمام إلى اللجان النسائية التى تقاوم الغزو الأجنبى فى بورسعيد؟ ولكنها فضلت أن تتعزل.

فماذا فعلت السيدة درية شفيق، من الناحية العملية، كى "تضحى بحياتها كلها من أجل حرية بلادها؟" أين هى التضحية؟ قلقها على "الديمقراطية الضائعة" والتى تدّعى غيابها؟ أليست هى نفس النغمة التى تردده إسرائيل ومعها القوى الأخرى؟ الموضوع مجرد لعبة تلعبها القوى الاستعمارية لتصرف الأمة عن نضالها الحقيقى. هل سمحت لنا القوى الاستعمارية بفرصة نعالج فيها مشاكلنا الداخلية؟ نريد للسيدة درية شفيق أن تطمئن على مصير الديمقراطية فى مصر. ونؤكد لها أن الأمة المصرية حريصة على تأمين الديمقراطية فى ظل الدستور الجديد. وثمة فارق محسوس بين "الديمقراطية" التى تطالب بها محطات الإذاعة الأجنبية، وبين الديمقراطية التى تؤيدها أمة موحدة ومستقلة ومعها حكومتها.

وأخيراً، فإن العالم أجمع شاهد إضراب السيدة درية شفيق عن الطعام "حتى الموت" كما قالت، ورآه وهو ينتهى بعد ٤٨ ساعة

> بإرسالها إلى مستشفى مورو لتعالج بالجلوكوز. لقد عادت إلى بيتها مواطنة حرة، رغم أن تصرفها أضرّ بمصالح بلادها وبالمرأة المصرية – ما هو إذن نوع الحرية الذى تبحث عنه؟(١٧)

وأمينة السعيد، والتى تمثل الصوت الجديد للصحافة النسائية فى ظل نظام عبد الناصر الثورى، والتى بدأت مجلتها 'حواء' تتفوق على 'بنت النيل'، قد ظهر اسمها على قائمة الموقعات على العريضة:

> اتصلت بى سيزا نبراوى، وكانت واحدة من مؤيدى عبد الناصر المتحمسين مما أثار غضبها على درية شفيق لموقفها منه. فهى كتبت عريضة ووزعتها على نساء القاهرة ليوقعونها ضد درية. فلما جاءتنى سيزا طالبة توقيعى، رفضت تماما، وقلت لها: "ربما كانت علاقاتى بدرية سيئة، ولكنى لست بمن 'يشرع السكين بعد أن تقع البقرة'. وفضلا عن ذلك، فأنا أحترم شجاعتها الأدبية وحرية تفكيرها، رغم أن الكثيرين لا يوافقون على ما فعلت. ولكن لى رأيى ولن أعدل عنه." واحتدم النقاش بيننا، ولكنى لم أتراجع. فأبلغت سيزا السلطات المسئولة بموقفى، ولما جاءوا لاستجوابى، كررت كل ما قلته لسيزا."(١٨)

ومما يدعو للسخرية أن موقف درية السياسى الانعزالى – "أنا أضحى بحياتى بغية تحرير بلادى، وأنا وحدى أتحمل المسئولية" – أدى فى النهاية إلى استبعادها تماما من الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر، فقد أمر جمال عبد الناصر فوراً بتحديد إقامتها فى بيتها. وفى يوم ٢٨ فبراير، طردها زملاؤها من اتحاد بنت النيل، ذلك التنظيم الذى كان "طفلى الذى من أجله بذلت دمى وعرقى ودموعى وأنا أكافح من أجل الحقوق السياسية للمرأة المصرية". وعينت الحكومة لجنة من خمس سيدات، وأصدرت قراراً بإغلاق دار النشر وعملت على القضاء على مجلاتها تدريجيا.

وردُ الفعل السلبي العام هذا لدرية يشير إلى مدى المعارضة التي قـلمت ضدها، لا بين النساء اللاتى كن يمثلن اليسار التقدمي فحسب، ولكن أيضـا بين كل من تعاطفوا ونظام عبد الناصر. فمن وجهة نظرهـم، بـدت دريـة مرتبطة أكثر من اللازم بالقيم الليبرالية-الإنسانية التابعة للغرب الإمبريـالي، والتي تتمسك بالإصلاحات القانونية والتحولات الاجتماعية على أسس نظـام ديمقراطي وحكومة برلمانية. وهو نظام أدى في الماضي إلى تركيز الحكـم المطلق في أيدي قلة من الناس في مصر. وإبّان النضـال ضـد العـدوان الثلاثي الذي انتهى باحتلال إسرائيل للأراضي العربية، نظمت القوى التقدمية مجموعات مقاومة من بين صفوف الطبقات الدنيا، وذلك في إطـار الكفـاح العام ضد الهيمنة الإمبريالية وضد السيطرة الطبقية وضد الظلم الاجتمـاعي. أما درية، فكانت في نفس ذلك الوقت قد اختارت دربا آخر تسلكه، خوفاً منها على تآكل الديمقراطية في مصر. وفي مقالاتها في بنت النيل، دأبـت علـى مهاجمة الشيوعية والديكتاتورية، وقد اعتبرتهما نقمة على ما تؤمن به مـن قيمة أساسية - ألا وهي الحرية الفردية. وقد تعمدت عـدم الانضمـام لأي حزب سياسي خلاف حزب بنت النيل النسائي الذي أسسته، وهو موقف بـدا للكثيرين موقفا تافها وغير مجد مقارنة بالكفاح الوطنـي ضـد الإمبرياليـة وتحديها السافر لعبد الناصر ومصر تتعرض لعدوان مباشـر مـن فرنسـا وبريطانيا العظمى وإسرائيل هذا الموقف، بدا في نظر معارضيها دليلاً كافيـا على أنها "تخدم مصالح الأعداء".

ورغم تحديد إقامتها، اعترضت على قرار مصادرة مجلاتها على أساس أنها صاحبة بنت النيل والكتكوت وحاصلة على تصريح رسمي مـن هيئـة النشر بإصدارهما. ودفعت بأن الحكومة استندت في قرار المصـادرة علـى قانون الطوارئ الصادر من وزارة الداخلية في بداية العام، وبالتـالي فـهو قرار غير قانوني دستوريا. أما الحكومة، فقد ادَّعت أن مقالات درية ليسـت في صالح البلاد، باعتبارها تحذّر من غزو شيوعي لمصر والشرق الأوسط، وتناشد الشعب أن يضاعف جهوده للوقوف في وجه ذلك الخطر، دفاعا عـن الدين. والمقالات الثلاث الأخيرة لها في بنت النيل ظهرت تحـت العنـاوين التالية: "الشرق والشيوعية" (إبريل ١٩٥٧) و"الشيوعية الاستعمارية" (مـايو ١٩٥٧) و"الشيوعية الدولية والحرية" (يونيو ١٩٥٧).

"رفضت المحكمة طعنها على أساس أن مقالاتها قـد تفسـد العلاقـات الودية القائمة بين مصر وحلفائها الشيوعيين في تلك المرحلة الحاسمة. وفـي

يوليو ١٩٥٧، دخلت الشرطة مكتبها فى بنت النيل، وصادرت كل الأعـــداد المعدّة للتوزيع، كما أعدمت أوراقها الشخصية."[١٩] فلمـــا صـــادرت الدولـــة مطبوعاتها، واستبعد اسمها رسميا من الصحافة المصرية، دخلت درية منطقة الظلال.

الوحدة (١٩٥٧-١٩٧٥)

أيها الشعر!
فى هذه الصحراء ..
التى فيها أغوص
تفتح أنت لى أكثر من درب.
فى هذا الصمت
هذا الصمت المريع
الذى يحاصرنى
فى خضم عذابات صيرورتى
تسمح أنت لى
بالحركة!

درية شفيق
(من "خارج الزمن")

(١٥)

الحياة الداخلية

> عنوان هذه القصائد "خارج الزمن"، لأنها ولدت وكتبت في جو أفلتَ من زمننا المحسوس، ذلك الزمن الخارجي الخاضع لمقياس ضيق. فمكان هذه الأشعار مكان لا زمان له. هو حس مباشر بحياتنا الداخلية التي ينتمي جوهرها إلى اللامتناهي، إلى ما لا حدود له. ويكمن المغزى العميق لهذه الأشعار في التعبير عن نغم داخلي ينبثق من أعماق قلوبنا، عندما تكون القلوب صافية، فينقل أصداء أرواحنا، أرواحنا التي إذا ما ارتفعت إلى قمم الصفاء أمكن لها أن تمسك بالمطلق.(١)

تحديد إقامة درية في بيتها وضع حداً مفاجئاً لحياة عامة نشطة دامت نحو ثلاثين عاما، إذ بدأت سنة ١٩٢٨ عندما وقفت لأول مرة إلى جانب هدى شعراوى على مسرح حديقة الأزبكية، وألقت بكلمتها فى تأبين قاسم أمين، تلك الكلمة التى كادت أن تكون نبوءة: "هل يعتقد الرجال أن التقاليد التي كانت مجدية لفترة من الزمان، تصلح أن تتواءم مع تيار الحياة الحديثة؟ أم أنهم لا يفهمون القيمة المطلقة للحرية؟"

ومن السخرية بمكان أن وقفتها الأخيرة المتحدية، دفاعاً عن مبدأ الحرية، أسفرت عن دخولها لمدة ثماني عشر سنوات فى عزلة شبه كاملة، عزلة أشق وأكثر إيلاما من حياة الحرملك التى رأتها وهى بعد طفلة فى المنصورة وفى طنطا: "كم من عذاب أضفاه الحرملك ولأى فترات من الزمان! وماذا يمكن أن يكتسبه الإنسان من خبرة إذا ما اقتصرت حركته على السير من جزء إلى آخر من البيت؟ والمرأة فى سباتها لم تدرك أنها سجينة، لأنها عاشت دائما نفس هذه الحياة، ولم تفكر فى أنها تستطيع أن

تخلص نفسها."[٢] ولقد آمنت درية فعلاً بأن المرأة قادرة على تحقيق تلك الحرية، ولكن نتيجة كفاحها انتهت فى الطابق السادس من عمارة وديع سعد بالزمالك، نجحوا فى إخماد صوتها، فاختفت درية من الذاكرة العامة حتى مأساة موتها فى ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥، تلك المأساة التى عادت باسمها إلى الصفحات الأولى من الجرائد المصرية.

اختفت عن الأنظار وتخلى عنها رفاقها وأدانها المجتمع باعتبارها "خائنة للثورة"، ولم تكن درية شفيق قد تخطت بعد الثامنة والأربعين من عمرها عندما خاضت آخر وأصعب المعارك: الكفاح ضد العزلة والوحدة التى فرضت عليها بفعل ذلك المنفى الداخلى. كيف عاشت تلك السنوات الثمانى عشرة من العزلة والانفراد شبه الكامل؟ وما تأثير تلك السنوات على أسرتها، وما مغزاها فى حياتها هى؟ وكان من المتوقع ألا تتطرق مذكرتها بالفرنسية إلى تفاصيل منفاها الداخلى الطويل؛ والواقع أنها كفت عن كتابتها عام ١٩٦٠. ولكن ابنتيها عاشتا المحنة معها ولهما عنها رواية، كذلك توجد ذكريات بعض من معاصريها الذين ظلوا على اتصال بها. ومع ذلك فشعرها أو "صوت النغم الداخلى" هو الذى ينقل إلينا لمحة مما أسماه سيجر "حقيقتها الحقة". ونستشف حالتها مثلا من قصيدة قصيرة تحيى فيها شاعرها المفضل:

آه ياريفردى
يا له من رنين!
القلب الصامت
يمسك عن الكلام
ويترك الآخرين
يتكلمون ...
لم يعد لديه ما يقول
قال كل شىء
(كل ما كان يجب أن يقال)
وصمته الآن
فى انعدام كل حياة
يجوب
فى صحراء الشجن.
ولكن عبء الكرب المكبوت
يصحو فجأة
فيثور

بلا صوت ولا ابتذال
يحرك فى قسوة
ساعات الصباح الوئيدة

كما نستشف حالتها أيضا من مرثيتها الصامتة التى تحمل رسالتها إلـــى العالم المترامى خارج سجنها:

لا تندهشوا
إنى أكتب إليكم شعراً
بينما النثر المعتاد متوفر.
ولكنى، فى الواقع
عانيت بعضا من نكسة
وأنا حبيسة جدران
ليست من حجر
ولكنها أشد وطأة.
آمل أن تفهمونى
والشعر وحده
رفيق الأرواح المشبوبة
قادر على شرح ما بى.
اسمى يبدأ بحرف الدال
وأنا امرأة ...
ابنة النيل
طالبت للمرأة بحقوقها
وتوسع نضالى
يشمل حرية الإنسان.
وفى عالم يسلبها
جرأت على المطالبة
بتلك الحرية
فماذا جرى؟
لم يعد لى أصدقاء
ماذا يهم؟
سأكمل وحدى
سيرى إلى آخر الطريق
بلا تردد وبلا رجعة

الوحدة لا تهم.
غثيان وعذاب مثبط
ولكنى أحس أن قلبى كبير
شاسع يتدفق
عابراً أسوار الخيانة . .
حتى يلتقى فى أربعة أركان العالم
بكل الأرواح الطيبة.[٣]

"مرت سنوات ثلاث على إضرابي – سنوات عزلة وحصار. أبعدت إلى الأبد عما كافحت من أجله، عما أحببت إلى درجة جعلتنى أقبل فى مقابل حبى كرهاً. خدعتنى وجرحتنى تلك الأوساط التى ضحيت من أجلها بكل شئ عدا حريتى الداخلية. إن عاجلا أو آجلا سيفهمون". وحتى عندما رُفع عنها تحديد إقامة، اختارت درية أن تبقى بعيدة عن المجتمع الذى شعرت بأنه خدعها. ومصطفى أمين الذى كان يسكن الشقة المواجهة لشقتها، يحكى كيف: "ظلت درية شبه سجينة فى بيتها بالدور السادس، لا تزور ولا تُزار. تخلى عنها مؤيدوها خوفاً على مراكزهم، وتركها أصدقاؤها خوفاً عليها من الاعتقال أو خوفاً من الرقابة المفروضة عليهم. ومُنعت الجرائد من ذكر اسمها – حتى عند الكتابة عن قرار منح المرأة حق التصويت وحق دخول البرلمان، بل وحتى عندما تم تعيين أول امرأة بوزارة الخارجية."[٤]

وفى السنوات الثلاث الأولى، وضعوا حارساً على بابها، ومنعت درية من مغادرة شقتها، رغم أن نور والبنتين يذهبون ويجيئون بحرية. ولا يبدو أن وجود شرطى على الباب قد أزعج البنات فى شئ. وتقول عزيزة "أنا شخصيا لم أشعر بالحرج من جراء ذلك. أتذكر بأننى كنت سعيدة مع صديقاتى. فكل مجموعة أو طبقة ممن كنا نختلط بهم كانوا ينظرون إلى ما فعلته أمى نظرة إيجابية، حتى وإن لم يقتنع به البعض منهم. لم أشعر أننى أدفع ثمن ما فعلته أمى أو بأى شيء من هذا القبيل. أبداً. أبداً."[٥]

ولكن نور هو الذى عانى من انتقام النظام رداً على تحدى درية لعبد الناصر. فقد حاصرت الشرطة مكتبه وقبضت على كل من سعى إلى استشارته من عملاء، وكذلك على كل من حاول أن يستعين به. ويقول مصطفى أمين، وهو صديق لنور:

أعلنت الحكومة الحرب على زوج الزعيمة، فلاحقوه وراقبوا تليفونه وفتحوا خطاباته وضايقوه بالبيروقراطية كلما احتاج للسفر دفاعاً عن عميل فى بلد عربى. وكلما ركب سيارته، تبعته سيارة أخرى، وكلما جلس فى مكان عام، وجد مخبراً يجلس فى المقعد المجاور. ولم يعترض نور الدين رجائى على ما اتخذته زوجته من خطوات جريئة. فهى قد شعرت أن من حقها أن تعرب عن قراراتها السياسية علنا، دون أن تستشير زوجها. رفضت أن تستأذنه قبل أن تفجرّ قنابلها، رغم أن بعض شظايا تلك القنابل قد أصاب زوجها البرىء."(٦)

وازداد التوتر الذى ساد علاقة نور بدرية بسبب "قنابلها" التى كانت تفجرها علنا، ازداد بفعل ضغوط تحديد الإقامة واضطهاد الحكومة لنور فى عمله. وظلت الضغوط تتصاعد حتى بلغت ذروتها فى مناقشة حامية فى ديسمبر ١٩٥٩، فقررا الطلاق.

وتتذكر جيهان تلك اللحظة بوضوح، لأنها تزامنت مع سفرها إلى لبنان. كانت عضو شرف فى فريق نادى الجزيرة للسباحة الذى دُعى للمشاركة فى ألعاب البحر الأبيض المتوسط، تمهيداً للألعاب الأوليمبية فى روما، حيث كان من المتوقع أن تشترك جيهان فى سباق السباحة على الظهر. وفى عام ١٩٦٠ رفض النظام العسكرى السماح لها بالسفر مع الفريق الأوليمبى للسباحة، رغم أنها ضربت رقما قياسيا مصريا جديدا للسيدات فى تلك الرياضة. وكان وزير الشئون الاجتماعية فى ذلك الوقت هو حسين الشافعى، تربطه بدرية شفيق علاقة نسب، وهو عضو سابق فى جماعة الإخوان المسلمين، وقد برر قراره برفض السماح لجيهان بالسفر على أساس أن المرأة المصرية المسلمة لا يجب أن يسمح لها بالكشف عن جسدها فى مثل هذه المناسبات. والأرجح أن النظام أراد أن يعاقب المقربين لدرية على تحديها لعبد الناصر. وتتذكر جيهان:

كان أبى يحب الخروج كثيرا، ولكن أمى ظلت لا تستطيع الخروج إطلاقاً لمدة ثلاث

سنوات، بسبب تحديد إقامتها، ثم بعد ذلك قررت ألا تخرج أبداً. ولا أعرف ما إذا كانت تلك هى رغبتها فعلاً أم أنها أصبحت تخاف الخروج أو أنها اعتادت التزام البيت. لذلك عاش أبى حياته، وبدآ يبتعدان عن بعضهما البعض تدريجيا، تماما مثل ما جاء فى قصيدة فكتور هوجو "آنية الزهور المكسورة". فالعلاقة عندما تنكسر، يصعب إصلاحها. وكان شئ من التوتر يسود البيت بسبب المناقشات المالية والمشاجرات بين أمى وأبى. ورغم ذلك، ظل بينهما الكثير من الود والاحترام. أما الطلاق، فكان وليد لحظة، ولم يدم أكثر من شهر، فلما عدت من بيروت، وجدتهما معاً فى المطار وكانا قد تصالحا.(٧)

وبما أن نور مُنع عمليا من ممارسة عمله في مصر، بدأ يبحث عن عملاء فى الدول العربية المجاورة، ولذلك بدأ يسافر خارج مصر كثيرا انطلاقاً من الستينيات. أما درية فبقيت فى البيت.

كنت، بالطبع، ممنوعة من السفر خارج مصر. على مدى السنوات الثلاث السابقة، منعونى من مغادرة بلادى لحضور الاجتماع السنوى للمجلس الدولى للمرأة. وأذكر أننى استشطت غضبا عندما مُنعت من حضور الجلسة الخاصة للمجلس التنفيذى فى فيينا عام ١٩٥٩. بأى حق؟ كنت بعدى أحلم بالحديث عن الحقوق فى بلدى. ودفعنى غضبى إلى كتابة رسالة للأمين العام للأمم المتحدة، أشرح له بالمنطق عدم جدوى تلك المنظمة الدولية الكبرى، لأنها عاجزة عن حماية الحرية الفردية التى هى أساس كل الحريات فى العالم أجمع. كنت أدرك تماما أن تصرفى هذا هباء، بل لم أكن حتى متأكدة أن رسالتى ستصل السيد داج همرشولد. لم

يكن ما فعلت سوى محاولة امـــرأة تغـرق وتتعلق بأى قشة من الأمل.[٨]

وتنهى درية مذكراتها لعام ١٩٦٠ بالتعبير عن عميق قلقها لما تتعرض له حرية الإنسان من مخاطر فى مختلف مراحل الحياة، وتكتب بنبرة كلـــها أسى:

فى هذا المكان المعزول، حيث يعتقد أعدائـــى أنهم دفعونى إليه لأموت موتا بطيئا، عــثرت على أجمل هدية: وجودى أنا كإنسانة حــرة. أى باب يمكن أن أطرقه لأقفز فوق أســوار سجنى الخفية؟ خفية حتى عن عيون الذيــن ظلوا إلى جانبى حتى هذه اللحظـــة والذيـن اعتادوا أن يروا الأمور بوضوح. أنا فريسـة مطاردة على الرمال الناعمة، محاطة بالذئاب والأفاعى. فى هذه الصحراء غـــير القابلـة للوصف، مازال تفاؤلى يدفعنى إلى الأمــــل. أتقدم فى فراغ وصوتى صدى لصوتى. أكلـم الصم. أين الناس؟ فأنا ملك لهم! أنا مثلهم من لحم ودم! أنا بشر! يمكن إكراه الإنسان علـــى أى شئ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يجـــبرنى على مخالفة ضميرى. هنا أؤكـــد وجــودى باعتبارى المطلق. هنا أنا موجودة بأســـمى المعانى: فأنا حرة. وفى نهاية سنوات ثـــلاث من العزلة وفى نهايـــة ســنوات نضـــالى، اكتشفتك أيتها حرية، يا جوهـــر وجـــودى، بفضل انتصارى على نفسى الذى هو أيضـــا انتصار على كل ما فيه محاولـــة لإنكـــارك. أيتها حرية! أنت تضفين على هـــذا العمـــل مغزاه الفريد. لقد أهديتك إياه وأهديته لكــــل من عانى مثلى من الحرمان.

وفى الصفحة الأخيرة تنحت تلك الأبيات تكريما لشاعر آخر من شعرائها المحبوبين، لبول اليوار، وقد استعارت عنوان القصيدة من قصيدة خالدة له، كما أهدته عملها(٩):

أيتها الحرية!
إليك أهدى
قلبى
لولاك
ما كانت
لى أبداً
حياة.

ورغم استبعاد الحارس من بابها فى نهاية ١٩٥٩، ظلت شقتها تحد حدود عالمها المادى والاجتماعى ودفء وحب ابنتيها ثم مولد أولى أحفادها نازلى، كان لهما الفضل فى تحمل درية لعزلتها واحتفاظها بصلة واهية بالعالم الواقع خارج تلك القضبان الخفية." وكانت الأختان الجميلتان جيهان وعزيزة محاطتان دائما بالأصدقاء، والبيت تتردد فيه على الدوام أصوات ضحك الشباب ودردشاتهم".

وتتذكر جيهان بأنها عندما كانت تتمرن مع فريق السباحة استعدادا لأولمبياد روما:

> كان يسبح معى العديد من الفتيان، وأمى كانت واسعة الأفق. نسبح ونتمرن طيلة اليوم، ونعود عصراً فترحب بنا جميعا، وتعد لنا الشاى وملحقاته. ولما كان التليفزيون قد دخل مصر فى ذلك الوقت، كنت أدعوهم جميعا لنشاهده معاً فى البيت. لم ترفض لنا طلباً أبداً. على سبيل المثال، كانت لنا صديقة من ماليزيا، هى زميلة لنا فى الجامعة لم تجد لها مسكنا. فدعوناها للإقامة معنا فترة أسبوع أو اثنين، انتهى الأمر بأن أقامت معنا أربعة شهور، ولم تعترض أمى بكلمة واحدة. كانت

دائماً منفتحة ومرحبة بأصدقائنا، فكان فـــى
ذلك عوضا عن أشياء أخرى عديدة.(١٠)

وهذا التغير الجوهرى بين غيابها عن البيت معظم الوقت إلى بقائها فـى البيت طول الوقت، خلق وضعاً جديداً للأم وللبنتين، وضعــا جعـل ابنتيــها تشعران بمدى أهمية وجودها وبمدى تأثيرها على حياتهما: "كلما مرضنا أنـا أو عزيزة، وجدناها إلى جانبنا. وأذكر عندما أصبت بالملاريا عــام ١٩٥٨، وظنوها فى البداية تيفود، لم تكف عن البكاء، حتى وإن لم تســمح لنفســها بالبكاء أمامى، فتخرج لحظات من الغرفة ثم تعود؛ لم تتركنى أبداً. وفى مرة أخرى أصيبت عزيزة بتقيح شديد فى ظهرها، أمى لم تفارقها لحظة، وتكــاد تحملها عندما يتعذر عليها المشى. شعرنا نحوها بحب فياض!"(١١) وعزيــزة تحكى ذكرياتها أيضا:

وأنا صغيرة جداً، كنت أرنو إليها بــإجلال. أى أنها كانت أشبه بنجمات السينما وكنــت فخورة بها. ولكنى فيما بعد أدركــت مـدى هشاشتها. لقد كانت إنسانة حساســة للغايــة. نفوذها أكبر نفوذ فى حياتى، أكثر من أبــى بكثير وأكثر من أى شخص آخــر. ونظــام قيمها كان صعب التحقيق فى عالمنــا هــذا. آمَنَت دائما بأن هدف الحيــاة هــو محاولــة تحقيق منتهى الخير فى كل شئ، كمــا أنــها غرست فينا الصدق والأمانة والرحمة. لــم تكن أبداً مادية، بل وحذرتنـــا مــن إغــراء المادة. أما الذين رأوا فـــى جمالــها وأناقــة ملابسها والعناية بشكلها أدلة على ماديتـــها، أقول بأن دافعها فى الحياة كان هـــو حبــها للجمال، ولم تهتم أبداً بالسعى إلـــى اقتنــاء الماديات كما أنها فى نهاية حياتها أعطت كل ما تملك وما لم تعطه ألقت به.(١٢)

وبكل المقاييس، يمكن القول إن عزيزة وجيهان نشأتا فى بيت ليــبرالى للغاية حيث ركز الأبوان على أهمية الحصول على شهادة جامعية وممارســة مهنة ما:

لقد ربيانا تربية مختلفة، سواء إذا قارناها بأسرة أمي أو أسرة أبي. وكانت أمي أكثر ليبرالية من أبي فيما يتعلق بتنشئتنا، فلقد كان أبي رجعيا في البداية. ولكنها غيرته تماما، مما يثبت مدى تأثيرها عليه. ولكنهما انشغلا بعملهما فلم يوجها حياتنا، فنشأنا في البداية بأسلوب تحرر من قالبهما. وحتى عندما انتهى بها الأمر بالبقاء في المنزل، أطلقت لنا الحرية. وأقصد أن ثقتها فينا أشعرتنا بالمسئولية من البداية.(١٣)

وأتى عقد الستينيات بتغيرات كبرى في حياة أسرة آل رجائي المنزلية. ففي عام ١٩٦٦، وبعد قضاء سنة في أمريكا عقب تخرجها من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، حصلت عزيزة بفضل تفوقها على منحة لاستكمال دراستها للعلوم في معهد بمدينة بتسبرج. أما نور فكان يسافر إلى الكويت مراراً لعمله. وحاولت درية أن تشغل تفكيرها وعقلها، وتتذكر جيهان، "احتفظت باشتراكاتها في عشرات الصحف والمجلات العربية والفرنسية والإنجليزية. كانت تقرأها كلها يوميا. وفيما بعد، بدأت تتعلم الإيطالية لتقرأ للشاعر دانتي في لغته الأصلية، ثم أضافت الأسبانية والألمانية. بل وتعلمت لعبة البريدج." وكانت فكرة تعلم اللغات فكرتها هي، ولكن جيهان هي التي كانت تذهب إلى المراكز الثقافية الرئيسية لتقوم بترتيبات تسجيلها. "وأذكر مامي وهي تخبرني بمدى سعادتها بالتعلم. فهي كانت تعكف على دراستها للغات طول الوقت. كانت تحضر الدروس وتدخل الامتحانات. وشغلها ذلك فترات طويلة."(١٤)

ولما تخرجت جيهان ومعها عزيزة من الجامعة الأمريكية، عادت درية إلى قاعة أيوارت حيث قامت قبل ذلك بخمس عشرة سنة بزلزلة مجتمعها عندما قادت مسيرتها الجريئة إلى البرلمان. أما الآن فقد جلست مجهولة ومنسية بين صفوف الحاضرين، وإن علت وجهها ابتسامة فخر وهي ترى ابنتيها تحصلان على أعلى مراتب التقدير من الجامعة. ولكن سنوات العزلة كانت قد بدأت تترك آثارها على وجهها. ووصف محمد زكي عبد القادر، الصحفي المصري المعروف، لقاءه بدرية بعد أن حضر هو أيضا التخرج بالجامعة الأمريكية، إذ كانت ابنتها جيهان بين الخريجات. وأذكر أنها

اختيرت الطالبة المثالية فى الجامعة. ورأيت درية ولكنى لم أتعرف عليها بسبب ما فعلته بها الأيام. ولكنها عرفتنى وحيتنى بلطفها ورقتها التى اشتهرت بها طيلة حياتها."(١٥)

وبعد ذلك بقليل، بدأت درية تزهد صحبة الآخرين، وجاء ذلك تدريجيا. ففى يوم من الأيام عادت مدام موران. صاحبة المدرسة الفرنسية التى درست فيها جيهان وعزيزة حتى حرب السويس فى ١٩٥٦ عندما اضطر الزوجان لمغادرة البلاد. عادت إلى القاهرة وطلبت مقابلة درية. وبعد أن خرجت من عندها، صارحت درية لجيهان: "أتعرفين ماذا قالت مدام موران؟ يبدو أنك تعيشين حياة متقشفة للغاية." كانت حياة أمى وحيدة للغاية، ولكنها لم تخل من الأصدقاء." وكلما عادت عزيزة أو جيهان بأصدقائهما إلى البيت، "لم تكن أمى تتفاعل معهم إلا قليلا، ثم تنسحب إلى غرفتها. لم يكن لها أصدقاء بمعنى الكلمة، باستثناء كيتى افتينوليدس، اليونانية المصرية التى علمتها لعبة البريدج، وكانت تزورنا بين الحين والحين. فقد عزلت أمى نفسها تماما. لم تكن ترى أحداً." ولكنها لم تكف عن الاتصال بصديقها القديم بيير سيجر.

> لم ألتق بدرية كثيراً، ولكن كلما التقيت بها تحدثنا عن الشعر والشعراء. ثم تراسلنا وإن لم أعد أبدا إلى القاهرة. كانت ترسل لى أشعارها وأرسل لها كتبى كصديقة، ولأنها كانت بالفعل شاعرة. وكانت سنواتها الأخيرة فظيعة. حظروا عليها مغادرة بيتها. ومنعوها من النشر والعمل. كانت فضيحة كبرى. ودرية كانت لها أفكارها الخاصة بها، إلى جانب نضالها من أجل المرأة، أفكار تختلف عن أفكار عبد الناصر. لذا أصبحت منبوذة فى مجتمعها، وأحاطت بها هالة، نعم هالة موت، وكأنه حكم عليها بالإعدام.(١٦)

وبعد أن سمع سيجر بتحديد إقامتها، أرسل لها يقول: "إليك يا درية، يا من ستظلين دائما صورة للجمال، والاشتعال والتوهج. أنت الشعر الحى! إليك، فأنت بلادك وأنا لك قريب. مع خالص صداقتى. سيجر."

ولمدة سنوات عشر من فترة تحديد إقامتها، ظل سيجر يراسلها بوفاء ويرسل لها نسخاً من أحدث دواوينه، فتجد فيها إهداءات رقيقة مثل "إلى درية، فن القدرة على مصاحبة النفس"، أو "إلى درية شفيق، أحجار من نفس المعبد، مع وفاء ذاكرتى"، أو أيضا "إلى السيدة درية شفيق، هذا المعمار الذى لم يمسه الزمن. مع خالص الذكريات"، وكذلك "إليك يا درية، فكل من يتغنى بآلامه يحولها سحراً!" ولكن درية لم ترد على رسائله أبداً، حتى كف سيجر عن الكتابة إليها. وكان إحساس درية بالالتزام الأخلاقى قويا، وفى نظر ابنتيها "كانت دائما صارمة مع نفسها. فهى امرأة جذابة جداً، ولا شك أن رجالاً كثيرين حاولوا التقرب إليها، ولكنها لم تشجع أحداً. فهى كانت شريفة الجوهر."(١٧)

وجاء عام ١٩٦٧ كارثة على نور ودرية معاً وكذلك شعب مصر. أما الظروف المؤدية إلى تلك 'النكبة'، وهو الاسم الذى أطلقه المصريون على حرب الأيام الستة، فقد بدأت قبل ذلك، بدأت عام ١٩٦٥ عندما أدخل عبد الناصر على سياسته تعديلات كبرى وبدأ يعيد تقييمه لعلاقته بالغرب. وكانت علامات ذلك التغير على الصعيد الداخلى، سلسلة من الإجراءات العقابية ضد كل من اشتبه فى تعاطفه مع الغرب، حتى بين المقربين إليه شخصيا. وبصفة عامة، كان قد بدأ يتعالى على المحيطين به ويتجاهلهم، خاصة من كان يؤمن منهم أنه يتصرف بتهور ويرتكب الأخطاء.

ومصطفى أمين، الذى اختاره عبد الناصر شخصيا همزة وصل مع وكالة المخابرات المركزية ألقى القبض عليه فى ١٩٦٥ بتهمة استغلال صداقته بعبد الناصر لينقل للأمريكيين معلومات حساسة لم يُسمح له بإفشائها. ويرى أنتونى ناتنج بالنسبة لهذا الموضوع:

> أيا كان خطأ مصطفى أمين فيما كان يناقشه مع بروس أوديل، ضابط اتصاله بال سى.أى.ايه.، فكان لابد لعبد الناصر أن يدرك أنه ليس خائنا، وكانت كلمة من الرئيس تكفى، سواء قبل المحاكمة أو بعدها لتجنب صديقه القديم مزيداً من الألم الجسمانى والنفسى. ولكن المهزلة القاسية أخذت مجراها وحكم على مصطفى أمين بالسجن مدى الحياة. أما بالنسبة لعبد الناصر،

فكانت هذه بداية سلسلة مؤسفة من الأخطاء وسوء الحسابات، أدت به إلى مواجهة كارثة في غضون سنتين، ولم يبق له في العالم الغربي صديق.(١٨)

وبدأ رد فعل يميني يعلو في أوساط البرجوازية التي أممت أملاكها، ثم مات زعيم الوفد العجوز، مصطفى باشا النحاس في سبتمبر ١٩٦٥ "والجماهير الغفيرة التي سارت في جنازته كانت بمثابة إنذار للنظام بأن الشعب المصري ظل متحفظا في نظرته رغم كل ما بُذل من جهد لتغييره. فلما قرر من تبقى من جماعة الإخوان الرجعية القديمة اختيار تلك اللحظة بالذات للخروج في مظاهرات عنيفة ضد الشرطة في ضاحية من ضواحي القاهرة، أعلنت السلطات قانون الطوارئ."(١٩) وبدأت حملة داخلية نشطة للقضاء على كل معارضة إما بالسجن أو بالإعدام.

وعلى الجبهة الخارجية، لم ينجح الاتجاه الجديد الذي سلكه عبد الناصر في سياسته الخارجية، وأصبحت الظروف لا تبشر بالخير. فالعرب منقسمون بسبب اختلاف دول المواجهة حول أفضل استراتيجية حيال الحرب الدائرة في اليمن والكفاح المستمر لإعادة الأراضي الفلسطينية. وطبقاً لمؤرخ سيرته، لما جاء فبراير عام ١٩٦٧، كان عبد الناصر قد جرّ على نفسه سلسلة من الأحداث قُدّر لها أن تجعله فريسة سهلة لأعدائه الإسرائيليين بعد ذلك بشهور قليلة. وكان أخطر تلك الأحداث توقيع عبد الناصر على اتفاق دفاع مشترك مع سوريا، اتفاق ينص على أن الاعتداء على واحدة من الدولتين يعتبر اعتداء على الاثنتين معا. وأسعد ذلك إسرائيل أيما سعادة، وتطورت الأحداث بسرعة حتى جاء يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، فأصيبت مصر بأفدح كارثة سياسية وعسكرية في تاريخها الحديث. وعلى عكس التشتت السائد في المعسكر العربي، بدت إسرائيل في قمة الاستعداد العسكري، إذ عملت إسرائيل عكس ما عمله جيرانها العرب المنقسمين، فاستغلت سنوات ما بين الحربين في إعداد خطط محكمة لاسترداد أكثر مما اضطرت للتنازل عنه بعد انتصارها في ١٩٥٦. وفي عبارة أخرى، فإن الهجوم الإسرائيلي على مصر وحلفائها عام ١٩٦٧، سبقته عشر سنوات من التخطيط والاستعداد.(٢٠)

أما الظروف السياسية العامة، فقد أثرت هي أيضا على حياة نور ودرية. ففي الأسابيع الأولى من فبراير ١٩٦٧، جاءت المخابرات إلى بيتها

فى منتصف الليل للقبض على نور بتهمة الاشتراك فى مؤامرة ضد عبد الناصر والنظام. وتشرح عزيزة الموقف قائلة: "خلاصة القول، كان النظام نظاما قمعيا يحاول القبض على الجميع. والقصة أن محاميا ما، كويتيا أو سعوديا، كان ينتقد النظام. ودفعوه إما بالتهديد أو بالتعذيب إلى الإدلاء بأسماء بعض المحامين المصريين الذين كانوا أيضا ينتقدون النظام. فألقوا القبض عليهم وأودعوهم السجن".(٢١) وتضيف جيهان: "كان أبى ضمن مجموعة من تسعة محامين ألقى بهم فى السجن ولم نسمع عنهم أو نعرف مكانهم لمدة أربعة شهور. وكانوا قد صادروا كل شئ وأمموه قبل ذلك بسنوات، فلم يكن لدينا قرش واحد فى البنك. والحمد لله أننا احتفظنا ببعض المال فى البيت مما سمح لنا بالعيش."(٢٢)

ومرت تلك الشهور على أفراد العائلة صعبة وعصيبة، ولم تكتشف درية أن زوجها فى سجن طره، جنوب القاهرة، إلا فى شهر مايو، وهو السجن الذى كان النظام يودع فيه معظم السجناء السياسيين، باستثناء الشيوعيين والإخوان المسلمين الذين عزلوا فى سجن آخر بالواحات.(٢٣) ورغم أن الزيارات كانت محظورة، إلا أن نور تمكن من بعث رسائل لأسرته حتى تم الإفراج عنه. وتقول عزيزة: "السبب الوحيد فى الإفراج عن أبى كان حرب الأيام الستة، والتى تعرض بعدها البوليس السرى لهجوم عنيف. فقد انتقد الناس النظام لاهتمامه بحبس المصريين بدلاً من الكشف عما يدور فى إسرائيل. ولم يبدءوا النظر فى حالة المسجونين السياسيين والإفراج عن بعضهم إلا بعد الهزيمة. وكان يمكن لأبى أن يضيع ويظل فى سجنه سنوات. وفيما بعد، نشرت الحكومة اعتذاراً رسميا لأولئك المحامين فى الصحف."(٢٤)

ورغم أنه لم يشكِ صراحة، إلا أنه كان من الواضح لابنتيه أن نور أصابه الاكتئاب بعد الإفراج عنه. فقد تأثر مكتبه للمحاماة للمرة الثانية، ولم يبق له من المال إلا اليسير، وبلاده مُنيت بأسوأ هزيمة عسكرية لها. فلو كان له أن يبدأ من جديد، فلابد أن يكون ذلك خارج مصر. وهكذا بدأت سلسلة من فترات غياب طويلة فى الكويت، فترات غياب فرضت المزيد من الضغوط على علاقة كانت فى الأصل هشة، سادتها التوترات على مدى سنوات، أكثر مما سادتها الصداقة. وكانت درية قد انسحبت تماما من الحياة الاجتماعية، فلما أدركت أنه لم يبق شئ يستند إليه زواجهما، طلبت من نور الطلاق أخيراً.

وفى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٨، بعد الإفراج عن نور بأقل من سنة، دخلا معاً محكمة عابدين للأحوال الشخصية حيث سأل المأذون درية ما إذا كانت توافق على هذه الطلقة الثانية. فأجابت بالإيجاب. وتم التوقيع على الأوراق الرسمية وانتهى زواجهما الذى دام واحدا وثلاثين سنة. ورغم ما تبقى من شهور عدة تسمح لهما باستئناف حياتهما معا، إلا أن كلاهما كان يعلم فى قرارة نفسه أن انفصالهما فى هذه المرة نهائى. وتشرح جيهان، "كانت أمى تحب أبى جداً، وأثار الطلاق ذكريات مؤلمة عن طفولتها. وأخبرنى أبى بأنه بينما كانت تتم إجراءات الطلاق، ظلت أمى تتذكر موت أمها، حتى أنها انهارت وأجهشت بالبكاء. وكانت أمى كلما تحدثت عن أمها، تتحدث عنها وكأنها ملكة." ورغم أن نور تزوج مرة أخرى بعد طلاقه، إلا "أنهما ظلا أصدقاء، وظل بينهما احترام، فلم أسمع أحدهما يعيب فى الآخر أبداً".(٢٥)

كذلك شهد الأصدقاء "لم ينبس أحدهما بكلمة قد تجرح مشاعر الحبيب القديم."(٢٦) ومن المرات الأخيرة التى التقيا فيها مناسبتى حفل عرس عزيزة فى فبراير سنة ١٩٦٩ وعرس جيهان التى تزوجت قبلها بعام وأصبحت حاملا للحفيد الأول. وحكت جيهان: "كان عرسى بسيطا وتم فى شقتنا بعمارة وديع سعد وحضره الاثنان وكأن طلاقا لم يحدث." ولكن بعض المدعوين لاحظوا أن درية بدت منطوية ومبتعدة، تتحاشى مقابلة نور أو الحديث معه. وربما كان السبب هو كرامتها المجروحة (فلم يمر على طلاقهما سوى شهور حتى تزوج نور)، ولكنها لم تبذل أى جهد للاختلاط بأحد.

وأصبح وضع درية المالى حرجاً بعد اعتقال نور ثم بعد طلاقهما. واستمر نور فى موافاتها بكل ما يستطيع من مال، ولم يكن ذلك فى البداية وفيراً، بسبب ظروفه الخاصة. ولكن كرامة درية لم تكن تسمح لها بقبول شئ من نور مباشرة. فكان يعطى المال لجيهان وتتولى هى الوفاء باحتياجات أمها. وفكرت جيهان فى أن تسأل أباها أن يكتب الشقة باسم أمها، كنوع من الضمان المالى لدرية التى كانت تعيش وحدها فى شقة لا تملكها، "فلم يكن ثمة داع وقد تزوج أبى أن تبقى الشقة باسمه. ووافق بشهامته وكرمه المعهودين. ولكن كرامتها أبت عليها ذلك فقالت 'لا أريدك أن تفعلى ذلك. فأنت تفترضين أن شيئا ما سيحدث لأبيك، وأنا أرفض التفكير فى ذلك، فليحدث ما يحدث. ولكنى لا أريد التفكير فى مثل هذه الاعتبارات.' وانتهى الأمر. فلما رأيت رد فعلها، لم أستمر فى محاولتى. ولم أكن أقصد سوى إعطائها شيئا من الضمانات. ولكنها اعتبرت الموضوع موضوع كرامة."(٢٧)

وعانت الابنتان ما يعانيه الإنسان من انفصال الوالدين. فهما تعبدان أباهما وتدركان أنه سعيد وراض بزواجه الثاني. وهما، في نفس الوقت، تدركان مدى هشاشة أمهما وإحساسها بأنها أصبحت وحدها. ومع ذلك فلم تشعران أبداً بأنها وضعتهما أمام خيار. وتقول عزيزة، "كنت وجيهان الوحيدتين في العالم اللتين لم تشعر أمي بأنهما تخليتا عنها. فليذهب العالم إلى الجحيم، وليتخلى عنها الجميع، إلا نحن. فهي عندما تتحدث عن المطلق من الحب باعتباره حب الإنسان لأطفاله، تعني تماما ما تقول." وتعلق جيهان على حالة أمها في ذلك الوقت قائلة: "كنت أشعر بمدى حساسيتها، إذ كنت قريبة جداً منها، ولا أعتقد أنها كانت تُجرح بسهولة، فلم يكن هناك من يجرحها. لم تطرح أبداً أسئلة فضولية. فعلى سبيل المثال، كنا نزور أبي كثيرا بعد أن تزوج، ولكن أمي لم تحرجنا أبداً بطرح أسئلة عنه. لم تقل كلمة واحدة. لم تسأل عن شئ. فيا له من تعقل!".

ولاشك أن سنة ١٩٦٩ كانت حاسمة بالنسبة لمعركة درية مع الوحدة والانفراد. فلقد أصبحت مطلقة، وتزوجت ابنتاها وأصبح لكل منهما أسرة، بينما ظلت هي وحدها. وفي أواخر ذلك الصيف، إذ بعزيزة ومعها زوجها حامد اللوزي، يحذوان حذو العديد من شباب نفس الطبقة المتعلم في الستينات، فيقرران الهجرة إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسة الدكتوراه وبدء حياة جديدة. وتتذكر جيهان تاريخ سفرهما بالتحديد:

> كان ذلك في الرابع والعشرين من أغسطس، لأن نازلي ابنتي بلغت يومها ٢٠ يوما. ولما رحلت عزيزة، لم يسمح لأمي بالسفر، كان ذلك في عهد عبد الناصر وكانت الأمور صعبة. وفي تلك السنوات الأخيرة، كنت أقرب الناس إليها. كانت تصارحني وتضع فيّ ثقتها. وفي نفس الوقت، كنت أعرف مدى حساسيتها، فكنت دائما أحرص على عدم جرح مشاعرها. ولم تكن من النوع الشكّاء. وتعيش على الكفاف. ولا أقصد أنها كانت في ضيق. فالشقة جميلة ومعها خادم، ولكن المصروفات قليلة، إلا أنها كانت تتصرف. وأنا من جانبي كنت أقوم بصنع بعض ملابسها. ومع ذلك فكانت في نفس

الوقت كريمة كل الكـــرم وتحـــب الإنفـــاق، وفلسفتها 'اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فـــى الغيب'. فالمال لا يعنيها ولا رغبة لها فيـــه، بل تعتبره وسيلة فحسب.(٢٨)

ودرية كانت لا تحب شعور الاعتماد على الغير، فإذا أعوزها المـــال، بحثت عن عمل. وكلما اقتضى الأمر، نجحت فى الحصـــول علـــى بعـــض أعمال الترجمة بفضل علاقات جيهان بالعديد من المراكز الثقافية ومراكـــز البحوث الأركيولوجية بالقاهرة: "كانوا يرسلون النصوص لمامى فى البيـــت، فتترجمها، وتسعد بها لأنها مصدر دخل صغير، ولكنها كانت تستغرق الكثير من وقتها وتعتبرها درية محبطة لإبداعها."(٢٩)

ومع الوقت، كفت عن السعى للحصول على عمل، وحصرت احتياجاتها المادية فى أضيق الحدود ودخلت مرحلة جديدة من حياتها يمكن أن توصـــف بالزهد. كانت حياتها غاية فى البساطة، وتصفها عزيزة قائلة: "بل ربما كانت تبالغ، فأصبحت أولاً نباتية ولم تكن فى الأصل تحب اللحوم كثيرا، ولكنـــها كفت تماما عن أكلها. واكتفت بالقليل الذى لديها، فكانت تلبس أبسط الثيـــاب وترفض تماما لبس الحلى، إذ وزعت ما كان لديها أو ألقت به." كما تتذكـــر جيهان أن "مامى كانت تقرأ القرآن دوما، وخاصة سورة يس التـــى كـــانت تحفظها عن ظهر قلب. وكانت تقول لى، 'إن أردت شيئا أو مرت بك أزمـــة، عليك بقراءتها أربعين مرة تُحلُ مشكلتك. وعندما تعسرت ولادة ابنتى نازلى، جلست مامى إلى جانب فراشى تقرأ فى مصحفها. وكانت دائما تصوم شـــهر رمضان. سمعتها تقول كثيرا 'القرآن رفيقى'. ولم تكن تطلب شيئا ولا تشـــكو من شئ وتعامل نفسها بصرامة."

وعلى الرغم من الوحدة وحياة التقشف، إلا أن درية كانت تعطى لكـــل من حولها انطباعا بأنها هادئة النفس، أو فى عبارة ابنتيها، "يبدو أنـــها فـــى السنوات الأخيرة قد حققت قدراً كبيرا من السكينة والتوازن فـــى داخلـــها." وحتى بالنسبة لغير المقربين، كانت درية "توحى بروحانية قويـــة. اقـــتربت كثيرا من التواصل مع ما هو قدسى. ربما لو التقت وقتها بـ 'جورو' (دليـــل لعالم الروح) لساعدها. ولكنها اقتربت فعلا. كيف يمكن لمن اقترب كل هـــذا القرب من السمو الروحى أن يبدو للعالم الخارجى وكأنه شـــخصية مختلفـــة تماما؟"(٣٠)

وكانت الكتابة أول ما ساعد درية على الاحتفاظ بنوع من السكينة في وجه الوحدة الجرداء، الكتابة رفيقتها الوفية طيلة حياتها، "ضرورة في حياتي لا تقل أهمية عن التنفس". وخلال سنوات العزلة، أنتجت أكثر من ستة عشر كتابا، منها دواوين عديدة، ومقالات فلسفية، وروايتين لمذكراتها، وقصة طويلة. وقضت الكثير من وقتها في ترجمة القرآن إلى الفرنسية وإلى الإنجليزية. ويتذكر مصطفى أمين أنها "كانت تكتب الشعر باللغة الفرنسية عن قيس وليلى وعن حب إيزيس لأوزوريس. كما كتبت كتاباً بالفرنسية عنوانه 'مع دانتي في الجحيم'، قارنت فيه جحيم دانتي بجحيم حياتها. ولما كانت تكتب عن ليلى وإيزيس، كانت تكتب عن حبها هي."[٣١]

وعاشت درية تكتب وتخرج فتمشي طويلا على ضفاف نيلها المحبوب، وتتناول الغذاء مع جيهان أيام الأحد بانتظام. ولكن مولد نازلي، أول حفيدة لها، أدخل زخما جديداً على حياتها اليومية. وكانت نازلي، وهي بعد طفلة صغيرة، نسخة طبق الأصل مصغّرة من جدتها، ونشأت بينهما علاقة خاصة جداً: "أتصور أن كل جدة تجد أن حفيدتها تحفة فريدة، ولكن أمي كانت تعبد نازلي عبادة. وفي كل عام، ورغم ظروفها المالية الصعبة، كانت تشتري لنازلي كعكة عيد ميلاد أنيقة من سيموندز، كعكة بيضاء عليها عصافير، تشبه كعكة الزفاف ولكنها أصغر." فلما بلغت نازلي الثالثة من عمرها، دخلت الحضانة الفرنسية التابعة لراهبات الفرنسيسكان. وبما أن جيهان كانت تعمل مدرسة معمل في قسم الكيمياء بالجامعة الأمريكية، فدرية هي التي كانت تذهب ظهر كل يوم لتأخذ نازلي من مدرستها:

> كانت نزهة أمي اليومية الكبرى، اصطحاب نازلي من مدرستها إلى حلواني سيموندز لتختار كعكتها المفضلة، كذلك كانت نازلي تتطلع بشغف إلى نزهتها مع 'نونا' درية. وتعودان معاً إلى شقة أمي، فتجلس نازلي على الأريكة، تمُصّ إصبعها بينما تروي أمي لها القصص، وهكذا أجدها عندما أعود عصراً. وكانتا تلعبان الورق أحيانا، ولكن مامي كانت في معظم الأحيان تروي لها القصص بالفرنسية. وأخبرتني أمي مرة أن نازلي بكت بعد أن استمعت إلى واحدة من قصصها، عن سمكة تم صيدها. وسألت

نازلى: "وماذا فعلوا بالسمكة؟ "فأجابت أمـي: "قطعوها قطعا صغيرة وعلبوها فـأصبحت تونة"، ثم استطردت: "يا إلـهى! إذا بنـازلى تنفجر باكية ولم أعـرف كيـف أواسـيها". فطلبت منها أن تنسى ووعدت بأن أؤلف لـها نهاية جديدة للقصة.(٣٢)

ومات عبد الناصر بأزمة قلبية فى سبتمبر ١٩٧٠ وأصبح أنور السادات ثالث رئيس للجمهورية فى مصر. وبعد أن تولى السلطة بقليل، رُفعت قيـود السفر إلى الخارج من على المصريين، وبدأت درية تخطط فـوراً لزيـارة عزيزة وحامد فى الولايات المتحدة. وبفضل كرم بناتها اللاتى دفعن التذاكر، سافرت درية فى يونيو ١٩٧١ إلى شمال كاليفورنيا لتحضر مولـد حفيدهـا الأول شريف. وقامت برحلتها الثانية فى صيف ١٩٧٣، بعد أن حصل حـامد وعزيزة على شهادة الدكتوراه وانتقلا إلى مدينة نيويورك حيث التحق حـامد بشركة آى.بى.إم. وفى الرحلتين، لم تمكث درية أكثر مـن شـهر أو سـتة أسابيع على الأكثر.

ولما بدأت سياسة الانفتاح التى اتبعها أنور السادات تتبلور بعد حـرب أكتوبر ١٩٧٣، اقترح البعض على درية أن تخرج من عزلتها الاختياريـة وأن تستأنف نشاطها. وحما عزيزة، وهو من المعجبين بها، أخبرهـا بـأن الأمور تغيرت وبأنها تستطيع أن تبدأ من جديد، من حيث توقفـت. ولكنـها رفضت تماما، وحجتها أن اتحاد بنت النيل أنشئ ليناضل من أجل الحقـوق السياسية للمرأة، وقد نالت المرأة حقوقها، فما جـدواه؟ وأضـافت أن نفـس النظام العسكرى مازال فى السلطة، رغم تغير القيادة، فالمبدأ واحد. وتذكـر جيهان: "كانت تقول، 'انتهى الأمر. لن أبدأ من جديد. هذا هو أسـلوبى، أن أبقى وحدى وأقاوم مقاومة سلبية. والبقاء خارج السياسة فى حد ذاته رفض'. هذه كانت طريقتها فى المقاومة، رد فعلها للثـورة ككـل. رفضـت إذن أن تصبح جزءاً منها. أما أنا فكنت أقول لنفسى، يا إلهى، أن يعيـش الإنسـان وحده هكذا لسنوات، ليست هذه بحياة."(٣٣)

وبعد ذلك ببضعة سنوات، ظهر فى عامود صغير فى جريـدة أخبـار اليوم سؤال من قارئ بالقليوبية للمحرر: "أخبار اليوم العزيزة، أيـن ذهبـت درية شفيق، ولماذا اختفت تماما؟". وجاءت فى الجريدة إجابة مقتضبة عـن أنشطتها السابقة وانتهت بالكلمات التالية: "اتُخـذ قـرار بـإغلاق مجلاتـها

واتحادها النسائي بحجة أنها تمثل خطراً على الأمن العام! ولقد عُزلت في شقتها لمدة ثمانية عشرة عاما. وهي الآن تؤمن أن الصمت أبلغ من الكلام."[٣٤]

وتدّعي أمينة السعيد أن السادات عندما تولى السلطة، اتصلت بها درية شفيق تهنئها على رفضها قبول مركز في الحكومة الجديدة:

> في يوم ما وبعد تغييرات في الوزارة، اتصلت بي درية شفيق هاتفيا في مكتبي، ودهشت لأنها هنأتني لرفضي منصب وزاري، رغم أنه لم يُعرض عليّ شيء، وبالتالي لم أرفض شيئا. فلما حاولت أن أشرح لها تلك الحقيقة، لم تصدقني واتهمتني بالإنكار خوفاً من السلطات وأقسمت لها على صحة ما أقول ولكنني فشلت في إقناعها لأنها أصرت أنني بطلة لرفضي المنصب.[٣٥]

وفي ربيع عام ١٩٧٣، قررت جيهان استئناف دراستها لنيل الدكتوراه، فسجلت رسمياً مع أستاذ مرموق في مادة الكيمياء المادية، الدكتور سنج من جامعة برونل في لندن. وفي يونيو من نفس العام، وبعد سفر أمها إلى نيويورك لزيارة عزيزة، رحلت جيهان وهي حامل في شهرها الخامس في ابنتها الثانية هيدي، رحلت لتبدأ شهراً من الأبحاث في إنجلترا تحت إشراف أستاذها. فلما زار الأستاذ سنج وأسرته القاهرة في العام التالي، طلب مقابلة درية شفيق بالتحديد. فلما أبلغت جيهان أمها بطلبه، وافقت أن تنظم حفلة شاي على شرف استقباله. وتأثر جداً بمقابلة الزعيمة النسائية السابقة، وكتب يخبر جيهان بذلك. وباستثناء تلك اللحظة الاجتماعية النادرة، استمرت درية في مقاطعة الناس. بالطبع استمرت في دروس البريدج ودروس اللغات بل ولعبت الجولف لفترة قصيرة.

وفي أواخر أيام حياتها، اقتصر خروجها على مرافقة نازلي من مدرستها، أو على نزهتها المعتادة لمدة ساعتين على ضفاف النيل. وتعلق جيهان قائلة: "قبيل النهاية، بدت أقل ثقة في نفسها، ربما أصبحت خجولة. على سبيل المثال، عندما كانت عزيزة تأتي في فصل الصيف لزيارتنا، كنا

نذهب جميعا إلى المطار، أنا وأبى وأهل زوجـــها والأصدقـــاء، كلنـــا فـــى انتظارها. كنت أشعر بها ضائعة نوعا ما، ولكنها لم تكن تشكو أبداً." وحتـــى رحلات جيهان القصيرة إلى إنجلترا فى الصيف، كانت تكثف من إحســـــاس درية بالوحدة. "أمى كان ينتابها الحزن كلما سافرت، ولكنها كانت تتظـــاهر بالشجاعة من أجلى، لم تسبب لى أبداً إحساساً بالذنب". بل علـــى العكــس، كانت درية تعكس انطباعاً بأنه على الرغم من اختلاف وضعها بعد الطـلاق، إلا أنها انتهت بالتصالح مع نفسها خلال تلك السنوات الأخيرة. ولكن كل مـن حولها لاحظوا بشكل متزايد بأنها بدأت تنزلق إلى حالـــة اكتئـــاب عميـــق. فسنوات العزلة والانطواء بعيداً عن أى حياة اجتماعية، بدأت تترك آثارهـــا. وتعلق عزيزة على ذلك قائلة، "يبدو وكأن السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من حياتها انتظمت. كانت تبدو وكأنها تهادنت مع نفسها، رغم شعورى بأنها مكتئبة، أقصد أنها تمر بمرحلة اكتئاب كانت إنســـانة حزينـــة جـداً. وبـدأ إحساسها بالمأساة خلال الشهور الستة الأخيرة. لم أكن أحتمل أن أراها بـــهذا الشكل. شئ مؤلم، وكـــأنك تــرى شــخصا يغــرق دون أن تتمكــن مــن مساعدته."[٣٦]

وكلما ازداد انطواء درية على نفسها، كلما كافحت بعنف حتى لا تطغى وحدتها على ما تبقى لها من إمكانات. لقد أصبحت تعتمد أكثر من أى وقـــت مضى على صوت الموسيقى الداخلية، ملهمتها الوفية "التى أصبحت ســـيدتها ورفيقتها معاً، والتى يمكنها أن تعبر عن ضيقها ووحدتها من خلالها. ويتضح ذلك فى قصيدتها "إيقاع الحياة":

كيف نعيش
بلا شعر؟!
كيف يمكن
بلا إيقاع الحياة هذا
أن نتحمل
انسياب أيام خاوية
ورحيل فرحيل
بلا عودة
رحيل
كل آمالنا؟
كيف نعيش
بدون تلك الموسيقى الداخلية

التى وحدها تسمح لنا
بأن نحمل أثقال
آلام لا وصف لها؟
كيف نعيش
بدون تلك الأنفاس العميقة
التى هى الشعر؟
الشعر صديق
من يتألمون
ومن كانت قلوبهم كبيرة
وصديق من يريدون
بل من يصرون
أن يجعلوا من حياتهم
تحفة فنية؟

واستمرت دون كلل فى التنديد بالقمع والكراهية والعنف من خلال أشعارها. وفى ظروف الفراق والوحدة التى ازدادت وطأتها عليها، مضت تجاهر بحبها للحرية والخير والحب. ملأت آلاف الصفحات بكلمات تتدفق أحيانا من اللاوعى، فتفصح عن عملية انسحاب بطئ من كل ما يربطها بعالم العلاقات الاجتماعية والأسرية، ويفصح عن اقترابها رويداً من نقطة الاندماج النهائى مع المطلق.

بعد طلاقها من نور وبعد رحيل عزيزة إلى أمريكا، أصبحت جيهان وابنتها نازلى المصدر الوحيد للدفء والحنان الذى ظل يربط درية بعالم البشر، خاصة جيهان التى كانت تسكن بالقرب منها وتقلق بشأنها وتراعيها، والتى أمكن لدرية أن تفتح لها قلبها قدر استطاعتها وتبوح لها بمكنون أفكارها خلال شهور الكرب الأخيرة فى حياتها:

> كان يوم الأحد مقدساً، ولا أتنازل عنه أبداً. يوم الأحد كان يومها. ففى يوم الثلاثاء، مثلاً، أتناول أنا وأطفالى الغذاء مع بابى. عادة ما كانت أمى هى التى تحضر نازلى من المدرسة، إلا يوم الثلاثاء. كنت أحب الذهاب إليها، أجلس معها قبل الغذاء نتجاذب أطراف الحديث. أحيانا تُسمعنى بعض أشعارها، مثل

'عروسة المولد' و'صلاة شكر'. وعندما كانت تتلو على من قصيدة 'ساعات القاهرة'، تملأ الدموع عينيها، خاصة في المقطع الأخير. وأيضا 'النيل'، فهي كانت تعشق النهر. وكلما تمشينا على ضفافه تقول: "أحيانا أشعر بالكرب أو التعاسة، فأنظر إلى النيل وأنسى تعاستي". وكنا أحيانا نضحك معا. وبالمناسبة، كانت أمي خفيفة الظل. ولم أقرأ أشعارها إلا قرب النهاية، أقصد أنها دعتني لقراءتها، مثل 'عبرات إيزيس'. حدث ذلك مرة واحدة، قبل أن تموت. كنا نجلس معا على الأريكة فقالت: "إليك بهذا! انتهيت للتو من كتابته. إن شئت فاقرئيه." هو العمل الوحيد الذى قرأت، إلى جانب ما كانت تسمعنى إياه. وكثيرا ما كانت تشير إلى تلك القصيدة الأخرى 'الفداء'، وإلى مذكراتها التى كانت تكتبها ولكنها لم تدعنى أبدا إلى قراءة شئ مازالت تكتبه.(٣٧)

وقضت درية صيفا بالغ الوحدة عام ١٩٧٥، لما سافرت جيهان إلى إنجلترا مصطحبة معها نازلى: "أصبحت نازلى خجولة جدا وخشيت أن يؤثر عليها رحيلى كل صيف، فاصطحبتها معى." وقبل رحيلهما، صارحت درية جيهان بمدى شعورها بالاكتئاب. وكان رحيل جيهان دائما ما يسبب لدرية شيئا من الحزن، ولكن جيهان لاحظت عمق حزنها لأول مرة:

فى كل مرة أراها أرى الدموع فى عينيها. وحاولت أن أهدئ من روعها بقولى إننا لن نغيب سوى خمسة وأربعين يوما، وإنها فترة سرعان ما تمر وإننى سأكتب لها. ورغم ذهاب زوجى وابنتى هيدى للغذاء معها كل يوم أحد أثناء غيابى، إلا أنها صارحتنى بعد عودتى قائلة: "لم أشعر بمثل هذه الوحدة من قبل، كنت أبكى كل ليلة تقريبا. أما الآن وقد عدت، فأشعر أن كل شئ سيكون على ما

> يرام." وبعدها بأسبوعين، أصابها الاكتئاب الشديد وقالت: "لا أفهم، فأنا كنت أشعر بالسكينة طيلة السنتين الماضيتين." وكان ما قالته صحيحا، فعلى الرغم من وحدتها، بدت وكأنها وصلت إلى حالة من الاستقرار والتوازن. ولاشك أنها كانت تتمتع بصلابة داخلية، فلم يكن باستطاعة أحد أن يتحمل ما تحملت.

أما عن تحليل عزيزة للموقف، فتقول: "ربما تأملت أمى ما بداخلها وشعرت أن كل ما حولها قد تداعى وأن تضحياتها ذهبت سدى، ولكنها أبدا لم تعترف بذلك لأحد صراحة. وحتى فى لحظات الاكتئاب لم تفكر فى طلب المساعدة، ففى ذلك اعتراف بضعفها، وهذا مستحيل."[٣٨]

ومع ذلك ففى الأسابيع الأخيرة من ذلك الصيف، صارحت درية ابنتها جيهان أخيراً بأنها بالغة الاكتئاب وبأنها قد تفكر فى استشارة طبيب. ولم تتصور جيهان خطورة ما تقوله أمها:

> بدت لى فى صحة جيدة. كانت تكتب كثيرا. لا أذكر أبداً أنها كفت عن الكتابة، اللهم إلا عند عودتى من السفر فى منتصف أواخر أغسطس، إذ قالت لى: "شعرت باكتئاب شديد منذ يومين." وسألتها: "كيف ذلك؟" فأجابت: "تساورنى تلك الأفكار السوداء." "أية أفكار؟" "لا أدرى، فهناك لحظات أشعر فيها بأننى لا أريد أن أستمر فى العيش." ولم أدر هل كانت تعنى 'أريد أن أموت'. فكثيرا ما تنتاب المرء لحظات يأس وتصدر عنه مثل هذه الكلمات، ولكنه لا يعنيها حقاً.

ونزولاً على نصيحة صديقة تعانى هى الأخرى من فترات اكتئاب، اتصلت درية بالدكتور أحمد عكاشة، وهو طبيب نفسى مصرى مشهور، والتقت به مرتين أو ثلاث. فوصف لها أقراصا تهدئها، وإن كانت قد أحدثت رد فعل عكسى. وفى يوم ما، اعترفت لابنتها: "يحدث لى شئ غريب. نزلت

من سيارة الأجرة، ووجدت نفسي أمام المنزل ولم أعرف أين أنا. ظللت هكذا فترة طويلة. وقلقت لما حدث." ومن الواضح أنها كانت تعاني من انهيار عصبي أخطر بكثير مما تصورته جيهان أو غيرها خلال ذلك الشهر الأخير. وتحكي سنية شعراوي، حفيدة هدى شعراوي، كيف كانت تلتقي مراراً بدرية شفيق عائدة من نزهاتها العديدة سيراً على ضفاف النيل: "كانت تبدو وحيدة ولكني كنت أستشعر حضورها، لأنها كانت تتمتع بشفافية خارقة، صفة تشبه صفات الأطفال في رقتها وحيائها. وفي يوم رأيتها، اقتربت منها وسألتها أن تسمح لي بزيارتها قريبا. لنتحدث عن جدتي. وقبلت بلطف شديد، قائلة: 'بالطبع، تعالي في أي وقت'. وأحسست أنها سعدت لطلبي. ورغم ذلك فقد شعرت بوحدتها الرهيبة. وأسفت لأنني لم أف بوعدي لأنها ماتت بعد ذلك بأسابيع قليلة".[٣٩]

أما مصطفى أمين، جارها الذي كان يراها بين الحين والحين في مصعد المبنى، فيعلق قائلاً: "كانت لا تتجمل أبداً، بلا مساحيق، وترتدي ثوبا بسيطا. بينما كانت في الماضي جميلة جداً وملكة للأناقة. كان وجهها شاحبا، وعيونها تبكي بلا دموع وشفتاها ترتعشان دون أن تنطق بكلمة، قلبها يدمي بلا دماء وروحها تصرخ بلا صوت. كانت امرأة أقرب إلى الأشباح، امرأة ميتة تمشي، صامتة رغم لحنها. وكنت أرى مأساتها في عينيها الحزينتين."[٤٠]

وتتذكر جيهان آخر لحظاتهما معا – لحظات لم تكن تعرف أنها آخر مرة ترى فيها أمها:

> أذكر بوضوح أنه كان يوم جمعة. مررت عليها وأنا في طريقي لتناول الغذاء عند جدتي لأبي كعادتنا كل يوم جمعة.[٤١] وجلست على فراشها فهمست، "بالأمس كنت في أسوأ حالاتي، فحزمت كل كتاباتي في حقيقة أريد أن أسلمها لك." فسألتها 'لماذا؟ ربما تخرجين كتبك مرة أخرى وتبدأين الكتابة." ثم أعددت لها طعام الغذاء. هي لم تكن مريضة، ولكنها كانت مجهدة. فأحضرت لها الطعام على صينية، وطلبتُ منها أن تأكل. وجلسنا معاً قليلا، ثم قالت،

"أشعر أننى أحسن الآن. ربما أخرجت كتابا أو كتابين وبدأت أكتب مرة أخرى." ثم التفتت نحوى وسألت "أتعرفين أننى أتساءل أحيانا ما إذا كان كل كفاحى وكتاباتى بل وحياتى كلها بلا جدوى. لقد أردت من خلال كل ذلك أن تكون حياتى تحفة فنية." ثم استطردت، "لا أدرى ماذا سيحدث لى." فأجبتها، "لن يحدث لك شئ. أنا هنا وأنت تعرفين أننى سأحرص على ألا يحدث لك شئ." وأذكر أننى كنت ألبس خاتماً به فص كبير من الزبرجد، خلعته من يدى وقلت لها، "خذيه فهو سيجلب لك الحظ،" لأنها اعتادت أن تحافظ على حاجياتى قائلة بأننى أجلب لها الحظ. فلبست الخاتم وقالت، "الآن أشعر بأننى أحسن حالاً. أتعرفين يا جيهان أنك روحى."(٤٢)

وفى اليوم التالى، طلبت جيهان أمها هاتفيا فى الصباح الباكر، "كان صوتها ضعيفا يكاد لا يسمع فسألتها، 'ماذا بك يامامى؟' وظلت تردد، 'أشعر بصداع، أشعر بصداع فظيع.' وعدت فكلمتها من الجامعة، 'أمازلت تعانين من صداع؟ أمازال رأسك يؤلمك؟' وجاء صوتها ضعيفا جدا، 'نعم، كلمينى قبل أن تحضرى.' وانتهى الأمر. كان ذلك فى نحو الواحدة ظهرا. والغريب أننى قلت وأنا أغادر الجامعة فى حوالى الواحدة والنصف بأن شيئا ما أصاب أمى. مجرد شعور، شعور ليس إلا."

وفى نفس اللحظة تقريبا التى شعرت فيها جيهان بذلك الشعور الغريب بأن مكروهاً ألم بأمها، كانت صديقة لها وزميلة لى الجامعة تعود لتناول الغذاء فى مسكنها بعمارة وديع سعد، فكانت أول من سمع النبأ الحزين:

فى يوم السبت هذا، وصلت بيتى من الجامعة فى الساعة الواحدة ولمحت حارس العمارة على يسار مدخل العمارة المقابلة. ولما كان يعرف أننى صديقة حميمة للأختين عزيزة وجيهان رجائى، هرع نحوى وهو يصرخ،

"تعالى، أسرعى، لقد قفزت السيدة!" وغطى جثتها بأوراق الجرائد ولكنه وقف حائراً فيما يجب أن يفعل. وجريت إلى حيث يعمل على، زوج جيهان على مقربة من مكاننا. فاتصل على بنور الدين فى مكتبه وأخبره بوقوع حادث. ولما عُدنا إلى عمارة وديع سعد، وجدنا جمهرة من الناس.(٤٣)

أما مصطفى أمين فيتذكر نفس اليوم بالعبارات التالية:

عدت إلى دارى بعد أن تناولت الغذاء فى واحد من الفنادق. وفى مدخل المبنى، رأيت جمعا من الناس يحيطون بملاءة بيضاء. فسألت عما جرى، فقالوا "السيدة رمت بنفسها من شرفة الطابق السادس." ونظرت تحت الملاءة فوجدت جثة جارتى درية شفيق، تلك المرأة التى ملأت الدنيا ضجيجا وبيانات؛ تلك المرأة التى كانت نجمة المجتمعات المصرية والعربية والأوروبية والأمريكية. نسى الناس اقتحامها للبرلمان مطالبة بحق التصويت، ونسوا إضرابها عن الطعام سنة ١٩٥٤ من أجل حقوق المرأة، كما نسوا أنها فقدت حريتها ومجلاتها ومالها وزوجها لأنها طالبت للشعب المصرى بحقوقه الإنسانية. لقد دفعت ثمنا فادحاً لشجاعتها، بينما ظل كل من حولها يرتعش خوفاً من السيف والسوط.(٤٤)

(١٦)

الحياة كتحفة فنية

هذه الأنشودة التى تملكتنى مذ كنت طفلة صغيرة، كان لابد لها أن تصدح. لا من خلال حياتى التى حاولت قدر الإمكان أن أجعل منها تحفة فنية، ولكن أيضا من خلال إيقاع ظللت أبحث عنه طويلا دون أن أجده. فى البداية، وأنا بعد طفلة، أفلتت أنشودة روحى من بين أصابعى وأنا أعزف على البيانو فى المنصورة وفى طنطا؛ ثم عادت فهربت منى فى باريس أثناء سنوات الدراسة عندما أردت أن أتعلم العزف على الفيولونسيل أو أن أتعلم الرسم. كنت أبحث عن شئ لا أعرف كنهه. نعم، الفن! ولكن أكثر من الفن قليلا. أبحث عن فن يكون فى نفس الوقت فلسفة؛ أى موقفا، طريقا، سبيلا ينفتح على المستقبل.

لما تناولت الصحافة خبر وفاة درية المفجع بسقوطها من مسكنها بالدور السادس فى الزمالك، ونشرته فى الصفحات الأولى من أهم الجرائد المصرية، عاد اسم درية شفيق ينتشر كاللهب فى وسائط الإعلام المحلية والدولية ومعه إنجازاتها. وبدأ الصحفيون رجالاً ونساءً، مصريون وأجانب، يرثون تلك السيدة التى أغضبت مجتمعها فى لحظة صاخبة من تاريخ مصر. فكتبت فاطمة عبد الخالق: "فى يوم ما، كانت درية شفيق هى الرجل الوحيد فى مصر. التزمنا كلنا الصمت خوفا، وكُممت أفواهنا وقُطِعتْ ألسنتنا. نزل علينا سهم الله. وفجأة ظهرت درية شفيق عام ١٩٥٧ لتخبرنا بأننا فى طريقنا إلى الديكتاتورية، وبضرورة استعادتنا لحرياتنا والتخلص من تلك الديكتاتورية. وفى ذلك اليوم هبت نساء مصر وتنظيماتها النسائية احتجاجاً وهجوماً عليها. ورغم أنها كانت قد دفعت الثمن، إلا أن درية شفيق لم تحن هامتها أبداً. والآن وقد تحررت صحافتنا واستعدنا ألسنتنا وانحلت عقدة شفاهنا، ندين لتلك السيدة بالعرفان الذى تستحقه."[1]

مصرع الدكتورة درية شفيق

سقطت من شرفة شقتها بالدور السادس وماتت على الفور

كتب مصطفى حسن

الصفحة الأولى لجريدة الأهرام تغطى نبأ مصرع درية شفيق، ٢١ سبتمبر ١٩٧٥

وكتب محمد زكي عبد القادر الكلمات التالية التالي:

شاء القدر أن يأتى موتها مأساوياً ليتعمق شعورنا بفقدانها. فدرية شفيق، فى حياتها وفى كفاحها، لم تكن حدثا عاديا على مسرح الأحداث المصرية. بل إنها كسرت حاجز الركود فى وقت كنا أقرب فيه إلى الركود منا إلى الحركة. لقد قادت حملة لدفع المرأة المصرية إلى تأكيد حقها فى الحرية والتحرر والمساواة. ولم تكن حركتها هى الوحيدة فى ذلك الوقت، إذ كانت هناك جهود مشتتة، ولكن حركتها كانت أقواها وأكثرها فعالية وأكثرهم لفتاً للانتباه، وذلك بسبب شخصيتها وتفانيها وحزمها وثقافتها الواسعة وخلفيتها الأكاديمية الممتازة. ثم اختفت درية شفيق، ولاذت بالصمت المفروض عليها، أو بالصمت الذى لم يكن له بديل، وهو صمت لا يتناسب وحركتها ودعوتها وكفاحها. وسوف نتذكر الدكتورة درية شفيق دوما، كلما ذُكرت حقوق المرأة، أو حتى كلما ذُكرت الحرية والكفاح من أجل تلك الحقوق. وآمل أن يدرك هذا من هاجموها وهى بعد شابة تكافح. آمل أن يدركوا كم ظلموها.[٢]

واكتنف مصرع درية شفيق الغموض والتناقض، كما كان الحال بالنسبة لحياتها. وعبّرت مقالات عديدة فى الصحافة المصرية عن حيرة الرأى العام بشأن الملابسات المحيطة بسقوطها من شرفة مسكنها. وكان آخر من رأى درية على قيد الحياة، خادمها أحمد محمد طه، الذى قال ببساطة شديدة ووضوح: "كنت أصل كل يوم فى حوالى التاسعة صباحا وأغادر فى الثانية والنصف بعد الظهر. وفى يوم الحادث، سألتها ما إذا كانت تريدنى أن أعدّ لها الإفطار، فرفضت. وعرضت عليها أن آتيها بقدح الشاى الذى اعتادت أن تتناوله بعد الإفطار بنصف ساعة. ولكنها رفضت الشاى أيضا، وطلبت كوب ماء أحضرته لها. ثم توجّهت إلى المطبخ، وبدا وكأنها مشغولة بشىء ما فيه، ثم أرسلتنى لأشترى شيئا لطعام الغذاء. ولما عُدت رأيت الناس يحيطون بتلك الملاءة البيضاء."(٣)

أما أمينة السعيد التى لم تكن دائما على وفاق مع درية، فقد كتبت بعد ذلك بنحو خمس عشرة سنة تقول: "سمعت من بعض الأصدقاء الذين ظلوا على صلة وثيقة بدرية، أنها كانت تعانى من اكتئاب وأن صحتها تدهورت. لاشك أن اكتئابها كان عميقاً إذ أدى بها إلى الانتحار. وتلك الصديقة التى تسكن المبنى المقابل لشرفة درية، أخبرتنى أنها رأت درية فى ذلك اليوم الفظيع تقف فى شرفتها غارقة فى التفكير. وقفت بلا حراك لفترة، ثم دخلت غرفتها وأحضرت كرسيا. وبدلاً من الجلوس عليه، فعلت العكس. وقفت على الكرسى وقفزت إلى الأرض. هكذا وقعت المصيبة. ولولا شاهدة العيان هذه لتضاربت الروايات عن أسباب وفاتها."(٤)

ومن أغرب الشائعات التى أحاطت بموت درية ما قيل عن أنها لم تنتحر ولم تقع عَرضًا، بل اغتالها ناصرى أو متطرف إسلامى أراد التخلص منها.

ومن باب احترام ذكراها ونظرا لتحريم الانتحار فى الإسلام، تركز الاهتمام على إنجازاتها فى كل ما كُتب من كلمات تأبين. فوصف عبد الحليم حياة درية شفيق فى كتابه باعتبارها "سلسلة من الانفجارات، استمرت حتى الانفجار الأخير، عندما وقعت من الدور السادس وانطفأت حياتها يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥. هل انتحرت الدكتورة درية شفيق بعد أن عاشت ثمانى عشرة سنة فى الظلال، أم هل كانت ضحية انخفاض مفاجئ فى ضغط الدم،

جعلها تفقد توازنها وهى واقفة فى شرفتها وتقع لتلقى حتفها فى سن ٦٥ سنة؟ سواء أخذنا بالاحتمال الأول أو بالثانى، فالحقيقة أنه فى الحالتين، شهد ذلك اليوم آخر انفجار فى حياة الدكتورة درية شفيق، زعيمة اتحاد بنت النيل."[٥]

وجاءت السطور التالية بقلم واحد من أصدقائها الصحفيين، ولم يكن يوافق دائما على ما مارسته درية من كفاح سياسى:

> أدعوكم أن تبكوا معي درية شفيق. نبذة عابرة في الصحف، أهو حادث أم انتحار؟ لا أريد أن أعرف. بل وأرفض حتى معرفة الأسباب والظروف الفعلية لتلك الميتة العنيفة التي وضعت حداً لحياة كان قوامها الذكاء والأناقة والكرامة. أين اختفيت إذن يا درية شفيق؟ ثمة لبس خطير أدى إلى عزلها عن المجتمع. وهناك من البشر من يرفضون الخضوع للحياة. ودرية شفيق، بحساسيتها وثقافتها وصرامتها، لم تتحمل طويلا عالماً لم تبق فيه سوى المعارك. هل أرادت فجأة، وهى تشعر 'بالدوار' ، أن تسعى وراء الحلم القديم الذى أفلت منها، أم أنها دخلت رهاناً جديداً مع القدر، وهو ما يفعله بعض خيار البشر عندما ينصهرون مع العدم."[٦]

وبعد ذلك بأربع سنوات، فى مقال يناقش موقف حكومة السادات من المعارضين له، وزع نفس الكاتب منشوراً على السفارات العربية والأجنبية، تلك التى عارضت بشدة التصديق على معاهدة السلام المقترحة بين مصر وإسرائيل، وذكر فيها درية شفيق: "وفجأة تبينت ما حدث من تغيير فى مجتمعنا منذ عهد صديقتى المناضلة العظيمة درية شفيق، رئيسة تحرير 'المرأة الجديدة'، فبعد توزيعها منشورات مناهضة لعبد الناصر فى صناديق بريد المراسلين الأجانب، اضطرت للجوء إلى السفارة الهندية حتى تفلت من وحشية 'مراكز القوة' والمخابرات فى ذلك الوقت. ولو عاشت حتى يومنا هذا لسعدت بكل الحريات المستردة!"[٧]

أما الصحفية مديحة، التى التقت بدرية شفيق، قبل ذلك بعشرين سنة، فى حديث صحفى وصفتها فيه بـ "زعيمة المارون جلاسيه"، فقد كتبت تأبينا مؤثرا فى 'روز اليوسف' بعنوان "زعيمة سبقت زمانها":

> رغم أني أسميتها يوما "زعيمة المارون جلاسيه"، بسبب أناقتها وأرستقراطيتها، فأنا لا أنسى أن درية شفيق كانت رائدة فى مجال الحركة النسائية، وواحدة من أوائل من طالبوا بالحقوق السياسية للمرأة وكل من طالب بتلك الحقوق من بعدها كان إما من رفاقها أو من تلاميذها. ولابد أن نذكر أن مجلة 'بنت النيل' ، التى أنشأتها وتولت رئاسة تحريرها، كانت مجلة منتشرة فى كل الأوساط. أتذكر كل جهود درية شفيق وأنا أقرأ خبر وفاتها. هى نهاية حياة رائدة فى مجال العمل النسائى فى مصر، امرأة اختارت الطريق الصحيح وإن أساءت اختيار التوقيت؛ فهى قد مهدت السبيل لمن جاءوا بعدها حاملين نفس الشعلة. درية شفيق واحدة من نساء مصر العاملات فى مجال الخدمة والمعرفة، رحلت عنّا إلى الأبد. لقد أغدقت من مالها وجهدها، حتى وإن لم يتأت لها أن تكمل عملها. ولكنها مهّدت طريق التقدم للمرأة المصرية. وماتت دون أن تسمع كلمة ندم ممن تخلوا عنها، زميلات أو تلميذات أو رفيقات فى العمل. ماتت دون أن تسمع كلمة وداع أو صداقة أو زمالة. رحمها الله.[٨]

والبعض من زميلاتها وتلميذاتها القدامى تذكرنها وأعربن عن مشاعرهن فى خطابات لابنتيها. فكتبت واحدة منهن:

> كيف أعرب لك عن مدى تأثرى لوفاة والدتك ... فأنت لا تعرفين ماذا كانت تعنى بالنسبة لى. اعتبرتها دائما مثالا، وعشت أسير على

هدى خطاها، وأتابعها بقدر ما سمح لى غيابى عن القاهرة والإسكندرية أن أفعل. كانت امرأة غير عادية، استطاعت أن تجمع بين الشجاعة والجرأة لتحقق حلم أرادت هدى شعراوى ومعها نساء مصر أن يحققنه. بفضلها هى وحدها، حصلنا على حق التصويت. وبدأت معركة محو الأمية من 'بنت النيل'. وإذا كانت المرأة المصرية قد أصبحت اليوم وزيرة أو عضوا فى البرلمان أو رئيسة قسم فى الجامعة، فالفضل الأساسى فى ذلك يرجع إلى درية شفيق. خلاصة القول، كانت سيدة عظيمة ومصرية صميمة، ورحيلها خسارة فادحة. وما يعزّينا هو أنها أدت رسالتها، لمصر وللعالم.(٩)

أما راجية رجب، أوفى صديقة وزميلة لدرية فى اتحاد بنت النيل، فقد أنكرت تماماً احتمال انتحار درية شفيق، قائلة: "كانت تعانى من مرض يصيبها بالدوار. وخرجت إلى شرفتها لترى ما إذا كان الطاهى قد عاد، فوقعت. وأصبت أنا أيضا بهذا المرض مرة، وشعرت أننى أقع، فابتعدت عن النافذة، ولازمنى ذلك المرض سنة كاملة." أما فيما يتعلق بتقييم حياة درية وتأثيرها على مجتمعها، فظلت راجية وفية:

درية شفيق كانت مؤمنة وصاحبة مبادئ وشجاعة. كانت على استعداد لعمل أى شئ من أجل بلدها. نعم كانت غريبة الأطوار، وكان لابد لامرأة مثلها أن تكون كذلك. لم تكن امرأة عادية. كانت تعيش على مستوى آخر، فلم تكن مثلى تحمل اسم عائلة عريقة وتتمتع بالجاه والمال والأمان. درية كانت من الطبقة المتوسطة، لم ترث اسما ولا ثروة. كانت بلا سند، دخيلة على كل النساء المحيطات بهدى شعراوى، فغاروا منها. كانت مثالية ونظيفة وشجاعة. ولم يستطع حتى أعداؤها أن يطعنوا فى أخلاقها أو فى نزاهتها. كانت فعلا صاحبة رسالة.

والصورة التى مَثَلتْ بها المرأة المصرية فى الغرب، كانت مدعاة للفخر. كانت رائدة، بمعنى أنها قامت بأعمال جديدة لم يفكر فيها أحد قبلها. ولكنها لم تحسن اختيار التوقيت! فعلى الإنسان أن يكافح فى حدود إمكانياته، عليه أن يعرف حدوده ولا يتخطاها؛ ولكنها تخطتها ففشلت، وتحطمت حياتها وقضت ما تبقى لها من عمر وحيدة تماماً وفى عزلة.(١٠)

وبالفعل، تأمل الرأى العام حادث موتها وبالتالى مغزى حياتها من منظور كفاحها السياسى فى تاريخ مصر الحديث. إلا أن مشروع درية شفيق الشخصى الحميم، رغبتها فى أن تجعل من حياتها تحفة فنية، مسألة لم يتعمق فيها أحد. وإذا كان لنا أن نفهم حياة درية شفيق، فلابد أن نفهمها بالمعنى الذى أرادت هى أن تحياها به. أوسكار وايلد هو الذى قال مرة ولكى تكون الحياة جميلة، لابد وأن تنتهى بكارثة، وإن الجمال لا يكتمل إلا بنهاية حزينة للحياة. أما بيير سيجر فقد وصفها وصفا أقرب إلى حلمها هى عندما قال: "كانت امرأة عاشقة للمطلق. امرأة لها أفكارها ومعتقداتها التى كانت تدافع عنها دائما. لم تنكسر روحها أبداً، ولم تنسحب أبداً من معركة. ربما تملك شيطان المطلق من قلبها."

وبينما أجرى معه حديثى، قام من وراء مكتبه وسحب كتاب لويس أراجون 'اورليان': "لم يكتب أحد عن المطلق بهذه القوة ولا بهذا السمو. أتعرفين أن هذا النص سيظل أجمل ما كُتب عن المطلق. هذا ما يدعونى إلى أن اقتبسه، فهو، فى النهاية، ينطبق تماما على درية شفيق وعلى سعيها وراء المطلق؟ هذا هو. لقد كانت من ذوى القلوب النبيلة، هو نص يصفها تماما، وقد أرسلته لها مرة فى خطاب."(١١) ثم تلا علىّ النص الآتى:

هناك ولع لا يوصف لأنه يبتلع كل شئ. يمتص من يتأمله. ويستولى على كل من يأخذ منه شيئا. لا يمكن أن يذوقه أحد ثم يبرأ منه. يرتعد المرء لمجرد ذكر اسمه: إنه المطلق. هو ولع نادر، لسوء حظ الهواة المتحمسين لمجد الإنسان. ولا يجب أن

تنخدع. فهو أكثر انتشاراً من البرد العــادى،
وإن كان من الأيسـر أن نشـخصه عندمـا
يصيب القلوب النبيلة – أما البشر العـاديون،
الجافة قلوبهم وضعـاف النفـوس، فتظـهر
أعراضه عليهم فى أشكال دنيئة. إن فتحنـا
الباب، دخل واسـتفحل. بسـاطته تتحـدى
المنطق. هو الامتناع عن الاستسلام. لو شئنا
استطعنا أن نفهم ما استطاع البشر أن يحققوه
بفضله: وعدم الرضا هذا يجعلنا نسعى نحـو
المطلق. وعندما يرى المرء الاستثناء، تلـك
الزهرة الوحشية، وينظر فى قلـوب الذيـن
بلغوا بولعهم هذا حافة العبقرية، يجد آثـاره
وندوبه على من هم أقل حظاً من الملائكـة.
وكذلك فمن يذوق المطلق، لا يعـرف طعـم
السعادة بعدها. فأى سعادة تقارن بتلك القمـم
المذهلة؟ وأى سعادة تلك فى مثل هذا السـعى
الذى لا ينتهى؟"(١٢)

واستطرد سيجر، "لقد قابلت شعراء كثرا، ولكنى كنت أقدّر درية جـداً. كنت أحترمها لأنها كانت امرأة شجاعة. فإلى جانب شِعْرِها، كـانت امـرأة تكافح سياسياً؛ كانت مناضلة وأنا أقدّر هذه الصفة جـداً. كنـت أدرك أنـها ستعانى من صعوبات كثيرة لأنها كانت ترفض فكرة التنازل. كانت امـرأة معطاءة، ثم ... لا أدرى كانت علاقاتها بزوجها صعبة، فقد كان فى وقت ما كثيراً ما يلعب مع فاروق على موائد القمار. أعرف ذلك لأنها صارحتنى بـه لثقتها فى. كانت الأمور صعبة."(١٣)

وبالنظر إلى حياتها وإلى موتها غير العادى من ذلك المنظور، نتفـهم أساس تلك العلاقة المركبة والصاخبة التى كانت تربطها بالمجتمع. فليسـت المسألة أنها كانت "زعيمة فى وقت غير ملائم"، قدر ما كانت امرأة عاشـت حياتها كلها بشغف. كانت لا تقبل الأقل، وتريد أن تذهب إلى ما هو أبعد مـن حدودها، أن تتعدى قواها. رأى فيها البعض امرأة شاذة لا تهتم إلا بالشـهرة والأضواء. والبعض الآخر رأى مثالا لما يمكن أن تكونه امـرأة مصريـة ومسلمة. أما الذين لم يعرفوها إلا كشخصية عامة، فقد وجدوها قاسية، باردة، مغلقة على نفسها، شامخة، متكبرة. والذين عرفوها شاعرة، وجدوهـا كمـا

وصفها سيجر، "كالنار والنار تحرق نفسها. كانت هكذا لأنها كانت فنانة وامرأة فكر."[١٤]

وهناك أيضا تلك الهالة من المتناقضات التى كانت تحيط بدرية. فها هى امرأة مصرية صميمة وإن كان تعليمها فرنسيا، تفكر وتكتب بالفرنسية. امرأة كلها أنوثة وجمال، تكافح من أجل تحرير مواطنيها الذين لم يفهموا حداثة فكرها ولا هم قبلوا كفاحها السياسي. ولقد عانت درية من الهوة التى عادة ما تفصل بين من يحاولون بكل ما أوتوا أن يُدخلوا على مجتمعاتهم أفكاراً مجدِّدة، وبين من تُوجه إليهم تلك الأفكار. فهم لا يفهمونها بالضرورة، ولا هم يقبلونها. فالذين يحاولون تغيير النظام القائم أو ينادون بنظام جديد، يسببون للآخرين حرجاً. هم مثارٌ للقلق. ولم يكن هذا حال درية وحدها، فالكاتبة إما جولدمان تقول: "الثائرة على المقدّسات -أيا كانت- يُساء فهمها دائما، لا من جانب بنات جنسها فحسب، وإنما أيضا من جانب زملائها. هذا هو قدَر النفوس العظيمة، فينفصل أصحابها عن بيئتهم، يعيشون حياة الوحدة، حياة المرحلة الانتقالية، وهى أصعب أنواع الحياة للفرد وكذلك للشعب."[١٥] كل المجددين لابد وأن يمروا بمرحلة صراع، قد تزيد الإنسان صلابة، ولكن من المؤكد أنها توهنه وتشد أعصابه. وكما قال سيجر عن درية، "أن يقضى المرء حياته يدافع عن الشعر ليس أمراً هيناً. ودرية كانت امرأة شاعرة. ولا أقول كانت تعبد الشعر، بل كانت شاعرة متوهجة. هذا كل ما فى الأمر."

وهنا يكمن الجمال المأساوى فى حياتها. أولا كانت طبيعتها طبيعة شاعرة، ومعنى ذلك حرارة ونار داخلية فى ضمير حى. ثانيا، ولأنها امرأة، أدركت ما يحيط بها من أوجه الظلم فى مصر – هكذا كان وضع المرأة. ونظرا لخلفيتها الاجتماعية ولتجربتها وهى بعد صغيرة، لم تستطع الوقوف مكتوفة اليدين. ولأنها شاعرة، نددت بالظلم. فالعلاقة بين شاعريتها وبين ما كان يحيط بها من ظلم علاقة واضحة. ومكّنها الشعر من الوصول إلى مكنون ذاتها، إلى أعماق نفسها، وهو ما لم يتأت لكل المحيطين بها عامة. ولأنها شاعرة، استطاعت الكلام، وقدرت على التعبير عن نفسها. وكانت المسألة بالنسبة لدرية دائما مسألة ضمير. وقال فى ذلك سيجر: "لقد تحولت إلى ضمير، إلى نظرة ثاقبة، إلى حضور لا يُحتمل، إلى صوت يتكلم باسم الجميع، فلم تتحملها السلطات. أما الضمائر الصامتة، فهى صامتة لأنها غير قادرة على التعبير. ولكنها كانت شاعرة ولها ضمير. وكان من الممكن أن تصبح قدرتها على الكتابة نوعاً من التعويذة فتجنبها الميتة التى ماتتها، ولكن الظروف الخارجية لم تكن محتملة لمن هم مثلها، فقتلتها. وفى كلمات بيير

رفردى 'لا يوجد مُنتحر وإنما هناك قتلة'، وهى كلمات قد يكون لها مدلولها فى هذا السياق."(١٦)

ونتبين من كتاباتها أن كفاحها كان يعكس التزامها العميق بحرية الفرد ويعبر عن تطلع مصر إلى التحرر الوطنى. كما أن وعيها النسائى شكّله التزامها بقيم أخلاقية منبعها تفسير ليبرالى للإسلام، كما شكلته السياسة المصرية. وكانت رؤيتها لما تعتبره مجتمعاً 'عادلاً'، رؤية شكلتها أفكار المفكرين المصريين الليبراليين من أمثال قاسم أمين وطه حسين ولطفى السيد، وكذلك فكر الموقعين على الماجنا كارتا، وفلسفة روسو وشعر السرياليين الفرنسيين.

كان صوتها الجمالى فرنسيا، ولكن استعاراتها كانت مصرية وإسلامية. أما صوتها النضالى فكان عربيا، واستعاراتها فيه نسائية وحداثية. كانت شخصيتها العامة جسورة، فخورة، أنانية وعنيدة. أما شخصيتها الخاصة فكانت خجولة، حزينة، حساسة وهشة. وموقفها المتوهج من الحياة، ومعه سعيها الدءوب نحو المطلق، كادا يوديان بها فى عام ١٩٥٧. لم يفهمها مواطنوها ولفظوها، ولكنها لم تستطع التنازل عن مبادئها الأساسية، فعاشت غريبة، وحيدة.

ودرية شفيق تجسد تناقض الارتباط المزدوج الذى يثقل كاهل الناقدة النسائية المثقفة. ففى حالة درية، كانت كلما أدانت النظرة الأوروبية الجهولة أو الرومانسية عن الشرق، وعبّرت عن نفسها باعتبارها 'المرأة الجديدة'، كلما انتقدها مجتمعها لأنها ليست شرقية. وكلما حاولت أن تكون "جسراً" أو "رسولاً" بين ثقافتين، كلما ابتعدت عن مجتمعها. ولقد ظل من سبقنها، من أمثال هدى شعراوى، فى إطار الحدود الثقافية للتقاليد الشرقية السائدة. أما درية شفيق، فأزياؤها الحديثة واحتجاجاتها العلنية بغية اقتحام عالم الرجال، وطلاقتها باللغة الفرنسية، وجمالها وأنوثتها – كلها كانت "غربية أكثر من اللازم ومبالغة فى حداثتها."

وكانت درية تحاول فى آن واحد أن تنقل للغرب رسالة وطنية/نسائية تعكس فيها صورة لعظمة مصر الحضارية (بغية تغيير الصورة السلبية للمرأة الشرقية)؛ وأن تكسر الحواجز الأبوية التى تحد الحرية الإنسانية للمرأة المصرية فى مجتمعها. فى عبارة أخرى، كانت تخوض معركة دفاع ثقافى ومعركة نقد اجتماعى. كانت تريد أن تغير من صورة الغرب عن المرأة

الشرقية، وأن تشكل فى نفس الوقت صورة جديدة ("حديثة") للمرأة الشرقية. وكلما مضت فى سعيها هذا كلما اعتبروها عميلة للاستعمار الغربي والإمبريالية. وكانت كل اتجاهاتها تتعارض مع المد الديني الرجعي من ناحية، ومع المشاعر الثورية الجديدة التى سيطرت على سياسة البلاد بعد عام ١٩٥٢ من ناحية أخرى. لقد تاهت درية شفيق وسط الصور التى ابتدعتها هى ("المرأة الجديدة" و "بنت النيل")، فظلت تكافح من أجل إحساسها بنفسها، حتى أوقفت الدولة حركة تحرر المرأة، وأسكت عبد الناصر صوت درية. وتقول أيرين فنوليو عبد العال، "وبعد أن هدأ الصخب المحيط بدرية شفيق، لم تعد هناك، فى الواقع، حركة تستهدف حرية المرأة المصرية ورغبتها فى تحقيق مساواتها بالرجل. استولت الدولة على الحركة فأسكتت كل تعبير نسائى."[١٧]

وبعد أن أنهكت قواها، جمعت أوراقها وكتبها التى لم تُنشر، ووضعتها بترتيب فى عدد من حقائب السفر القديمة، وعهدت بهم إلى ابنتها الصغرى. لم تكن قد بلغت الخامسة والستين من عمرها بعد عندما خرجت إلى شرفتها وخطت نحو الفراغ. ومع ذلك، وكما قال سيجر، "فى قلب الإعصار، كانت عين القدر فى انتظارها، ولكنها لم تستطع أن تسلبها انتصارها الأخير، انتصار الكلمة المكتوبة." نعم، هناك آلاف من صفحات كتبتها درية – نثر شاعرى باللغة الإنجليزية، ورواية بالفرنسية، وتأملات فلسفية، ودراسة تاريخية عن المرأة المصرية، وترجمات للقرآن بالفرنسية والإنجليزية، وعشرات من دواوين الشعر الفرنسي. ولم يُنشر من كل هذا بعد موتها سوى بضع قصائد. ويؤكد سيجر، "لابد وأن نأخذ قصائد درية شفيق كما هى، هوامش وسطور على صفحات مفكرة مكتب، خطتها بالفرنسية، بلا تصحيح. هى مذكرات شاعرة – سجينة تعيش فى منفى داخلى، تحيط بها جدران غير مرئية. هى أسئلة وأجوبة تتطاير وسط تشوش عصر بأكمله."[١٨]

يقول مؤرخ السير 'فيليب روس'، "السيرة لا تقل خيالاً عن الرواية أو القصيدة، ومهمة كاتبها أن يكتشف أرض ذلك الخيال. قد تختلف الاستعارات، ولكن الحاجة إلى تشكيل التوقعات انطلاقا من التجربة حاجة لا تتغير: لا يمكن استيعاب الماضى والحاضر والمستقبل ما لم نضعها فى إطار من المعانى يسمح لنا باختيار اللحظات الحاسمة والتجارب الأساسية. فكل واحد منا تحت تأثير أيديولوجية ما، ينبع منها إطاره الرمزى الخاص."[١٩]

وهذه السيرة لا تدعى أنها رواية أصدق عن حياة درية شفيق مما روته هى فى كتاباتها المختلفة، بل هى محاولة لنبين أنه يمكن لعصر، من خـــلال فن كتابة السيرة، أن يفهم عصراً آخر، أن يلمسه، وبالتالى أن يحييه. ولكنــها سيرة لا تدعى أنها تستطيع أن تشرح درية شفيق، ولكنها تحـــاول أن تفــهم مغزى حياتها، ربما، أن تلقى الضوء على أسلوب حياة مختلف.

الهوامش

التقدمة:

(١) اليوت، Eliot "Little Gidding", Four Quartets, 58

(٢) أنظر درية شفيق، المرأة الجديدة فى مصـــر (بالفرنســية)، تطـــور النهضة النسائية فى مصر، الكتاب الأبيض لحقوق المرأة السياســية؛ المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم؛ رحلتى حول العالم.

(٣) درية شفيق 'عبرات إيزيس' (بالفرنسية).

(٤) 'مع دانتى فى الجحيم' (بالفرنسية).

(٥) Mills, Sociological Imagination, 3. ويقول ملز أن أكــبر تحــد يواجه العالم الاجتماعى هو تكوين التفكير الــذى وصفــه بالخيــال الاجتماعى، والذى يسمح لصاحبه "أن يفـــهم الصــورة التاريخيــة الأشمل فى شكل الحياة الداخلية والعمل الخارجى لمجموعة متباينــة من الأفراد. ويسمح لنا أن نفهم التاريخ والسيرة الذاتية وكذلك العلاقة بينهما." (١٩٦١:٣٤).

(٦) سوجوت ك.داس "دفاعاً عن تسليمه نسرين"، Economic Political Weekly" (٢٩ يناير، ١٩٩٤) : ٢٣٥.

(٧) روز، 'امرأة أديبة' Rose, A Woman of Letters, IX

(٨) من اليزابيث لورنس إلى درية شفيق، ١٦ ديسمبر ١٩٥٤.

(٩) " " " " " " ، ٢٤ مايو ١٩٥٦.

الفصل الأول:

(١) انتهت العبودية فى مصر فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشــر. وقامت أسر عديدة من أسر الأعيان، بما فيها أسرة خديجــة بوقــف بعض ممتلكاتهم على عبيدهم عند تحريرهم ليعيشوا من ريعــها وإن كان بعض العبيد، وخاصة النساء منهم، فضلوا البقاء مع أسيادهم.

(٢) هيورث دن، 'تاريخ التعليم' Heyworth Dunne, History of Education, 374, 375.

(٣) بعد الفتح الإسلامى لمصر، أصبحت طنطا مركزا تجاريا فى قلــب الدلتا. ولعبت دورا بطوليا عندما هبت بقيادة شيوخها وهزمت قــوات

نابليون فى أكتوبر ١٧٩٨، وأجبرتها على الانسحاب من الغربية. وهى اليوم مركز تجارى وصناعى، وبها أكبر شبكة للسكك الحديدية فى مصر، وأهلها يحتفلون بيوم ٦ أكتوبر احتفالاً مزدوجا بهزيمة الفرنسيين وبعبور الجيش المصرى للقنال وتحطيم خط بارليف سنة ١٩٧٣.

(٤) محمد خليل صبحى، تاريخ الحياة النيابية فى مصر، ٢٢٦-٢٢٧.

(٥) المسلم الذى يصلى فى الكنيسة يعتبر مرتد. ونظرا لحساسية الحكومة فيما يتعلق بنوايا بعض الإرساليات المسيحية التى جاءت مصر بهدف التبشير، لم يكن يسمح للطلبة المسلمين فى المدارس الأجنبية التابعة للإرساليات بأى مشاركة فى دروس أو أنشطة دينية.

(٦) الآيات التى تتحدث عنها درية من سورة مريم.

(٧) ليلى أحمد شفيق، حديث شخصى، ١٩ يونيو ١٩٨٦.

(٨) فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد، وبعد أن غزا الإسكندر سوريا ومصر، أمر ببناء مدينة فيما رآه الموقع الوحيد الصالح للتجارة فى مصر، فهو متصل بالبحر وبالنهر. وكانت الإسكندرية نيويورك العالم القديم، أول مدينة عالمية، واسعة الثراء - أكبر مركز تجارى فى العالم المأهول - كما قال سترابو. كانت شوارعها مستقيمة وتطل كلها على البحر، مثل مانهاتن، لا تقطعها سوى شوارع أخرى أعرض وأفخم. وكانت أيضا ملتقى وبوتقة لأجناس ولغات وثقافات وديانات مختلفة، وبها أكبر جالية يهودية فى العالم. وظلت الإسكندرية أكثر المدن علما لأكثر من ثلاثة قرون. فيها اكتشف الإنسان أن الأرض كروية وتدور حول الشمس. كما يقال إن مكتبتها كانت تضم أربعمائة ألف مخطوط. ولكن هذه المدينة التى وصفت بأنها تحوى أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام عام وأربعمائة مسرح، لم يعد لها وجود فى سنة ٦٤١ عندما استولى عليها عمرو بن العاص (الذى وصفه فورستر بأنه "رجل حساس وكريم")، واستسلمت له المدينة بلا كفاح. ثم أفل مجدها فى ظل حكم العرب، حتى أصبحت قرية للصيادين عندما دخلها نابليون. أما المدينة الحديثة فقد شيدت فى القرن التاسع عشر على يد التجار والمقاولين الأوروبيين الذى سيطروا على الصناعة والتجارة فى مصر، وكانوا معفيين من الضرائب ومما كان يسمى فى القانون المصرى بالجزية، مما كفل لهم حماية قانونية خاصة وامتيازات اقتصادية. كما أنهم

كانوا يخضعون لقوانين بلادهم الأصلية، لا للقوانين المصرية. ونظرا لموقعها المتجه شمالا نحو اليونان وإيطاليا وفرنسا، بعيدا عن أفريقيا، استمرت الإسكندرية تحمل طابعا متوسطيا، وكانت أكثر عالمية من القاهرة، وأكثر راديكالية من الناحية السياسية. كانت مدينة كافافيس وفورستر ودارل، حيث التقى الشرق بالغرب وامتزجا وألهم كل منهما الآخر. وكما أكدت جين ينشن، "الإسكندرية بمناظرها وشعوبها وبالروح السائدة فيها، كانت أقدر من أى مدينة أخرى فى هذا القرن على بعث الرؤى الأسطورية." ('الإسكندرية بعد'، ٧). وقضى فيها الروائى فورستر ثلاث سنوات مجندا كمساعد طبى فى الحرب العالمية الأولى، ونشر عام ١٩٦١ واحدا من أعماله الكلاسيكية الصغرى عن تلك المدينة اسمه 'الإسكندرية: تاريخ ودليل' – كتاب يجوب صفحاته المقدونى والبطالسة وكتبة مكتبة الإسكندرية والشعراء وعلماء الفلك والرياضة، وآباء الكنيسة وعمرو بن العاص ونابليون، وكأنهم شخصيات فى مدينة أشباح منسية. وربطت بين فورستر والشاعر اليونانى العظيم كونستانتين كافافس صداقة. وكافافس هو من "أفضل من نقل صورة حضارة الإسكندرية التى اختارها ليعيش فيها." وكانت الإسكندرية بالنسبة له مدينة غامضة، مسترخية، تحمل إلى الأبد طابع 'نهاية القرن' – وهى نفس الموضوعات التى عالجها لورنس دارل فى 'رباعية الإسكندرية'، (١٩٥٩).

(٩) فى نظام التعليم الفرنسى، تأتى هذه الشهادة بعد ثلاث سنوات من إنهاء الدراسة الابتدائية، ويستطيع الحاصل عليها أن يبدأ الاستعداد لنيل البكالوريا فى ثلاث سنوات.

(١٠) فى حديث صحفى بعد وفاة درية، أشارت أختها الكبرى ثريا إلى منح درية وساما فضيا "لحصولها على المركز الثانى ولكونها أصغر الناجحين سنا".

(١١) لمزيد من التفاصيل حول تكوين هدى شعراوى كزعيمة نسائية، أنظر ترجمة بدران لمذكرات هدى شعراوى "سنوات الحريم" (١٩٨٦). أما عن تاريخ الحركة النسائية فى مصر، أنظر خاطر ونلسون "الحركة النسائية والمشاركة السياسية فى مصر الحديثة:

Khater and Nelson, The Women's Movement and Political Participation in Modern Egypt."

(١٢) أنظر: أحمد، المرأة والنوع فى الإسلام؛ بارون، 'صحوة المرأة فى مصر.

Ahmed: Women and Gender in Islam; Baron, Woman's Awakening in Egypt

وبدران وكوك (ناشرين)، 'فتح البوابات'

Badran and Cooke, eds., Opening the Gates.

(١٣) هدى شعراوى، 'فى تأبين قاسم أمين'، (ليجيبسيين).

Hoda Shaarawy, "Eulogy to Qasim Amin", L'Egyptienne, 8.

(١٤) درية شفيق، 'كلمة صغيرة'، (ليجيبسيين) Shafik, "Un Petit Mot", L'Egyptienne, 13.

(١٥) الدروز فرع من فروع الشيعة، يسكنون العراق ولبنان وسوريا. فى مصر السنية، الكلمة معناها "الغريب".

الفصل الثانى:

(١) درية شفيق، "طفلة النيل" Shafik, "L'Enfant du Nil," L'Egyptienne, 26

(٢) ضمن من سافرن مع درية، نجلاء خليل وبهية عثمان ونظيرة نخلة وهيلين سيداروس وكوكب حفنى ناصف وكريمة السعيد. وفيما بعد، أصبحت هيلين أول طبيبة لأمراض النساء فى مصر، وأصبحت كوكب أول مديرة لمستشفى كتشنر. وجمعت رسائل كوكب إلى صديقاتها مى زيادة، ثم نشرت بمعرفة أختها ملك حفنى ناصف، الكاتبة النسائية المشهورة فى بداية القرن العشرين. أما شقيق كوكب، مجدى حفنى ناصف، فكان سكرتيرا لهدى شعراوى. وحصلت كريمة السعيد على دبلوم من كلية وستفيلد، وعادت إلى مصر لتعمل فى وزارة التربية والتعليم حتى أصبحت أول وكيلة لتلك الوزارة فى الستينيات. وأمينة السعيد، شقيقتها، كانت من مريدات هدى شعراوى ومن أوائل من التحقن بجامعة القاهرة فى العشرينيات.

(٣) من درية شفيق إلى هدى شعراوى، ١٧ أغسطس ١٩٢٨.

أنا أدين بالعرفان لسنية شعراوى لانفرانكى، حفيـــدة هـــدى، لأنــــها سمحت لى بالاطلاع على تلك المراسلات.

(٤) أفضل ما كتبه طه حسين دفاعاً عن تحديث مصر هو 'مستقبل الثقافة فى مصر' الذى نُشر عام ١٩٣٨. وقد كرس طه حسين حياته للعلـــم ولإصلاح التعليم، واهتم أساساً بتطبيق سبل وتقنيات البحث الحديثـــة لدراسة اللغة العربية. وكوزير للتربية والتعليم قبل الثورة، وكوزيـــر للثقافة فى السنوات الأولى لحكم جمال عبد الناصر، كان لــــه أبلـــغ الأثر فى انتشار التعليم وإصلاحه فى مصر. وترجمت سيرته الذاتية إلى الإنجليزية فى كتاب من جزئين، 'طفولة مصريـــــة' (١٩٩٠) و 'الأيام'.

(٥) رغم أن درية لم تفصح عن أحاسيسها المكنونة فى مذكراتها، إلا أنها كتبت فيمـــا بعـــد تـــأملات عنوانـــها "Rêverie d'une femme d'aujourd'hui" (أحلام امرأة اليوم) تبحث فيها ما تواجهه شابة مـــن معضلات عندما تريد أن توفق بين الحب وطموحاتها الشخصية.

(٦) درية شفيق (طفلة النيل) Shafik, "L'Enfant du Nil", L'Egyptienne, 26.

(٧) درية شفيق (هل من حق المرأة أن تتفلسف؟)، (ليجيبسيين)

Shafik "Une femme a-t-elle le droit de philosopher?", L'Egyptienne, 25.

(٨) شهادة الـــ Aggrégation هو امتحان تعقده الدولة لاختيار مدرســـى المدارس الثانوية. وعند نشر ذلك الخطاب، كتبـــت ســـيزا نـــبراوى التعليق الآتى: "يشرفنا ويسعدنا أن ننشر هذا الخطاب المرسل إلينــــا وهو غنىُ عن التعليق".

(٩) من درية شفيق إلى هدى شعراوى، ١ أكتوبر ١٩٣٠.

(١٠) تشير درية هنا إلى محمد شمس الدين حافظ، شـــاعر صوفـــى مـــن القرن الرابع عشر كان يكتب بأسلوب ينطوى على معـــان فلســـفية عميقة. وتفسير شعر حافظ شجع الشعراء من بعده على إخفاء معـــانٍ روحية فى قصائد تبدو بسيطة وعادية. ويمكن تشبيه قراءة أشـــعار حافظ بقراءة 'إى شنج' فى الفلسفة الصينية القديمة.

(١١) من درية شفيق إلى هدى شعراوى، ١٦ يوليو ١٩٣٢.

الفصل الثالث:

(١) درية شفيق "تأملات امرأة عصرية"

Shafik, "Rêveries d'une femme d'aujourd'hui", L'Egyptienne, 15.

(٢) مقتبس من متشل، جماعة الأخوان المسلمين

Mitchell, The Society of Moslim Brothers, 30.

(٣) اعتناق طالب مسلم فى الجامعة الأمريكية للبروتستانتينية عام ١٩٣٢، تحت تأثير قس كان يدرس بالجامعة، كما قيل، أثار احتجاجا كبيرا. فأوقفت حكومة صدقى باشا دعمها للجامعة. أنظر: فاتيكيوتس، تاريخ مصر الحديث

Vatikiotis, Modern History of Egypt, 327-29.

(٤) من سيزا نبراوى إلى هدى شعراوى، ٢٩ إسطس ١٩٣٢ – مجموعة حواء إدريس، صفحات وكتب نادرة ومجموعات خاصة – مكتبة الجامعة الأمريكية – القاهرة – مصر.

(٥) يلاحظ التشابه بين عنوان درية وعنوان 'روسو' 'تأملات رجل وحيد يتنزه'

J.J Rousseau, Rêveries d'un Promeneur Solitaire.

(٦) درية شفيق، "تأملات امرأة عصرية"

Shafik, "Rêveries d'une femme d'aujourd'hui", L'Egyptienne, 19.

(٧) سيزا نبراوى، "رد على الرجعيين"

Nabaraoui, "Réponse aux Réactionnaires", L'Egyptienne, 5.

(٨) نفس المرجع Ibid., 8

(٩) من درية شفيق إلى هدى شعراوى، ١٥ أكتوبر ١٩٣٢.

(١٠) " " " " " " ، ٩ يوليو ١٩٣٤.

(١١) أعيد طبعه فى عدد خاص من مجلة La Réforme Illustrée ، صدر فى عام ١٩٥٠ بمناسبة العيد الخامس والعشرين للمجلة.

(١٢) "انزلقوا يا بنى البشر" تعبير فرنسى معناه، " يا بشر يا منزلقين" – مما يجعلنا نتساءل عما كانت تعنيه درية بقولها هذا.

(١٣) مصطفى أمين، فى حديث شخصى معه سنة ١٩٨٦. ومصطفى أمين من كبار الصحفيين المصريين. وقد أسس مع أخيه التوأم، على، واحدة من كبريات الصحف المصرية، "الأخبار".

(١٤) القرش عملة مصرية صغيرة. وينص القرآن على المهر أو الصداق كجزء أساسى من عقد الزواج. و ٢٥ قرش هى الحد الأدنى لما يدفعه الزوج لزوجته حسب تعاليم الإسلام. وهو بمثابة هدية رمزية تكفل للزوجة ضمانا ماليا.

(١٥) مصطفى أمين، "الزعيمة الجميلة"، ٥٩.

(١٦) " " ، " " ، ٦١.

(١٧) ورد فى ملاحظة ثاقبة لباحث أن "عقد الثلاثينيات كان فترة حاسمة فى تطور مصر السياسى، فلقد ترك آثارا ضارة على احتمالات تطوير حكومة برلمانية. بل كانت تلك الفترة بداية سياسات عنيفة فى البلاد، انفصل فيها الزعماء السياسيون عن الملكية، وانفصل الشعب عن كل شكل من أشكال الحكم الطبيعى المنظم، مما يسر على المتطرفين والمجموعات السياسية المتعصبة أن تظهر وتنظم صفوفها وتجتذب عناصر جديدة. وعلى سبيل المثال، سمحت تلك الفترة للإخوان المسلمين بدعم تنظيمهم وبالازدهار.

انظر: فاتيكيوتس، تاريخ مصر الحديث

Vatikiotis, The Modern History, 282

(١٨) سعيد، قضية فلسطين

Said, The Question of Palestine, 17-18

الفصل الرابع:

(١) من غير المعروف بالضبط متى كتبت درية هذه القصيدة، ولكنى أعتقد أنها واحدة من مجموعة قصائد كتبتها فى سنوات "المنفى الداخلى"، ثم جمعتها بعنوان "خارج الزمن".

(٢) انظر: روز، جوزفين بيكر وزمنها

Rose, Jazz Cleopatra: Josephine Baker and Her Time

(٣) انظر: شتولمان، مذكرات أنابيس نن.

Stuhlman, ed., The Diaries of Anaïs Nin: 1931-1934

(٤) انظر: لويس، دادا يصبح أحمرا Lewis, Dada Turns Red

(٥) رسالة شخصية من إيزابيل ناجنسكى.

(٦) أدين بالعرفان لجين بوند هاورد وأرماند هوج لآرائهما المتعمقة في خلفية أولئك الأساتذة.

(٧) 'الماجنا كارتا' هى وثيقة وقعها جون ملك إنجلترا في ١٢١٥ ليضمن للأمة حرياتها. فقد حاول جون أن يتجاهل كل القوانين، أو ظن أنه يستطيع ذلك، وفى عام ١٢١٥ طالب النبلاء بتأكيد ميثاق قديم أصدره هنرى الأول ووعد فيه باحترام "القوانين الطيبة التى وضعها إدوارد الملك". وقد وجه النبلاء إلى ذلك أسقف كانتربرى، ستيفان لانجتون، واضطر الملك إلى التصديق بختمه.

(٨) انظر الفصل الثالث، هامش ١٤.

(٩) Nour El Din Ragai, De la condition l'egale des sociètées anonymes étrangères on Egypte,

دراسة خاصة بالقانون التجارى، بقلم نور الدين رجائى (الوضع القانونى للشركات المساهمة الأجنبية فى مصر).

(١٠) ريمون فايل، بإذن كريم من الأرشيف الوطنى، مكتبة الوثائق بالأكاديمية الوطنية فى باريس، جامعة السوربون. مع شكر خاص للسيد لوران موريل والدكتورة جينا جوردان – سرفينير.

(١١) كوبار، مجلة الوقائع المصرية، نشرة دورية لمؤسسة الملكة غليزابيت لعلم الآثار المصرية

Copart, “Revue” Chronique d’Egypte: Bulletin Périodique de la Fondation Egyptologique Reine Elisabeth, 96

أنا مدينة بالامتنان للمرحوم برنار بوشمر، إذ استرعى انتباهى إلى هذا المقال.

(١٢) موريس هالباخ، بإذن كريم من الأرشيف الوطنى، مكتبة الوثائق بالأكاديمية الوطنية، جامعة السوربون.

Maurice Halbwachs

(١٣) سيزا نبراوى ، الشباب المصرى واتجاهاته"، (المصرية) عدد ١٥٧

Ceza Nabaraoui, “La Jeunesse egyptienne et ses tendances”, L’Egyptienne,

no. 157 (July -Aug. 1939): 22.

الفصل الخامس:

(١) أحمد بهاء الدين، فى حديث شخصى معه، ١٩٨٧. أحمد بهاء الدين، كان صحفيا ناصريا يعمل بالأهرام.

(٢) هليس، "تعليق"، (المصرية،)

Helys, “Commentary”, l’Egyptienne, 7

(٣) عبد المنعم الطناملى، اتصال شخصى، يناير ١٩٨٨.

(٤) بإذن كريم من الأرشيف الوطنى، مكتبة وثائق الأكاديمية، جامعة السوربون.

(٥) (المصرية) العدد ١٦٣ (مارس ١٩٤٠)

L’Egyptienne, no. 163 (Mars 1940):34

(٦) سهير القلماوى، اتصال شخصى، يناير ١٩٨٨.

(٧) كان أحمد أمين ضمن مجموعة صغيرة من المثقفين الليبراليين التى أثرت أفكارهم وكتاباتهم تأثيرا كبيرا على الجيل الذى شهد ثورة ١٩٥٢. وبعد أن ترك الأزهر، قنع أحمد أمين بحياة التدريس وعمل فى طنطا والإسكندرية. ثم التحق بالجامعة الوطنية عام ١٩٢٦ حيث حاضر فى الأدب العربى وقام ببحوث تاريخية وفلسفية فى الحضارة

الإسلامية. تزوج فى سن الثلاثين ورأى زوجته للمرة الأولى بعد عقد القران، وعلق فى سيرته الذاتية فيما بعد، بقوله "كان الزواج لوترية". وقد ركز فى كتاباته العديدة على الآثار الاجتماعية والثقافية للتحديث (العلاقات بين الشرق والغرب ومشاكل التعليم وتدهور سلطة الآباء على أبنائهم)، كما كتب عن شخصيات تاريخية.

(٨) مصر: الإمبريالية Egypt: Imperialism, 462

(٩) عبد الحليم، "د. درية شفيق"، نساء فوق القمة، ص ٥٨.

(١٠) استقال أحمد أمين من منصبه بالفعل سنة ١٩٤١ عندما نقل وزير التعليم بعض الأساتذة من جامعة فؤاد الأول إلى جامعة فاروق (جامعة الإسكندرية الآن) دون استشارته.

(١١) السيدة منيرة قاسم، اتصال شخصى، ١٩٨٧.

(١٢) مصطفى أمين، اتصال شخصى، ١٩٨٦.

(١٣) ليلى تكلا، اتصال شخصى، ١٩٨٦.

(١٤) درية شفيق، "جدتى وأنا"، (المرأة الجديدة – ديسمبر ١٩٤٧)

Doria Shafik, “M Grandmère et moi”, La Femme Nouvelle, (Dec. 1947): 5657.

الفصل السادس:

(١) محمد نجيب، 'كلمتى للتاريخ'، ص ٧٨.

(٢) فاتيكيوتس، 'التاريخ الحديث'

Vatikiotis, The Modern History, 348

(٣) محمد نجيب، 'كلمتى للتاريخ'، ص ٧٧-٧٨.

(٤) كل ما اقتبس من هذا العمل ترجمته الكاتبة من الأصل الفرنسى وترجمته عنها المترجمة إلى العربية

Shafik, La Femme Nouvelle en Egypte, 8.

(٥) أنظر (٤)، ص ١٠-١٢.

(٦) أنظر (٤)، ص ٧٥.

(٧) الأميرة شويكار (١٨٧٣-١٩٤٧)، تزوجت فؤاد في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، قبل أن يفكر حتى في اعتلاء العرش. كانت مدلله وعنيدة ولكنها لا تقل عن زوجها في كرم المحتد بل وتفوقه ثراءاً. وكاد زواجهما أن يكلف فؤاد حياته. فقد كان فؤاد في شبابه فقيراً وماجناً ومسرفاً، كثرت ديونه وتشعبت. فتربيته الإيطالية جعلته يدمن الميسر والعشيقات، وإن احتفظ بأفكار محافظة جداً بشأن تصرف المرأة المسلمة، مما أساء كثيرا إلى شويكار التي كرهت حياة الحرملك. ورزقت شويكار بولد واحد مات رضيعاً. وبعد مولد ابنتها الأميرة فوقية، لم تعد تحتمل ثورات زوجها وعاداته، فعادت إلى أسرتها في القسطنطينية، ثم أعادها زوجها بمقتضى الشريعة. وكان لشويكار أخ أكبر هو الأمير سيف الدين الذى أقسم أن يخلصها من هذا الظالم. وفي ٧ مايو ١٨٩٨، اندفع الأمير سيف الدين صاعداً درج النادى الخديوى، حيث وجد فؤاد في قاعة التأملات، وأطلق عليه عدة رصاصات قبل أن يوقفه أحد. وكانت إصابة فؤاد من الخطورة بحيث قرر طبيبه أن يجرى له الجراحة على الأرض حيث سقط، وأخرج رصاصة من بين ضلوعه وأخرى من فخذه، أما الثالثة فكانت أقرب إلى وريد في عنقه من أن تمس. ومنذ ذلك اليوم وحتى مماته، عانى فؤاد (الذى أصبح سلطانا ثم ملكا على مصر) من عاهة في النطق جعلت صوته أقرب إلى النباح. وطلق فؤاد شويكار، كما حكمت محكمة الجنايات بإيداع شقيقها في مصحة عقلية بإنجلترا حيث ظل عشرين سنة. وبعدها سنوات، وبعد عدة زيجات أخرى، ورثت شويكار ثروة طائلة وعادت إلى مصر.

(٨) درية شفيق، 'المرأة الجديدة في مصر'

Doria Shafik, "La Femme Nouvelle en Egypte", 80.

(٩) لم تتول الأميرة شويكار جمعية المرأة الجديدة سوى عام ١٩٤٤.

(١٠) درية شفيق، 'المرأة الجديدة في مصر'

Doria Shafik, "La Femme Nouvelle en Egypte", 80

(١١) أصبحت إنجى أفلاطون (١٩٢٤-١٩٨٩) رسامة مشهورة واعتقلها عبد الناصر عام ١٩٥٩ لنشاطها الشيوعى. وماتت بالسرطان عام ١٩٨٩. أما لطيفة الزيات (١٩٢٣ - ١٩٩٦) فقد عملت كأستاذة

للأدب المقارن ورأست اللجنة المصرية للدفاع عن الثقافة الوطنيـــة، ونشرت أول رواية لها 'الباب المفتوح' سنة ١٩٦٠.

أنظر: Batman عن "تجربة النساء فى الحركة الشيوعية المصريـــة" وكذلك Khater and Nelson عن الحركة النسائية. ولمزيـــد مـــن التفـــــاصيل عـــــن لطيفـــــة الزيـــــات، انظر .Al Ahram Weekly, July 18, 1991

الفصل السابع:

(١) ونستون تشرشل هو أول من أشار إلى خطر الحرب البـــاردة عـــام ١٩٤٥ عندما أطلق على انقسام وسط أوروبا "الســـتار الحديـــدى". وبينما خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية قوة غربية كبرى، أصبح الاتحاد السوفيتى يتزعم الكتلة الشرقية. وبينما مضــت أمريكا فى تطوير سياسة 'الاحتواء'، تابع الاتحاد السوفيتى سياســـة دعم "حروب التحرير" (أو الكفاح الوطنى) فى العالم الثالث.

(٢) أنور السادات، "البحث عن الذات".

(٣) أمينة السعيد، "تجارب". وأمينـــة الســـعيد (١٩١٤-١٩٩٥) ناشـــرة وصحفية وكاتبة نسائية معروفة. عملت في دار الهلال التى أسســـها زيدان، وكانت تكتب بابا خاصا اسمه 'اسألونى' فى مجلة 'المصـــور' ترد فيه بالنصح على من يعرضن مشاكلهن.

(أنظـــر: Nelson "Changing Role in a Changing Society لتحليل فحوى تلك الخطابات). وظلت أمينة السعيد رئيـــس تحريـــر 'حواء' و 'هى' طوال فترة حكم جمال عبد النـــاصر وبعدهـــا مـــن الصحفيات المرموقات من بداية الخمسينيات وحتى وفاتها.

(٤) إنجى أفلاطون، اتصال شخصى، فبراير ١٩٨٧.

(٥) انظر: Fenoglio - Abd al-Aal, Defense et Illostration; Badran and Cooke, eds., Opening the Gates; and Baron, Women's Awakening in Egypt.

(٦) تطور النهضة النسائية فى مصر، مكتبة التوكل، القاهرة ١٩٤٥؛ المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٥.

(٧) إبراهيم عبده، مقابلة شخصية، ٣١ مارس ١٩٨٥.

(٨) أمينة السعيد، "تجارب".

(٩) خليل صابات، مقابلة شخصية، ١٤ نوفمبر ١٩٨٥.

(١٠) إبراهيم عبده، مقابلة شخصية، ٣١ مارس ١٩٨٥. أنظر أيضا خليفة، 'الحركة'، ص ١٧٣-١٧٦.

(١١) لاكوتير، مصر فى مرحلة الانتقال

La couture, Egypt in Transition, 156.

(١٢) "نريد حقوقا لا مساواة"، بنت النيل، يناير ١٩٤٦.

(١٣) "أمة يتيمة"، بنت النيل، مارس ١٩٤٦.

(١٤) "الشعب العظيم"، بنت النيل، إبريل ١٩٤٦.

(١٦) أسس دار الهلال لبنانى مسيحى هو جورجى زيدان، وكان ذلك سنة ١٨٩٢. وكما شرح محمد سلماوى فى Al-Ahram Weekly عام ١٩٩٢: "دار الهلال أكثر من مجرد دار للنشر. هى مؤسسة مصرية. تخيلوا مزيجاً من دار 'بنجوين' للنشر ومجلة 'انكاونتر' ومعها عدة مجلات أخرى، فهذا سيعطيكم صورة فعلية لما هى دار الهلال".

(١٧) مقدمة، (المرأة الجديدة)، ديسمبر ١٩٤٧.

(١٨) "المرأة الجديدة"، (المرأة الجديدة)، ديسمبر ١٩٤٧.

(١٩) "رسالة إلى القارئ"، (المرأة الجديدة)، يونيو ١٩٤٦.

(٢٠) "المرأة الجديدة كرسالة"، (المرأة الجديدة)، أكتوبر ١٩٤٨.

(٢١) "رباط بين الحضارات"، (المرأة الجديدة)، ديسمبر ١٩٤٩.

(٢٢) "البداية دائما"، (المرأة الجديدة)، مايو ١٩٤٨.

(٢٣) "أزمة النفس"، بنت النيل، يونيو ١٩٤٦.

(٢٤) جيهان رجائى، حديث شخصى، ٢٨ أكتوبر ١٩٨٦.

(٢٥) عزيزة رجائى، حديث شخصى، ٥ سبتمبر ١٩٨٦.

(٢٦) جالاجر، 'حروب مصر الأخرى'.

Gallagher, Egypt's Other Wars, 116-69

(٢٧) جروبى: قاعة شاى ومحل حلوى مشهور كانت تمتلكه أسرة سويسرية. وكان المحل المختار لصفوة البريطانيين والمصريين فى الثلاثينيات والأربعينيات، وما زال ملتقى الأجانب والمصريين من الطلبة والشعراء والمثقفين.

(٢٨) سنية شعراوى، حديث شخصى، مارس ١٩٨٦.

(٢٩) درية شفيق، "خطاب قصير للدكتورة درية هانم شفيق"، 'فى ذكرى فقيدة القضية العربية، صاحبة العصمة: السيدة هدى هانم شعراوى': مجموعة خطب وقصائد، (القاهرة: شركة فن الطباعة ١٩٤٨). وهذا المجلد يشمل مقالات عديدة كتبت عن هدى شعراوى فى الصحافة المحلية والأجنبية. وأنا مدينة بالعرفان لسنية شعراوى لانفرانكى، حفيدتها، لأنها عرفتنى بهذا المرجع ولقيامها بترجمته.

(٣٠) "خطاب قصير"، ١٠٧-١٠٨.

الفصل الثامن:

(١) "فى أرض الديانات"، بنت النيل، يونيو ١٩٤٨.

(٢) رودانسون، إسرائيل والعرب،

Rodinson, Israel and the Arabs, 40

(٣) 'الخليفة' معناها "خليفة الرسول على الأرض". وكان للخليفة سلطة كاملة (دينية ودنيوية) على كل المسلمين.

(٤) تزوج فاروق بعد ذلك من ناريمان صادق، فتاة من عامة الشعب، وأنجبت له أحمد فؤاد، الوريث المنتظر للعرش. وكان رأى درية أن استهتار ناريمان ساعد على الإطاحة بفاروق.

(٥) ستواسر، 'متحررون متساوون أم أتباع تحت الحماية؟'

Stowasser, "Liberated Equal or Protected Dependent?", Arab Studies Quarterly, 276.

(٦) مانسفيلد، 'مصر ناصر'
Mansfield, Nasser's Egypt, 31

(٧) بيرو، 'رجل مختلف'
Perrault, A Man Apart, 88

(٨) جيهان رجائى، لقاء شخصى، ١٨ يونيو ١٩٨٨.

(٩) من أجل تناول تفصيلي للجدل المحيط بالقانون المدنى المصرى الجديد الذى وضعه السنهورى، أنظر: هيل، 'السنهورى والشريعة'
Hill, Al Sanhuri and Islamic Law

(١٠) فى بحثها عن 'المرأة والقانون' (١٩٦٧) تسترشد درية شفيق بآية من القرآن فى سورة 'النساء': "... فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاثا ورُباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة ...".

(١١) أنظر خاطر ونلسون 'الحركة النسائية'
Khater and Nelson, The Women's Movement and Political Participation in Modern Egypt."

(١٢) مفيدة عبد الرحمن، لقاء شخصى، نوفمبر ١٩٨٨.

(١٣) من زينب فؤاد إلى حواء إدريس، ١١ مايو ١٩٤٨؛ فى مكتبة المجموعة الخاصة لأوراق وكتب حواء إدريس، الجامعة الأمريكية، القاهرة.

(١٤) 'نحن والسياسة'، بنت النيل، نوفمبر ١٩٤٦.

(١٥) 'أفسحوا الطريق'، بنت النيل، يناير ١٩٤٨.

(١٦) 'حان الوقت'، بنت النيل، مايو ١٩٤٨.

(١٧) 'التزامنا حيالكم'، بنت النيل، أغسطس ١٩٤٨.

(١٨) 'هل هو سراب'، بنت النيل، نوفمبر ١٩٤٨.

(١٩) 'حقوقنا ليست سرابا'، بنت النيل، ديسمبر ١٩٤٨.

(٢٠) 'فلينصت أعداؤنا'، بنت النيل، يونيو ١٩٤٨.

(٢١) 'حزب بنت النيل'، بنت النيل، فبراير ١٩٤٩.

(٢٢) 'أهداف غير سياسية'، بنت النيل، مايو ١٩٤٩.

(٢٣) تأسيس الاتحاد النسائى الديمقراطى الدولى فى ١ ديسمبر ١٩٤٥ فى باريس. وأهدافه:

"(١) توحيد صفوف النساء بغض النظر عن العرق أو الجنسية أو الدين أو الانتماء السياسى، وذلك ليعملن سويا من أجل الحصول على وتطبيق والدفاع عن حقوقهن كأمهات وعاملات ومواطنات؛ (٢) الدفاع عن حق الأطفال فى الحياة والرفاهية والتعليم؛ (٣) الحصول على والدفاع عن الاستقلال الوطنى والحريات الديمقراطية والقضاء على الأبارتايد والتفرقة العنصرية والفاشية؛ و (٤) العمل من أجل السلام ونزع السلاح عالميا". (انسايكلوبيديا الجمعيات، الطبعة ٢٩، ١٩٩٥، ١٣٣٨).

(٢٤) إنجى أفلاطون، مقابلة شخصية، ٢١ نوفمبر ١٩٨٦.

(٢٥) لطفى الخولى، مقابلة شخصية، ١٧ يوليو ١٩٨٧. لطفى الخولى واحد من أصرح المثقفين والمحللين السياسيين فى مصر. وهو يكتب بانتظام فى صحيفة المعارضة، 'الأهالى'، وكذلك فى الأهرام. ولقد مثل مصر فى الحوار العربى-الإسرائيلى فى مدريد، كما أنه من المدافعين عن الحقوق الفلسطينية. وهو متزوج من ليليان أرقش، ابنة موريس أرقش، وكان محامياً معروفاً فى الأربعينيات والخمسينيات.

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) المرجع السابق. وإن كانت تعليقاته تتناقض ورأى درية كما ورد فى الفصل السادس.

(٢٨) انسايكلوبيديا الجمعيات: المنظمات الدولية، الطبعة ٢٩، واشنطن

Gale Research, 1995, 1316-17.

(٢٩) 'بعض مسئولياتنا'، بنت النيل، يوليو ١٩٤٩.

(٣٠) مجموعة الشعر هذه تضمنت أيضا أشعار السرياليين الفرنسيين بول اليوار وتريستان تزارا ولويس أراجون وكذلك كتيبات شعر بقلم لويس كارول وهنرى ميلر.

(٣١) جان أوريزيه، "وداعا لبيير سيجر"، جريدة ليموند، ٧ نوفمبر ١٩٨٧.

Jean Orizet, "Adieu à Pierre Seghers", Le Monde, Nov. 7, 1987

(٣٢) بيير سيجر، مقابلة شخصية، ١٠ سبتمبر ١٩٨٦.

(٣٣) " " " " .

(٣٤) بيير سيجر، "الشعر المتأخر" الذى يشير إليه هو الذى ورد فى 'عبرات إيزيس' و 'مع دانتى فى الجحيم'، وقد ساعد بيير سيجر ابنتيها على نشرهما سنة ١٩٧٩، بعد وفاتها.

(٣٥) من سيجر إلى درية شفيق، أكتوبر ١٩٥٦.

(٣٦) سيجر، مقابلة شخصية، ١٠ سبتمبر ١٩٨٦.

(٣٧) "القاهرة"، "الليل"، "النيل"، "الخريف"، "قباب ومآذن"، "العودة من الحقول"، "عازف الناى" و"الساقية" قصائد نشرت فيما بعد فى La Bonne Aventure (باريس، بيير سيجر، ١٩٤٩). "الشفق"، و"الحمد لله" نُشرت أيضا سنة ١٩٤٩، وكذلك قصة قصيرة عن شجرة الدر، بعنوان "القدر"، وطورتها درية فيما بعد، فجعلت منها رواية اسمها "الجارية السلطانة" (١٩٥٢). أما "المكتوب" و "الذكر" فقد نشرا فى ١٩٥٠؛ و "مجنون ليلى" و "عبرات إيزيس" فى ديسمبر ١٩٥١؛ و "التضحية" و "أنشودة للنيل" فى عام ١٩٥٢.

(٣٨) أنظر: فاطمة مرنيسى، 'وراء الحجاب: العلاقة بين الرجل والمرأة فى المغرب'

Fatma Mernissi, Behind the Veil: Male-Female Relations in Morocco

لمزيد من التفاصيل عن المرأة كمصدر فتنة فى المجتمع الإسلامى.

(٢٩) عبد الوهاب، كما جاء ذكره فى محمد محمود الجوهرى 'الإخوات المسلمات' (١٩٨٠)، ص. ٢٥٩-٢٦٤. وأنا أدين بالعرفان لأكرم خاطر لمساعدتى فى الترجمة. وأكدت أمينة السعيد فى هجومها العنيف على الجوهرى: "لا يكتفى الكاتب بمحاولة القضاء على سبعين سنة من كفاح المرأة المصرية المعاصرة، ولكنه يهاجم أيضا رمزاً للحركة النسائية فى مصر: الوطنية المعروفة درية شفيق (أنظر "أمينة السعيد تطالب بإيداع الكاتب مصحة عقلية"، 'حواء'،

أكتوبر ١٩٩٣، ص ١٦-٢٥). تغيير فى الرأى غريب لمن انتقدت درية شفيق من قبل.

(٤٠) 'البروجريه'، ٦ فبراير ١٩٥٠؛ وكانت جريدة 'البروجريه إجيبسيان' واحدة من الجرائد اليومية المنتشرة باللغة الفرنسية فى مصر. أنشأت سوزان مبارك مشروعاً لرفع مستوى التعليم الابتدائى فى نفس هذه المدرسة، فى أوائل الثمانينيات.

(٤١) "قطرة واحدة قد تصبح سيلاً"، بنت النيل، إبريل ١٩٥٠.

(٤٢) "أخبار، ٢٢ يوليو" فى 'الجورنال ديجيبت، ٢٥ يوليو ١٩٥٠.

"Actualité, July 22", Le Journal d'Egypte, July 25, 1950

ظهر المقال بدون توقيع، والأرجح أن التى كتبته هى سيزا نبراوى، إذ أشارت إليه بشكل مبهم فى خطاب لحواء إدريس، تنتقد فيه درية شفيق.

(٤٣) البشرى، "الحركة".

(٤٤) درية شفيق "الحركة النسائية المصرية"

Shafik, "Egyptian Feminism", Middle East Affairs, 236.

(٤٥) الجوهرى، "الأخوات المسلمات".

(٤٦) راجية رجب، مقابلة شخصية، يونيو ١٩٨٦.

(٤٧) موسكاتيللى 'شعراء فى مصر' Moscatelli, Poètes en Egypte

(٤٨) شفيق شماس، مقابلة شخصية، فبراير ١٩٩١. شماس هو مؤسس ورئيس تحرير المجلة الثقافية المعروفة 'مصر اليوم' Aujourd'hui l'Egypte. وكان يعرف درية منذ نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، عندما كان من أعضاء مجموعة موسكاتيللى من الكتاب والشعراء.

الفصل التاسع:

(١) لطفى الخولى، مقابلة شخصية، سبتمبر ١٩٨٧.

(٢) "الحُر يفى بوعده"، بنت النيل، فبراير ١٩٥٠.

(٣) ورد فى "كيف اقتحمت المطالبات بحقوق المرأة أبواب البرلمان": تفاصيل خطة 'تماسيح النيل'، آخر ساعة، ٢ مارس ١٩٥١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) درية شفيق، 'رحلتى'.

(٦) عن لسان أحمد الصاوى، الأهرام، ٢٠ فبراير ١٩٥١. هو الصاوى الذى طُلقت منه درية قبل ذلك بخمس عشرة سنة.

(٧) جمال سراج الدين هو ابن عم فؤاد سراج الدين الذى كان الأمين العام للوفد ووزير الداخلية.

(٨) "المدافعات عن حقوق المرأة يقتحمن البرلمان"، 'لابورس إجيبسيين'، ٢٠ فبراير ١٩٥١.

(٩) عن لسان حرم السفير على يافار فى "النساء يعطلن البرلمان"، آخر ساعة، ٢٧ فبراير ١٩٥١.

(١٠) عن وكالة أنباء U.P.I فى 'نيويورك تايمز'، ٢٨ فبراير ١٩٥١.

(١١) "رئيس الوزراء يتجاهل المطالبات بحق التصويت للمرأة"، 'لابورس إجيبسيين'، ٢٨ فبراير ١٩٥١. وقدح القهوة فى مصر رمز تقليدى للحفاوة، ويُعتبر رفضه إهانة من الناحيتين الثقافية والاجتماعية. وقد رفضنه تعبيراً عن خيبة الأمل، ورداً على تجاهل رئيس الوزراء.

(١٢) "النحاس باشا يتجاهل المطالبات بحق التصويت للمرأة"، 'لندن تايمز'، ٥ مارس ١٩٥١.

(١٣) "المد النسائى يصيب مصر بالدهشة"، 'نيويورك تايمز'، ٥ مارس ١٩٥١.

(١٤) "بنت النيل أمام المحكمة"، 'لابورس إجيبسيين'، ١٣ مارس ١٩٥١.

(١٥) عن لسان مفيدة عبد الرحمن فى 'لابورس اجيبسيين'، ١٣ مارس ١٩٥١.

(١٦) 'لابورس إجيبسيين'، ١٤ مارس ١٩٥١.

(١٧) عن لسان محمد حامد الفقى فى مقال بعنوان "أوقفوا النساء"، 'لابورس إجيبسيين'، ١٦ مارس ١٩٥١.

(١٨) عن لسان درية شفيق فى "بنت النيل تخاطب المؤتمر الدولى للمرأة"، 'لابورس إجيبسيين'، ٣٠ مارس ١٩٥١.

(١٩) "درية شفيق فى وجه مصلحة الوطـــن"، 'المصـــرى'، ١٠ إبريـــل ١٩٥١.

"درية شفيق متهمة بتعاطفها مع الصهيونية"، 'لابورس إجيبســـيين'، ١٠ إبريل ١٩٥١.

(٢٠) عن لسان درية شفيق فى "السيدة درية شفيق تحدد الموقـــف"، فـــى 'لابورس إجيبسيين'، ١٢ إبريل ١٩٥١.

(٢١) "صباح اليوم، السيدة درية شفيق فى المحكمة: المدعى العام يعــرض دعواه"، 'لابورس إجيبسيين'، ١٠ إبريل ١٩٥١.

(٢٢) لطفى الخولى، مقابلة شخصية، سبتمبر ١٩٨٧.

(٢٣) لطفى الخولى، "المرأة المصرية فى الكفاح الوطنى"، 'بنت النيـــل'، نوفمبر ١٩٥١.

(٢٤) "بنت النيل تشكل وحدة عسكرية نسائية"، 'نيويـــورك تـــايمز'، ٣٠ أكتوبر ١٩٥١.

(٢٥) إنجى أفلاطون، مقابلة شخصية، ١٢ نوفمبر ١٩٨٦.

(٢٦) "شهر السيادة، 'بنت النيل'، ديسمبر ١٩٥١.

(٢٧) درية شفيق "الجارية السلطانة". Shafik, "L'Esclave Sultane", 7

(٢٨) نفس المرجع السابق.

(٢٩) "شهر السيادة"، 'بنت النيل'، ديسمبر ١٩٥١.

الفصل العاشر:

(١) عن لسان درية شفيق فى "المرأة المصرية ترشح نفسها"، 'نيويـــورك تايمز'، ٣١ مارس ١٩٥٢.

(٢) ورد فى "علماء الإسلام يهاجمون المطالبات بحق التصويت للمـــرأة"، 'نيويورك تايمز'، ٢٠ إبريل ١٩٥٢.

(٣) عن لسان عبد الحميد بدوينى فى 'المصـــرى'، ١٩ إبريـــل ١٩٥٢ (ورد أيضا فى 'الكتاب الأبيض لدرية شفيق).

(٤) "التمثيل الكامل للشعب"، 'بنت النيل'، إبريل ١٩٥٢.

(٥) المفتى تعينه الدولة، فيصدر الفتاوى القانونية فيما يتعلق بالشريعة من أمور يعرضها عليه القضاة أو الأفراد. وهى وظيفة مستقلة تشكل جزءا من النظام القضائى. ويقضى القانون الجنائى المصرى باستشارة المفتي فيما يصدر من أحكام قبل توقيع العقوبة، لضمان عدم انتهاكها لأحكام الإسلام.

(٦) "المفتى يوجه اللوم للمدافعة المصرية عن حقوق المرأة"، 'نيويورك تايمز'، ٣ مايو ١٩٥٢.

(٧) عن لسان درية شفيق فى 'آخر لحظة'، ٥ مايو ١٩٥٢ (ورد أيضا فى 'الكتاب الأبيض' لدرية شفيق).

(٨) أحمد زكى بك، "مفتى الإسلام يتعثر"، 'الأخبار'، ١٠ مايو ١٩٥٢.

(٩) مولانا أبو الكلام آزاد، كما ورد فى 'الكتاب الأبيض' لدرية شفيق، ص ٢٠.

(١٠) "العلماء يفندون قول المطالبات بحقوق المرأة"، كما ورد فى 'الأخبار'، ١٢ يونيو ١٩٥٢.

(١١) "مفتى مصر يصدر فتوى ضد المطالبات بحقوق المرأة"، 'نيويورك تايمز'، ١٤ يونيو ١٩٥٢.

(١٢) ورد فى 'الكتاب الأبيض' لدرية شفيق، ص ٥٣.

(١٣) نفس المرجع السابق، ص ٥٥.

(١٤) نفس المرجع السابق، ص ٥٨.

(١٥) مانسفيلد، 'مصر عبد الناصر'

Mansfield, 'Nasser's Egypt', 43-45

(١٦) فاتيكيوتس، 'تاريخ مصر الحديث'

Vatikiotis, 'Modern History of Egypt', 379

(١٧) درية شفيق، "الجمعية العامة"، 'بنت النيل السياسية'، يناير ١٩٥٣.

(١٨) "نعم! الدعاية"، 'بنت النيل'، ديسمبر ١٩٥٢.

(١٩) درية شفيق، "نهضة مصر"، 'المرأة الجديدة'

Shafik, "Egypt's Renaissance", La Femme Nouvelle", 27-28.

(٢٠) درية شفيق، "هذا السباق"، 'بنت النيل السياسية'، فبراير ١٩٥٣.

(٢١) راجية رجب، مقابلة شخصية، ٤ يونيو ١٩٨٦. السيدة راجية رجب من مواليد سنة ١٩١٧، وهى من أسرة مصرية ثرية من الإسكندرية. شقيقها وزير دفاع سابق ويرأس الآن معهد حسن رجب للبرديات، وهو معهد أسسه باسمه. وشقيقتها زهرة رجب من أوائل النساء اللاتى دخلن البرلمان بعد سنة ١٩٥٦. وراجية تزوجت من محمد ابن عبد القادر حمزة، مؤسس ورئيس تحرير جريدة 'البلاغ' الموالية للوفد، وقد سجن مع عدد من الصحفيين لمعارضته الملك فاروق.

(٢٢) درية شفيق، "مجرد بداية"، 'بنت النيل السياسية'، فبراير ١٩٥٣. وبمساعدة مدارس فاكس (معهد سويسرى للغات كانت له فروع فى كل مصر)، تم إعداد ١٢ درس تنقسم على فترة ثلاثة شهور، ونشرت فى أعداد مارس وإبريل ومايو ١٩٥٣ من 'بنت النيل'.

(٢٣) درية شفيق، "أنا أؤمن"، 'بنت النيل السياسية'، يناير ١٩٥٣.

(٢٤) درية شفيق تقول: "لا يسعنا سوى الاعتماد على الإنجليز"، 'ديلى اكسبريس'، ٢٢ مايو ١٩٥٣.

(٢٥) رؤوف سلامة، "الإنجليز ينشرون الأكاذيب عن درية شفيق"، 'روز اليوسف'، ١ يونيو ١٩٥٣.

(٢٦) "مطالبة مثالية بحقوق المرأة"، 'نيويورك'، ٢٢ يونيو ١٩٥٣.

(٢٧) كان مازال اسم سيزا نبراوى يرد فى المراسلات باعتبارها نائب رئيس تلك المنظمة. وفى نفس الفترة تمردت سيزا أيضا على مجموعة هدى شعراوى واضطرت للاستقالة.

(٢٨) من مارجورى كوربت آشبى إلى درية شفيق، ٢٤ نوفمبر ١٩٥٣. كانت آشبى ترأس أيضا لجنة السلام والعلاقات الإنسانية التابعة للجمعية، كما كانت تتولى رئاسة تحرير مجلة 'الأخبار الدولية للمرأة'.

(٢٩) لطفى الخولى، مقابلة شخصية، ١٧ يوليو ١٩٨٧.

(٣٠) "الأمل الأخير"، 'بنت النيل'، ديسمبر ١٩٥٣.

الفصل الحادى عشر:

(١) نص البرقية.

(٢) "برلماننا الأول!"، 'بنت النيل'، يناير ١٩٥٤.

(٣) "دور المرأة فى النهضة العربية"، 'بنت النيل'، فبراير ١٩٥٤.

(٤) من مارجورى كوربت آشبى إلى درية شفيق، ٢٠ فبراير ١٩٥٤.

(٥) "نحو جامعة للشعوب العربية"، 'بنت النيل'، مارس ١٩٥٤.

(٦) فاتيكيوتس، 'تاريخ مصر الحديث' Vatikiotis, Modern History of Egypt, 383

(٧) نفس المرجع السابق.

(٨) بالإضافة إلى راجية وفتحية، كان هناك ممثلات عن ثلاث منظمات نسائية مختلفة: بهيجة البكرى عن جمعية تحرير المرأة، وسعاد فهمى عن الجمعية الخيرية للتحرير ومنيرة حسنى عن الجمعية الوطنية للمرأة. وكذلك اشتركت أمانى فريد، الشاعرة، والفنانة هيام عبد العزيز ومنيرة ثابت، صاحبة مجلة 'الأمل' ("تسع نساء يضربن عن الطعام فى نقابة الصحفيين"، الأهرام، ١٣ مارس ١٩٥٤).

(٩) ورد فى نفس المرجع السابق.

(١٠) عن لسان على ماهر فى "رئيس الوزراء يقابل درية شفيق"، 'الأهرام'، ١٤ مارس ١٩٥٤.

(١١) " " " فى "إنذار من رئيس الوزراء"، 'الأهرام'، ١٥ مارس ١٩٥٤.

(١٢) ورد فى "الطلبة يحتجون"، 'الأهرام'، ١٦ مارس ١٩٥٤.

(١٣) عن لسان محمد حسين هيكل فى "هل تخدم الإضرابات القضية؟"، 'الأهرام'، ١٦ مارس ١٩٥٤. هيكل كتب أول رواية مصرية بعنوان 'زينب' فى عام ١٩١٤. كما كان رئيس تحرير 'السياسة' من كبار المطالبين بالدستور فى العشرينيات. وبدأ يتراجع فى الثلاثينيات عن موقفه العلمانى الليبرالى وعن تأييده للثقافة

الأوروبية. فنشر سلسلة من الكتب عن حياة الرسول والخلفاء الراشدين (أنظر فاتيكيوتس "تاريخ مصر الحديث").

(١٤) جورج ويلر، "زوجة المراسل (الصحفى) تدخل المعمعة مع سيدات النيل وهن يضربن عن الطعام لنيل حق التصويت"، 'شيكاجو ديلى نيوز'، ١٦ مارس ١٩٥٤.

Georges Weller, “Newsman's wife Getting in the Act as Ladies of the Nile
Starve to Win Vote”, Chicago Daily News, March 16, 1954

(١٥) سمعت درية أنهم سينقلوهن إلى ثلاث مستشفيات مختلفة، "خطة مدبَّرة لفصلنا عن بعضنا البعض. فأخبرت محافظ القاهرة بأننا لن نقبل". ونقلوهن إلى القصر العينى حيث منعت عنهن الزيارات والصحافة إلا بإذن خاص.

(١٦) شارلوت إبنر ويلر، "استمرار إضراب المدافعات" عن حقوق المرأة – فى المستشفى"، 'شيكاجو ديلى نيوز'، ١٨ مارس ١٩٥٤

Charlotte Ebener Weller,“Feminists Keep up Fast - in Hospital”, Chicago Daily News, March 18, 1954

وعملت شارلوت مراسلة صحفية فى الصين وفى جنوب شرق آسيا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث التقت بجورج ويلر وتزوجته. وهى صاحبة كتاب "لا توجد تسهيلات للنساء"، عن تجاربها كمراسلة. لقاؤها العابر بدرية استتبع مراسلات بينهما لمدة بضع سنوات.

(١٧) تشابهت التعليقات فى الصحافة المصرية والأجنبية: "درية شفيق تقسم على الاستمرار فى الإضراب"، 'الأهرام'، ١٨ مارس ١٩٥٤. "استمرار إضراب المطالبات بحقوق المرأة"، 'لندن تايمز'، ١٩ مارس ١٩٥٤.

(١٨) عن لسان السيدة موران فى مذكرات درية، ١٩٦٠.

(١٩) جيهان رجائى، حديث شخصى، ٢٦ أكتوبر ١٩٨٦.

(٢٠) "المطالبات بحقوق المرأة يوقفن الإضراب"، 'الأهرام'، ٢٠ مارس ١٩٥٤.

(٢١) لطفى الخولى، مقابلة شخصية، يوليو ١٩٨٧.

(٢٢) عزيزة رجائى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(٢٣) مصطفى أمين، حديث شخصى، ١٩٨٦. كان مصطفى أمين يسكن فى المسكن المجاور لهما، ويعرف عن خصوصياتهم أكثر من العديد من أصدقائهما. ولقد نشر سيرة موجزة لدرية شفيق بعنوان "الزعيمة الجميلة" ضمن كتاب "مسائل شخصية"، (١٩٨٤).

(٢٤) عزيزة رجائى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(٢٥) من شارلوت ويلر إلى درية شفيق، ٥ إبريل ١٩٥٤، على ورق مراسلات 'شيكاجو ديلى نيوز' من روما.

(٢٦) فاطمة نعمت راشد، رئيس الجمعية الوطنية للمرأة، ورد فى "أين النصر؟"، 'الأهرام'، ٢٣ مارس ١٩٥٤.

(٢٧) "إضرابنا هو الخطوة الأولى"، 'بنت النيل'، إبريل ١٩٥٤.

الفصل الثانى عشر:

(١) ورد فى مذكرات درية شفيق لعام ١٩٦٠.

(٢) "رحلة من أجل الوطن"، 'بنت النيل'، أكتوبر ١٩٥٤.

(٣) حديث شخصى مع هرمان أيلتس، السفير السابق فى مصر وفى المملكة السعودية، ٢٧ يونيو ١٩٨٨. وسبق تلك الجمعية تنظيم آخر اسمه (الشرق الأوسط الأمريكى) كان من أهدافه "دعم تنمية الموارد البشرية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ودعم التفاهم بين شعوب المنطقة والولايات المتحدة".

(معلومة رقم ١٥٥٧٢ فى معجم الجمعيات، الطبعة ٢٦، ١٩٩٢).

(٤) من شارلوت ويلر إلى درية شفيق، ٥ يونيو ١٩٥٤.

(٥) من مارجورى كوربت آشبى إلى درية شفيق، بدون تاريخ - والأرجح أنه فى نهاية أغسطس أو أوائل سبتمبر.

(٦) من مارجورى كوربت أشبى إلى درية شفيق، ٩ أكتوبر ١٩٥٤.

(٧) "رحلة من أجل الوطن"، 'بنت النيل'، أكتوبر ١٩٥٤.

(٨) درية شفيق، "رحلتى حول العالم"، ص ١١.

(٩) بيير سيجر، حديث شخصى، ١٠ سبتمبر ١٩٨٦.

(١٠) درية شفيق، "رحلتى حول العالم"، ص ١١.

(١١) نفس المرجع السابق.

(١٢) "من وراء البحار"، 'بنت النيل'، نوفمبر ١٩٥٤.

(١٣) "المرأة الأمريكية: سيدة الموقف"، 'بنت النيل'، ديسمبر ١٩٥٤؛ كتبته وأرسلته من نيويورك فى ٢٤ نوفمبر.

(١٤) درية شفيق، "رحلتى حول العالم"، ص ٦٣-٦٤.

(١٥) جنتر، "داخل أفريقيا" Gunther, Inside Africa, 185

(١٧) 'هوليداى'، ١٧ يناير ١٩٥٥. ظهر اسم درية شفيق وصورتها ونبذة من سيرتها للمرة الأولى فى

Current Biography (H.W. Wikon Co. 1955)

(١٧) من اليزابيث لورنس إلى درية شفيق، ١٦ ديسمبر ١٩٥٤.

(١٨) من كاس كانفيلد إلى درية شفيق، ٢٨ مايو ١٩٥٦.

(١٩) من دافيد كوليير إلى درية شفيق، ٢١ يناير ١٩٥٥. وكان كوليير رئيسا لمكتب 'الأصدقاء' فى شيكاجو.

(٢٠) من إيفا دين كمب إلى درية شفيق، ١٤ يناير ١٩٥٥.

(٢١) من وليام أرثر رايت إلى بارى ماهول، ١٣ ديسمبر ١٩٥٤.

(٢٢) "رسالة قصيرة"، 'بنت النيل'، يناير ١٩٥٤. كتب فى طوكيو فى ٢٢ ديسمبر ١٩٥٣.

(٢٣) محمد على جناح (١٨٧٦-١٩٤٨) زعيم هندى وطنى مسلم، مؤسس دولة الباكستان الحديثة بعد تقسيم الهند وباكستان فى ١٩٤٧-١٩٤٨.

(٢٤) مختار زكى، القنصل العام السابق فى كلكتا (١٩٥٢-١٩٥٦) وزوجته إيفا زكى، مقابلة شخصية، ٧ نوفمبر ١٩٨٥.

الفصل الثالث عشر:

(١) مصطفى أمين، "الزعيمة الجميلة"، 'مسائل شخصية'، ص ٦٣.

(٢) من محاضرة ألقاها كيث كايلى فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، إبريل ١٩٩٢، وهى تشبه بشكل غريب منطق جورج بوش فيما يتعلق

بصدام حسين وحرب الخليج عام ١٩٩١. والفارق الأساسى هو أن قناة السويس كانت ملكا لمصر، وتسيطر عليها هيئة أجنبية هى شركة قنال السويس - بموجب عقد لمدة ٩٩ سنة (١٨٦٩-١٩٦٨) والإدارة معظمها فرنسى - وهى التى أممها جمال عبد الناصر.

(٣) أنظر: جمال عبد الناصر، "فلسفة الثورة".

(٤) إيزيس فهمى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦، وكانت فى ذلك الوقت تعمل بالصحافة.

(٥) زينب لبيب، حديث شخصى، فبراير ١٩٨٧.

(٦) "تصفية حساباتى"، 'بنت النيل'، مارس ١٩٥٥.

(٧) "درية شفيق تتاجر الآن فى الراديوهات"، 'روز اليوسف'، إغسطس ١٩٥٥.

(٨) "أخبار الشخصيات"، 'روز اليوسف'، ١٧ أكتوبر ١٩٥٥.

(٩) "درية شفيق تصدر مجلة جديدة، 'الجمهورية'، ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥. وكان أنور السادات فى ذلك الوقت المدير العام للجريدة، وجلال الدين الحمامصى نائبا له.

(١٠) من بيبو الحكيم، صديقة مصرية، إلى درية شفيق، ١١ إبريل ١٩٥٥.

(١١) موسكاتيللى، 'شعراء فى مصر

Moscatelli, Poètes en Egypte, 204

(١٢) لقاء صحفى مع درية شفيق بقلم 'مديحة': "زعيمة المارون جلاسيه تناقش الحب والرقص والدكتوراه"، 'روز اليوسف'، ١ أغسطس ١٩٥٥. وبعد عشرين عاما (١٢ أكتوبر ١٩٧٥) كتبت 'مديحة' نفسها ترثى درية شفيق فى روز اليوسف بمقال عنوانه "زعيمة سبقت زمنها".

(١٣) من دانييل باروخ إلى درية شفيق، ١٦ إبريل ١٩٥٥.

(١٤) من 'المائدة المستديرة للمراسلين' فى استكهولم إلى درية شفيق، ٢٢ إبريل ١٩٥٦.

(١٥) من على يافار يونج إلى درية شفيق، ٤ يونيو ١٩٥٥.

(١٦) " " " " " " ، ١١ سبتمبر ١٩٥٥.

(١٨) محمد فهمى عبد الوهاب.

(١٩) "مقابلة مع درية شفيق"، 'روز اليوسف'، ٢٤ يناير ١٩٥٥.

(٢٠) كان جون بادو مبشراً أمريكياً بدأ عمله فى الشرق الأوسط فى العراق عام ١٩٢٨. ثم جاء مصر عام ١٩٣٦ حيث قام بالتدريس فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة، وتولى إدارتها من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٣ عندما سافر ليتولى رئاسة مؤسسة الشرق الأدنى. وعُين سفير فى مصر عام ١٩٦١. وتوطدت العلاقات الأمريكية– المصرية فى عهد كنيدى بفضل الثقة التى اكتسبها بادو نتيجة لسنوات خدمته فى مصر.

(٢١) من إيفا دين كمب إلى درية شفيق، فبراير ١٩٥٥.

(٢٢) برعاية هيلين روجرز ريد، صاحبة ورئيس تحرير 'نيويورك هيرالد تريبيون'. وكان 'المنتدى الدولى' ينظم لقاءات للشباب فى دول مختلفة حول موضوعات السلام ونزع السلاح، وذلك للتخفيف من توترات الحرب الباردة ولتعزيز الصداقة والتفاهم بين الشباب من الغرب والشرق. وطلبت السيدة من درية أن تساعدها وأن تشارك فى اجتماع 'المنتدى' بالقاهرة فى إبريل ١٩٥٥.

(٢٣) طُردت دوروثى تومسون من ألمانيا كصحفية عام ١٩٣٤، قضت السنوات الست التالية من عمرها تُحذر الجمهور الأمريكى مما سيصيب اليهود فى عهد هتلر. وأصبحت فيما بعد تعارض دولة إسرائيل، وتنبأت بأن 'دولة إسرائيل' ستؤدى إلى "حرب دائمة" فى الشرق الأوسط. وكانت تؤمن أن العرب غير مسئولين عن إبادة اليهود. وقد علق هرمان أيلتز قائلاً: "أصبحت تومسون محل ثقة جمال عبد الناصر وغالباً ما تكون قد عاونته فى صياغة 'فلسفة الثورة' " (فى حديث شخصى معى). وفى عام ١٩٣٦ حثت هيلين روجرز ريد جريدة 'نيويورك هيرالد تريبيون' على تخصيص عامود لدوروثى تومسون إلى جانب عامود 'ولتر ليبمان'، أسمته "كلام مسجل" "On the Record". وكانت تقدم فى عامودها قضايا هامة من وجهة نظر المرأة، ونجح نجاحاً كبيرا إذ جمع بين الفن الصحفى والرأى الحاسم والعاطفة. وظلت تكتبه ثلاث مرات أسبوعيا

لمدة ٢٢ سنة. كما كانت تكتب بانتظام فى مجلة Ladies' Home Journal حتى وفاتها سنة ١٩٦١. أنظر: "المرأة الخارقة" في New York Review of Books، ١٦ أغسطس ١٩٩٠، و"المرأة التى أجرت حديثا مع هتلر"، New York Times Book Review فى ٢٩ يوليو ١٩٩٠.

(٢٤) عزيزة رجائى، حديث خاص، ١٩٨٦.

(٢٥) فرث، "كاسندرا الأمريكية" Furth, American Cassandra

(٢٦) فاتيكيوتس، "تاريخ مصر الحديث"،

Vatikiotis, Modern History of Egypt, 387

تمت الموافقة على الدستور وانتخاب الرئيس فى ٢٣ يونيو ١٩٥٦. وأدت أزمة السويس إلى تعطيل انتخاب المجلس القومى حتى يوليو ١٩٥٧.

(٢٧) نص برقية وكالة الأنباء إلى لندن، ١٩ يناير ١٩٥٥.

(٢٨) "المطالبة بحقوق المرأة فى القاهرة تكتفى بالحد الأدنى من المكاسب"، 'نيويورك تايمز'، ١٧ فبراير ١٩٥٦. وظهر، إلى جانب أخبار درية، مقال قصير عن رأى حكومة عبد الناصر فى "أن الجلاليب التى يلبسها الرجال والنساء فى مصر منذ قرون، غير عملية وغير صحية. وأمر السيد/ عبد اللطيف البغدادى بتشكيل لجنة مشتركة لتنظر فى أمر إلغاء الجلباب التقليدى للشعب المصرى واستبداله بزى قومى موحد".

(٢٩) سليفان، "النساء فى الحياة العامة المصرية"

Sulivan, Women in Egyptian Public Life, 39-45

الفصل الرابع عشر:

(١) أرسلت نسخ من هذا البيان إلى كافة وكالات الأنباء الأجنبية بالقاهرة.

(٢) عزيزة رجائى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(٣) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(٤) سيجر، "المقاومة". كان رفردى (١٨٨٩-١٩٦٠) ابن تاجر نبيذ مثقف، تعلم فى ناربون. وجاء إلى باريس سنة ١٩١٠ حيث التقى بجيوم ابولينير وماكس جاكوب وجورج براك. وتولى رئاسة تحرير مجلة 'الشمال والجنوب' عام ١٩١٩. ومن سنة ١٩٢٦ وحتى وفاته عاش منعزلاً بالقرب من دير لطائفة 'البندكتين' فى 'سوليم' القريبة من مدينة 'لى مان'. وكتب عنه ر.ر. هوبرت يقول: "أدخل رفردى على الشعر الشخصية المبعثرة، والمنظور التعددى وأشكال أخرى لعدم الاستمرارية، أصبحت كلها أساسية فى شعر ما بعد الحداثة. وقاده الشعر عبر طرق وعرة ومظلمة، فلم يحظ بالراحة التى كان يسعى إليها الصوفيون" ("رفردى"، 'معجم الأدب العالمى').

(٥) أمينة السعيد، "تجارب".

(٦) "مدافعة مصرية عن حقوق المرأة تبدأ إضرابها عن الطعام"، 'نيويورك تايمز'، ٨ فبراير ١٩٥٧.

(٧) وجاء فى جريدة 'لوموند' بتاريخ ٩ فبراير ١٩٥٧ خبر عنوانه "زعيمة نسائية مصرية تبدأ الإضراب عن الطعام لتضع حداً لديكتاتورية ناصر". أما جريدة 'فرانس سوار' فنشرت "مؤسسة 'بنات النيل' تضرب عن الطعام"، ٩ فبراير ١٩٥٧.

(٨) "الزعيمة النسائية المصرية مستمرة فى الإضراب عن الطعام"، 'نيويورك تايمز'، ١١ فبراير ١٩٥٧.

(٩) كتب ريمون ميليه فى جريدة 'الفيجارو' فى ١٢ فبراير ١٩٥٧ "إضراب عن الطعام تقوم به مطالبة مصرية بحق التصويت للمرأة: نذير شؤم لعبد الناصر".

(١٠) "المضربة عن الطعام تعود إلى بيتها"، 'نيويورك تايمز'، ١٧ فبراير ١٩٥٧.

(١١) "الزعيمة النسائية فى القاهرة تنهى إضرابها"، 'نيويورك تايمز'، ١٨ فبراير ١٩٥٧.

(١٢) راجية رجب، لقاء شخصى فى ٣١ مايو ١٩٨٦.

(١٣) نفس المرجع السابق.

(١٤) " " " .

(١٥) جلال الحمامصى، لقاء شخصى فى ٩ فبراير ١٩٨٦.

(١٦) شفيقة الحمامصى، حديث شخصى، ١٤ نوفمبر ١٩٨٨.

(١٧) إنجى أفلاطون، لقاء شخصى، ٢١ نوفمبر ١٩٨٦.

(١٨) منيرة قاسم، حديث شخصى، ١٠ ديسمبر ١٩٨٦.

(١٩) وثيقة غير مؤرخة، وغالبا ما تكون قد وُزعت بعد أيام من قيام درية بحركة الاحتجاج.

(٢٠) أمينة السعيد، "تجارب".

(٢١) سمير صبحى، "درية شفيق".

الفصل الخامس عشر:

(١) تقدمة، "خارج الزمن".

(٢) درية شفيق، "كلمة صغيرة"، 'ليجيبسيين".

(٣) كل القصائد السابقة من "خارج الزمن"، وهى مجموعة لم تنشر لقصائد كتبتها وترجمتها درية شفيق خلال السنوات الثمانى عشرة التى عاشتها فى شبه عزلة.

(٤) مصطفى أمين، "الزعيمة الجميلة"، ص ٥٩.

(٥) عزيزة رجائى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(٦) مصطفى أمين، "الزعيمة الجميلة"، ص ٦١.

(٧) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦. من الواضح أنهما تصالحا قبل أن تنتهى مدة العدّة.

(٨) تشير درية شفيق هنا إلى خطابها الذى أرسلته إلى داج همرشولد، أمين عام الأمم المتحدة، وهو خطاب ضمنته 'مانيفستو' شخصى عن حرية الإنسان.

(٩) يقول سيجر "إن موضوع قصيدة اليوار وحياته كلها تتلخص فى السطرين التاليين:

'من أجل طلب العلا/صرخة صوتى لها صدى'. وفى أشهر قصائده عن الحرب، 'الحرية' (١٩٤٢)، كتب عن حمّى الحرية السائدة، والبحث عنها فى كراريس المدارس وفى الأدغال والفيافى وفى كفافه

اليومى، يخط كلمة الحرية على صفحة الشمس الصاعدة وفى البحار وعلى قمم الجبال." ('المقاومة'). وقد اشترك اليوار مع بريتون وأراجون فى العشرينيات فى إنشاء حركة السريالية فى فرنسا: يستثير قوة البصيرة الممتدة من خلال صور لفظية تثبت النظرية القائلة إن هدف السريالية ليس إبداع صور غير مألوفة قدر ما هو تعزيز القوة على الرؤية، على كشف ما لا يُرى. وهو يكتب أساساً عن الحب، وتمجيد المرأة، القوة الأنثوية الخالدة. كما كتب قصائد منثورة ربط فيها المحسوس بالملموس على غرار الرمزيين. هو رفيق لبريتون، وهو أيضا وريث بودلير وفرلين فى شفافية تعبيره وثراء المعانى التى يتوصل إليها عبر بساطة التعبير اللغوى. وكان يشارك السرياليين فى إيمانهم بضرورة الثورة وفى كفاحهم من أجل التحرر السياسى والاجتماعى والجنسى" (معجم كولومبيا), وفى وقت ما خلال "منفاها الداخلى"، كتبت درية قصيدة منثورة طويلة تحيى فيها اليوار أسمتها تارة "الحرية" وتارة "التكفير" وتارة أخرى "المسيح الأحمر".

(١٠) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(١١) نفس المرجع السابق.

(١٢) عزيزة رجائى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(١٣) نفس المرجع السابق.

(١٤) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(١٥) محمد زكى عبد القادر، "ذكريات"، 'الأهرام'، ٢٢ سبتمبر ١٩٧٥.

(١٦) بيير سيجر، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(١٧) نفس المرجع السابق.

(١٨) ناتنج، 'ناصر'. Nutting, Nasser, 378

(١٩) نفس المرجع السابق.

(٢٠) " " .

(٢١) عزيزة رجائى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(٢٢) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(٢٣) عن تفاصيل المعتقلات السياسية فى عهد ناصر، أنظر شريف حتاته، "الجفن الحديدى"

Sherif Hetata, The Iron Eyelid.

(٢٤) عزيزة رجائى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(٢٥) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(٢٦) مصطفى أمين، "الزعيمة الجميلة"، ص ٦٦.

(٢٧) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(٢٨) نفس المرجع السابق.

(٢٩) نفس المرجع السابق.

(٣٠) حديث شخصى مع واحدة من معارف درية المصريات، كانت هـــى نفسها عضوا فى جماعة كريشنا مورتى بالهند.

(٣١) مصطفى أمين، "الزعيمة الجميلة"، ص ٦٦.

(٣٢) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(٣٣) نفس المرجع السابق.

(٣٤) نانى مبارك، "رسائل القراء"، 'أخبار اليوم'، ١٤ يونيو ١٩٧٥.

(٣٥) أمينة السعيد، "تجارب".

(٣٦) عزيزة رجائى، حديث شخصى، سبتمبر ١٩٨٦.

(٣٧) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(٣٨) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦ وعزيزة رجائى فـــى سبتمبر ١٩٨٦.

(٣٩) سنية شعراوى، حديث شخصى، ٢٣ يناير ١٩٨٦.

(٤٠) مصطفى أمين، "الزعيمة الجميلة"، ص ٦٦.

(٤١) الجدة المذكورة هى حماة جيهان. الأحد كان يوم درية، والثلاثاء يــوم نور والجمعة يوم الجدة.

(٤٢) جيهان رجائى، حديث شخصى، أكتوبر ١٩٨٦.

(٤٣) فاضل قصبجي، حديث شخصى، نوفمبر ١٩٩٢.

(٤٤) مصطفى أمين، "الزعيمة الجميلة"، ص ٦٨.

الفصل السادس عشر:

(١) فاطمة عبد الخالق، "درية شفيق، الرجل الوحيد فى مصر"، الأهـرام، ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥.

(٢) عن لسان محمد زكى عبد القادر، 'الأهرام'، ٢٣ سبتمبر ١٩٧٥.

(٣) عن لسان أحمد محمد طه، كما ذكرته سهير عبد الستار فى "دريـــة شفيق تطلب نشر أعمالها"، 'الاثنين'، ٢٣ سبتمبر ١٩٧٥.

(٤) أمينة السعيد، "تجارب".

(٥) عبد الحليم، "د. درية شفيق"، ص ٥٨.

(٦) ليتا جلاد، "أدعوكم ..."، 'جورنال ديجيبت'، ٢٢ سبتمبر ١٩٧٥.

Lita Gallad, "Je vous invite," Journal d'Egypte, Sep. 22, 1975.

(٧) جلاد، "زمن جديد، زمن ديمقراطى: السادات بنفسه كان أكبر دعايـــة للمنشورات السرية"، 'جورنال ديجيبت'، ٦ أكتوبر ١٩٦٩.

(٨) مديحة، "زعيمة سبقت زمنها"، 'روز اليوسف'، ١٢ أكتوبـر ١٩٧٥. أنظر الفصل الثالث عشر.

(٩) خطاب من السيدة حرم لبيب حبشى إلى جيهان رجائى، ٢٢ سـبتمبر ١٩٧٥. وكانت المدير المصرى لمركز البحوث الأمريكى فى مصر فى فترة انقطعت فيها العلاقات الدبلوماسية بين مصر وأمريكا. وكان زوجها، لبيب حبشى، من علماء المصريات المرموقين.

(١٠) راجية رجب، لقاء شخصى، ١٤ يونيو ١٩٨٦.

(١١) بيير سيجر، لقاء شخصى، ١٣ سبتمبر ١٩٨٦.

(١٢) لويس أراجون، 'أورليان'، الفصل ٣٧. وأجد مفارقة تدعو للسـخرية أن يختار سيجر الشاعر أراجون (١٨٩٧-١٩٨٢) باعتباره الشـاعر الأقرب إلى التعبير عن الحياة الداخلية لدرية شفيق. فمـــن الناحيـــة السياسية، كان أراجون ودرية على طرفى نقيض. أراجون - واحـــد من مؤسسى الحركة السريالية فى فرنسا فى العشـــرينيات - انضـــم للحزب الشيوعى سنة ١٩٢٧، وارتبـــط بـــإلزا تريوليـــه (١٨٩٦-

١٩٧٠)، وكانت كاتبة من أصل روسى، فأثرت عليه حتى ابتعد عن السريالية وناضل من أجل الثورة الروسية تحت راية الواقعية الاشتراكية. وكتب قصيدة عنوانها 'الجبهة الحمراء'، دفعت بالبوليس الفرنسى إلى القبض عليه بتهمة التحريض على القتل وعلى التمرد فى الجيش.

(أنظر: لويس دادا يصبح أحمراً Lewis, Dada Turns Red)

(١٣) سيجر، لقاء شخصى، ١٣ سبتمبر ١٩٨٦.

(١٤) نفس المرجع السابق.

(١٥) عن لسان إما جولدمان فى "فالك، الحب والفوضى وإما جولدمان، الغلاف.

Falk, Love, Anarchy and Emma Goldman, Frantispiece.

(١٨) سيجر، تقدمة لـ 'مع دانتى فى الجحيم'، بقلم درية شفيق.

(١٩) فنوليو عبد العال

Fenoglio Abdel Aal, Défense et Illustration, 37

(١٨) أنظر: هامش (١٦).

(١٩) روز، 'امرأة أديبة' Pyhllis Rose, A Woman of Letters, VIII

SELECTED BIBLIOGRAPHY

- Abd al-Halim, Ahmed Zaki , "Dr. Doria Shafik: The Piece of Candied Chestnut and Eighteen Years of Oblivion" (in Arabic). *In Nis'a fawq al- Qima* (Women above the pinnacle), 57-64, Cairo: Dar al-Faisal, 1987.

- Abd al-Wahab, Muhammad F. *Al-Harakat al- Nissa'iyya* fil-Sharq wa silatuha bi-isti'mar *wa - sahyuniyya al-alimiyya* (The woman's movement in the East and its connection to colonialism and world Zionism). Cairo: Dar al-'itsam, 1979.

- Ahmed, Leila. Women and Gender in Islam: *Historical Roots of a Modern Debate.* New Haven: Yale University Press, 1992.

- Alloula, Malak. *The Colonial Harem.* Translated by M. and W. Godzich. Minneapolis:University of Minnesota Press, 1986.

- Amin, Mustapha. "The Beautiful Leader" (in Arabic). In *Masa'il Shakhsiyya* (Personal matters), 59-68. Cairo: Tihama Publications, 1984.

- Amin, Qasim. *Al- mar'ah al-jadidah* (The new woman). Cairo: n.p., 1901.

—. *Tahrir al-mar'ah* (The emancipation of women). Cairo: Dar al-Ma'arif, 1899. -Antonius, George. *The Arab Awakening.* Beirut: Khayats, 1938.

- Badran, Margot, and Marilyn Cooke, eds. *Opening the Gates: A Century of Arab Feminist Writing.* London: Virago Press, 1990.

- Badran, Margot. "Dual Liberation: Feminism and Nationalism in Egypt, 1870. 1925" *Feminist Issues* 8 (1988): 15-34.

— "The Feminist Vision in the Writings of Three Turn-of-the-Century Egyptian Women". *"British Journal for Middle Eastern Studies Bulletin* 15, nos. 1-2 (1988): 11-20.

- Baker, Raymond. *Egypt's Uncertain Revolution under Nasser and Sadat.* Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1978.

- Baron, Beth. *Women's Awakening in Egypt: Culture, Society and the Press.* New Haven: Yale University Press, 1994.

- Beck, Lois, and Nikki Keddie, eds. *Women in the Middle Eastern World.* Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1978.

- Berque, Jacques. *Egypt: Imperialism and Revolution.* Translated by J.Stewart. London: Faber, 1972.

al-Bishri, Tareq. *Al-Harakah al-siyassiyyah fi Misr, 1945-1952.* (The political movement in Egypt, 1945-1952). Cairo: al-Hayah al-Misriyyah al-'Ammah lil Kitab, 1972.

- Botman, Selma. "The Experience of Women in the Egyptian Communist Movement, 1939 - 1954". *Women's Studies International Forum 11, no. 2 (1988) : 117 - 26.*

- Capart, Jean, "Revue." *Chronique d'Egypte* : *Bulletin Périodique de la Fondation Egyptologique Reine Elisabeth*, no. 31 (January 1941): 96.

- Dekmejian, R.Hrair. *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics.* Albany: State University of New York Press, 1971.

- Durrell, Lawrence. *The Alexandria Quartet.* London: Faber and Faber, 1959. Eliot, T.S. Four Quartets. New York: Harcourt, Brace, 1943.

"Eluard, Paul," In *Columbia Dictionary of Modern European Literature*, 229. New York: Columbia University Press, 1981.

- Falk, Candace. *Love, Anarchy and Emma Goldman.* New York: Holt, Rinehart and Winston, 1984.

- Fenoglio Abd al-Aal, Irene, *Défense et Illustration de L'Egyptienne: Aux Débuts d'une Expression Féminine.* Cairo: Cedej Publications, 1988.

- Flaubert, Gustave. *Flaubert in Egypt: : A Sensibility on Tour.* Translated and edited by Francis Steegmuller. Boston: Little, Brown, 1972.

- Forster, E.M. *Alexandria: A History and a Guide.* New York: Doubleday, 1961.

- Furth, P.*American Cassandra: The Biography of Dorothy Thompson.* Boston: Little, Brown, 1990.

- Gallagher, Nancy. *Egypt's Other Wars.* Syracuse: Syracuse University Press, 1990. -al-Gohari, Muhammad M. *Al-Ikhwat al-Muslimat wa bina al-Usrah al-Quranyah* (The Muslim sisters and the foundation of the Quranic family). Cairo: Dar al-Dawah, 1980.

- Gunther, John. *Inside Africa.* London: Hamish Hamilton, 1955.

- Hatem, Mervat. "The Enduring Alliance of Nationalism and Patriarchy in the Personal Status Laws." *Feminist Issues* 6, no.1 (1986): 19-43.

— "Through Each Other's Eyes: Egyptian, Levantine-Egyptian and European Women's Images of Themselves and of Each Other (1862-1920)". *Women's*

Studies International Forum 12, no. 2 (1989): 183-98.

- Helys, Marc. "Commentary." *L'Egyptienne*, no. 111 (March 1935): 7.

- Hetata, Sherif. *The Iron Eyelid.* London: Zed Books, 1989.

Heyworth-Dunne, James. *Introduction to the History of Education in Modern Egypt.* London: Frank Cass, 1968.

- Hill, Enid. *Al-Sanhuri and Islamic Law.* Cairo Papers in Social Science 10,no 1 (1987).

- Hourani, Albert. *Arabic Thought in the Liberal Age.* London: Oxford University Press, 1967.

- Hubert, R. R. "Reverdy." In *Encyclopedia of World Literature in the Twentieth Century.* New York: Continuum, 1989 : 26-27.

- Husayn, Taha. *An Egyptian Childhood.* Cairo: American University in Cairo Press, 1990.

—. *The Future of Culture in Egypt.* Translated by Sydney Glazer. Washington, D.C.: American Council of Learned Societies, 1954.

——. *A stream of Days: A Student at al-Azhar,* Translated by E.H. Paxton. London: Longmans, Green, 1948.

- Khalifa, I. *Al-Harakah al-Nissa'iyah al-haditha fi-Misr* (The modern woman's movement in Egypt). Cairo: Dar al-Kuttub, 1973.

- Khater, Akram, and Cynthia Nelson. "al-Harakah al-Nissa'iyah: The Women's Movement and Political Participation in Modern Egypt". *Women's Studies International Forum* 11 no. 5 (1988): 465-93.

- Lacouture, Jean, and Simone Lacouture. *Egypt in Transition. London*: Methuen, 1958.

- Lane, Edward. *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians.* London: East-West Publications, 1978.

- Lane-Poole, Stanley. *Social Life in Egypt* : *A Description of the Culture* and Its *People.* New York: Collier, 1894.

- Lewis, Helen. *Dada Turns Red* : *The Politics of Surrealism.* Edinburgh: Edinburgh University Press, 1990.

- Mansfield, Peter, *Nasser's Egypt.* London: Penguin Classics, 1965.

- Mernissi, Fatma. *Behind the Veil : Male-Female Relations in Marocco.* Cambridge: Schenckman, 1975.

- Mill, J.S. *The Subjection of Women.* London: Oxford University Press, 1969.

- Mills, C.W. *The Sociological Imagination.* New York: Grove Press., 1961.

- Mitchell, Richard P. *The Society of the Muslim Brothers,* London: Oxford University Press, 1969.

- Moscatelli, Jean. *Poètes en Egypte* (Poets in Egypt). Cairo: Les Editions de l'Atelier, 1955.

- Nabaraoui, Ceza. "Réponse aux Réactionnaires." *L'Egyptienne,* no, 83 (1932):2-8.
—."Echos d'Orient" (Echoes from the Orient). *L'Egyptienne,* no, 163 (March 1940): 34

- Naguib, Muhammed. *Egypt's Destiny.* New York: Doubleday, 1955.

- Nasser, Gamal Abdel. *The Philosophy of the Revolution.* Introduction by Dorothy Thompson. Cairo: National Publication House, n.d.

- Nelson, Cynthia, "Changing Roles in a Changing Society," *Anthropological Quarterly* 41, no. 2 (1968): 57-77.

—, "Islamic Tradition and Women's Education: The Egyptian Experience." In *World Yearbook of Education: Women and Education,* edited by Sandra Hacker et al., 211-26. New York: Nicholar Publishing, 1984.

—, "The Voices of Doria Shafik: Feminist Consciousness in Egypt, 1940-1960." *Feminist Issues* 6, no. 2 (1986): 15 - 31.

- Nerval, Gérard de. *Journey to the Orient.* Translated by N. Glass, New York: New York University Press, 1972.

- Nowaihi, Mohammed. "Changing the Law on Personal Status in Egypt within a Liberal Interpretation of the Shari'a". *Middle East Review* 11, no. 4 (Summer 1979): 40-49.

- Nutting, Anthony. *Nasser,* London: Constable, 1972.

- Perrault, Gilles. *A Man Apart: The Life of Henri Curiel* : London: Zed Books, 1987.

- Pinchin, Jane L.*Alexandria Still.* Cairo: American University in Cairo Press, 1977.

- Ragai, Nour al-Din. *De la condition légale des sociétés anonymes étrangères en Egypte* (On the legal condition of anonymous foreign companies in Egypt). Paris: Les Presses Modernes, 1939.

- Reverdy, Pierre. *Grande Nature.* Paris: Editions Seghers, 1925.

- Rodinson, Maxime. *Israel and the Arabs*: Baltimore: Pelican Books, 1968.

- Rose, Phyllis, *Jazz Cleopatra: Josephine Baker and Her Time.* New York: Doubleday, 1989.

—. *A Woman of Letters: A Life of Virginia Woolf.* New York: Harcourt, Brace, 1978.

-al-Sadat, M. Anwar. *In Search of Identity.* New York: Harper and Row, 1978.

-Said, Edward. *Orientalism.* New York: Pantheon Books, 1978.

—. *The Question of Palestine.* New York: Pantheon Books, 1979.

—.al-Sa'id, Amina. "Experiences from the Tape of Memories" (in Arabic). *Akhbar al Yawm*, Nov. 4, 1989,3.

—. al-Sayyid-Marsot, Afaf Lutfi. *Egypt and Cromer : A Study of Anglo-Egyptian Relations.* London: John Murray, 1968.

—. *Egypt's Liberal Experiment*: 1922-1936. Berkeley: University of California Press, 1977.

—. "The Revolutionary Gentlewoman in Egypt." In *Women in the Muslim World*, edited by Lois Beck and Nikki Keddie, 261-76. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1978.

- Seghers, Pierre. *Chanson et Complaintes.* Paris: Editions Seghers, 1958.

—, *Les Pierres.* Paris: Editions Seghers, 1958.

—, *Piranese : Poems de Pierre Seghers.* Paris: Editions Seghers, 1960.

—, La Résistance et ses poètes. Vol. 1,*France* 1940-1945; vol. 2, *Choix des poèmes* Paris: Marabout Editions, 1978.

- Shafik, Doria, *L'Amour perdu* (The lost love). Paris: Pierre Seghers, 1954.

—, *L'Art pour l'art dans l'Egypte antique* (Art for art's sake in ancient Egypt). Paris: Paul Geuthner Press, 1940.

—. *Avec Dante aux Enfers* (With Dante in Hell). Paris: Pierre Fanlac, 1979.

—. *la Bonne Aventure* (The pleasant adventure). Paris: Pierre Seghers, 1949.

—. "Egyptian Feminism." *Middle East Affairs* 1 (Aug.-Sept. 1952): 233-38.

—. "L'Enfant du Nil" (Child of the Nile). *L'Egyptienne*, no. 53 (December 1929): 25-27.

—. *L'Esclave Sultane* (The slave Sultana). Paris: Editions Latines, 1952.

—. *La Femme et le droit religieux de l'Egypte contemporaine* (Women and religious law in contemporary Egypt). Paris: Paul Geuthner Press, 1940.

—. *La Femme nouvelle en Egypte* (The new woman in Egypt). Cairo. Schindler Press, 1944.

—. "Une Femme a-t-elle le droit de philosopher?" (Does a woman have the right to philosophize?). *L'Egyptienne*, no. 64 (December 1930): 18-28.

—. *Al-Kitab al-abiyad li huquq al-mar'ah al-siyasiyah* (The white book on the political rights of women). Cairo: Maktabat al-Sharqiyya, 1953.

—. "Hors-Temps." Unpublished collection of poems, n.d. Private collection of Jehane Ragai and Aziza Ellozy.

—. *Larmes d'Isis* (Tears of Isis). Paris: Pierre Fanlac, 1979.

—. "Ma Grandmère et moi" (My grandmother and me). *La Femme Nouvelle* (December 1947): 56-57.

—. "Memoirs." Unpublished manuscripts, 1956 (in English) ; 1960 (in French); 1975 (in English). Private collection of Jehane Ragai and Aziza Ellozy.

—. "Un Petit Mot" (A small word). *L'Egyptienne*, no. 35 (June 1928): 12-14.

—. "Rêverie d'une femme d'aujourd'hui" (Dream of a young woman of today). *L'Egyptienne*, no. 82 (1932): 15-19.

—, Rihlati Hawla al-'Alam (My trip around the world). Cairo: Maktabat al-Sharqiyya, 1995.

Shafik, Doria, and Ibrahim Abdu. *Al-Mar'ah al-Misriyah min al-Fara'niah ila al-Yawm* (The Egyptian woman from the pharoahs until today), Cairo: Maktabat al-Misr, 1955.

—. *Tatawwur al-Nahda al-Nisa'iyah fi Misr* (The development of the renaissance of women in Egypt). Cairo: Maktabat al-Tawakul, 1945.

—. Sha'rawi, Huda. "Eulogy to Qasim Amin." *L'Egyptienne*, no. 35 (June 1928): 8-12.

—. *Harem Years: The Memoirs of an Egyptian, Feminist.* Translated by Margot Badran, London: Virago Press, 1986.

—. Stowasser, Barbara. "Liberated Equal or Protected Dependent? Contemporary Religious Paradigms on Women's Status in Islam". *Arab Studies Quarterly* 9, no. 3 (Summer 1987): 260 - 83.

—. Stuhlman, Gunther, ed. *The Diaries of Anais Nin: 1931-1934*, New York: Swallow Press, 1966.

—, ed. *The Diaries of Anais Nin:* 1934-1939. New York : Swallow Press, 1967.

—. Subhi, Muhammed Khalil, *Tarikh al Hayat al-Niyabiya Fi Misr.* 6 vols. Cairo: Matbaat Dar al-Kutub al-Misriyya, 1939.

—. Subhi, Samir. "Doria Shafik: Her Dissertation *Women and Islam*" (in Arabic). Nifs *al-Dunya*, no. 2 (December 1994): 2.

—. Sullivan, Earl L.*Women in Egyptian Public Life.* Syracuse: Syracuse University Press, 1986.

—. Vatikiotis, P.J. *The Modern History of Egypt.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1969.

White, Hayden. "The Burden of History." In *Tropics of Discourse*, edited by Hayden White, 27-50. Baltimore, Md.: Johns Hopkins University Press, 1960.

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس ،	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

٢٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٢٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف	ميجل دى ترباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت : د. أشرف على دعدور

١٠٧ - صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر | نخبـة | ت : محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي | مجموعة من النقاد | ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه | جون بولوك وعادل درويش | ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي | حسنة بيجوم | ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة | فرانسيس هيندسون | ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ | أرلين علوى ماكليود | ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد | سادى بلانت | ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع | وول شوينكا | ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده | فرچينيا وولف | ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) | سينثيا نلسون | ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام | ليلى أحمد | ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر | بث بارون | ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق | أميرة الأزهرى سنبل | ت : بإشراف/ رؤوف عباس

(تحت الطبع)

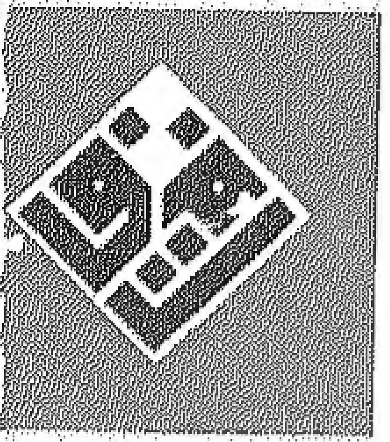
المختار من نقد ت . س . إليوت
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
الأدب المقارن
الفجر الكاذب
الشعر الأمريكي المعاصر
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
الشرق يصعد ثانية
الجانب الديني للفلسفة
الولاية
ثقافة العولمة
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
حيث تلتقى الأنهار
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
المدارس الجمالية الكبرى
التحليل الموسيقى
الإسكندرية : تاريخ ودليل
مختارات من الشعر اليوناني الحديث
بارسيفال
اثنتا عشرة مسرحية يونانية
مصر القديمة التاريخ الاجتماعي
الخوف من المرايا
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل
عدالة الهنود
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية
أهرام الفراعنة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
صاحبة اللوكاندة
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجت
العنف والنبوءة
خسرو وشيرين
العمى والبصيرة (مقالات في بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون في الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
مختارات من المسرح الإسباني المعاصر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٥٨١ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 178 - 1)





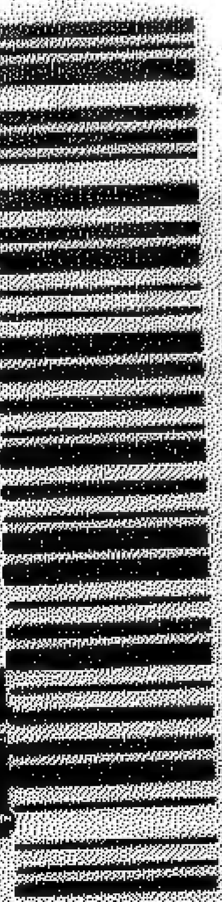
DORIA SHAFIK Egyptian feminist

A WOMAN APART

CYNTHIA NELSON

هذه قصة امرأة مصرية أرادت لحياتها أن تكون «تحفة فنية» . هى قصة كفاح امرأة ، وحدها ، فى وجه قوى الرجعية فى مجتمعها - ثقافية كانت أم دينية أم سياسية - تلك التى كانت تعارض مساواة المرأة مساواة كاملة . هى قصة لقاء بين الوعى النسائى الوليد لامرأة ، وعى شكلته القيم الإسلامية والإنسانية ، وبين صحوة الهوية القومية لمجتمعها ، تلك الصحوة المنبثقة عن الواقع التاريخى لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية . كانت درية شفيق ترغب فى «خوض تجربة الحياة كاملة» ، أن تكون بطلة جماهيرية فى مجتمع ينظر إلى المرأة نظرة تحصرها أساسًا فى دور السند والمعين والمرشد الأخلاقى الأمين للأسرة . أما هى ، فكانت تستمد قوتها وأهميتها وكرامتها وعزتها من إنجازاتها بحثًا عن الحرية .

لقد أعربت درية شفيق عن رؤيتها النسائية كتابةً ، فلم تكتف بإصدار مجلتين مرموقتين للمرأة والإشراف على تحريرهما ، بل كتبت وأسهمت فى كتابة العديد من الكتب بالفرنسية وبالعربية ، كتبت فى التاريخ ، وفى التنمية ، وعن نهضة الحقوق الاجتماعية والسياسية للمرأة المصرية . وأنشأت منظمة نسائية وحزبًا سياسيًا تتحدى بهما قلاع الرجال ، فعلت ذلك قبل الثورة وبعدها ، فشكلت وعيًا سياسيًا من خلال استراتيجية مواجهة : اقتحمت البرلمان المصرى فى محاولة لخوض المعركة الانتخابية من الباب الخلفى ، ونظمت الاعتصامات احتجاجًا على الاحتلال البريطانى لمصر ، وأخيرًا نظمت إضرابًا عن الطعام دام ثمانية أيام للمطالبة بحقوق المرأة . وعقدت لقا... لا مع رئيس حكومتها فحسب ، ولكن مع رؤساء الهند وسيلان ولبنان والعراق و... تحدثت فيها صراحة عن «حقوق المرأة» ، حتى إنها ندذت علنًا بالرئيس الباك... عندما اتخذ زوجة على زوجته .



الغلاف : عماد حليم